

شتاء السخط

جون [illegible]ينبك



ترجمه : [illegible]الدين مصطفى

راجعه : [illegible] حبيب

الناشر

مؤسسة سجل العرب

الالف كتاب

(٤٧٤)

شتاء السخط

باشراف
الادارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٤٧٤)

شتاء السخط

تأليف
جون شتاينبك

ترجمة
نور الدين مصطفى

راجعه
مصطفى حبيب

مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا بالقاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩

١٩٦٣

هذه ترجمة كتاب :

THE WINTER OF OUR DISCONTENT

تأليف :

JOHN STEINBECK

القسم الأول

الفصل الأول

عندما هل صباح شهر إبريل المشرق الذهبي مارى هولى فأيقظها من نومها ، استدارت ناحية زوجها ، فرأته يجذب لهـا بأصابعه الصغيرة فماً أشبه بفم الضفدع .

قالت : « أنت أحمق ، يا أيثان ، فقد تملكتك عبقريتك الداخرة » .

— « أوه ، قولى لى يا فأرتى الصغيرة ، هل تقبلينني زوجاً » ؟

— « هل استيقظت بهذا الحمق » ؟

— « إن السنة تبدأ من يوم ، واليوم من صباح » .

— « أعتقد أنك استيقظت بهذا السخف . أتذكرين أن اليوم هو يوم الجمعة الحزينة » ؟

فقال بصوت أجوف : « إن الرومان الأقذار يصطفون استعداداً لصعود الجلجثة » .

« لا تنتهك المقدسات . هل سيدعك مارو للو تغلق المحل فى الحادية عشرة؟ »

— « يازهرتى العزيزة - إن مارو للو كاثوليكى ومهاجر قذر . وقد لا يبين على الإطلاق . سأقفل المحل من الظهر حتى ينتهى تنفيذ حكم الإعدام . »

— « ذلك كلام الآباء المغتربين ، وهو ليس كلاماً مهذباً . »

— « هراء فذلك كلام أخذته عن أهل أمى ، فهو كلام قراصنة . لقد كان فعلا تنفيذ حكم إعدام كما تعرفين » .

— « لم يكونوا قراصنة . أنت نفسك قلت إنهم كانوا صيادى حيتان ،

وأنت نفسك قلت إنه كانت لديهم خطابات مما تدعوه ـ المؤتمر الأوربى » .

— « لقد اعتبرتهم السفن التى أطلقوا عليها النار قراصنة مثلما اعتبر جنود الرومان صلب المسيح ، تنفيذاً لحكم إعدام » .

— « هاقد أثرت ثائرتك ، ولكنى أوثر أن تكون أحمقاً » .

— « إنى أحمق ، والجميع يعلمون ذلك » .

— « أنت دائما تحيرنى . ولك كل الحق فى أن تفخر ـ ففى أسلافك يجتمع الآباء المغتربون والربابنة من صيادى الحيتان فى عائلة واحدة » .

— « وهل لهم هذا الحق » ؟

— « ماذا تعنى ؟ »

— « هل يحق لأسلافى العظام أن يفخروا ، حين يعرفون أنهم أنجبوا موظفاً لعيناً فى محل بقالة ملعون يمتلكه مهاجر أوروبى قذر ، فى بلدة كانوا يمتلكونها عادة » ؟

— « لست كذلك ، بل أنت أقرب إلى المدير ، تمسك الحسابات ، وتودع النقود فى المصرف ، وتطلب البضائع » .

— « بالتأكيد . كما أنى أكنس المحل ، وأحمل القمامة ، وأمرغ جبهتى فى التراب من أجل ماروللو . ولو كنت قطة ملعونة لقمت أيضا بصيد فيران مارولو » .

فطوقته بذراعيها . وقالت : « لنظل على حماقتنا وأرجوك لا تتفوه بكلمات نابية فى يوم الجمعة الحزينة فأنا أحبك » .

وبعد برهة قال : « طيب ! ذلك ما يقوله جميعاً . ولكن لا تظنى يا حلوتى ، أن هذا القول يسمح لك بالنوم مع رجل متزوج » .

— « كنت أوشك أن أحدثك عن الأولاد » .

— « هل دخلوا السجن ؟ »

— « ها أنت قد عدت لحماقتك مرة أخرى . قد يكون من الأفضل أن يخبراك هما » .

— « ولم لا تقولين أنت » ؟

— « ستقرأ مارجى يانج هنت طالعى اليوم مرة أخرى » .

— « كما تقرأ فى كتاب ؟ من تكون مارجى يانج هنت ؟ من هى حتى يندفع العشاق نحوها — ؟ »

— « إنك تعرف أننى لو كنت غيورة — أقصد أنهم يقولون . . عندما يتظاهر رجل بأنه لا يكترث بفتاة جميلة — »

— « أوه ، هل هذه فتاة ؟ لقد تزوجت رجلين » .

— « لقد مات الثانى » .

— « أريد إفطارى . أتصدقين ذلك الهراء ؟ »

— « حسنا ، لقد رأت مارجى أخى فى الورق . وقالت : هناك شخص عزيز وقريب » .

— « سينال شخص قريب وعزيز على رفسة ، إذا لم تتحامل على نفسها — »

— « ها أنا ذاهبة — أتريد بيضاً ؟ »

— « أظن ذلك . لماذا يسمونها الجمعة الحزينة ؟ وماوجه الحزن فيها ؟ »

فقالت : « أف ، منك ! أنت تسخر دائماً » .

* * *

كانت القهوة قد أعدت ، والبيض قد وضع فى طبق وإلى جواره الخبز المحمص (التوست) ، حين تسلل إيثان آلان هولى إلى الركن المخصص للطعام قرب النافذة ، وقال :

— « أشعر أننى فى حالة طيبة . لم يسمونها الجمعة الحزينة ؟ »

فأجابته من عند الموقد : « إنه الربيع » .

— « جمعة الربيع ؟ »

— « بل حمى الربيع . هل أولئك هم الأولاد بالطابق العلوى ؟ »

— « يالها من فرصة عظيمة لأولئك الأوغاد الصغار الكسالى . فلنوقظهما ونجرهما . »

— ما أفظع كلامك حين تكون فى حماقتك . هل ستأتى إلى البيت فى الفترة بين الثانية عشرة والثالثة ؟ »

— « كــلا » .

— « ولم لا ؟ »

— « بسبب النساء . اللائى يترددن على المحل . وقد يكون الدور على مارجى » .

— « والآن ياإيثان لاتقل كلاماً كهذا . فمارجى صديقة مخلصة ، وقد تنزع قميصها عن بدنها لتهبه لك » .

— « هكذا ؟ ومن أين جاءت بالقميص ؟ »

— « ها هو كلام الآباء المفترين مرة أخرى » .

— « أراهنك على أى شىء إننا قريبان . فى عروقها يجرى دم القراصنة » .

— « أوه ، لقد عدت لحمقك مرة أخرى . هاك القائمة كما جاءتنا » . ودسها في جيب الصدر .

« قد يبدو أن بها طلبات كثيرة . ولكن لا تنس أنها عطلة عيد الفصح — ولا تنس كذلك إحضار دستتين من البيض . لأنك ستتأخر » .

— « أعرف . وقد تفوتنى صفقة بخمسة وعشرين سنتا لماروللو . لماذا دستتين ؟ »

— « للتلوين . فقد طلبهما الآن ومارى أيلين بالذات . الأفضل أن تذهب » .

— « طيب يازهرتى — ولكن أليس بوسعى أن أصعد وأشبع آلان ومارى إيلين ضرباً ؟ »

— « أنت تفسدهما بتدليلك ، يا إيثان . وأنت تعرف أنك تفعل » .

— « وداعا ، يامركب الولاية » . قالها ، وصفق الباب الزجاجى وراءه ، وخرج إلى الصباح الأخضر الذهبى .

تطلع وراءه إلى البيت العتيق البديع ، بيت أبيه وجده المظيم بطلائه الأبيض وأركانه المتوازية ، وتلك الطاقة المروحية التى تعلو بابه الأمامى ، والرسوم المعمارية من طراز «آدم» ، ثم ذلك الممر الضيق الذى يسير بحذاء سقفه . لقد استقر البيت وسط حديقة ريانة بين أشجار الدرادار ، التى بلغ عمرها المائة عام ، وسمك سيقانها خاصرة رجل ، وتترنح بحملها من البراعم . لقد اتصلت رؤوس شجرات الدردار المغروسة فى شارع « إلم » ، واصفر لونها مبشرا بظهور أوراقها الجديدة . كانت الشمس قد تنحت بلونها عن مبنى المصرف ، وأخذت تلتمع على برج الغاز الفضى

وهى تثير رائحة القلق والملح الآتية من الميناء القديم .

فى تلك الساعة المبكرة ، لم يكن يوجد فى شارع «إلم» سوى شخص واحد هو كلب المستر بيكر الأحمر ، كلب مدير المصرف — المسمى رد بيكر ، والذى كان يتمشى فى عظمة وأناة ، متوقفا بين الحين والحين ليقشمم على جذوع الأشجار رائحة من سبقه من المارة .

— « صباح الخير ياسيدى . اسمى إيثان آلان هولى . لقد التقينا فى أثناء التبول » .

توقف رد بيكر ، وصادق على التحية بهزة بطيئة من ذيلة الطويل الشعر .

قال إيثان : « كنت أنظر فقط إلى بيتى . كانوا يتقنون فن البناء فى تلك الأيام » .

رفع رد رأسه ، ومد إحدى قائمتيه الخلفيتين ليحك ضلوعه بشكل عارض .

— « ولم لا ؟ كانوا يمتلكون المال . زيت الحيتان من البحار السبعة ، ومن القيطس . — ما هو من القيطس ؟ »

فاطلق رد زفرة معولة .

« أرى أنك لاتعرف . إنه زيت خفيف ، ذو رائحة حلوة كرائحة الورد ، يستخرج من تجويف رأس حوت الكاشالوت الضخم . اقرأ (موبى ديك) ، أيها الكلب . تلك نصيحتى اليك » .

رفع الكلب قائمته على مربط الجياد المصنوع من حديد الزهر قرب القناة .

وعندما استدار إيثان ليتابع سيره ، التفت وراءه وقال : « ثم أكتب تقريراً عن الكتاب ، فعلك تعلم ابنى . فهو لا يستطيع مجرد تهجى كلمة (قيطس) ، أو ـ أية كلمة أخرى » .

يخترق شارع إلم شارع هاى بزاوية ، بعد عمارتين من بيت إيثان آلان هولى العتيق . وفى منتصف الطريق إلى العمارة الأولى أخذت جماعة من العصافير الإنجليزية الشقيقة تتقاتل على العشب الجديد فى حديقة الجار ، لم تكن تلعب ، بل تتدحرج وتنقر وتسحل عيون بعضها البعض بوحشية وضراوة ، وتصخب صخباً شديداً ، لم ترمعه إيثان وهو يقترب . فوقف يرقب المعركة .

قال : « الطيور تتوافق فى أعشاشها الصغيرة ، فلم لا نستطيع نحن كذلك أن نتوافق ؟ ها كم حفنة من شعير الخيل . أنتم ياصغارى لا يمكنكم الاتفاق حتى فى صباح جميل كهذا . وأنتم الأوغاد الذين تتمتعوا بعطف القديس فرنسيس ! هش ! » وركض إليهم داقاً الأرض بقدميه ، وهبت العصافير وأجنحتها تبعث زئيرا هامسا ، وهى تشكو بمرارة فى صوت كصرير الأبواب . وقال إيثان فى إثرها : « دعونى أقول لكم هذا ! ستظلم الشمس فى الظهيرة ، وستغمر الأرض ظلمة ، ويتملككم الذعر » . ثم عاد إلى الرصيف ، وتابع سيره .

لقد صار بيت آل فليب العتيق الواقع فى العمارة الثانية نزلا ، وقد خرج من بابه الأمامى جوى مورفى ، صراف مصرف « فيرست ناشيونال » . خلل أسنانه ، وعدل صديريته (التاترسول) ، ثم قال لإيثان : « هاى . كنت على وشك زيارتك ، يامستر هولى » .

— « لم يسمونها الجمة الحزينة ؟ ».

— « إنها كلمة مشتقة من اللاتينية جودوس . جوديليوس ، جودوم » ومعناه قذرة » .

* * *

كان جوى يشبه الحصان ، ويبتسم كالحصان ، رافعاً شفته العليا الطويلة ليظهر أسناناً كبيرة مربعة . جوزيف باتريك مورفى ، أو الفتى جوى ـ ويسمى مورف ـ وكان معروفا فعلا فى نيوبايتون رغم أنه لم يفد إليها إلا منذ سنوات معدودة . كان دائم النكتة ، يفتح فمه ليلقيها دون أن تفصح عيناه عن شىء مثل لاعب البوكر ، ولكنه يصهل ضاحكا لنكات الغير . سواء سبق له أن سمعها أم لا . كان هذا المورف حكيماً ـ يعرف خبايا كل شىء ـ وكل شخص من المافيا إلى مونتباتن ، إلا أنه كان يبوح بهذه الخبايا بصوت يعلو باطراد ، وكأنه يتساءل . وكانت تلك اللهجة تبرىء نبرته من أى إدعاء ، وتجعل من سامعه شريكاً له ، فيصبح بوسعه أن يعيدها على أنها من عندياته . كان جوى قرداً ساحراً ـ مقامراً ، ولكن لم يره أحد يوماً يراهن ، وكان بارعاً فى مسك الدفاتر ، وصرافاً مدهشاً . وقد وثق مستر بيكر ، مدير مصرف فيرست ناشيونال ، بجوى ثقة تامة ، فترك له تصريف معظم أعمال المصرف . كان هذا المورف يعرف الجميع معرفة وثيقة ولم يناد أحد قط باسمه الشخصى . فايثان هو مستر هولى ، ومارجى يانج هنت هى مسز يانج هنت بالنسبة لجوى ، بالرغم من الهمس الذى دار عن علاقته بها . كان بلا عائلة ، وبلا علاقات ، ويسكن وحده فى غرفتين بحمام خاص فى منزل آل فليب العتيق ، ويتناول معظم

وجباته فى مطعم وبار فور ماستر . وقد كان ماضيه فى الأعمال المصرفية معروفاً لمستر بيكر والشركة المشرفة على المصرف ، وهو ماض لا تشوبه شائبة ، إلا أنه كانت للفتى جوى طريقة فى سرد أحداث وقعت لغيره ، بشكل يجعلك تشك فى أنها قد وقعت لجوى نفسه ، وإذا كان الأمر كما روى ، فلا بد أنه حضر هذه الأحداث فعلا . بل زاد من محبة الناس له ، أنه لا يستدين . وقد حافظ على العناية بنظافة أظافره ، وارتداء الملابس الأنيقة الفخمة ، فهو يلبس دائما قميصاً نظيفاً وحذاء ملمعا .

مضى الرجلان ببطء فى شارع إلم متجهين إلى شارع هاى .

— « طالما نويت أن أسألك .. هل لك صلة قرابة بالأميرال هولى ؟ »

وسأل إيثان : « ألا تقصد الأميرال هولس ؟ لقد سمعنا عن قباطنة كثيرين فى العائلة ولكنى لم أسمع قط عن أميرال » .

— « سمعت أن جدك كان قبطان سفينة لصيد الحيتان . وأظن الأمر اختلط فى ذهنى بالأميرال » .

قال إيثان : « فى بلدة كهذه توجد أساطير . مثل قولهم إن أهل والدى قاموا ببعض أعمال القرصنة فى طريق عودتهم إلى هنا ، وإن عائلة أمى جاءت مع مهاجرى الماى فلور » .

فقال جوى : « وإيثان آلان . بالله — هل لك به أيضا صلة قرابة ؟ »

فرد إيثان : « ربما ، بل لابد أن يكون الأمر كذلك . ياله من نهار — هل رأيت أبدع منه قط ؟ لأى سبب أردت رؤيتى ؟ »

— « آه ، نعم . أظنك تغلق المحل من الثانية عشر إلى الثالثة ، فهل تعد لى شطيرتين حوالى الحادية عشر والنصف ؟ سآتى لأخذهما. مع زجاجة لبن . »

— « ألن يغلق المصرف ؟ »

— « بلى ، سيغلق المصرف . أما أنا فلا . سيظل جوى الصغير هناك ، مشدوداً إلى الدفاتر ففى عطلة نهاية أسبوع ضخمة كهذه – يقوم كل فرد وكابه أيضا بصرف شيكات » .

فقال إيثان : « لم أفكر فى ذلك أبدا » .

— « أوه ، بالتأكيد . فهذا هو الحال فى عيد الفصح ، ويوم الشهداء ، وعيد الرابع من يوليو ، وعيد العمل – وأية عطلة نهاية أسبوع طويلة . ولو رغبت فى السطو على مصرف لفعلت ذلك تماماً قبل عطلة نهاية أسبوع طويلة . حينذاك تكون النقود موجودة هناك ، فى الانتظار » .

— « ألم تتعرض لحادث سطو ، ياجوى ؟ » .

— « كلا . ولكن لى صديق تعرض للسطو مرتين » .

- « وماذا قال عن ذلك ؟ »

- « قال إنه كان خائفاً . وكان يتلقى الأوامر فحسب . لقد انبطح أرضاً وتركهم يأخذونها ، وقال إن النقود مؤمن عليها بأفضل مما هو مؤمن عليه » .

- « سأحضر لك الشطيرتين بعد ما أغلق المحل . وسأطرق الباب الخلفى . أى نوع من الشطائر تريد ؟ »

- « لا تزعج نفسك يامستر هولى . سأدلف عبر الحارة – لتكن إحداهما لحم خنزير والثانية جبنا فى خبز الشعير ، مع خس ومايونيز ، وقد احتاج إلى زجاجة لبن ، وزجاجة كوكا كولا أشربهما فيما بعد » .

— « عندنا (سلامى) جيد ـ وهى انتقاء ماروللو » .

— « لا ، اشكرك . كيف حال عضو المافيا الوحيد ؟ »

— « أظنه بخير » .

— « حسناً ، لابد لك حتى لو لم تحب الغرباء ـ من الإعجاب برجل يستطيع أن يبنى من عربة يد كل ما يقتنى الآن من ممتلكات . إنه ذكى جداً ، فالناس لا يعرفون شيئا عن مقدار ما يكتنز . ربما لا ينبغى على قول ذلك ، فالمفروض فى موظف المصرف ألا يفشى سراً » .

— « ولكنك لم تفش سراً » .

كانا قد وصلا إلى الناصية التى يلتقى فيها شارع إلم بزاوية مع شارع هاى. وتوقفا بحركة آلية ، واستدار ليتطلعا إلى القرميد الوردى والملاط القذر ، الذى كان فى الماضى فندق باى العتيق ، والذى أخذوا يهدمونه حالياً ليفسح مجالاً لفندق وول ورث الجديد . كان الجاروف الآلى الأصفر ، والرافعة التى تطوح بكرة الهدم ساكنين ، وكأنهما حيوانان مفترسان يتربصان فى تلك الساعة المبكرة من الصباح .

وقال جوى : « لقد رغبت دائماً أن أفعل هذا . لابد أن يتملك المرء شعور باللذة ، حين يطيح بتلك الكرة الفولاذية ، ثم يرى جدارا يتهاوى » .

قال إيثان : « لقد رأيت فى فرنسا ما يكفى من الجدران المتهاوية » .

— « أجل ! فاسمك منقوش على النصب المقام قرب الميناء » .

— « هل تمكنوا من القبض على اللصوص الذين هاجموا صديقك ؟ »

كان إيثان واثقا أن هذا الصديق لم يكن سوى جوى نفسه . ولو سمعه أى شخص آخر لوثق من ذلك أيضاً .

« امداصطادوهم كالفيران. من حسن الحظ أن اللصوص ليسوا أذكياء، ولو ألف الفتى جوى كتابه عن طريق السطو على مصرف لما تمكن الشرطة أبداً من الإمساك بأحد » .

وضحك إيثان ، وهو يقول : « وكيف ستتناول الموضوع ؟ »

— « لدى معلوماتى الخاصة ، يامستر هولى . وإننى اقرأ الصحف فحسب ، ثم إنه كانت لى معرفة وثيقة بفتى كان يعمل شرطياً . أريد سماع المحاضرة التى ثمنها دولارين ؟ »

— « والتى تساوى ما يقرب من خمسة وسبعين سنتاً . لا بد لى من فتح المحل » .

قال جوى : « سيداتى سادتى ! إننى هنا هذا الصباح — لا، انتبهوا ! كيف سكون لصوص المصارف ؟ رقم واحد — عن طريق صحيفة السوابق ، إذا كان ء قد قبض عليه من قبل . رقم اثنين — بالتقاتل على الغنائم ، ثم إفشاء أحدهم سر . رقم ثلاثة النساء . فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النساء ، وهذا يؤدى بنا ، رقم أربعة — إذ يكون عليهم إنفاق تلك النقود . راقبوا محدثى الانفاق ، ضعوا أيديكم على اللصوص » .

- « إذن ما هى طريقتك ، ياسيدى الأستاذ ؟ »

- « طريقة بسيطة بساطة ارتدائك جواربك . أجعل كل ماسبق عكسياً : لا تسرق مصرفا على الإطلاق إذا كان قد سبق القاء القبض عليك، أو قيدت ضدك سابقة لأى سبب من الأسباب . لا شركاء — قم بالعملية وحدك ولا تخبر مخلوقا، أى شخص. انس النساء. لا تنفق النقود ، بل احفظها بعيداً، ولو استمر

ذلك سنوات. وحين يتوافر لديك مبرر لامتلاك بعض النقود، فأخرج القليل منها فى كل مرة واستثمره . لاتبدده » .

— « وماذا لو تعرفوا على اللص ؟ »

— « إذا حجب وجهه ولم يتكلم ، فمن ذا الذى يتعرف عليه ؟ هل سبق لك أن قرأت أوصاف شهود الرؤية ؟ إنهم أغبياء . ويقول صديقى الشرطى ، إنهم كانوا يتعرفون عليه المرة تلو المرة عندما يضعونه أحياناً فى صف المشبوهين . وكان الناس يقسمون أن تقتلع أعينهم لو لم يكن هو فاعل تلك الفعلة . تلك المحاضرة تكلفك سبعة خمسة وسبعين سنتا ، تسمح » .

أدخل إيثان يديه فى جيبه ، وقال : « سأكون مدينا لك بها » .

فقال جوى : « سآخذ شطائر فى مقابلها » .

عبر الاثنان شارع هاى ، ودخلا الحارة التى تشكل زاوية قائمة مع الجانب الآخر . ودخل جوى من الباب الخلفى لمصرف « فيرست ناشيونال » الذى كان على جانبه من الحارة ، بينما فتح إيثان قفل باب « محل مارولو للفواكه والبقالة » المطل على الحارة والذى كان إلى جانبه . وصاح: « لحم خنزير وجبن؟ »

— « فى خبز الشعير — مع الخس والمايونيز » .

تسرب خلال المخزن من الحارة الضيقة ضوء ضئيل أعتمته النافذه المتربة ذات القضبان الحديدية . وتوقف إيثان فى المكان الذى تضيئه تباشير الصباح وترتفع أرففه الى السقف ، وتتكدس فيه صناديق الورق المقوى والخشب محتوية على الفاكهة ، والخضروات ، والأسماك ، واللحوم ، والجبن . وتشم رائحة فضلات الفيران خلال روائح البقول المنبعثة من الدقيق والفول المجفف والفاصوليا ، وخلال

رائحة الورق والحبر المنبعثة من صناديق المصيدة ، وخلال رائحة الحموضة الزائدة اللاذعة المنبعثة من الجبن ، والسجق ، وخلال الأبخرة المنبعثة من لحم الخنزير المملح ولحم الفخذ ، ثم خلال التخمر المنبعث من ورق الكرنب المقطع التالف والخس، وشواشى البنجر المطلة من صفائح القمامة الفضية اللون قرب الباب الخلفى .
وعندما تأكد من عدم وجود أية زناخة صدئة لرائحة فأر ، فتح الباب المطل على الحارة ثانية ودحرج صفائح القمامة المغلقة إلى الحارة . واندفع قط رمادى ليدخل ، ولكنه طرده بعيداً .

أشار إلى القط ، وقال « لا. لاتدخل ان الأتعاب التى تقدمها للقطط ، هى الفيران الكبيرة والصغيرة ، أما أنت فقارض سجق . ألست كذلك ! أنت تسمعنى — أليس كذلك ! »

كان القط الجالس يلعق مخلباً وردياً معقوفاً ، ولكنه عند سماع عبارة « أليس كذلك » الثانية رفع ذيله إلى أعلى وسار مبتعداً، ثم تسلق السور العريض خلف المصرف . فقال إيثان بصوت مرتفع : « لابد أن تكون تلك كلمة سحرية » ثم عاد الى المخزن ، وأغلق الباب خلفه .

اخترق الآن الغرفة المتربة متجها إلى الباب القلاب الذى يفضى إلى المحل — وعندما وصل الى المرحاض سمع فحيح الماء المنساب . فتح الباب العريض بكوته الزجاجية ذات الشبكه السلكية ، ثم زج الأسفين ليبقى مفتوحا ، وفى عزم دفع كتلة الخشب بمقدمة حذائه لتستقر فى مكانها .

كان لون المحل ضاربا إلى الخضرة ، بسبب الستائر المسدلة على النوافذ الأمامية الضخمة . وهنا أيضا ارتفعت الأرفف حتى السقف ، وقد ملأتها فى

عناية أطعمة محفوظة فى علب وأوان زجاجية براقة ، إنها مكتبة للمعدة . وفى أحد الجوانب — كانت هناك آلة عد النقود ، وأكياس الورق ، والدوبارة ، ثم ذلك الشىء الرائع المصنوع من صلب غير قابل للصدأ بطلائه الأبيض المتألق ، إنه الثلاجة وقد كان مكبسها يهمس لنفسه . أدار إيثان مفتاحا ، فغمر وهج النيون البارد المائل الى الزرقة الشرائح الباردة ، والجبن ، والسجق ، وقطع السكوستليتة ، وشرائح اللحم البقرى ، والأسماك . وملأ المحل ضوء متكسر كالذى ينعكس عادة فى الكاتدرائية ـ مثل كاتدرائية تشارتر . وتوقف إيثان يتأمل المشهد بإعجاب أنابيب أرغن من علب الطماطم ، ومعابد صغيرة من المسطردة والزيتون ، ثم مائة قبر سردين بيضاوى الشكل .

وترنم بلحن ترتيلى صلاة لا معنى لها ، وختمها بكلمة « آمين ! » كان بوسعه أن يسمع تعليق زوجته على صلاته : « ذلك سخف منك ، فضلا عن أنك قد تؤذى مشاعر شخص ، وليس بمقدورك أن تتجول هنا وهناك وأنت تؤذى شعور الناس » .

موظف فى محل بقالة ـ بقالة مارولو ـ له زوجة وطفلان عزيزان . فمتى ينفرد بنفسه ، متى يستطيع أن ينفرد بنفسه ؟ الزبائن فى أثناء النهار ، ثم الزوجة والطفلان فى المساء ثم الزوجة خلال الليل ، والزبائن فى أثناء النهار ، ثم الزوجة والطفلان فى المساء . « فى الحمام — ذلك هو الوقت الوحيد » . قالها إيثان بصوت عال ، « ثم الآن بالذات قبل أن أفتح البوابة لتدفق الفيضان . آه من تلك اللحظة المعتمة ، المظلمة ، المدلهمة ، القذرة الحبيبة » وخاطب زوجته قائلا : « والآن ياقالب السكر ، مشاعر من تلك التى أستطيع إيذاءها ؟ لا يوجد هنا ثمة إنسان أو مشاعر . ليس هنا سوى أنا وتراتيلى حتى — حتى افتح ذلك الباب الأمامى اللعين » .

تناول مئزراً نظيفاً من درج خلف الطاولة المجاورة لآلة عد النقود ، وفرده ، ثم جذب الأربطة ووضعها حول خصره النحيل ، ولف الرباطين حول جسده ثم أعادهما إلى الخلف ثانية . ومد يديه خلف ظهره وعقد عقدة منزلقة .

كان المئزر طويلا يصل إلى ماتحت منتصف ساقيه . رفع يده اليمنى ، وهى مضمومة فى تراخ ، وراحتها إلى أعلى ، ثم صاح : « استمعى إلى ، أنت أيتها الكمثرى المحفوظة وأنت أيتها المخللات ، وأنت أيتها الخضروات المتبلة» — ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب ورؤساء الكهنة والكتبة ، وأصعدوه إلى مجمعهم . — ولما كان النهار . لقد بدأ السفلة عملهم مبكرين ، أليس كذلك ؟ لم يضيعوا لحظة واحدة بحال من الأحوال . ولنر الآن . « وكان نحو الساعة السادسة » — ربما كان ذلك فى الساعة الثانية عشرة — فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة . وأظلمت الشمس . والآن كيف أتذكر ذلك ياإلهى الطيب، لقد استغرق وقتا طويلا ليموت — وقتا طويلاً مرعباً « أسقط يده ونظر فى تساؤل إلى الرفوف المزدحمة وكأنها قد ترد عليه. أنت لاتكلمينى الآن ياماري ، ياحلوتى. فهل أنت إحدى بنات أورشليم؟ لقد قال : «لاتبكين على بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس ؟ » لاتزال تلك الكلمات تثير شجونى لقد كان تأثير العمة ديبورا أفضل مما اعتقدت . لم تحن الساعة السادسة بعد — ليس بعد .

رفع الستائر الخضراء عن النوافذ الكبيرة وهو يقول : « ادخل ، أيها النهار » وبعد ئذ فتح أقفال الأبواب الأمامية ، وقال : «ادخلى ، أيتها الدنيا ».

طوح الأبواب ذوات القضبان الحديدية ففتحها ، ثم شبكها لتظل مفتوحة.

كانت شمس الصباح راقدة فى نعومة على الرصيف كما ينبغى أن تكون ، ففى شهر أبريل تشرق الشمس من نفس النقطة التى يندفع فيها شارع هاى إلى الخليج . عاد إيثان الى المرحاض ليجلب مقشة يكنس بها الرصيف .

إن يوماً ، يوما بأكمله، ليس شيئا واحد ولكنه أشياء عدة. إنه لايتغير فى تزايد الضوء وهو يتجه إلى سمت السماء ثم وهو يغيض ثانية فحسب ، بل يتغير فى مكوناته وحالته المزاجية ، يتغير فى نغمته ومعانيه ، ويغلفه ألف عنصر من عناصر الفصول ، والحرارة أو البرودة ، والسكون أو الرياح المتعددة ، وتكتنفه اروائح والمذاقات ، وأنسجة من ثلج أو عشب ، من برعم أو ورقة أو جذوع عارية مرسومة بالسواد . ومثلما يتغير اليوم تتغير كائناته ، من حشرات وطيور ، وقطط ، وكلاب ، وفراش وأناس .

لقد انتهى يوم إيثان آلان هولى الهادىء المعتم الداخلى . فالرجل الذى كنس ارصيف فى الصباح بضربات موسقية ، لم يكن نفس الرجل الذى يستطيع أن يخطب فى البضائع المحفوظة فى العلب ، ولم يكن رجل التراتيل ، بل لم يكن حتى رجل الوقت المدلهم . جمع فى كناسة مقشته أعقاب السجائر وأغلفة اللادن وأكياس البراعم المتساقطة من الشجر المخصب ، والتراب العادى البسيط ، ثم دفع صفوف المخلفات التى كونتها الريح تجاه الميزاب، لتنتظر عمال البلدية بسيارتهم الفضية .

اتخذمستر بيكرطريقه السليم المرسوم من منزله فى شارع مابل متجها إلى مبنى مصرف « فيرست ناشيونال » الرومانى الطراز والمقام من القرميد الأحمر . ولو لم تكن خطواته متساوية الطول ، فمن كان سيعرف أنه تجنب قصم ظهر أمه عن

طريق عادة اكتسبها منذ القدم ؟

— « صباح الخير ، مستر بيكر ».

قالها إيثان ، وأوقف هفة مقشته لينقذ سروال مدير المصرف الصوفى الأنيق من التراب .

— « صباح الخير ، يا إيثان . صباح بديع » .

قال ايثان : « إنه بديع فعلاً ، فقد هل الربيع ، يامستر بيكر . وكان الفأر البرى مصيباً مرة أخرى » .

— « نعم ، كان مصيباً . » وصمت مستر بيكر برهة . « لطالما وددت التحدث إليك ، يا إيثان . تلك النقود التى حصلت عليها زوجتك من وصية أخيها — إنها تزيد على خمسة آلاف ، أليس كذلك ؟ »

قال ايثان : « بل ستة آلاف وخمسمائة ، بعد الضرائب » .

— « حسنا ، أنها مجرد نقود ملقاة فى المصرف ينبغى أن تستثمر . أود أن أتحدث معك بشأنها ، ينبغى أن تشغل نقودك » .

— « إن ستة آلاف وخمسمائة دولار . لا تصلح للقيام بعمل كبير ياسيدى وكل ما يمكن هو الاحتفاظ بها لمواجهة الطوارىء » .

« لست ممن يؤمنون بالنقود العاطلة ، يا إيثان » .

— « حسناً ، هذا أيضاً يفيد — على حسب أن أقف وأنتظر » .

وصار صوت مدير المصرف جليديا وهو يقول : « لا أفهم هذا » . إلا أن لهجته كانت تقول إنه يفهم فعلا ويجده غباء ، واستثارت نغمة صوته مرارة فى نفس إيثان ، وتمخضت المرارة عن كذبة .

ودارت المقشة فى انحناءة رقيقة مع الرصيف « الأمر هكذا ، ياسيدى . هذه النقود تأمين مؤقت لمارى إذا حدث لى ثمة شىء » .

— « ينبغى عليها إذن أن تستعمل جزءاً منها لتؤمن حياتك » .

— « ولكنك مال مؤقت فحسب ، يا سيدى . تلك النقود كانت ثمن ضيعة شقيق مارى . ولا تزال أمها على قيد الحياة . وقد تبقى حية عدة سنوات »

— « أفهم هذا . ومن الممكن أن يكون العجائز عبئاً » .

— « وهم يستطيعون الجلوس أيضا على أموالهم » . تطلع إثيان إلى وجه مستر بيكر وهو يلقى كذبته ، ورأى اللون الأحمر يتصاعد أعلى ياقة مدير المصرف « ها أنت ترى . ياسيدى ، إننى لو استثمرت أموال مارى فقد أخسرها ، كما خسرت أموالى ، وكما خسر أبى ثروته » .

— « الماء موجود تحت القنطرة ، يا إيثان ـ الماء موجود تحت القنطرة . أعرف أنك اكتويت بالإفلاس ولكن الوقت يتغير ، وفرص جديدة تتفتح »

— « لقد واتتنى فرصتى ، يامستر بيكر ، فرصة أكبر مما أملك من عقل . لا تنس أننى امتلكت هذا المحل عقب الحرب مباشرة . واضطررت لبيع نصف عمارة من الأملاك الجيدة لأملأه بالبضائع ـ آخر ما كنا نملك من وسائل التجارة » .

— « أعرف يا ايثان فانا مدير مصرفك . وأعرف عن أعمالك مثلما يعرف طبيبك عن نبضك » .

— « بالتأكيد تعرف . لقد استغرق الأمر أقل من سنتين لأصبح على شفا الإفلاس اللعين . كان على أن أبيع كل شىء عدا منزلى ، لكى أسدد ديونى » .

— « لا يسعك أن تلقى على نفسك كل اللوم من أجل ذلك . شخص مسرح جديد من الجيش ـ ولا خبرة له بالعمل التجارى ، ولا تنس أنك أصطدمت رأسا بمرحلة كساد اقتصادية ، وإن كنا نحن قد سميناه انكماشاً مؤقتاً . لقد ضاع فيه عدد من كبار رجال الأعمال ذوى الخبرة الكبيرة » .

— « لقد ضعت فيه بالفعل ، إنها أول مرة فى التاريخ يحدث فيها على الإطلاق أن يعمل واحد من آل هولى موظفاً فى بقالة أحد المهاجرين » .

— « والآن ، هذا هو مالا أستطيع فهمه ياإيثان . من الممكن أن يحل الإفلاس بأى شخص ، ولكن الذى لاأفهمه هو لماذا تبقى مفلساً ، وأنت رجل له مثل عائلتك وماضيك وتعليمك . ليس المفروض أن يلازمك هذا الإفلاس إلا إذا كان دمك قد فقد حميته . ما الذى صرعك ، ياإيثان ؟ ما الذى يبقيك هكذا صريعا ؟ »

هم إيثان بأن يجيب إجابة سريعة غاضبة يقول فيها ـ من الطبيعى ألا تفهم ، فلم تتعرض لذلك أبدا من قبل ـ وعندئذ كنس حلقة صغيرة من أغلفة اللادن وأعقاب السجائر وكون منها هرما دفعه تجاه الميزاب .

« الرجال لايصرعون ، أقصد أنهم يستطيعون المضى فى الصراع مع أشياء ضخمة . إنما يقتلهم التفتت ، فيساقون إلى الفشل . ويسيطر عليهم الخوف ببطء . وأنا خائف . فقد تقطع عنا شركة لونج إيلاند الإضاءة ، وزوجتى تحتاج إلى ملابس . ويحتاج أطفالى ـ إلى أحذية ولهو . ثم افترض أنهم لايستطيعون الحصول على تعليمهم ؟ ثم هناك الفواتير الشهرية والطبيب والأسنان واستئصال اللوز ، وأفترض خلافا لذلك أننى مرضت ولم أعد قادراً على كنس هذا الرصيف اللعين ؟ من الطبيعى ألا تفهم . فهى عملية بطيئة ـ

عملية تبعث العفن فى صلابتك . أنا لا أستطيع أن أفكر فيما هو أبعد من قسط الشهر التالى للثلاجة . أنا أكره وظيفتى وأخشى فقدانها . فكيف تستطيع أن تفهم ذلك ؟

— « وكيف الحال مع والدة مارى ؟ »

— « قلت لك ، إنها تجلس فوق النقود ، وستموت وهى جالسة عليها » .

— « لم أكن أعرف . ظننت أن مارى تنحدر من أسرة فقيرة . ولكنى أعرف أنك حين تمرض تحتاج إلى دواء وربما إلى عملية جراحية أو إلى صدمة كهربية . لقد كان قومنا شجعانا ، وأنت تعرف هذا . فلم يتركوا أنفسهم يستسلمون للموت . وها قد تبدل الزمن . وهناك فرص لم يحلم بها أسلافنا ، وهذه الفرص يلتقطها الأغراب . الأغراب يتغلبون علينا . فاستيقظ ، يا إيثان » .

— « وماذا بشأن الثلاجة ؟ »

— « أتركها إذا اضطررت لذلك . »

— « وماذا بشأن مارى والأطفال ؟ »

— « انسهم فترة . سيكون حبهم لك أكثر إذا تسلقت الحفرة ، وخرجت منها . أنت لا تساعدهم بقلقك عليهم » .

— « ونقود مارى ؟ »

— « اخسرها إذا اضطررت لذلك ولكن غامر بها . ولن تخسرها إذا توفرت لك العناية والمشورة الصادقة . ليست المغامرة هى الخسارة . لقد وضع قومنا دائما فى عداد المجازفين ، ومع ذلك لم يخسروا شيئاً . سأصيبك بصدمة ، يا إيثان . أنت تتغاضى عن ذكرى الكابتن هولى العجوز . وأنت مدين لذكراه بشيء ما . لقد امتلك هو وأبى سفينة « البلادير » مشاركة ، إحدى أواخر

مما بنى من سفن صيد الحيتان ، ومن أروعها جميعا . انفض عنك تكاسلك ، يا إيثان . أنت مدين للبلادير بشىء لم تدفعه بشجاعة وإقدام . وإلى الجحيم بالشركة المالية » .

دفع إيثان قطعة متمنعة من ورق السوليفان إلى حافة الميزاب بطرف مقشته . وقال فى رقة : « لقد احترقت البلادير حتى خط منسوب الماء ، ياسيدى » .

— « أعرف أن هذا حدث ، ولكن هل أوقفنا ذلك ؟ إنه لم يوقفنا » .

— « كان مؤمنا عليها » .

— « طبعا ، كانت كذلك » .

— « حسنا ، أما أنا فلم يكن مؤمنا على . فانقذت بيتى ولا شىء سواه » .

— « يجب أن تنسى تلك الأمور . فانك تمعن الفكر فى شىء مضى . عليك أن تستجمع شيئاً من شجاعة ، شيئاً من جرأة . لهذا قلت لك إنه ينبغى عليك أن تستثمر أموال مارى . إننى أحاول مساعدتك ، يا إيثان » .

— « أشكرك ياسيدى » .

— « سنخلع عنك هذه الميدعة وأنت مدير بهذا الكابتن هولى العجوز . إنه لن يصدق عينيه إذا رآك .

— « نعم أحسبه لن يصدق » .

— « هكذا يكون الكلام . سنخلع هذه الميدعة » .

— « لو لم يكن الامر متعلقا بمارى والأطفال ... » .

— « أنفسهم ؟ أقول لك — انسهم من أجل مصلحتهم هم . سنتحدث هنا

فى نيوبايتون بعض الأمور الهامة . ويمكنك أن تكون شريكاً فيها » .

— « أشكرك ، يا سيدى » .

— « دعنى فقط أتدبر الأمر » .

— « يقول مستر مورفى أنه سيعمل عندما تغلقون فى الظهيرة . وسأعد له بعض الشطائر . فهل تريدنى أن أعد لك بعضاً منها ؟ »

— « كلا شكرا . سأدع جوى يقوم بالعمل . إنه رجل طيب . وهنالك عقار أريد أن أبحث أمره ، أقصد فى مكتب موثق القاطعة . فالمكان هناك يكون لطيفاً وخالياً من الثانية عشرة حتى الثالثة قد يكون هناك شىء من أجلك سنتكلم عنه عاجلاً . إلى اللقاء » . وخطا خطوة أولى طويلة ليتجنب شقاً ، ثم عبر مدخل الحارة متجها إلى الباب الأمامى لمصرف « فيرست ناشيونال » ، وابتسم إيثان لظهره المتراجع .

أنهى كنسه بسرعة ، فقد بدأ الناس الذهاب إلى أعمالهم فرادى وجماعات . نصب حوامل الفاكهة الطازجة عند مدخل المحل . وعندما تأكد من عدم مرور واحد ، أزاح ثلاث علب من طعام الكلاب ، ومد يده خلفها ، ثم أخرج حقيبة النقود الصغيرة الكالحة ، وأعاد علب طعام الكلاب إلى مكانها ، ثم دق كلمه « لابيع » على آلة عد النقود ، ثم وضع الأوراق ذات العشرين ، والعشرة ، والخمسة والدولار الواحد فى أماكنها تحت العجلات الماسكة الصغيرة . فرز القطع ذات النصف دولار والربع دولار ، والعشرة سنتات ، والسنت الواحد فى الادراج البلوطية الصغيرة التى فى مقدمة درج آلة عد النقود ثم دفع الدرج بشدة فأغلقه . لم يظهر من الزبائن سوى القلة ، أطفال أرسلوا لجلب رغيف خبز ،

أو علبة لبن ، أو رطل من القهوة الثقيلة ، و بنات صغيرات بشعر لازال مشعثا من أثر النوم .

دخلت مارجى يانج هنت ، وقد نفر صدرها فى سويتر لونه أصفر مشرب بحمرة . والتصقت جونلتها المصنوعة من التويد بفخذيها فى إغراء ، ورأى إيثان فى عينيها العسليتين الناعستين مالم تستطع زوجته أن تراه أبداً ، النظرة التى كانت تختفى عادة فى حضور الزوجات . إنها نهابة ، صيادة ، آرتيميس قناصة الرجال . كان القبطان هولى العجوز يسمى هذا النوع « العين الزائغة » . وكان هذا يحدث فى صوتها أيضاً ، كان هديره المخملى يتحول إلى مناجاة رقيقة ناعمة تبعث الثقة فى الزوجات .

قالت مارجى : « سعدت صباحا ، إيثان ، ياالله من يوم للقيام بنزهة ! »

— « سعدت صباحا . أتريدين رهانى أن قهوتك قد نفدت ؟ »

— « لوخمنت أن الألكاسلتزر هو الذى نفد ، لتجنبتك » .

— « قضيت ليلة حافلة ؟ »

— « نوعاً ما . حكاية مع وكيل متجول . إن أمثاله يعتبرون كنزاً بالنسبة لامرأة مطلقة . إنه واحد ممن يحملون حقيبةصغيرة من العينات المجانية . أحسبك تسميه بائعاً متجولاً . لعلك تعرفه . اسمه بيجر أو بوجر ، ويتجول لحساب شركة ب . ب . د . و . د . والسبب فى ذكر الموضوع هو قوله أنه آت لزيارتك » .

— « نحن نشترى معظم حاجياتنا من ويلاند » .

— حسناً ، لعل المستر بجر قد بدأ فى تسويق منتجاته ، هذا إذا كان يشعر بأنه أحسن حالاً منى هذا الصباح . قل لى ، أتستطيع أن تعطينى كوباً من الماء ؟ سأتناول الآن زوجاً من الأقراص الفوارة » .

ذهب إيثان إلى المخزن ثم عاد بكوب من الورق ملأه ماء من الصنبور . واسقطت فيه ثلاثة أقراص مسطحة وتركتها تهز . و بعدئذ قالت : « حصوة فى عينك » . ثم اجترعتها دفعة واحدة وقالت : « أبدأى العمل ، أيتها الشياطين » .

— « سمعت أنك ستقرأين طالع مارى اليوم » .

— « أوه ياإلهى ! كدت أنسى . ينبغى أن أمارس المهنة ، فقد أستطيع أن أجمع منها ثروة » .

— «مارى تحب هذا . فهل أنت بارعة فيه ؟ »

— « ليس هناك ما يبرع المرء فيه . أترك الناس -أو النساء بمعنى أصح- يتحدثن عن أنفسهن ، و بعدئذ أعد سرد الكلام لهن فيعتقدن أن لديك الرؤيا الثانية » .

— « والغرباء السمر الطوال ؟ »

— « إنهم موجودون بالتأكيد . لو استطعت قراءة طوالع الرجال ، لما اجتذبت لنفسى اثنين من ذوى الكروش . أخى ! هل كنت أخطأ قراءة طالع شخصيتين » .

— « ألم يتوف زوجك الأول ؟»

— « كلا ، بل الثانى ، فليحل السلام برفاقه ، ابن الـ ... كلا ، دعنا من ذلك فليحل السلام برفاقه » .

حيا إيثان مسز ايزيزينسكى العجوز فى أثناء دخولها وهو مشغول البال ، ومتلكئاً فى مناولتها ربع رطل من الزبد ، حتى أنه علق بكلمة أو كلمتين مثنيا على الطقس ، ولكن مارجى يانج هنت ، أخذت تتفحص فى تراخ وابتسام علب (الفواجراه) ذات الأختام الذهبية ، وعلب الكافيار الموضوعة خلف الطاولة بجانب آلة عد النقود والشبيهة بعلب جواهر متناهية الصغر .

« والآن » قالتها مارجى حين خطت العجوز إلى الخارج فى تثاقل ، وهى تغمغم لنفسها بالبولندية .

— « والآن ـ ماذا ؟ »

— « كنت لتوى أفكر ـ إننى لو عرفت عن الرجال مثلما أعرف عن النساء ، لرفعت لافتة بابى . لماذا لا تعلمنى عن الرجال ، يا إيثان ؟ »

— أنت تعرفين مافيه الكفاية ، بل ربما أكثر من الكفاية بكثير »

— « أوه هيا ! ألا يحتوى جسدك عظمة واحدة حمقاء ؟ »

— « أتريدين أن نبدأ الآن ؟ »

— « ربما فى مساء ما » .

— قال : « طيب . ونكون مجموعة . مارى وأنت والطفلان . الموضوع : الرجال ـ ضعفهم وغباؤهم وكيفية استعمالهم » .

تجاهلت مارجى لهجته : « ألا تعمل أبداً إلى ساعة متأخرة ـ حسابات أول الشهر أو شيئاً من هذا القبيل ؟ »

— « بالتأكيد . ولكنى آخذ الشغل إلى المنزل » .

رفعت ذراعيها فوق رأسها وتخللت أصابعها شعرها وسألت : « لماذا ؟ »

— « لو سألت قطة لأجابتك ، لأصنع سراويل لقطيطاتى » .

— « أتدرك مايمكنك أن تعلمنى لو أردت ؟ »

وقال إيثان : « و بعد ما استهزأوا به ، نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا للصلب . وفيما هم خارجون وجدوا أنساناً قيروانيا ، اسمه سمعان . فسخروه ليحمل صليبه ولما أتوا إلى موضع يقال له جاجلثة وهو المسمى موضع الجمجمة » .

— « أوه ، بحق الله ! »

— « أجل - أجل - ذلك صحيح ... »

— « أتعلم أى ملعون أنت ؟ »

— « أجل ، يابنت أورشليم » .

وفجأة ابتسمت « أتدرى ماذا أنوى أن أفعل ؟ سأقرأ أحد الطوالع الممتازة هذا الصباح . هل عرفت أنك ستكون شيئاً عظيماً ؟ وسيتحول كل شىء تلمسه إلى ذهب - وستغدو زعيماً للرجال » . وسارت مسرعة إلى الباب ، ثم استدارت إلى الخلف وهى تبتسم ، وقالت : « وأتحداك أن تحتمل هذا وتحياه ، وأتحداك أيضا ألا تفعل . إلى اللقاء ، أيها المخلص ! » كم هو غريب صوت دقات كعب حذاء على الرصيف ، وهو يدقه فى غضب .

فى الساعة العاشرة تغير كل شىء . اندفعت أبواب المصرف الزجاجية الكبيرة مفتوحة . وغاص فيه نهر من البشر ليجلبوا نقوداً ، ثم جاءوا بالنقود إلى محل مارولو وأخذوا الأطعمة الممتازة التى يتطلبها عيد الفصح . وظل إيثان

مشغولا كالمنزلق على سطح الماء حتى دقت الساعة السادسة .

انطلق جرس الحريق الغاضب من برجه الذى يعلو قاعة البلدية معلناً الساعة السادسة . وانساق الزبائن مبتعدين ومعهم أكياسهم التى تحتوى فطائر اللحم . أدخل إيثان حوامل الفاكهة ، ثم أغلق الأبواب الأمامية ، ودونما سبب سوى أن ظلمة اكتنفت العالم واكتنفته معه ، جذب الستائر الخضر الكثيفة فاكتنفت الظلمة المحل أيضا . وتألق النيون وحده داخل الثلاجة فى لون أزرق خيالى .

قطع إيثان أربع شرائح سميكة من خبز الشعير وهو خلف الطاولة ، ثم دهنها بوفرة بالزبد ، وزلق الأبواب الباردة ففتحها والتقط شريحتين من الجبن السويسرى المطبوخ وثلاث شرائح من لحم فخذ الخنزير . وقال « خس وجبن ، خس وجبن . حين يتزوج الرجل يعيش فى جبن » . طلا شرائح الخبز العليا بالمايونيز من برطمان ، ثم ضغط على الطبقة العليا من الشطائر وقطع أجزاء الخس ودهن اللحم من عند الأطراف . والآن على بعلبة لبن وقطعة مربعة من الورق المشمع لعملية اللف . كان يطبق أطراف الورقة بعناية ، عندما انبعث صليل المفتاح فى الباب الأمامى ، ودخل مارولو عريضا كدب ، منتفخ الصدر كزكيبة حتى بدأ ذراعاه قصيرين ومندفعين من جسده . كانت قبعته على مؤخرة رأسه بحيث أظهرت ناصيته ذات الشعر الخشن الرمادى بلون الحديد وكأنها طاقية . كانت عينا مارولو دامعتين ماكرتين وناعستين ، ولكن الأغطية الذهبية التى على أسنانه الأمامية كانت تلمع فى الضوء المنبعث من الثلاجة وكان زران عريان من أزرار سراوله مفتوحين ، ويبينان ملابسه الداخلية الثقيلة الرمادية .

كان يشبك ابهامين قصيرين سمينين فى عروتى سرواله تحت معدته ، ويطرف فى الظلمة الخفيفة .

— « طاب صباحك ، مستر مارولو . أظن الوقت قد صار أصيلاً » .

— « هاى ، يافتى . لقد أغلقت ببراعة وبسرعة » .

— « البلدة كلها أغلقت . ظننتك فى القداس » .

— « لا قداس اليوم . إنه اليوم الوحيد طوال السنة الذى لا يقام فيه قداس » .

— « هكذا ؟ لم أكن أعرف هذا . أى شىء أستطيع عمله من أجلك ؟ »

امتدت الذراعان القصيران السمينان وتأرجحتا إلى الخلف وإلى الأمام من عند المرفقين « ذراعاى يؤلمانى ، يافتى . النقرس . إنه يزداد سوءاً » .

— « ألا تستطيع عمل أى شىء له ؟ »

— « لقد فعلت كل شىء — كمادات ساخنة ، زيت سمك القرش ، الأقراص — ولا زال يؤلم . المكان هنا لطيف وهادىء . وربما نستطيع أن نتبادل حديثا ، إه ، يافتى ؟ » وتألقت أسنانه .

— « أهناك شىء ليس على مايرام ؟ »

— « ليس على ما يرام ؟ ما هو الذى ليس على ما يرام ؟ »

— « حسنا ، ما بالك لو انتظرت دقيقة ، فسآخذ هذه الشطائر إلى المصرف فحسب ، فقد طلبها مستر مورفى » .

— « أنت فتى ذكى . أنت تقوم بتوصيل الطلبات . هذا طيب » .

اخترق إيثان المخزن ، وعبر الحارة ، وطرق باب المصرف الخلفى . ثم ناول جوى اللبن والشطائر .

— « شكرا . لم يكن لك أن تفعل » .

— « إنه توصيل الطلبات ، كما قال لى ماروللو » .

— « أرجو أن تحتفظ لى بزجاجتى كوكا كولا باردتين . ففى فمى تتوفف أصفار جافة » . حينما عاد إيثان ، وجد ماروللو يختلس النظر داخل صفيحة القمامة.

— « أين تريد الكلام ، يامستر ماروللو ؟ »

— « فلنبدأ هنا ، يافتى » . والتقط من الصفيحة أوراق قرنبيط . « أنك تقتطع كثيرا جداً » .

— « ما يكفى لتشذيبه فحسب » .

— « القرنبيط يباع بالوزن . فكأنك تلقى بالنقود فى صفيحة القمامة . أعرف صديقا يونانياً ذكياً يمتلك حوالى عشرين مطعماً . وهو يقول إن السر الكبير فى نجاحه هو مراقبة صفائح القمامة . فما تلقيه فيها لا تبيعه . إنه صديق ذكى » .

— « أجل يامستر ماروللو » . وتحرك إيثان قلقاً تجاه مقدمة المخزن ومارو للو وراءه يثنى مرفقيه إلى الخلف وإلى الأمام .

— « أترش الخضراوات جيدا ، كما قلت لك ؟ »

— « بالتأكيد » .

ورفع المعلم رأس خسة . « ملمسها جاف » .

— « ياللجحيم ، يا ماروللو ، أنا لا أريد أن أثقلها بالمـــاء ـــ إن ثلث زنها ماء » .

— « إن الماء يجعلها تبدو ريانة بديعة طازجة . أتظننى لا أعرف ؟ لقد بدأت بعربة يد واحدة ـ مجرد عربة واحدة . إننى أعرف . عليك أن تتعلم الخدع يها الفتى ، وإلا فستفلس . واللحم ـ أنت تدفع فيه كثيراً جداً ! » .

— « حسناً ، إن إعلاناتنا يقول لحم من الدرجة الأولى » .

— الأولى ، أو الثانية ، أو الثالثة — من يدرى ؟ هذا مكتوب على البطاقة، أليس كذلك ؟ والآن سوف نتبادل حديثاً ودياً . فواتيرنا تثبت وجود من لا يدفعون ديونهم وأى فرد لا يدفع حتى الخامس عشر — يرفع اسمه من دفاترنا » .

— « لا نستطيع عمل هذا . بعض هؤلاء الناس ظلوا يتعاملون معنا مدة عشرين عاما » .

— « اسمع ، يافتى . إن المحلات التجارية ذات الأفرع لن تسمح حتى لجون د . روكفلر بأن يقيد خمسة سنتات على الحساب » .

— « أجل ، ولكن هؤلاء الناس موثوق بهم ، أعنى بغالبيتهم » .

— « وما معنى موثوق بهم » ؟ إنها تعنى تجميد النقود . المحلات التجارية ذات الأفرع تشترى حمولة عربات نقل ، أما نحن فلا نستطيع ذلك . يجب أن تتعلم يافتى . من المؤكد أنهم أناس ظرفاء ! ولكن النقود أيضا ظريفة . لقد ألقيت الكثير جدا من فضلات اللحم فى هذا الصندوق » .

— « أنه الدهن والقطع الجافة » .

— « لا بأس مادمت تزنها مع اللحم قبل أن تقطعها . عليك أن تراعى الرقم واحد . إذا لم تراع الرقم واحد ، فمن سيفعل ؟ يجب أن تتعلم ، يافتى » . ولم تتألق الأسنان الذهبية الآن ، فقد صارت الشفتان نخا صغيرا مطبقا .

واندفع رذاذ الغضب إلى رأس إيثان قبل أن يدرى ، وأصابته الدهشة فقال : « أنا لست غشاشاً ، ياماروللو » .

— « ومن هو القشاش ؟ تلك هى التجارة الجيدة . التجارة الجيدة ، هى النوع الوحيد من التجارة الذى يظل من صميم التجارة أتظن مستر بيكر يوزع فى مصرفه عينات مجانية ، أيها الفتى ؟ »

تحطمت رأس إيثان محدثة دوياً ، وصاح : « أصغ إلى ، لقد عاش هنا آل هولى منذ منتصف عام الف وسبعمائة . أما أنت فغريب . ولن تعرف شيئاً عن هذا . لقد ظللنا نعيش مع جيراننا وكنا مهذبين معهم طوال كل ذلك الوقت . إذا اعتقدت أن بوسعك أن تحشر نفسك بيننا بوقاحة وأنت آت من صقلية ، ثم تغير هذه العلاقات ، فأنت مخطىء . وإذا كنت راغبا فى وظيفتى ، فتستطيع أخذها ـ هنا ، والآن . ولا تنادنى فتى وإلا جدعت لك أنفك ـ » .

التمعت الآن أسنان مارولو جميعها ، وقال : « طيب ، طيب . لايتملكك الحنق . إننى أحاول فحسب أن أسدى إليك جميلاً » .

— « لا تنادنى فتى . فمازالت عائلتى تعيش هنا منذ مائتى سنة » .

ورنت الجملة فى أذنيه صبيانية ، فأخذ غضبه يتلاشى .

— « أنا لا أحسن الكلام بالإنجليزية . أنت تعتقد أن مارولو اسم صقلى ، اسم أوربى قزر اسم مهاجر ايطالى حقير . إن آبائى ، واسمى يرجعان إلى ألفين أو ربما ثلاثة آلاف سنة إن مارو للوس أصلا من روما ، وهذا ما يذكره فاليريوس ماكسيموس . فما قيمة مائتى سنة ؟ »

— « ولكنك لم تنبع من هنا » .

— « ومنذ مائتى سنة لم تنبع من هنا أنت أيضا » .

والآن ، بعد أن تلاشى كل غضب إيثان ، رأى شيئا جميل للرء

يشك فى دوام الحقائق خارج نفسه . رأى المهاجر ، الصقلى ، بائع الفواكه المتجول يتحول أمام عينيه ، رأى انبعاجة الجبهة ، والأنف القوى المقوس الذى يشبه المنقار ، والعينين الوحشيتين العميقتى التجويف واللتين لا تخشيان شيئا ، ورأى الراس تدعمها عضلات عمودية ، رأى كبرياء من العمق والثقة بحيث تستطيع تهزأ بالضعة . كان هذا هو الكشف المذهل الذى يجعل المرء يجعل المرء يعجب! إذا كنت قد أخطأت إدراك هذا ، فما الذى فشلت أيضا فى إدراكه ؟

وقال فى رقة : « ليس عليك أن تتكلم وكأنك مهاجر إيطالى » .

— « التجارة الجيدة . إننى أعلمك الشغل . عمرى ثمانية وستون عاماً . الزوجة توفيت . ثم النقرس ! أنا أؤلمك ! . إننى أحاول أن أريك الشغل . وقد لا تتعلم ، فمعظم الناس لا يتعلمون . ويفلسون » .

— « ليس عليك أن تضايقنى لأننى أفلست » .

— « كلا . لقد فهمت خطأ . إننى أحاول أن أعلمك سبل التجارة الجيدة حتى لا تتعرض للإفلاس مرة أخرى » .

— « يا للفرصة العظيمة ، فليس لدى تجارة » .

— « أنت لا تزال فتى » .

وقال إيثان : « استمع إلى ، ياماروللو . إننى عملياً أدير لك هذا المحل . أمسك الحسابات وأودع النقود فى المصرف ، وأطلب البضائع . وأبقى على زبائنك ، فيعودون إلى هنا . أليست هذه تجارة جيدة ؟ » .

— « بالتأكيد — لقد تعلمت شيئاً . ولم تعد فتى بعد . إن الجنون ينتابك حين أدعوك فتى . ولكن بأى اسم سأناديك ؟ إننى أسمى كل شخص فتى » .

— « حاول أن تستعمل اسمى » .

— « ليس فى وقعه مودة . كلمة فتى فيها مودة » .

— « ولـكن ليس فيها عزة نفس » .

— « عزة النفس ليست هى المودة » .

وضحك إيثان : « لو كنت موظفاً فى بقالة مهاجر صقلى ، لوجب أن تـكون لك عزة نفس ــ من أجل زوجتك ، ومن أجل أطفالك . أتفهم ؟ » .

— « هذه أكذوبة » .

— « هى كذلك طبعاً . فلو كانت لى أية عزة نفس حقيقية ، لما فكرت فيها . كدت أنسى شيئاً قاله لى أبى العجوز قبل وفاته بوقت قصير ، لقد قال إن الإهانة تربطها علاقة مباشرة بالذكاء والطمأنينة ، وقال إن سب الأم لا يـكون إهانة إلا بالنسبة لرجل لا يثق فى أمه ثقة مطلقة ، ولـكن كيف يمـكنك أن تهين ألبرت إينشين ؟ كان لا يزال حياً آنذاك . وهكذا لك أن تمضى فى مناداتى بفتى إذا أردت ذلك » .

— « أترى هذا ، يافتى ؟ إنها ودية أكثر » .

— « حسناً إذن ، ماذا كنت تريد أن تقول لى عن الشغل الذى لا أؤديه ؟ » .

— « الشغل هو النقود ، والنقود ليست لفظاً ودياً ، ولعلك يا فتى ودود جداً ــ ولطيف جداً ، أما النقود فليست لطيفة ، ليس للنقود من أصدقاء سوى المزيد من النقود » .

— « ذلك هراء ، ياماروللو . فإنى أعرف كثيرين من رجال الأعمال ، وهم لطاف ، ودودون ، وشرفاء » .

— « أجل ، يا فتى ، عند ما لا يمارسون العمل . وستكتشف هذا . وحين تكتشفه سيكون الوقت قد تأخر جداً . إنك تدير المحل جيداً ، يا فتى ، ولكنه لو كان محلك فربما تفلس بسبب الود ، إننى ألقنك درساً حقيقياً وكأنك فى المدرسة . إلى اللقاء ، يا فتى » . ثنى ماروللو ذراعيه ، وخرج مسرعاً من الباب الأمامى ، وأغلقه وراءه بعنف ، وأحس إيثان بالظلمة تجتاح العالم .

تناهى إلى إيثان طرق معدنى حاد على الباب الأمامى ، فدفع الستارة جانباً وصاح : « إننا نغلق حتى الثالثة » .

دخل الغريب ـ رجل نحيف ، دائم الشباب ولكنه لم يكن قط شاباً ، أنيق الملبس ، يتألق شعره خفيفاً على جلدة رأسه ، والعينان مرحتان قلقتان .

— « آسف لإزعاجك . علىّ أن أجوب البلدة . أردت أن أراك بمفردك ، وتصورت أن العجوز لن ينصرف أبداً » .

— « ماروللو ؟ » .

— « أجل . كنت أقف عبر الشارع » .

تطلع إيثان إلى اليدين النظيفتين . ورأى فى الأصبع الثالث من اليد اليسرى عين قطة كبيرة مثبتة إلى خاتم ذهبى .

رأى الغريب نظرته ، فقال : « ليس مسروقاً ، لقد التقيت بصديقة لك الليلة الماضية » .

— « نعـــم ؟ » .

— « مسز يانج هنت . مارجى يانج هنت » .

— « أوه ؟ » .

استطاع إيثان أن يحس بذهن الغريب فى تشممه القلق ، وهو يبحث عن مدخل ، أو رابطة يبنى عليها حديثه .

— « فتاة لطيفة . أثنت عليك ثناء عظيماً ، لذا فكرت فى اسمى بيجرز ، وأعطى هذه المقاطعة لحساب شركة ب . ب . د . و . د . » .

— « نحن نشترى حاجياتنا من ويلاندز » .

— « أعرف أنكم تفعلون ، ولهذا السبب أنا هنا ، ظننت أنكم تودون أن توسعوا نطاقكم قليلاً . نحن جدد فى هذا الحى . وأعمالنا تتسع بسرعة . علينا أن نقدم بعض الامتيازات حتى ترسخ قدمنا فى هذا المكان . وسيفيدك أن تستغل هذه الفرصة » .

— « سيكون عليك أن تقابل مستر ماروللو فى هذا الشأن ، لقد تعامل دائماً مع ويلاندز » .

لم يخفت الصوت ولكن نغمته صارت أكثر سرية ، وهو يسأل : « هل أنت الذى تعد الطلبيات ؟ » .

— « حسناً ، نعم . فأنت ترى أن ماروللو مصاب بالنقرس ، وإلى جانب ذلك لديه مهام أخرى » .

— « يمكننا أن نخفض قليلا فى الأثمان » .

— « أعتقد أن ماروللو خفضها أكبر تخفيض ممكن . أجدر بك أن تقابله » .

— « وهذا ما لا أرغب فيه ، إننى أريد الرجل الذى يعد الطلبيات ، وهذا الرجل هو أنت » .

ــ « انني مجرد موظف » .

ــ « أنت تعد الطلبيات ، يامستر هولى . يمكننى أن أخصم لك خمسة فى المائة كعمولة . »

ــ «قد يوافق ماروللو على مثل هذا الخصم إذا كان الصنف واحداً . »

ــ « أنت لاتدرك الأمر . أنا لاأريد تدخل ماروللو . هذه الخمسة فى المائة ستكون نقدا لا شيكات ، ولا سجلات ، ولامشاكل مع رجال الضرائب ، مجرد ورق أخضر نظيف لطيف من يدى إلى يدك ومن يدك إلى جيبك . »

ــ « ولماذا لا يستطيع ماروللو الحصول على هذا الخصم ؟ »

ــ « اتفاقيات الأعمال . »

ــ « حسنا . افترض اننى أخذت الخمسة فى المائة وأعطيتها لماروللو ؟ »

ــ « أظنك لا تعرفهم مثلما أعرفهم فحين تعطيها له ، سيتساءل عن المبلغ الأكبر الذى لم تعطه له . وهذا أمر طبيعى تماماً . »

وخفض إيثان صوته : « أتريد منى أن أخدع الرجل الذى أعمل عنده ؟ »

ــ « من الذى يخدع ؟ أنه لا يخسر شيئاً فى حين تكسب أنت دولاراً . من حق كل فرد أن يكسب دولاراً . لقد قالت مارجى إنك لطيف وذكى ».

وقال إيثان : « انه يوم مظلم » .

ــ «كلا ، إنه ليس كذلك . ولكنك اسدلت الستائر. أما الذهن المتشمم فقد اشتم رائحة الخطر ».

— « فأر حائر بين رائحة المصيدة السلكية وبين قطعة الجبن وقال بيجرز : «ماذا أقول لك ، عليك أن تفكر فى الأمر . وسترى إذا كان فى استطاعتك أن ترسل الينا بعض الطلبات وسآتى لزيارتك حينما أكون فى المنطقة إنى أأمل هذا كل أسبوعين إليك بطاقتى » .

بقيت يد إيثان إلى جانبه . ووضع بيجرز البطاقة فوق الثلاجة الباردة . « وهناك تذكاراً صغيراً نهديه لأصدقائنا الجدد». وأخرج من جيبه الجانبى حافظة ثمينة بديعة الصنع من جلد القمة المحبب . ووضعها إلى جوار البطاقة فوق البورسلين الأبيض . « شيء لطيف صغير . تضع فيه رخصة قيادتك ، أو بطاقة ناديك » .

لم يجب إيثان .

وقال بيجرز : « سأمر عليك خلال أسبوعين . عليك أن تفكر فى الأمر . سأمر عليك حتماً ، فلدى موعد مع مارجى . إنها فتاة رائعة » . ودون أن يتلقى رداً ، قال : « سأسمح لنفسى بالخروج ، وسأراك قريبا » . ثم اقترب فجأة من إيثان وقال : « لا تكن غبياً ، فكل شخص يفعلها . كل شخص ! »

وخرج مسرعا من الباب ، ثم أغلقه خلفه بهدوء .

استطاع إيثان أن يسمع فى السكون المظلم الأزيز المنخفض المنبعث من محول نور النيون فى الثلاجة . واستدار فى بطء الى المتفرجين المكومين والمرصوصين على الأرفف .

«حسبتكم أصدقائى ! ولكنكم لم تحركوا يداً من أجلى . ياعمار الجبو الصافى

ويامخالات الجو الصافى ، وياخلطة كعك الجو الصافى . لا تراتيل بعد الآن من أجلكم . عجبى ماذا كان يقول القديس فرنسيس لو أن كلباً عضه ، أو طائراً ميزز عليه. أكان يقول :«شكرا مستر كلب متشكر جداً .ياسينورطائر »؟ وأدار رأسه تجاه صوت قرقعة وخبط ودق على باب الحارة ، وذهب مسرعاً خلال المخزن وهو يغمغم : « الزبائن أكثر مما لو كان المحل مفتوحاً»

دخل جوى مورفى متعثراً ، وهو يمسك برقبته وقال فى أنين ، « حبا فى الله . النجدة . كوكا كولا أو بيبسى كولا على الأقل ، فإنى ميت من العطش . لم كل هذا الظلام هنا ؟ أم أن عينى قد غشيتا أيضاً ؟

— لقد أسدلت الستار محاولا تثبيط همة الصرافين العطشى .

اتخذ طريقه الى الثلاجة ، ونبش عن زجاجة مكسوة بالثلج ، وفتحها ، ومد يده بحثا عن أخرى وقال :« اعتقد أنى سأتناول واحدة أنا الآخر » .

استند الفتى جوى إلى الزجاج المضىء ، وقبل أن ينزل الزجاجة عن فمه كان قد اجترع نصفها ثم قال :« هاى ! لقد نسى شخص ماحافظته الثمينة » والتقط الحافظة .

— « تلك هدية صغيرة من الوكيل المتجول لشركة ب. ب. د إنه يحاول تسويق بعض بضائعه لنا »

— « حسنا ، أنه لايسوق الفول . اما هذه ، يابنى فهى من صنف ممتاز ، وعليها الأحرف الأولى من اسمك أيضا ، ومن الذهب »

« حقاً » .

— « أتعنى أنك لا تدرى ؟ »

— « لقد انصرف منذ دقيقة فحسب » .

فتح جوى باصبعيه الجلد المطوى ، ثم خشخش بالأظرف البلاستيك الشفافة التى توضع فيها البطاقات الشخصية ، وقال « يجدر بك أن تبدأ فى الانضمام إلى نادٍ ما » . وفتح ظهر الحفظة « والآن ، هذا ما أسميه التفكير الجيد » . وأخرج بين اصبعيه الأول والثانى ورقة جديدة من ذات العشرين دولاراً . « كنت أعلم أنهم يقومون بالغزو ، ولكن لم يكن فى علمى أن معهم دبابات . ذلك تذكار يستحق التذكر » .

— « هل كانت تلك بداخلها ؟ »

— « أتحسبنى زرعتها ؟ »

— « جوى ، أريد أن أتحدث معك . لقد عرض على الرجل خمسة فى المائة عمولة عن أية عملية أطلبها منهم » .

— « حسنا ، رائع ، رائع ! التوفيق أخيراً . ولم يكن وعداً فيه نكوص؟» قدم لنا الكوكا كولا . فهذا يومك » .

— « أنت لا تعنى أنه علىّ أن أقبل — » .

— « ولم لا ، ماداموا لا يضيفونها إلى الثمن ؟ من الذى سيخسر ؟ »

— «لقد قال إنه ينبغى علىّ ألا أخبر مارولو ، وإلا ظن أننى آخذ أكثر من ذلك » .

— « أجل سيظن ذلك . ماذا دهاك ، ياهولى ؟ هل أنت غبى ؟ أظن هذا

من أثر ذلك الضوء . إنك تبدو أخضر ، فهل أبدوأنا أخضر ؟ لعلك لم تكن تفكر فى التخلى عن العرض ؟ »

— « كان لدى من المتاعب ما يكفى لكيلا أركله فى مؤخرته » .

— « أوه ! إن الأمر كذلك ـ معك أنت والدنيا صور » .

— « لقد قال إن كل شخص يفعلها » .

— « ولكن ليس بوسع كل شخص الحصول عليها . إنك أحد المحظوظين فحسب » .

— « ولكنه ليس عملاً أميناً » .

— « وكيف لا ؟ من الذى يضار ؟ أهو عمل ضد القانون ؟ »

— « أتمنى أنك كنت تقبلها ؟ »

— « أقبلها ـ كنت أركع وأستجدى من أجلها . لقد أغلقوا على كل المنافذ فى عملى . وكل ما تستطيع عمله فى مصرف يعتبر ضد القانون من الناحية العملية ـ إلا إذا كنت مديراً . أنا لا أفهمك . ما الذى يجعلك تتردد فى التفكير ؟ لو كنت تستقطعه من الصبى ألفيو ، لقلت لك أن هذا عمل ليس غاية فى الاستقامة ولكنك لا تفعل ذلك . أنت تسدى اليهم جميلاً ـ وهم يسدون إليك جميلاً ـ جميلاً من ورق مالى لطيف هش أخضر . لا تكن أحمقاً . عندك زوجة وأطفال عليك أن تفكر فيهم ، وتربية الأطفال لن تخفض نفقاتها أى تخفيض » .

ـ « أود أن تنصرف الآن » .

وضع جوى مورو زجاجته التى لم تفرغ بعد بعنف فوق ظهر الثلاجة ، وقال

فى برود : « مستر هولى ــ كلا ، مستر إيثان آلان هولى ، حين تعتقد أننى قد أفعل أى شىء غير أمين أو أقترحه عليك ــ فتستطيع أن تذهب وتدفن نفسك» .

وسار جوى فى كبرياء تجاه المخزن .

— « لم أقصد ذلك . لم أقصده . صادقا أمام الله ، لم أقصده ، ياجوى . لقد تلقيت لتوى صدمتين اليوم ، أضف إلى ذلك ــ أن هذه أجازة مرعبة ــ مرعبة » .

توقف مورفى . « ماذا تعنى ؟ أوه ! أجل ، أعرف . أجل ، إنى فعلا أعرف . اتعتقد أنى أعرف ؟ »

— « لقد لازمنى هذا الشعور كل عام ، منذ أن كنت صبياً ، ولكنه يزداد سوءاً فحسب لأن ــ ربما لأن إدراكى لمعناه يتزايد ، وأنا أسمع تلك الكلمات الموحشة (إلهى لماذا تركتنى .) »

— « أعرف ، يا إيثان ، أعرف . إن الأزمة على وشك الانتهاء الآن ، يا إيثان . تناس إساءتى إليك ، هل ستفعل ؟ »

ودق جرس الإطفاء الحديدى ــ دقة واحد مفردة .

فقال جوى : « لقد انتهت الأزمة الآن . زالت كلها ولمدة عام » .
وتهادى فى هدوء خارجا عبر المخزن ، ثم أغلق باب الحارة فى سكون .

رفع إيثان الستائر ، وفتح المحل ثانية ، إلا أن حركة البيع لم تكن كبيرة . بضع صغار جاءوا يطلبون زجاجة لبن أو رغيفا من الخبز ، وشريحة صغيرة من لحم الخنزير وعلبة فاصولياء للمس بورتشر لتعد منها وجبة عشائها الساخنة ولم

يكن الناس قد بدأوا بعد سيرهم فى الشارع . وخلال النصف ساعة الذى يسبق الساعة السادسة ، و بينما كان إيثان يعد العدة للإغلاق ، لم يدخل المحل شخص واحد . وأغلق بالمفتاح وسار مبتعداً قبل أن يتذكر حاجيات البقالة المطلوبة لبيته ـ كان عليه أن يعود و يرتبها فى كيسين كبيرين ، ثم يعيد غلق المحل ثانية. لقد تملكته رغبة فى أن يسير إلى شاطىء الخليج ، ويرقب الأمواج الرمادية بين أعمدة حوض السفن ، ويشم رائحة ماء البحر ، و يتكلم إلى نورس يقف على مرمى عائم ومنقاره فى الريح وتذكر قصيدة لسيدة ، كتبتها منذ زمن بعيد إنسانة ما ، كادت تجن لمنظر الانزلاق الحلزونى الذى يصنعه النورس فى طيرانه.

كانت القصيدة تبدأ : « أوه ! أيها الطير السعيد ـ ما الذى يبعث فيك كل هذه النشوة ؟ » ولم تكتشف الشاعرة السبب أبداً ، ولعلها لم ترد أن تعرف .

أوهنت أكياس البقالة الثقيلة التى أخذها للعطلة عزيمته للمشى . وتحرك إيثان فى تهالك عبر شارع هاى ، ثم اتخذ طريقه ببطء فى شارع إلم متجهاً إلى بيت هولى العتيق .

الفصل الثانى

جاءت إليه مارى من عند الموقد، وتناولت منه أحد كيسى البقالة الكبيرين.

— « لدى الكثير جداً لأخبرك به . لا أستطيع الانتظار » .

قبلها ولمست جلد شفتيه ، وسألته :

— « ماذا بك ؟ » .

— « متعب قليلاً » .

— « ولكنك أغلقت المحل ثلاث ساعات » .

— « كان أمامى الكثير لأعمله » .

— « آمل ألا تكون مكتئباً » .

— « إنه يوم كئيب » .

— « بل لقد كان يوما رائعا . أنتظر حتى تسمع » .

— « أين الأولاد » ؟ .

— « فى الطابق العلوى إلى جوار الراديو . ولديهم أيضا شىء يقولونه لك » .

— « مشكلة ؟ »

— « والآن ، لم تقول ذلك ؟ »

— « لاأدرى » .

— « أنت لاتشعر بأنك فى خير حال » .

— « اللعنة ، أننى أشعر بهذا أيضاً » .

— « مع كل تلك الأشياء البديعة ـ سأنتظر إلى مابعد العشاء حتى يحل
ورنا . هل سيدهشك ذلك ؟ » .

اندفع آلان وماري إيلين نازلين السلم في جلبة ، ثم دخلا المطبخ . كانا
نولان : « إنه في البيت . »

— « بابا، هل لديكم بيكس Peeks في المحل ؟ » .

— « أتقصد مسحوق العصيدة ذاك ؟ بالتأكيد ، ياآلان » .

— « أود أن تحضر بعضاً منه . أنه ذلك الذي على علبته قناع على شكل
ر يمكنك أن تقصه . »

« ألست أكبر قليلا لتستعمل قناعا على شكل فأر ».

وقالت إيلين : « لوأرسلت غطاء العلبة وعشرة سنتات فإنك تحصل على
ة تجعلك تتكلم من بطنك مع تعليمات باستعمالها . اقد سمعنا ذلك لتونا
الراديو » .

وقالت ماري : « أخبرا والدكما بما تنويان عمله . »

. « حسنا ، نحن ننوى الاشتراك في المسابقة الوطنية « أحب أمريكا » .
لجائزة الأولى هي الذهاب إلى واشنجتون ، ومقابلة الرئيس — مع الوالدين
كثير من الجوائز الأخرى» .

قال إيثان : « رائع ولكن ماهي هذه المسابقة ؟ ماذا ينبغي عليكما أن
لا ؟ »

فصاحت إيلين : «ألم تسمع من الصحف ، في طول البلاد وعرضها عليك

فحسب أن تكتب مقالا موضوعه لماذا تحب أمريكا . وسيظهر جميع الفائزين فى التليفزيون » .

وقال آلان : « إنها الشهرة . مارأيك فى الذهاب إلى واشنجتون ، والفندق ، والمسارح ، ومقابلة الرئيس ، والمصانع . كيف يكون ذلك بالنسبة للشهرة ؟ »

ــ « وكيف حال عملك المدرسى ؟ »

ــ « ستكون المسابقة فى هذا الصيف . وسيعلنون أسماء الفائزين فى الرابع من يوليه . »

ــ « حسنا ، ربما لايكون هناك بأس من ذلك . وهل تحبان أمريكا حقيقة أم أنكما تحبان الجوائز ؟ »

وقالت مارى : « والآن ، أيها الأب ، لاتفسد عليهما بهجتهما . »

ــ « كنت أريد فحسب أن أفصل مسحوق الصيدة عن القناع الذى على شكل فأر . فقد اختلط الأمر كله على ؟ »

ــ « بابا ، أيمكن أن تقول لنا أين نبحث عن مصادر للمقال ؟ »

ــ « تبحثا عن مصادر » .

ــ « بالتأكد ، مثلما قال بعض الفتية الآخرين » .

ــ « لقد كان لدى جدكم العظيم بضعة كتب رائعة جداً . إنها فى السندرة . »

ــ « مثل ماذا » ؟ .

— « أوه ، مثل خطب لينكولن ودانيال ويبستروهنرى كلاى و بإمكانك أن تلقى نظرة على كتب ثورو أووالت و يتمان أوإمرسون ـ ومارك توين أيضا . إنها جميعا هناك بأعلى فى السندرة » .

— « وهل قرأتها ، يابابا . »

— « كان جدى هو الذى اعتاد أن يقرأها لى فى بعض الأحيان » .

— « ربما تسطتيع مساعدتنا فى المقالات . »

— « وعندئذ لا تكون من صنعكما . »

فقال ألان : « حسنا ، هل ستذكر أن تحضر إلى البيت بعضاً من البيكس ؟ إنه ملىء بالحديد والمواد الغذائية . »

— « سأحاول . »

— « أيمكننا الذهاب إلى السينما ؟ »

قالت مارى : « كنت أظن انكما ستقومان بتلوين بيض عيد الفصح . أننى أسلقه الآن تستطيعان أخذه إلى الخارج لتلوينه تحت السقيفة بعد العشاء . »

— « أيمكننا الصعود إلى السندرة والإطلاع على الكتب ؟ »

— « إذا اطفأتما النور بعد انتهائكم . فقد ظل مضاء طيلة أسبوع ذات مرة . لقد تركته أنت مضاء ، ياإيثان . »

وحين انصرف الطفلان ، قالت مارى :

— « ألست مسرورا لدخولهما المسابقة ؟ »

— « بالتأكيد، إذا أدياها على الوجه الصحيح . »

— « أننى لاأستطيع الأنتظار لإخبارك — لقد قرأت مارجى طالعى فى الورق اليوم ، ثلاث مرات ، لأنها — كما قالت — لم ترأبداً أى شىء كهذا . ثلاث مرات ! لقد رأيت الورق بنفسى وهو يتشكل . »

— « أوه ! ياالهى ! »

— « لن يكون لديك كل هذا الشك عندما تسمع . لقد كنت دائما تحشر الفكاهة فيما يتعلق بأشخاص سمر غرباء . وأنت لاتستطيع أن تخمن عن أى شىء دار الطالع . حسنا — أتريد أن تحزر ؟ »

وقال : « مارى ، أود أن أحذرك . »

— « تحذرنى ؟ لماذا ، وأنت حتى لم تعرف بعد . إن طالعى هو أنت وقال كلمة خشنة لاذعة بصوت منخفض .

— « ماذا قلت ؟ »

— « قلت ، فضلات تافهة . »

— « هذا ماتعتقده ، ولكن ليس هذا ما يعتقده الورق . لقد قرئته ثلاث مرات . »

— « الورق يعتقد ؟ »

قالت مارى : « إنه يعرف . لقد قرأت ورق هنا وكان كله يدور حولك أنت ستصبح واحداً من أهم رجال هذه البلدة — هذا ماقلته . من أهم رجالها . كما أن هذا لن يستغرق وقتاً طويلاً . إنه سيحدث سريعاً جداً . كانت كل ورقة تقلبها تبين نقوداً ومزيداً من النقود . إنك ستصبح غنياً .

وقال : « ياعزيزتى ، أرجوك دعينى أحذرك ، أرجوك ! »

ــ « وستقوم بعملية استثمار . »

ــ « بأى شىء ؟ـ »

ــ «حسناء ، كنت أفكر فى نقود أحى . »

فصاح : « كلا لن ألمسها . إنها تخصك . وستظل ملكك . هل فكرت فى ذلك من تلقاء نفسك أم هل . »

ــ هى لم تذكرها أبدا . وكذلك لم يذكرها الورق . أنت ستستثمر مالاً فى شهر يوليو ، ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، سيتوالى شىء وراء الآخر ـ حتى وراء آخر . ولكن ألا يبدو وقع هذا بديعاً ؟ لقد قالتها بتلك الطريقة ـ إن طالعك هو إيثان . إنه سيكون رجلا واسع الثراء وربما أهم رجل فى هذه البلدة .

ــ فلتحل عليها لعنة الله ! ليس لها أى حق فى هذا الكلام .

ــ « إيثان ! »

ــ « اتعرفين ماذا تفعل ؟ اتعرفين ماذا تفعلين ؟

ــ « أعرف أنى زوجة صالحة وأنها صديقة طيبة . وأنا لا أريد شجاراً والأطفال على مسمع منا . إن مارجى يانج هنت هى أفضل صديقاتى . أعلم أنك لا تميل إليها . أما ماأعتقده فهو أنك تغار من صديقاتى ــ ذلك ماأعتقده . لقد تمتعت بأصيل سعيد وأنت تريد أن تفسده . هذا ليس لطيفا منك . »

وتلون وجه مارى بعدة ألوان بسبب خيبة الأمل والغضب ، واعتراه تعبير انتقامى تجاه هذه العقبة التى اعترضت طريق حلم يقظتها .

ــ « أنت تجلس هناك فحسب ، أيها السيد الأنيق ، وتمزق فروات الناس

أنك تحسب أن مارجى رتبت الأمر كله . إنها لم تفعل ، لأنى قطعت الورق ثلاث مرات - بل وحتى لو فرضنا أنها فعلت ، فلماذا كانت ستفعل ذلك لو لا أنها ودودة عطوفة وتريد أن تقدم قليلا من المساعدة ؟ عليك أن تخبرنى بذلك أيها السيد الأنيق ! عليك أن تجد سبباً كريهاً لذلك » .

قال : «أود لو أعرف . ربما يكون لمجرد الرغبه فى إلحاق الأذى . فليس لها من زوج أو عمل . ربما يكون لمجرد الرغبة فى إلحاق الأذى » .

خفضت مارى من صوتها وتكلمت فى ازدراء : «أنت تتكلم عن الرغبة فى إلحاق الأذى - إنك لن تعرف الرغبة فى إلحاق الأذى حتى ولو صفعتك هذه الرغبة على وجهك . أنت لا تعرف ما تتعرض له مارجى . هناك رجال فى هذه البلدة يسعون فى أثرها طول الوقت . رجال مهمون ، رجال متزوجون ، يتهامسون ويلحون - أقذار . وأحيانا لاتدرى أين تولى وجهها . لهذا السبب تحتاجنى ، كصديقة . أوه ، لقد حكت لى أشياء - عن رجال لا يمكن أن تصدق أنهم هم . بل أن بعضهم يتظاهرون بكراهيتها أمام الناس وبعد ئذ يتسللون إلى بيتها أو يطلبونها فى التليفون ويحاولون الحصول على موعد - رجال يتظاهرون بالتقوى ، ودائما يعظون بالأخلاق ، ثم بعد ئذ يأتون أموراً كهذه . أنت تتكلم عن الرغبة فى إلحاق الأذى » .

— « وهل قالت من يكونون ؟ »

— « كلا لم تفعل ، وهذا برهان آخر . فمارجى لا تريد إيذاء أحد حتى ولو آذوها . ولكنها قالت أن هناك واحدا لا يمكننى أن أصدق أنه هو . وقالت أننى لو عرفت لأحال ذلك شعرى أشيباً » .

أخذ إيثان نفسا عميقا ، ثم استبقاه ، وتركه يخرج على شكل تنهيدة هائلة . وقالت ماري : « إني لأعجب من يمكن أن يكون . فالطريقة التي تكلمت بها جعلته يبدو وكأنه شخص ماتعرفه جيداً ، ولا يمكن أن نصدق عنه ذلك » .

— « ولكنها ستقول تحت ضغط ظروف معينة » . قالها إيثان برقة .

— « إذا أرغمت على ذلك فحسب . لقد قالت هذا بنفسها . إذا اضطرت فحسب ، إذا تعرضت شيء مثل ـ شرفها ، أو سمعتها الطيبة ، أنت تعرف . من تظنه يمكن أن يكون ؟ »

— « أظن أني أعرف » .

— « أنت تعرف ؟ من ؟ »

— « أنا » .

وفغرت فاها . ثم قالت :

— « أوه ! أيها الأحمق ! لو لم أكن منتبه إليك ؛ لخدعتني في كل مرة جسناً ، هذا أفضل من الكآبة » .

— « مسألة محيرة رجل يعترف بخطايا الجسد التي ارتكبها مع أفضل صديقات زوجته ، فتضحك منه ساخرة » .

— « ليس ذلك كلاماً مهذباً » .

— « ربما كان ينبغي على الرجل أن ينكر الأمر ؛ فحينئذ على الأقل كانت زوجته ستسبغ عليه شرف الريبة . عزيزتي ، إني أقسم لك بكل ماهو مقدس ، إني لم أحاول أبداً سواء بالقول أو الفعل التقرب من مارجن يانج هنت والآن هل ستصدقين أني مذنب ؟ »

ـــ « أنت ! » .

ـــ « أنت لاتعتقدين أننى صالح بما فيه الكفاية،ومرغوب بما فيه الكفاية، فى قول آخر ألا تظنين أنه فإمكانى أن أصل إلى المستوى ؟ »

ـــ « إنى أحب النكات . وأنت تعرف هذا ـ ولكن ليس ذلك شيئاً للتندر به . أتمنى ألا يكون الأطفال قد بعثروا محتويات الصناديق التى هناك باعلى فهم لايعيدون شيئاً إلى مكانه أبداً » .

ـــ «سأحاول مرة أخرى يازوجتى الجميلة . امرأة ما ، اختصار اسمها م.ى.هـ وقد أحاطتنى بالفخاخ ، لأسباب معروفه لها وحدها . وأنا فى خطر عظيم من التردى فى واحد أو أكثر منها » .

ـــ « لم لاتفكر فى طالعك ؟ لقد قال الورق ، شهر يوليو ،وقالها ثلاث مرات وأنا رأيته . ستحصل على نقود ، كميات وافرة من النقود . فكر فى ذلك » .

ـــ « أتحبين النقود كثيرا ، أيها الأرنب الصغير ؟ »

ـــ « أحب النقود ؟ ماذا تعنى ؟ »

ـــ « اترغبين فى النقود المدرجة التى تبرر تحضير الأرواح ، أو الشعوذة ، أو استخدام سحر قبائل غرب أفريقيا ، وأية عمليات سحرية أخرى ؟ »

ـــ « لقد قلتها ! لقد بدأتها . ولن أدعك تختفى وراء كلماتك . هل أحب النقود ؟ كلا ، أنا لاأحب النقود ، ولكنى أيضا لاأحب القلق . أحب أن أكون قادرة على رفع رأسى فى هذه البلدة . لاأحب أن يشعر الأطفال بالخجل لأنهم لايستطيعون أن يلبسوا فى مثل أناقة ـ وفى مثل رفاهية ـ بعض الأطفال الآخرين . أحب أن أرفع رأسى . »

— « وهل النقود هى التى ستدعم رأسك ؟ »

— « إنها ستزيل ابتسامات السخرية من وجوه أهل بلدتك المقدسة » .

— « لاأحد يسخر من آل هولى » .

— « أهذا ماتعتقده ! إنك لاترى سخريتهم فحسب » .

— « ربما لأننى لاأبحث عنها » .

— « هل ستلقى على عظات آل هولى المقدسين » ؟

— « كلا ، ياعزيزتى . إنها لم تعد بعد سلاحاً ذا قيمة » .

— « حسنا ، إنى سعيدة لأنك اكتشفت ذلك فوجود موظف بقالة من من آل هولى فى هذه البلدة أو فى أية بلدة أخرى ، لايجعله أكثر من مجرد موظف فى محل بقالة » .

— « أتلومينى على فشلى » ؟

— « كلا . أنا لاألومك بالطبع . ولـكنى ألومك لأنك جالس تتمرغ فى الفشل . كان بإمكانك الخروج منه لو لم تكن أفكارك العتيقة الخيالية . إن كان فرد يضحك منك: إن سيداً مهذباً عظيماً و بلا نقود يكون صعلوكاً» دوت الـكلمة فى رأسها ، وتملـكها الصمت والخجل .

وقال إيثان : « أننى آسف لقد علمتنى شيئاًما ـ وربما ثلاثةأشياء ، ياأرنبتى الحمقاء . ثلاثة أشياء لايمكن أن تصدق أبداً ـ الحقيقى ، والمحتمل ، والمنطق إننى أعرف الآن من أين أحصل على النقود لأبدأ تحقيق طالعى » .

— « من أين ؟ »

ـ « ساسطو على مصرف . »

وتصاعد صفير بطىء منقطع من الجرس الصغير الذى فى الحـاله الميقاتية .

قالت مارى : « أذهب وناد الأطفال . لقد نضج الأكل . قل لهم أن يطفئوا النور » .

ثم أخذت تنصت لوقع أقدامه .

الفصل الثالث

زوجتى ، عزيزتى مارى ، تشرع فى النوم بنفس الطريقة التى تغلق بها باب حجرة . وكم من مرات عديدة كنت أرقبها فى حسد . يتلوى جسدها الجميل لحظة وكأنها تهيىء نفسها للدخول فى شرنقة . وتتنهد مرة وعند نهاية التنهيدة تغمض عينيها ، ودونما انزعاج ، تتهاوى شفتاها إلى تلك الابتسامة الحكيمة الطفيفة التى لآلهة الإغريق القدماء . وتظل مبتسمة فى نومها طول الليل ، ويهز نفسها فى حنجرتها ، وهو ليس شخيرا ، ولكنه هرير قطة . وللحظة تتصاعد درجة حرارتها حتى يصبح فى إمكانى أن أحس بوهجها إلى جوارى على الفراش ، وبعدئذ تهبط درجة الحرارة وتكون هى قد راحت فى سبات . وأنا لا أدرى إلى أين تروح . فهى تقول إنها لاترى أحلاماً . ولكن لابد طبعاً من أن ترى وهذا معناه ببساطة ، أن أحلامها لاتشغلها ، أو أنها تشغلها إلى درجة كبيرا جداً بحيث تنساها قبل إستيقاظها . وهى تحب أن تنام ، والنوم يرحب بها . أود لو كان الأمر كذلك معى . إننى أحارب النوم ، وفى نفس الوقت أتوق إليه .

ولقد ظننت أنه ربما كان الفرق بيننا ، إن عزيزتى مارى تعرف أنها ستعيش إلى الأبد ، وأنها ستخطو من الحياة إلى حياة أخرى بمثل السهولة التى تنزلق بها من النوم إلى اليقظة . وهى تعرف هذا بكامل جسدها ، تعرفه تماماً حتى أنها لاتفكر فيه أكثر من تفكيرها فى التنفس وهكذا لديها وقت لتنام ، ووقت لتستريح ، ووقت تنفى فيه وجودها لبرهة قصيرة .

ومن ناحية أخرى ، أعرف أنا بعظامى وأنسجة جسمى ، أنه يوما ماسواء عاجلاً أو أجلاً سأتوقف عن الحياة ، وهكذا أقاوم النوم ، وأتوسل إليه ، بل أحاول حتى أن آخدعه ليجىء . ولحظة نومى هى تشويه كبير ، وألم شديد : وأنا أعرف هذا لأننى استيقظت فى هذه اللحظة ولا زلت أحس بالضربة الساحقة . وإذا حدث ونمت ، فإننى أقضى فترة حافلة بالمشاغل وأحلامى هى مشاكل يومى وقد خرجت إلى مرحلة عبث ، تشبه إلى حد قليل رجالا يرقصون وهم يلبسون قرونا وأقنعة لحيوانات .

إننى أنام فى المرة الواحدة أقل من مارى بكثير . وهى تقول إنها تحتاج إلى كمية كبيرة من النوم ، وأوافقها أنا على أنى أحتاج إلى كمية أقل ، ولكننى أبعد ما أكون عن الإيمان بهذا . فهناك فحسب مقدار من الطاقة مختزن فى الجسم وهو يزداد طبعا مع الغذاء . ويستطيع الإنسان أن يستهلكه بسرعة ، مثلما يلتهم بعض الأطفال حلواهم ، أو يفضون الورق عنها ببطء . ودائما توجد الفتاة الصغيرة التى تحتفظ بجزء من حلواها ليتبقى لديها بينما يكون الملتهمون قد فرغوا منها منذ وقت طويل . أظن أن عزيزتى مارى سوف تعيش أطول منى بكثير . ستكون قد أدخرت بعض حياتها لما بعد . وإذا وصلنا للتفكير فى هذا ، سنجد غالبية النساء يعشن مدة أطول من الرجال .

دائماً مابعث فى يوم الجمعة الحزينة الكدر . بل حتى فى طفولتى كان ينتابنى أسى عميق ليس مبعثه عذاب الصلب ، بل إحساسى بوحده للمصلوب المدمرة . ولم أفقد مطلقاً الأسى، الذى غرسه فى «متى» حين كانت عمتى العظيمة ديبورا تقرأ إنجيله بإلقائها المتوتر المتكسر الذى من خصائص أهل نيوإنجلند .

وربما كان الأمر أسوأ هذا العام . فنحن نجعل من أنفسنا موضوع القصة ثم نتجسدها . فاليوم تعلمت من مارواللو الحياة ، وهكذا فهمتها لأول مرة من خلال وجهة نظر التجارة . وبعد ذلك مباشرة قدمت لى أول رشوة . وغريب على من هو فى مثل سنى أن يقول ذلك ، ولكننى لا أذكر أية رشوة غيرها . ينبغى أن أفكر فى مارجى يانج هنت . هل هى شىء شرير ؟ ماغرضها ؟ أعرف أنها وعدتنى بشىء وهددتنى إذا لم أقبله . أيستطيع المرء أن يفكر خارج نطاق حياته ، أم ينبغى عليه أن يتابعها فحسب ؟

كم من ليالى عديدة رقدتها ساهراً ، أسمع هرير مارى الخافت إلى جوارى ، وإذا حدقت فى الظلام فستبدأ نقط حمراء فى السباحة أمام عينك ، ويطول الوقت . مارى تحب نومها جدا لذا أحاول أن أحميها فى أثنائه حتى عندما يلسع تيار جسدها الكهربى بشرتى . وهى تستيقظ لو غادرت الفراش . إذ يبعث هذا فيها القلق ، وتعتقد أننى لست بخير ، لأن تجربتها الوحيدة عن الأرق كانت فى أثناء مرضها .

كان على فى هذه الليلة أن أنهض وأخرج . وكان تنفسها يهر برقة وكنت أستطيع رؤية الابتسامة الأثرية على فمها . وربما كانت تحلم بحسن الطالع ، بالنقود التى سأحصل عليها . ومارى تريد أن تتيه كبرياء .

إنه لأمر غريب كيف أن المرء يعتقد أنه يستطيع التفكير بطريقة أفضل فى مكان خاص . ولدى مثل ذلك المكان ، ولقد كان لى دائماً ، ولكننى أعرف أن ما أقوم به هناك ليس التفكير ، بل الإحساس والتجربة والتذكر . إنه مكان أمان — ولابد أن لكل شخص مكانه ، رغم أننى لم أسمع مطلقاً امرءاً يتحدث

عنه . غالبا ماتوقظ حركه هادئة وخفية نائماً ، بينما لايفعل ذلك حدث متعمد
عدى . وأنا مقتنع أيضا أن الأذهان النائمة تتجول فى أفكار الناس الآخرين
وأخذت أقنع نفسى بأننى أحتاج إلى الذهاب إلى الحمام ، وحين صار الأمر كذلك ،
نهضت وذهبت . بعد ذلك نزلت الدرج فى هدوء ، وأنا أحمل ملابسى ، ثم
ارتديتها فى المطبخ .

مارى تقول إننى أشارك الآخرين متاعب ليس لها وجود . ربما يكون
الأمر كذلك ، ولكنى رأيت مشهداً قلما يحتمل حدوثه ، يتمثل أمامى فى
لمطبخ ذى الضوء المعتم ـ مارى مستيقظة وهى تنقب المنزل بحثا عنى ، والانزعاج
على وجهها . فكتبت ملحوظة على مفكرة البقالة تقول : « عزيزتى ـ إننى
لمق . خرجت لأتمشى ، وسأعود سريعاً » . وأظن أنى تركتها فى منتصف
نضدة المطبخ تماماً حتى إذا ما أضىء النور من مفتاح الحائط ، تكون هى أول
لأشياء المرئية .

بعدئذ فتحت الباب الخلفى فى هدوء ، واختبرت الهواء . كان قارس البرد ،
تنبعث منه رائحة غشاء صلب من الجليد الأبيض . وتلفحت فى معطف ثقيل
جذبت فوق أذنى طاقية بحارة من الصوف المحبوك . ودمدمت ساعة المطبخ
لكهربائية ، كانت تعلن الثالثة إلا الربع . كنت قد ظللت راقدا أرقب النقط
لحمراء فى الظلام منذ الحادية عشرة .

أن بلدتنا نيو بايتون بلدة أنيقة ، بلدة عتيقة ، واحدة من أول البلدان
إضحة المحددة المعالم فى أمريكا كلها ، أما سكانها الأول وكذلك أسلافى ،
اأعتقد ، فقد كانوا بناء أولئك البحارة العديمى الاستقرار ، المخادعين ، المحبين

للتجار ، المولعين بحشد المال ، الذين كانوا يسببون صداعاً لأوربا تحت حكم إليزابيت ، والذين استولوا على جزر الهند الغربية لأنفسهم تحت حكم كرومويل، ثم جاءوا فى النهاية ليستقروا على الشاطىء الشمالى ، وهم يحملون تراخيصهم من تشارلز ستيوارت العائد إلى العرش . ولقد وفقوا بنجاح بين القرصنة والتزمت الدينى ، وهما شيئان على أقصى درجة من التشابه حين تتعمق فى الموضوع . فكلاهما تتوفر فيه كراهية شديدة للمعارضة ، ولكلاهما عين زائغة بالنسبة لممتلكات الآخرين . وحينما كانوا يمتزجون بالأهالى ، كانوا ينتجون حفنة من الصغار الصلبى الإرادة المنتصرين على الحياة . وأنا أعرف أمرهم ، لأن والدى جعلنى أعرف كان نمطاً من الهواة العظام الذين يهتمون بأسلافهم ، ودائماً ما لاحظت أن الناس الذين يهتمون بأسلافهم ، غالبا ما يفتقدون الصفات التى للأشخاص الذين يجلونهم . كان أبى سيداً مهذباً ، أحسن تثقيفه ، وأسىء نصحه ، وكان أحياناً أحمق رائعاً . فقد أضاع الأرض دون معين وكذلك النقود ، والهيبة ، والمستقبل ، والواقع أنه أضاع تقريبا كل ما جمعه آل آلان وهولى فيما يزيد على بضع مئات من السنين ، أضاع كل شىء ماعدا الأسماء — وهى كل ما كان يهم أبى على أية حال . ولقد اعتاد أبى أن يعطينى دروساً فيما كان يسميه « دروس فى التراث » . وذلك هو السبب فى أننى أعرف الكثير عن الفتية القدامى . وربما كان ذلك أيضا هو السبب فى أننى أعمل موظفاً فى بقالة صقلى فى عمارة اعتاد آل هولى أن يمتلكوها . ليتنى لم أمتعض من عملى إلى هذا الحد . فلم يكن الإفلاس أو الأزمنة العصيبة هى التى أطاحت بنا .

لقد حضرنى كل ذلك عندما بدأت أقول أن نيوبايتون بلدة قديمة

استدرت يمينا فى شارع إلم بدلا من يساراً ، وسرت مسرعا إلى شارع بورلوك ، الذى يستدير محاذيا لشارع هاى . سيكون وى ويلى ، كونستابل البلدة السمين ، وسنانا فى سيارة البوليس فى شارع هاى ، وأنا لا أريد أن أقضى الليل معه ليسألنى . « ماذا تفعل بالخارج فى مثل هذا الوقت المتأخر ، إيث ؟ هل أنت فى ورطة صغيرة » وى ويلى تصيبه الوحشة ويحب الكلام ، ثم هو يتكلم مؤخراً عما اعتاد أن يتكلم عنه . ومن شعور ويلى بالوحشة نمت بضع فضائح صغيرة ولكنها كريهة . أما الكونستابل الذى يعمل فى أثناء النهار فهو ستونول جاكسون سميث . وذلك ليس اسم دعاية . فقد سمى ستونول[1] جاكسون ، وقد ميزه هذا عن كل الآخرين الذين يحملون اسم سميث . أنا لا أدرى لم يتعين على رجال شرطة البلدة أن يكونوا متناقضين ، ولكنهم غالبا ما يكونون كذلك . وستونى سميث رجل خشن ، لايبوح باسم اليوم الكائن ، إلا إذا كان واقفاً على منصة الشهود بعد أن أدى القسم . ومدرس البوليس سميث يدير قسم البوليس فى البلدة وقد كرس له نفسه ، ويدير أحدث الطرق ، وقد تلقى تدريب مكتب الأبحاث الجنائية الاتحادى فى واشنجتون . وأعتقد أنه رجل بوليس جيد مثلما يحتمل أن تجد ، طويل القامة هادىء ذو عينين لهما وميض المعدن وإذا كنت تدبر لارتكاب جريمة ، فسيكون مدير البوليس هو الرجل الذى عليك أن تتجنبه .

لقد حضرنى ذلك كله من ذهابى إلى شارع بورلوك لكى أتجنب الحديث مع وى ويلى . وفى بورلوك توجد المنازل الجميلة فى بلدة نيو بايتون . أنت ترى . إننا كنا نمتلك فى فترة مبكرة من القرن التاسع عشر ما يزيد على مائة سفينة لصيد الحيتان . وعندما كانت السفن تعود من رحلة سنة أو سنتين بالخارج من مكان بعيد مثل القطب الجنوبى أو بحر الصين ، فإنها تكون محملة بالزيت

(١) ستون وول معناها الحائط الحجرى وبهذا تتضح الدعاية فى اختيار الاسم .

والغنى الكثير . ولكنها كانت على اتصال بموانىء غريبة تلتقط منها أشياء مثلما تلتقط أفكاراً ، وذلك هو السبب فى أنك ترى أشياء صينية عديدة فى منازل شارع بورلوك . ولقد كان لبعض أولئك الربابنة القدامى من أصحاب السفن ذوق طيب أيضاً . فقد أحضروا ، بكل ما لهم من نقود ، مهندسين معماريين إنجليز لكى يبنوا منازلهم . وذلك هو السبب فى أنك ترى الكثير من تأثير فن آدم وإحياء فن العمارة الإغريقية فى شارع بورلوك . لقد كانت موضة ذلك العصر فى إنجلترا . ولكن رغم كل النوافذ المروحية الشكل فوق الأبواب ، ورغم الأعمدة ذوات التجاويف المستطيلة والأقواس الإغريقية ، فانهم لم يهملوا أبدا وضع ذلك الممر على السقف . وكانت الفكرة منه هى أن يصبح فى استطاعة الزوجات المخلصات حبيسات المنزل الصعود الى هناك ليرقبن السفن العائدة ، وربما كان بعضهن يفعل ذلك . وقد كانت عائلتى ، آل هولى وكذلك آل فيليبس ، وآل إيلجر وبيكر أقدم من سكان شارع بورلوك فقد ظلوا يسكنون شارع الم ، وكانت منازلهم بسقوفها المدببة ودعاماتها ذات الخشب الملبس من الطراز المسمى « البيوت الأمريكية الأولى » . وعلى هذا الطراز كان منزلى ، منزل هولى العتيق . وكان شجر الدردار العملاق فى ذلك الشارع فى مثل عمر المنازل .

وقد أبقى شارع بورلوك مصابيحه التى كانت تضاء بالغاز ، وإن صارت تضاء الآن بلمبات كهربائية . ويأتى السياح فى الصيف ليروا فن العمارة وما يسمونه « سحر العالم القديم » الذى فى بلدتنا . لماذا ينبغى أن يكون السحر فى العالم القديم ؟ :

إننى لا أذكر كيف امتزج آل فيرمونت آلان بآل هولى . حدث ذلك

عقب الثورة مباشرة وباستطاعتي طبعاً أن أعرف . فسيكون هناك سجل فى مكان ما بالسندرة عندما توفى والدى ، كانت مارى قد سئمت تماما تاريخ عائلة هولى ، ولهذا فحينما اقترحت تخزين كل شيء فى السندرة ، كنت أفهم طبيعة شعورها . فمن الممكن أن تسأم تماما تاريخ أسرة أناس آخرين . بل إن مارى ليست حتى من مواليد نيوباتيون . فقد انحدرت من أسرة ذات أصل أيرلندى ولكنها ليست كاثوليكية . ودائما ما تشير إلى ذلك « عائلة ألستر ، كما تدعوها » وهى من بوسطن .

كلا ، بل إنها ليست كذلك من بوسطن . لقد التقيت بها هناك . وأستطيع الآن أن أرى كلينا ، ربما أكثر وضوحا الآن عن ذى قبل ، ملازم ثان عصبى وخائف ، وهو الملازم هولى ومعه تصريح بأجازة نهاية الأسبوع ، ثم الرقة ، وخدان كورق الزهر ، والرائحة الحلوة التى تنبعث من فتاة عزيزة ، بل كان تأثير هذا كله مضاعفاً بسبب الحرب وكتب الدراسة . كم كنا جادين ، كنا جادين إلى درجة كبيرة . كنت معرضاً للقتل وكانت هى على استعداد أن تهب حياتها لذكرى بطولتى . كان واحداً من مليون حلم متشابه يحلم به مليون زى رسمى زيتونى ، ومليون ثوب من القطن المطبوع . وربما كان قد انتهى بالخطاب التقليدى الذى يبدأ بعبارة « عزيزى جون » فيما عدا أنها قد وهبت حياتها لمحاربها . أما خطاباتها ، الحلوه لما فيها من رصانة ، فقد تبعتنى فى كل مكان ، بخط منحن واضح فى حبر أزرق على ورق أزرق فاتح ، حتى عرفت فرقتى كلها خطاباتها وكان كل فرد فى سعادة غريبة من أجلى . وحتى لو لم أكن راغباً فى الزواج من مارى ، لأرغمنى عليه وفاؤها ، رغبتى فى تخليد حلم العالم فى النساء الجميلات المخلصات .

وهى لم تتهاو ، أمام إنتقالها من مسكنها ذى الطراز الأيرلندى فى بوسطن إلى بيت آل هولى العتيق فى شارع إلم . كما لم تتهاو مطلقاً أمام يأسى القاسى لفشلى فى العمل، ولا أمام إنجاب أطفالنا ، أو أمام الشلل الذى ساد عملى كموظف فى محل زمناً طويلاً . إنها ممن ينتظرون ـ أستطيع أن أرى ذلك الآن وأعتقد أنها بعد طول انتظار للنهاية ، تماسكها السأم من الإنتظار فلم تبن أبداً من قبل عن صلابة رغباتها ، فعزيزتى مارى لم تكن ممن يسخرن ، ولم يكن الازدراء من أسلحتها . لقد كانت مستغرقة بكليتها فى جعل مواقف عدة تبدو فى أحسن صورة . فقط بدا واضحاً أن السم تسرب إلى ذهن ما ، لأنه لم يسبق له من قبل أن تسرب إليه . يالها من سرعة تلك التى كانت الصورة تتشكل بها مع وقع الخطوات التى تسحق الجليد على أرض الشارع المظلم . ليس هناك ثمة سبب للإحساس بأنى أسترق السير فى الصباح المبكر فى نيوبايتون ، « فوى ويلى » يسخر من هذا سخرية سخيفة ، ولكن غالبية الناس الذين يروننى أسير فى اتجاه الخليج فى الثالثة صباحاً ، سيفترضون أننى ذاهب لصيد السمك ولن تتبادر إلى ذهنهم أية فكرة أخرى . وقومنا يعرفون كل نظريات صيد السمك وبعضها سرى سرية وصفات الطبخ العائلية ، وأمثال هذه الأشياء تحترم وهى جديرة بالاحترام .

كانت أنوار الشارع تجعل الجليد الأبيض الصلب الذى يغطى عشب الحدائق والأرصفة يتألق وكأنه ملايين من الماسات الدقيقة . وجليد مثل هذا ينطبع عليه أثر القدم ، ولم يكن يوجد أمامى أى أثر لذلك . ولقد كنت أشعر دائما ومنذ طفولتى باستثارة غريبة من السير فوق ثلج أو جليد ليس عليه أثر قدم . إن هذا يشبه أن تكون أول من يطأ عالماً جديداً ، ويبعث فيك إحساساً عميقاً

مريحاً باكتشاف شيء ما نظيف ، وجديد ، لم يستعمل ، ولم يتسخ . أما أهل الليل العاديون ، القطط ، فهم لايحبون المشى فوق الجليد . وأذكر مرة ، وفى لحظة شجاعة ، أن خطوت حافياً على ممشى مغطى بالجليد ، فشعرت كأن قدمى تحترقان . ولكن الآن وأنا ألبس الأحذية الواقية من المطر والجوارب الثقيلة ، فإننى أضع الندبات الأولى على الجدّة المتألقة .

وحيث يتقاطع شارع بورلوك مع شارع توركى ، أعنى حيث يقع مصنع الدراجات ، وعلى مبعدة من شارع هيكس ، كان الجليد النظيف مشوها بآثار طويلة لجر أقدام — إنه دانى تيلور ، شبح قلق مترنح يرغب فى أن يكون فى مكان آخر ويجر نفسه إلى هناك وبعدئذ يود أن يكون فى مكان آخر ؛ دانى هو سكير البلدة . وأعتقد أن لكل بلدة سكيراً . ودانى تيلور — ويهز الكثيرون جدا من أهل البلده رؤوسهم ببطء من جانب إلى جانب — من عائلة طيبة ، عائلة عريقة ، آخر سلالتها ، وعلى قسط طيب من التعليم . ألم يلق بعض المتاعب فى الأكاديمية ؟ لماذا لا يلم شتات نفسه ؟ إنه يقتل نفسه بالشراب ، وهذا عيب لأن دانى سيد مهذب . أنه أمر مخجل ، أن يشحذ النقود من أجل الشراب . ومما يبعث العزاء أن والديه ليسا على قيد الحياة ليشاهداه . كان هذا سيقتلهما — ولكنهما قد توفيا الآن . ولكن ذلك كان مدار الحديث فى نيوباتيون .

ودانى يبعث فى أعماق أسى بارداً ويترتب على ذلك إحساس بالذنب . كان ينبغى أن أكون قادراً على معاونته . ولقد حاولت ، ولكنه لم يكن يدعنى أفعل . ودانى قريب إلى قرابة الأخ لو كان لى مطلقاً أخ ، نفس السن والنشأه ، نفس الوزن والقوة ، وقد يكون منشأ إحساسى بالذنب ، أننى الأمين على أخى ومع ذلك لم أنقذه . وبإحساسى له ذلك العمق المتأصل ، فإن المبررات — حتى

القوى منها – لاتقدم أى إحساس بالراحة فآل تيلور – عائلة عريقة مثل هولى أو بيكر أو أية عائلات عريقة أخرى . لا أستطيع أن أتذكر فى طفولتى أية رحلة ، أى سيرك ، أية مباراة ، أو أى عيد ملاد دون أن يكون دانى إلى جوارى ولصيقا بى كأنه ساعدى الأيمن . وربما لو كنا قد ذهبنا إلى الكلية سوياً ، لما كان هذا قد حدث . فقد ذهبت إلى هارفارد – وتنعمت باللغات واغتسلت بالعلوم الإنسانية ، وأقمت فى القديم ، والجميل ، والغامض ، وانغمست بكليتى فى معرفة لم تفدنى على الإطلاق فى إدارة محل بقالة ، حين نضجت . وكنت أود دائما لو استطاع دانى أن يكون معى فى تلك الرحلة البهيجة المثيرة . ولكن دانى كان قد نشأ من أجل البحر كان التحاقه بالأكاديمية البحرية قد تم تخطيطه وتمحيصه وكان مؤكداً حتى منذ أن كنا صبية . وكان أبوه يدعم هذا الالتحاق فى كل مرة يكون لدينا فيها مرشح جديد للكونجرس .

وحظى بالشرف ثلاث سنوات وبعدئذ طرد . ويقولون إن هذا قتل والديه كما قتل معظم مافى دانى . وكل مابقى منه هو هذا الأسى الذى يجرجر قدميه – هذا الأسى المتجول فى أثناء الليل ليتسول دريهمات يشترى بها نصف لتر من (مدمر الجماجم) . وأظن الإنجليز يعبرون عن هذا بقولهم : « أنه قد أسقط عن نفسه الكبرياء » ، وهذا يجرح دائما من يسقط عن نفسه الكبرياء ، أكثر مما يجرح الكبرياء ودانى الآن متجول ليلى ، رجل يستيقظ فى البكور ، شىء وحيد يجرجر قدميه . وهو حينما يطلب ربع دولار ليشترى (مدمر الجماجم) ، ترجوك عيناه أن تغفر له لأنه لايستطيع أن يغفر لنفسه . وهو ينام فى كوخ خلف مصانع الزوارق وحيث اعتاد آل تيلور أن يكونوا بناة سفن . وتوقفت عند آثار أقدامه لأرى

ماإذا كانت قدماه قد اتجهتا ناحية البيت أم بعيداً عنه . ومن جر القدمين على الجليد عرفت أنه ذهب إلى الخارج وأننى قد ألتقى به فى أى مكان . ولم يكن وى ويلى ليقبض عليه إذ ماجدوى ذلك ؟

لم يكن ثمة تساؤل بشأن المكان الذى أذهب إليه . فقد رأيته وأحسست به وشممت رائحته قبل أن أغادر الفراش . كان الميناء القديم قد ولى الآن منذ أمد بعيد فبعد امتداد حاجز الأمواج الجديد ورصيف البلدية، كان الرمل والطين قد زحفا إلى الداخل وجعلاه ضحلاً ذلك المكان الذى كان ذات يوم مرسى عظيماً للسفن تحميه شعاب « ويتصن » ذات الأسنان المشرشرة . ذلك المكان حيث كانت توجد ذات يوم أحواض السفن ومصانع الحبال والمخازن التجارية وعائلات بأكملها من صانعى البراميل الذين يصنعون براميل زيت الحوت ، وحيث كانت توجد أيضا الأرصفة التى كانت المقدمات المدببة لسفن صيد الحوت تستطيع أن تندفع فوقها حتى سلاسل صواريها ، بل وحتى التمثال المنحوت عليها أو النقوش المحفورة فيها . كانت غالباً سفناً ذوات ثلاثة أشرعة رئيسية ، تندفع أشرعتها الأساسية أفقياً على صواريها ويحمل الصارى الخلفى أشرعة مربعة مثلما يحمل الصارى الطويل أشرعة المقدمة والمؤخرة ـ سفن ذوات غاطس عميق بنيت لتحتمل سنوات فى البحر فى أى جو . كان صارى الشراع الأمامى الثانى صارياً منفصلاً والصارى العمودى المزدوج الذى تحت صارى المقدمة يؤدى هو الآخر مهمة الصارى الذى يرفع مقدمة شراعى المقدمة والمؤخرة .

لدى رسم محفور على الصلب للميناء القديم وهو يعج بالسفن ، وبعض الصور الفوتوغرافية الحائلة مطبوعة على صفيح ، ولكنى فى الواقع لاأحتاجها

فأنا أعرف الميناء وأعرف السفن . كان جدى يعيد بناؤها لى بعصاه المصنوعة من ناب الحوت ، وهو يرغمنى على معرفة التسميات ؛ ويصرخ بالمصطلحات وعصاه تخبط جذع ركيزة خشبية تآكلت من المد والجزر ، وكانت ذات يوم رصيف آل هولى ، كان رجلا عجوزاً قاسياً ذا سوالف أطرافها بيضاء وكنت أحبه كثيراً جداً لدرجة أن هذا الحب كان يوجعنى .

« حسنا ، » كان يقولها ، بصوت لايحتاج إلى مكبر صوت وهو عند القنطرة ، « أنشد بصوت مرتفع أسماء القلوع والأشرعة والصوارى ، أنشدها بصوت عال . فأنا أكره الهمس » .

وكنت أنشد بصوت مرتفع ، وكان هو يخبط الركيزة الخشبية بعصاه التى من ناب الحوت مع كل إيقاع . كنت أنشد : « الشراع الأمامى المستعرض (خبطة) ، الشراع الأمامى الخارجى (خبطة) ، الشراع الأمامى الداخلى ، الشراع الأمامى المستعرض الثانى (خبطه ! خبطة !) .

— « ارفع صوتك منشداً ! أنت تهمس » .

— « الشراع الأمامى المستعرض الأول ، الشراع الأمامى المستعرض الثانى ، الشراع الأمامى المستعرض الثالث ، الشراع الأمامى المستعرض الرابع ، الشراع الأمامى المستعرض الخامس ، الأشرعة الأمامية المستعرضة » ـ ومع كل شراع خبطة .

— « الأشرعة الرئيسية ! ارفع صوتك منشداً » .

— الشراع الرئيسى العلوى ، ـ خبطة .

ولكنه أحيانا ، وحين زاد به تقدم العمر ، كان يصيبه التعب فيصيح : اطو الأشرعة الرئيسية انتقل الى أشرعة المؤخرة . والآن ارفع صوتك منشداً .

ـــ « حاضر ، ياسيدى . شراع المؤخرة العلوى الأول ، شراع المؤخرة الثانى ، شراع المؤخرة الثالث ، شراع المؤخرة الرابع ، شراع المؤخرة الخامس ، عارضة الأشرعة الوسطى ـ »

ـــ « وبعد ذلك ؟ »

ـــ « الشراع الخلفى ».

ـــ « كيفية إعداده ؟ »

ـــ « صارى عند القاعدة وصارى منتصب ياسيدى »!.

خبطة ـ خبطة ـ خبطة ـ بالعصا التى من ناب الحوت على الركيزة الخشبية المستقرة فى الماء .

وكلما تزايد التشويش فى سمعه ، كان يتهم مزيداً ومزيداً من الناس بالهمس ، كان يصيح : «لوكان شىء صحيحاً ، أوحتى غير صحيح وأنت تمنيه ، فصح به» .

وربما يكون الضعف قد أصاب أذنى القبطان العجوز قرب نهاية حياته ، ولكنه لم يصب داكرته . كان يستطيع أن يسرد لك حمولة وسيرة كل سفينة ، وكان يبدو من سرده ، وكأنه يعرف كل سفينة أبحرت من الخليج وماذا أحضرت عند عودتها وكيف قسم هذا ، وكان الشىء الغريب أن أيام صيد الحيتان الرائعة كانت قد انتهت تقريبا قبل أن يصير قبطاناً . كان يسمى الكيروسين زيت الظربان ومصابيح الكيروسين أوعية النتن وعندما أتى الوقت الذى وصلت فيه المصابيح الكهربائية ، لم يكن يهتم بالأمر كثيراً ، أو ربما كان مسروراً بمجرد الذكرى . ولم تكن وفاته صدمة لى . كان العجوز قد أدخل إلى ذهنى فكرة موته مثلما أدخل إليه فكرة السفن . كنت أعرف كيف

أتصرف ، داخل نفسى وخارجها .

وعلى حافة الميناء القديم الذى غطاه الطين والرمل ، وفى نفس المـكان الذى كان فيه رصيف آ ل هولى بالضبط ، كان الأساس الحجرى لايزال هناك . إنه إلى أسفل مباشرة والى مستوى الجزر المنخفض ، وتصدم الأمواج العالية بناءه الحجرى المربع . وبعد عشر أقدام من نهايته يوجد ممر صغير عرضه حوالى أربع أقدام وارتفاعه أربع أقدام وعمقه خمس أقدام . سقفه مقبو . ربما كان مصرفاً فى يوم ما ولـكن نهايته التى ناحية اليابسة مسدودة من الداخل بالرمل وحطام الصخور . ذلك هو مكانى ، المـكان الذى يحتاجه كل واحد . فبداخله تكون مختفيا عن الأنظار ما عدا ناحية البحر . والميناء القديم لايوجد فيه شىء الآن سوى بضع عشش لصائدى المحار ، وهى عشش هشة يصدر عنها صرير ، وغالباً ما تكون مهجورة فى فصل الشتاء .وعلى أية حال فصيادو المحار قوم هادئون إلى حد كبير . فهم نادراً ما يتكلمون من بداية اليوم إلى نهايته ؛ وهم يسيرون خافضى الرؤوس محنى الأكتاف .

ذلك هو المـكان الذى كنت متوجهاً إليه . لقد أمضيت هناك فترة الجزر الليلى قبل أن أنضم إلى الخدمة العسكرية ، وفترة الجزر الليلى قبل أن أتزوج مارى ، وجزءاً من الليلة التى ولدت فيها إيلين وقد آلمها هذا إلى درجة قاسية . كنت مرغماً على الذهاب والجلوس هناك بالداخل وسماع الأمواج الصغيرة وهى تصفق الأحجار وأنا أتطلع الى صخور « و يتصن » التى كأسنان المنشار . رأيت مكانى هذا ، وأناراقد فى فراشى أرقب رقصة النقط الحمراء ، وعرفت أنه ينبغى

على أن أجلس هناك . إن التغيرات الكبيرة هى التى تأخذنى إلى هناك — التغيرات الكبيرة .

يجرى شارع سوث ديفون على امتداد الساحل ، وتوجد أضواء مساطة على الشاطىء وضعها أناس طيبون لكى يجنبوا العشاق الوقوع فى المآزق . إذ سيكون عليهم أن يذهبوا إلى مكان آخر للتلاقى . وهناك تشريع من البلدية يقرر أن على ويى ويلى أن يقوم بداورية مرة كل ساعة . لم يوجد ثمة مخلوق على الشاطىء — ولا مخلوق ، وكان ذلك شاذاً ، لأنه دائما ما كان يوجد ثمة شخص على وشك الصيد ، أو يصطاد ، أو يأتى إلى الشاطىء . أدليت جسدى من فوق الحافة ووجدت الحجر البارز على السطح ثم ثنيت جسدى داخلا فى الكهف الصغير . ولم أكد أستقر فى مكانى حتى سمعت سيارة ويى ويلى تمر . بذلك أكون قد تجنبت قضاء الليل معه مرتين .

قد يبدو غير مريح وسخيفاً ، أن تجلس بساقين متقاطعين فى كوة وكأنك بوذا بعينين تطرفان ، ولكن الحجر يناسبنى بشكل ما ، أو أنا الذى أناسبه . وربما كنت أتردد هناك منذ فترة طويلة حتى تشكل عجزى بشكل الأحجار . أما بالنسبة لسخافة العمل ، فأنا لا أهتم بذلك . فأحيانا تكون السخافة فكاهة عظيمة ، مثل الأطفال الذين يمثلون التماثيل ثم يستغرقون فى الضحك وأحياناً عندما ما يتملكك السخف فإنه يحطم إيقاع حياتك المنتظم ويجعلك تبدأ بداية جديدة . وحينما أكون مهموماً ، فإننى أمثل دور السخيف حتى لا تنتقل عدوى الهم منى إلى عزيزتى . وهى لم تكتشف لعبتى بعد ، وإذ كانت قد فعلت ، فلن أعرف هذا أبدا . هناك أشياء عديدة لا أعرفها عن مارى ، ومن بينها ، مقدار

ما تعرفه عني . لا أظنها تعرف شيئا عن المكان . وكيف كانت تستطيع ؟ أنا لم أخبر أحداً عنه . فليس له أى اسم فى ذهنى سوى المكان – إنه ليس قدسياً أو طقسياً أو أى شىء . إنه بقعة فيها تفكر فى أشياء . لا يوجد إنسان يعرف حقاً ما يتعلق بالبشر الآخرين . وأحسن ما يستطيع عمله هو أن يفترض أنهم يشبهونه . والآن ، وأنا جالس فى المكان ، محتجباً عن الريح ، أرى تحت أضواء الحراسة المد يزحف إلى الداخل ، أسود بلون السماء المظلمة كنت أعجب إذا ما كان لكل رجل مكان ، أو يحتاج إلى مكان أو يرغب فى واحد وليس لديه واحد . لقد رأيت أحياناً نظرة فى عينين ، نظرة حيوان مجنون وكأنها تحتاج إلى مكان هادىء خفى حيث تستطيع رعدات النفس أن تهدأ ، حيث يكون الإنسان بمفرده و يستطيع أن يحاسب نفسه . أنا أعرف طبعا نظريات الرجوع إلى الرحم والرغبة فى الموت ، وربما تكون هذه صادقة مع بعض الرجال ، ولكنى لا أحسبها تصدق على ، إلا إذا كانت وسائل سهلة لقول شىء معقد . وأنا أسمى أى شىء يحدث فى المكان « حساب النفس » . وقد يسميه البعض الآخر صلاة ، وقد يكونا نفس الشىء . ولو رغبت فى رسم صورة لنفسى عما يحدث ، فستكون صورة ملاءة نديه تدور وتصطفق فى نسمة حلوة ، ثم تجف ويكتسب بياضها الجمال . وما يحدث لى حق ، سواء أكان خيراً أم لا .

كانت توجد مسائل عدة تستوجب التأمل ، وكانت تقفز وتلوح بأيديها لتسترعى الانتباه مثل صبية فى مدرسة . وعندئذ سمعت الدمدمة البطيئة المنبعثة من آلة قارب ، قارب ذى محرك واحد ، مركب صيد . كان الضوء الذى على قمة صاريها يتحرك إلى الجنوب خلف صخور « ويتصن » . كان على أن أترك

كل شىء جانبا حتى أطفأت أضواءها الحمراء والخضراء دلالة على وصولها سالمة إلى القناة ، مركب محلى لأنها عثرت على المدخل بمنتهى السهولة وألقت المرساة فى المياه الضحلة ، ثم جاء رجلان فى زورقها فى اتجــــاه الشاطىء . ومسحت الأمواج الصغيرة الشاطىء ، واستغرقت طيور النورس المنزعجة وقتا ، قبل أن تعود لتستقر فوق مرامى السفن الطافية .

بند : كانت هناك مارى ، عزيزتى ، لأفكر فيها ، وهى نائمة وابتسامتها الغامضة على شفتيها . وتمنيت ألا تستيقظ وتبحث عنى . ولـكن لو فعلت ، فهل ستخبرنى على الإطلاق ؟ أشك فى ذلك . وأعتقد أن مارى ، مع كل ما يبدو عليها من أنها تخبرنى بكل شىء ، تخبرنى بالقليل جداً . كان هناك الطالع للتفكير فيه . هل كانت مارى ترغب فى طالع أم كانت تريده من أجلى ؟ وحقيقه أنه كان طالعاً زائفاً ، دبرته مارجى يانج هنت لأسباب لا أعلمها ، لم تـكن تعنى بالنسبة لى أى فرق على الإطلاق . ولقد كان الطالع الزائف مفيداً فائدة أى طالع آخر ويحتمل أن تحتوى جميع الطوالع قليلا من الزيف . فأى رجل على مستوى معقول من الذكاء يمـكنه أن يجمع ثروة إذا كان ذلك هو ما يريده . ولـكنه غالبا مايرغب حقيقة فى النساء أو الثياب أو الإعجاب وهذا ما يحيد بهعن غرضه . وفنانو المال العظام أمثال مورجان وروكفلر لم يحد بهم شىء عن غرضهم . لقد أرادوا المال وحصلوا عليه ، مجرد مال بسيط . أما ماذا فعلوا به بعد ذلك فهذا شىء آخر . ولقد كنت أشعر دائماً أن الخوف دب فيهم من المارد الذى أثاروه ، وأنهم حاولوا أن يرشوه ليتخلصوا منه .

بند : النقود ، وكانت تعنى بالنسبة لمارى ستائر جديدة ، وتعليماً مضموناً

الأولاد وأن ترفع رأسها إلى أعلى قليلاً و—فلنواجه الأمر ونقول ، أن تكون فخورة بي بدلاً من خجلها الضئيل منى . لقد قالت هذا فى ساعة غضب ولكنه كان حقيقياً .

بند : هل أريد أنا نقوداً ؟ حسناً ، كلا . كان شىء ما فى أعماقى يكره لى أن أكون موظفاً فى محل بقالة . فى الجيش وصلت إلى رتبة كابتن ، ولكنى أعرف ما الذى نقلنى من بين المجندين إلى معسكر تدريب الضباط . كانت العائلة والصلات . لم يتم اختيارى لسواد عينى ، ولكنى جعلت من نفسى ضابطاً جيداً . ولكنى لو كنت حقا أحب الأمر والنهى ، وفرض إرادتى على الآخرين ورؤيتهم وهم يثبون عند سماع أوامرى ، فربما كنت بقيت بالجيش ، وصرت كولونيلاً الآن . ولكنى لم أفعل كنت أرغب فى التخلص منه . وهم يقولون إن الجندى الجيد يقاتل معركة ، وليس حرباً أبداً ، فذلك متروك للمدنيين .

بند : كان مارولو يقول لى الحقيقة عن التجارة ، فالتجارة هى عملية الحصول على المال . وكان جوى مورفى يقولها بشكل صريح ، وكذلك مستر بيكر والوكيل المتجول . لقد قالوها جميعاً بصراحة . فلماذا أثار هذا ثائرتى وترك فى فمى طعماً كالبيض الفاسد ؟ أأكون أنا فى غاية الطيبة أو العطف أو العدل ؟ لا أعتقد أن الأمر كذلك . هل أكون فى غاية الكبرياء ؟ حسنا ، عندى شىء منها . أأنا كسول ، فى غاية الكسل بحيث لا أتورط فى الأمر ؟ لدى مقدار هائل من الشفقة الخاملة التى ليست شيئاً سوى الكسل ، وعدم الرغبة فى أية متاعب ، أو اضطراب ، أو مجهود .

تتولد ثمة رائحة واحساس بالفجر قبل ظهور الضوء بفترة طويلة ولقد كان هذا فى الهواء الآن ، خفت حدة الريح ، وأضاء نجم جديد أو كوكب الأفق متجها ناحيةالشرق . كان ينبغى على أن أعرف أى نجم أو كوكب هذا ، ولكنى لا أعرف . ومع الفجر الكاذب تنشط الريح أو تسكن . إنها تفعل ذلك فعلاً . وسيكون على أن أتأهب للعودة حالاً . وهذا النجم الصاعد قد تأخر به الوقت كثيراً ليظهر الكثير من اشراقته قبل أن يطلع عليه النهار . ما هو المثل — « حين تنحرف النجوم عن مساراتها ، تفقد سيطرتها » ؟ حسنا ، لقد سمعت أن عدداً كبيراً جداً من رجال المال الجادين يذهبون إلى المنجمين طلباً لمشورتهم فيما يتعلق بالبضائع التى يشترونها . فهل تنحرف النجوم فى اتجاه سوق للثيران ؟ هل تتأثر المدافع المضادةللدبابات والدبابات بالنجوم ؟ لا شىء فى طالعى حلو و بعيد مثل نجم . مجموعة مخلوطة من أوراق اللعب التى تستخدم فى التنبؤ بالطالع فى يد امرأة كسولة خبيثة ، ثم إنها تلاعبت بالورق . هل ينحرف الورق عن مساره ثم لا يفقد سيطرته ؟ حسنا ، لقد انحرف بى الورق إلى المكان فى منتصف الليل ، وانحرف بى ليجعلنى أفكر أكثر مما أردت فى موضوع أشمئز منه . وذاك جزء من الانحراف . فهل يستطيع الورق أن ينحرف بى الى ذكاء فى الشغل لم يتوفر لى أبداً ، والى حب تملك غريب على ؟ أيمكن أن انحرف بحيث أريد مالم أكن أريد ؟ فى عالمنا يوجد الآكل والمأكول . وتلك قاعدة جيدة نبدأ بها. هل يكون الآكل أكثر لا أخلاقية من المأكول ؟ ثم فى النهاية يؤكل الجميع الجميع — تلتهمهم الأرض ، حتى أكثرهم وحشية وأشدهم دهاء .

منذ وقت طويل والديكة آخذة فى الصياح فوق تل « كلام » ، وكنت

قد سمعتها ولم أسمعها . وددت لو استطعت البقاء لأرى الشمس وهى تشرق مباشرة من خارج المكان .

لقد قلت إنه لاتوجد قدسية تكتنف المكان ، ولكن ذلك ليس صحيحاً تماماً ، ففى فترة معينة من كل زيارة أعيد بناء الميناء القديم من أجل متعتى الذهنية ـ الأرصفة ، مخازن الميناء ، غابات الصوارى وشجيرات قلوع السفينة وقماش القلوع : ثم أرى أسلافى ، دمى ـ وفتياتهم على سطح السفين ، والممتلئون شبابا عند قمتها ، والناضجون على الجسر المفضى إلى مقر الربان . لم يكن يثار حينذاك أى هراء عن شارع مايسون أوعن تقاليم أوراق كثيرة جداً من القرنبيط كان للإنسان حينذاك شيء من عظمة ، شيء من أهمية . كان باستطاعة الإنسان أن يتنفس .

كان ذلك مايدور حوله حديث أبى ، الأحمق ، أما القبطان العجوز فكان يذكر المعارك التى تقوم من أجل الأنصبة ، والتلاعب بالمؤن والشك فى كل ملاءة وسروال . والقضايا . أجل ثم التفاؤل ـ هل من أجل النساء ، والمجد ، والمخاطرة كلا بتاتاً. بل من أجل المال. كان يقول إنها شركة نادرة تلك التى كانت تستمر أكثر من رحلة واحدة ، ثم يتلوها عداء مستحكم ، يظل قائماً بعد أن يكون سببه قد نسى .

كانت هناك ضغينة واحدة لم ينسها القبطان هولى العجوز ، جريمة لايستطيع أن يغتفرها . ولابد أن يكون قد قص على أمرها مرات عديدة : وهو واقف أو جالس على حافة الميناء القديم . كنا نمضى هناك وقتاً طيبا ، أنا وإياه . وأذكره وهو يشير بعصاه المصنوعة من ناب الحوت . كان يقول :

— « انظر إلى تلك الصخرة الثالثة من شعاب « ويتصن » هل رأيتها ؟ والآن ، أربطها بخط مع رأسى بورتى يوبنت ساعة ارتفاع المد . أتراها هناك؟ والآن على مبعدة ٣٠٤ قدم ناحية البحر على هذا الخط يوجد المكان الذى ترقد فيه أو على الأقل قاعدتها » .

— « البيل آدير ؟ »

— « نعم ، البيل آدير ».

« سفينتنا » .

— نصفها كان لنا ، كانت شركة . احترقت وهى رأسية ـ احترقت حتى خط منسوب الماء . ولم أصدق أبدا أن يكون هذا مصادفة »

— « أتعتقد ، ياسيدى ، أن النار أشعلت فيها عمداً ؟»

— « أجل » .

— « ولكن — ولكنك لايمكن أن تفعل ذلك ؟»

— « لم أكن استطيع . »

— « من فعلها ؟ »

— « لاأعرف ؟ . »

— « ولماذا ؟ »

— « من أجل التأمين . »

— «إذن فالأمر ليس مختلفاً عنه الآن . »

— « كلا ليس مختلفاً ».

— « ولكن لابد أن يوجد إختلاف ما ».

— « فى رجل واحد بمفرده فحسب — فى رجل واحد بمفرد فحسب . تلك هى القوة الوحيدة — رجل واحد بمفرده . لا أستطيع الاعتماد على أى شىء آخر » .

أخبرنى والدى أنه لم يكلم الكابتن بيكر . بعد ذلك أبداً ، ولكنه لم يحمل نفس الشعور تجاه ولده، مستر بانكر بيكر . لم يكن ليفعل ذلك ثانية فقد كان أهون عليه أن يشعل النار فى سفينة .

ياإلهى الرحيم ، على أن أذهب إلى البيت ، ونهضت . كنت أجرى تقريباً وذهبت إلى شارع « هاى » دونما تفكير . كانت الدنيا لاتزال ظلمتها سائد؛ ولكن إطاراً من الضوء كان يرقد على حافة البحر ويجعل الأمواج بلون رمادى كلون الحديد . ودرت حول نصب الحرب التذكارى وتجاوزت مكتب البريد . وفى مدخل باب ، كان دانى تيلور يقف كما توقعت أنه لا بد أن يكون ، يداه فى جيوبه ، وياقة معطفه المهلهل مرفوعة إلى أعلى ، وطاقية صيده العتيقة المدببة قد فردغطاءا أذنيها إلى أسفل . كان وجهه أزرق رمادياً من البرد والمرض .

قال: « إيث ، آسف لإزعاجك ـ آسف . ينبغى أن أحصل على شىء من (مدمر الجماجم) . أنت تعرف أننى لم أكن لأطلب ذلك لولا اضطرارى إليها » .

— « أعرف . أقصد أننى لا أعرف ، ولكننى أصدقك » . وأعطيته ورقة من فئة الدولار .

« هل ستفى تلك بالغرض » ؟

كانت شفتاه ترتعشان بنفس الطريقة التى ترتعد بها شفتا طفل حين يكون على وشك البكاء وقال :

« شكراً لك ، يا إيث . أجل ، فستجعلنى تلك أغيب عن وعيى طول النهار وربما طول الليل » وبدا التحسن يبدو عليه من مجرد التفكير فى الأمر .

— « دانى — عليك أن تقلع عن هذا . أتظننى نسيت ؟ لقد كنت أخاً لى ، يا دانى . ولا زلت كذلك . وسأفعل أى شىء فى العالم لمساعدتك » .

وتسرب قليل من اللون إلى وجنتيه الناحلتين . تطلع إلى النقود فى يده ، وبدا كما لو كان قد تناول جرعته الأولى من (مدمر الجماجم) ثم تطلع إلى بعينين قاسيتين باردتين .

— « أولاً ، ليس هذا من اختصاص أى إنسان لعين . وثانيا ، إنك ليس لك مخ ، يا إيثان . أنت أعمى مثلى ، ولكنه نوع مختلف من العمى فحسب » .

— « أصغ إلى ، يادانى » .

— « لماذا ؟ إنى أفضل منك حالاً ، فلدى ورقة رابحة فى يدى . أتذكر ضيعتنا فى الريف » ؟

— « حيث احترق المنزل وتقوض ؟ وحيث اعتدنا أن نلعب فى فجوة البدروم » ؟

— « مازلت تذكرها جيداً . إنها ملكى » .

— « دانى ، يمكنك أن تبيعها وتبدأ بداية جديدة » .

— « لن أبيعها . الدولة تستولى كل سنة على قطعة صغيرة منها نظير الضرائب . ولكن المرجة الكبيرة لا تزال ملكى » .

— « ولم لا تبيعها » ؟

— « لأنها قطعة منى ، انها دانيل تيلور . فطالما امتلكها لن يقدر أولاد

الكلاب أن يحددوا ما أفعل ولن يستطيع الأوغاد إرسالى إلى السجن من أجل مصلحتى الخاصة هل فهمت؟» .

— « أسمع ، يا دانى » .

— « لن أسمع . اذا كنت تعتقد أن هذا الدولار يعطيك الحق فى أن تعظنى — فهاك . خذه ثانية » .

— « احتفظ به » .

— « سأفعل . فأنت لا تدرى عن أى شىء تتحدث . إنك لم تكن أبداً سكيراً . إنى لا أقول لك كيف تلف لحم الخنزير ، هل أفعل ! والآن لو سرت فى طريقك ، فسأطرق محلاً وأحصل على شىء من (مدمر الجماجم) — ولا تنس — أننى أفضل منك حالا . وأنا لست موظفاً » .

استدار ووضع رأسه فى زاوية الباب المغلق مثل طفل ينفى وجود العالم بالتطلع بعيدا عنه ثم بقى هناك حتى يئست وسرت فى طريقى » .

كان وبى ويلى قد أوقف سيارته أمام الفندق . أفاق من غفوته ، وأدار زجاج سيارته الشفرولية الى أسفل . وقال :

— « طاب صباحك ، ياإيثان . هل استيقظت مبكراً أم تأخرت بالخارج» .

— « الأمران معاً » .

— « لا بد أن تكون قد وجدت لنفسك امرأة رائعة » .

— « بالتأكيد ياويلى ، حورية بحر » .

— « والآن ، ياإيثان ، لاتقل لى أنك تصادق أية امرأة تلقاها فى الطريق»

— « أقسم أننى سأفعل » .

— « لا أستطيع أن أصدق شيئاً بعد ذلك . أراهن أنك كنت تصطاد السمك . كيف حال السيدة ؟ »

— « نائمة » .

— « وهذا ماسأ كونه ، بعد أن تنتهى نوبة عملى » .

وغادرته دون أن أذكره بأن هذا هو ما كان يفعله .

صعدت الدرجات الخلفية لمنزلى بهدوء ثم أضأت نور المطبخ . كانت الورقة على المنضدة إلى اليسار قليلا من الوسط . وإنى لأقسم أننى تركتها فى وسط المنضدة تماماً .

وضعت القهوة على النار وجلست أنتظر أن تغلى ، وكانت قد بدأت لتوها فى الغليان حين نزلت مارى . وزوجتى العزيزة تبدو مثل فتاة صغيرة حين تستيقظ من النوم . ولا تستطيع أن تتصور أنها أم لطفلين كبيرين . وتنبعث من بشرتها رائحة محببة ، مثل العشب المشذب حديثاً ، وهى أكثر الروائح التى أعرفها دفئاً وتهدئة .

— « ما الذى تفعله فى مثل هذا الوقت المبكر » ؟

— « حسنا ، فى إمكانك أن تسألى ، قد يسرك أن تعلمى أننى ظللت ساهراً معظم الليل ، أنظرى إلى حذائى الواقى من المطر هناك إلى جوار الباب وتحسسيه لتعرفى أنه مبلل » .

— « وأين ذهبت » ؟

— « هناك إلى جوار البحر يوجد كهف صغير ، يابطتى ، لقد زحفت داخلا إليه وتأملت الليل » .

— « والآن كفاك » .

— « ورأيت نجمنا يخرج من البحر ، وحيث إنه لم يكن له صاحب فقد أخذته ليكون نجماً ، وقد استأنسته ثم أعدته ليسمن » ،

— « لقد بدأت السخف ، أعتقد إنك قد استيقظت لتوك ، وذلك ما أيقظني » .

— « إن كنت لا تصدقينني ، فسلي وبي وبلي ، لقد تحادثت معه أوسلي داني تيلور ، لقد أعطيته دولاراً » .

— « كان ينبغي ألا تفعل ، فهو سيسكر به فحسب » .

— « أعرف ، وتلك كانت رغبته ، أين تستطيع نجمتنا النوم يازهرتي الحلوة » ؟

— « ألا تجد رائحة القهوة طيبة ، إنني سعيدة لأنك عدت لسخافتك فإن الأمر يكون مزعجاً حين تستولي عليك الكآبة ، وإني لآسفة من أجل موضوع الطالع ذاك ، أنا لا أريدك أن تظن أنني لست سعيدة » ؟

— « لا تقلقي بالك بهذا الشأن ، فهو أمر أبانه الورق » ؟

— « ماذا » ؟

— « أنا لا أمزح ، سأحقق طالعنا » .

— « أنا لا أعلم مطلقا في أي شيء تفكر » .

— « ان أصعب الأمور هو قول الحقيقة ، هل أستطيع أن أضرب الأطفال قليلا احتفالا باليوم السابق لعيد القيامة ، وأعدك أنني لن أكسر لهم عظاماً » .

قالت : « إنني لم أغسل وجهي بعد ، فلم أكن أستطيع أن أتصور من الذي كان يعبث في المطبخ » .

عندما صعدت إلى الحمام ، وضعت الورقة التى كنت قد كتبتها لها فى جيبى ، وكنت لازلت لا أعرف ، هل استطاع امرؤ قط أن يعرف حتى ولو الغشاء الخارجى لشخص آخر ، ماذا تشبهين فى أعماقك ؟ مارى — هل تسمعين ؟ من تكونين فى دخيلتك ؟

الفصل الرابع

بدأ صباح يوم السبت ذاك وكأن له نمطاً خاصاً ، وإنى لأعجب إذا ما كان لكل الأيام أنماطها ، كان يوماً ينسحب على الماضى ، وجاء فى همس العمة ديبورا الكئيب الخافت ، « طبعا ، المسيح ميت وهذا هو اليوم الوحيد من أيام العالم الذى يكون فيه ميتاً ، كل الرجال والنساء أيضا يموتون ، ولكن غداً ، انتظر إلى الغد فحسب ، وحينئذ سترى شيئا ما » .

أنا لا أتذكر شكلها بوضوح تام ، مثلما لاتتذكر شكل شخص يكون وثيق الصلة جدا بك بحيث لاتحاول التطلع إليه ، ولكنها كانت تقرأ لى فى الكتاب المقدس وكأنه جريدة يومية ، وأحسب أن تلك كانت فكرتها عنه ، كما لو كان شيئا دائم الحدوث بشكل خالد ، ولكنه دائما مثير وجديد ، ففى كل عيد قيامة ، يقوم يسوع حقاً من بين الأموات و يحدث تفجر متوقع ، ولكنه لايفقد جدته بحال من الأحوال ، فبالنسبة لها لم يكن الأمر قد انقضى عليه ألفى عام ، بل كان وكأنه يحدث الآن ، ولقد غرست فى شيئاً من ذلك .

لا أستطيع أن أتذكر أنه كانت لدى الرغبة من قبل فى فتح المحل ، أظن أننى كنت أكره كل مايتعلق بالصباح من كسل وتشويش فى الهندام ، ولكنى فى هذا اليوم كنت أريد الذهاب ؛ وأنا أحب عزيزتى مارى من كل قلبى ؛ وفى بعض الأحيان أكثر من نفسى بكثير ؛ ولكن الحقيقة أيضاً أننى لا أصغى إليها دائما بانتباه تام ؛ وحينما تحكى أخبار الملابس والصحة ومحادثاتها التى تمتمها وتسرى عنها ؛ فإننى لا أنصت لها على الإطلاق ؛ لدرجة أنها تصيح

أحيانا فى دهشة : « ولكن لابد أنك تعرف ! لقد أخبرتك ؛ إنى أذكر جيداً جداً أننى قلت لك هذا صباح يوم الخميس » ، وليس ثمة شك على الإطلاق فى هذا ، لقد قالت لى ، فهى تقول لى كل شىء ضمن مواضيع معينة .

ولم يكن الأمر فى هذا الصباح إننى لم أصغ إليها فحسب ، بل إننى كنت أريد الابتعاد عنها . وربما كنت أنا نفسى أرغب فى الحديث ولم يكن لدى أى شىء أقوله ، لأنها ــ أقول ذلك إبقاء لحقها ــ لا تنصت إلى هى أيضا ، ويكون هذا أحيانا شيئاً جيداً ، فهى تنصت لنغمة الكلام ووقعه ، ومنهما تجمع حقائقها عن صحتى وحالتى المزاجية وهل أنا متعب أم مرح . وتلك طريقة جيدة كأية طريقة أخرى . والآن وحينما أفكر فى الأمر ، فإنها لا تصغى إلى لأننى أتحدث إليها ، وإنما أتحدث إلى مستمع ما خفى يقبع داخلى . كما أنها فى الواقع لا تتكلم إلى هى أيضا . وطبعا يتغير ذلك كله ، حينما يتعلق الأمر بالأطفال أو ببعض الأزمات الخطيرة .

كنت أفكر فى أغلب الأحيان ، وكيف أن الحديث يتغير بتغير طبيعة المستمع . فمعظم حديثى أخاطب به أناساً توفوا ، مثل عمتى الضئيلة الحجم ديبورا التى كانت فى بلايموث روك ، أو القبطان العجوز . وأجد نفسى أجادلهم . وأذكر ذات مرة أننى فى أثناء نزاع مزعج كئيب ، ناديت على القبطان العجوز ، وقلت « هل ينبغى على أن أستمر » ؟ فأجاب بصوت غاية فى الوضوح ، «طبعا ، ينبغى عليك ولا تهمس » . ولم يجادل ــ فهو لم يفعل ذلك أبدا قال فحسب إنه ينبغى على أن أفعل ، وفعلت . وليس فى هذا شىء غامض أو مبهم . إنه طلب المشورة أو المبرر من دخليتك التى تم تشكيلها وأصبحت مؤكدة .

أما فيما يتعلق بالتحدث الخالص ، الذى هو طريقة أخرى لإلقائى السؤال ،

فإن بصانعى الصامتة البليغة فى علبها المحفوظة وزجاجاتها فى المحل ، تؤدى الغرض على خير وجه. مثلما يفعل أى حيوان عابر أو طير . فهى لا تجادل ولا تكرر ما تسمع .

قالت مارى : « إنك لست ذاهباً الآن ؟ لازالت أمامك نصف ساعة . هذا ما تجنيه من الاستيقاظ مبكراً هكذا » .

فقلت : « على أن أفتح حشدا بأكمله من صناديق الفاكهة ، وأن أضع الأشياء على الأرفف قبل أن أفتح المحل . ثم على أن أتخذ قرارات خطيرة : هل يتوافق وضع المخللات والطماطم عل نفس الرف ؟ هل يتشاجر المشمش المحفوظ فى العلب مع الخوخ ؟ إنك تعرفين مقدار أهمية علاقات الألوان بالنسبة لفستان » .

وقالت مارى : « إنك لتجعل من كل شيء فكاهة . ولكنى مسرورة ، فهذا أفضل من حدة الطبع . وكثيرون جداً من الرجال حادو الطبع » .

كان خروجى مبكراً ، ولم يكن « رد بيكر » قد خرج بعد . فى استطاعتك أن تضبط ساعتك على هذا الكلب ، أو أى كلب . فهو سيبدأ جولته المقررة فى خلال نصف ساعة بالضبط . كذلك لن يظهر جوى مورفى ، أقصد لم يظهر بعد . فالمصرف لن يفتح أبوابه ، ولكن ليس معنى ذلك أن جوى لن يكون هناك منكباً على الدفاتر . كانت البلدة هادئة للغاية ، وهذا طبعاً لأن كثيراً من الناس غادروها لتمضية عطلة عيد القيامة . كان ذلك العيد ، ويوم الرابع من يوليو ، وعيد العمل هى أضخم العطلات . فالناس يغادرون البلدة حتى ولو لم يرغبوا فى ذلك . بل إنى أعتقد أنه حتى عصافير شارع إلم كانت قد غادرت البلدة .

رأيت ستونول جاكسون سميث يقوم بالخدمة . كان آتيا لتوه بعد تناول

فنجان من القهوة فى محل فورماستر للقهوة . كان نحيفاً للغاية وهشاً حتى بدت مسدساته وقيوده الحديدية أكبر من حجمها . وهو يلبس قبعة الضابط بزاوية ، مرح ، ويخلل أسنانه بريشة إوزة مسنونة .

— « عمل ضخم ، ياستونى . أمامى يوم طويل شاق لكسب النقود » .

قال : « هه ؟ لا أحد فى البلدة » كان يقصد أنه يتمنى لو كان هو أيضا قد رحل .

— « هل توجد أية جرائم قتل ياستونى ، أو أى مباهج أخرى شنيعة ؟ »

قال : « إن الحالة هادئة إلى حد كبير . حطم بعض الفتيان سيارة عند الجسر . ولكن ، ياللجحيم ، كانت سيارتهم هم . سيجعلهم القاضى يدفعون ثمن إصلاح الجسر . هل سمعت عن حادثة المصرف فى فلود هاميتون ؟ »

— « كلا » .

— « ولا حتى فى التليفزيون ؟ »

— « ليس لدينا جهاز ؛ حتى الآن . هل استولوا على كثير ؟ »

— « ثلاثة عشرة ألفاً ، فيما يقال . كان ذلك بالأمس قبل موعد الإغلاق مباشرة . ثلاثة فتيان ، وأبلغ الإنذار إلى أربع ولايات ، لقد ذهب ويلى الآن إلى الطريق العمومى وهو يشكو من أن رأسه ستنفجر » .

« إنه ينال حظا وافراً من النوم »

— « أعرف ، أما أنا فلا . لقد ظللت بالخارج طول الليل »

— « أتظنهم سيمسكون بهم ؟ »

— « أوه ! أظن ذلك . إذا كانت نقوداً فغالباً سيمسكون بهم ، فشركات التأمين تظل تلح ولا تيأس مطلقاً » .

— « يمكن أن تـكون عملية لطيفة إذا لم يشركوك فيها » .

قال : «بالتأكيد تـكون كذلك » .

— « ستونى ، أود لو تبحث عن دانى تيلور . فهو يبدو فى غاية المرض » .

وقال ستونى : « إنها مسألة وقت فحسب . ولـكنى سأذهب للبحث عنه . إنه لأمر مخجل . شاب لطيف ومن عائلة طيبة » .

— « إن هذا يعذبنى ، فأنا أحبه » .

— « حسنا ، إنك لا تستطيع أن تفعل شيئا من أجله . الدنيا ستمطر ، يا إيثان . وويلى يكره أن يبلله المطر » .

لأول مرة فيما تعى ذاكرتى ، ذهبت إلى الحارة وأنا سعيد وفتحت الباب الخلفى وأنا فى نشوة . كان القط بجوار الباب ، ينتظر . ولا يمكننى تذكر صباح لم ينتظر فيه ذلك القط النحيل المقتدر ليحاول الدخول من الباب الخلفى ، ولم أفشل أنا إطلاقا فى قذفه بعصا أو طرده بعيداً . وحسب أوثق معلوماتى ، لم يتمكن أبدا من الدخول . وأنا أدعو القط « هو » لأن أذنيه ممزقتان من العراك . هل القطط حيوانات غريبة عنا أم أنها قريبة الشبه بنا لدرجة أننا نجدها غريبة عجيبة مثلما نحس تجاه القردة ؟ فلقد حاول ذلك القط ربما ستمائة أوثمانمائة مرة أن يدخل ولم يتوصل إلى ذلك أبداً .

قلت للقط :« أنت تستحق مفاجأة مذهلة . » كان جالسا وسط دائرة من ذيله ، ونهاية الذيل تتردد بين قدميه الأماميتين . دخلت إلى المخزن المظلم ، وتناولت من فوق الرف علبة لبن ، وضغطت عليها ففتحتها ، ثم تركت اللبن يندفع فى فنجان ، و بعدئذ حملت الفنجان إلى المخزن ووضعته فى الداخل تقريباً

وتركت الباب مفتوحاً . راقبني باهتمام ، وتطلع إلى الابن ، وبعدئذ سار مبتعداً وانزلق فوق السور الذى خلف المصرف .

كنت أراقبه وهو ينصرف حين دخل جوى مورفى الحارة وقد أعد فى يده مفتاح باب المصرف الخلفى . كان يبدو معتلاً ـ مغضناً . كأنه لم يأو إلى فراشه .

— « هاى ، مستر هولى » .

— « حسبتكم تغلقون اليوم » .

— « يبدو أننى لن أغلق أبدا . توجد غلطة فى ستة وثلاثين دولاراً فى الدفاتر . لقد ظللت أعمل حتى منتصف الليل ليلة الأمس » .

— « عجز » ؟

— « كلا — زيادة » .

— « لا بد أن ذلك جيد » .

— « حسنا ، إنه ليس كذلك . على أن اكتشف الخطأ » .

— « هل المصارف بهذه الأمانة ؟ » .

— « إنها كذلك . الناس فقط هم الذين ليسوا كذلك . ولو كنت أنوى الحصول على أية عطلة فينبغى أن أجد الخطأ » .

— « ليتنى كنت أعرف شيئا عن المعملية » .

— « أستطيع أن أخبرك بكل ما أعرف فى جملة واحدة — النقود تجلب النقود » .

— « ذلك يفيدنى كثيراً » .

— « وكذلك أنا . ولكنى أستطيع بالتأكيد أن أقدم نصيحة » .

— « مثل ماذا ؟ »

— « مثل ، لاتقبل أبداً العرض الأول ، ومثل ، لو أراد شخص ما أن يبيع فلابد أن لديه سبباً ، ومثل إن قيمة الشيء تكون بالنسبة للراغب فيه » .

— « هل هذا هو منهج الدراسة السريع ؟ »

— « إنه لكذلك ، ولكنه لايعنى شيئا بالمرة دون الفقرة الأولى »

— « النقود تجلب النقود ؟ »

— « وهذا مايستبعد الكثيرين منا » .

— « ألا يقترض بعض الناس ؟ »

— « أجل ، ولكن ينبغى أن يكون لديك رهن ،وهذا أحد أنواع النقود» .

— « أعتقد أنه من الأفضل لى أن ألتزم البقالة » .

— « يبدو أن الأمر كذلك . أسمعت بما حدث فى مصرف فلودهامبتون »؟

— « لقد أخبرنى ستونى . إنه لأمر مضحك ، فقد كنا نتحدث عن هذا بالأمس فحسب ، أتذكر » ؟

— « لى صديق هنا . قال إنهم ثلاثة فتيان ـ أحدهم يتكلم بكلنة ، وواحد أعرج . ثلاثة فتيان . سيمسكونهم بالتأكيد . ربما خلال أسبوع ، وربما خلال أسبوعين » .

— « ياللبراعة ! »

— « أوه أنا لاأدرى . إنهم أغبياء .هناك قانون ضد الأغبياء » .

— « أنا آسف على ماحدث بالأمس » .

— « انس ذلك . إننى أتكلم كثيراً ، وتلك قاعدة أخرى ـ لاتتكلم . لن أتعلم أبداً تلك القاعدة . قل لى ، إنك تبدو فى صحة جيدة » .

— « ما كان ينبغى أن أكون ، فلم يتيسر لى كثير من النوم » .

— « ألديك شخص مريض ؟ »

— « كلا . مجرد ليلة من تلك الليالى » .

— « ألم يكن فى علمى ... »

كنست المحل ورفعت الستائر ولم أكن أدرى هل كنت أقوم بالعمل أم أمارس كراهيته . كانت قواعد جوى تدور وتدور بسرعة فى رأسى . وناقشت الأمور مع أصدقائى على الأرفف ، وربما تم ذلك بصوت مرتفع ، وربما لا . فأنا لا أدرى .

قلت : « يا أفراد عشيرتى الأعزاء ، لو كان الأمر بمثل تلك السهولة ، فلم لا يقوم به عدد أكبر من الناس ؟ لماذا يقع كل فرد تقريباً فى نفس الأخطاء مرات ومرات ؟ هل يوجد دائماً ثمة شىء لينسى ؟ ربما كان الضعف الحقيقى الأساسى شكلا من أشكال الشفقة . لقد قال مارولو إن النقود لا قلب لها . ألا يكون من الصدق إذن أن أية شفقة تنتاب رجل المال هى نوع من الضعف ؟ كيف يتأتى لك أن تجعل الأفراد البسطاء العاديين يذبحون الناس فى حرب ؟ حسناً ، قد يساعد على ذلك أن العدو يبدو مختلفاً فى الشكل ، أو أنه يتكلم بلغة أخرى . ولكن كيف يكون الحال فى حرب أهلية إذن ؟ كان الاتحاديون يأكلون الأطفال ، والثوار يميتون أسراهم جوعاً . ذلك ما يساعد على قيامها . سأستدير إليك فى لحظة ياحبات البنجر و ياعيش الغراب المخروطى المحفوظ فى العلب . أعرف أنكم تريدون منى أن أتحدث عنكم . كل واحد يريد ذلك . ولكنى على وشك الوصول إلى نقطة أستشهد بها . لو كانت قوانين التفكير هى قوانين الأشياء ، إذن ستكون الأخلاقيات نسبية أيضاً ، وكذلك الفضيلة

والرذيلة — ذلك أيضاً نسبي فى دنيا نسبية . وينبغى أن تكون كذلك . لا مهرب منها ، هذه نقطة أستشهد بها .

« أنت يامسحوق العصيدة الجاف ، ذا الصندوق الذى عليه قناع ميكى ماوس والشريط الذى هو أداة للكلام من البطن ، والثمن الذى هو عشرة سنتات . سيكون على أن آخذك إلى البيت ؛ ولكن ينبغى عليك الآن أن تجلس وتنصت . إن ماقاته لمارى العزيزة على أنه فكاهة ، هو الحقيقة من المؤكد أن أسلافى أولئك الربابنة وملاك السفن المبجلين جداً ؛ كانو مكلفين بالإغارة على التجارة خلال الثورة ، وأيضاً خلال عام ١٨١٢ . كانوا فى غاية الوطنية والفضيلة ، ولكنهم بالنسبة للبريطانيين كانوا قراصنة ، وكانوا يستولون على ما يأخذون . وبتلك الطريقة بدأ تكوين ثروة العائلة ، تلك الثروة التى بددها أبى . ومن هناك أتت النقود . ونستطيع أن نفخر بذلك » .

أتيت بصندوق يحتوى علب صلصة الطماطم ، ومزقته ففتحته ، ثم رصصت العلب الصغيرة الأنيقة البديعة على رفها الفارغ . « ربما لا تعلمون فأنتم نمط من الغرباء . فالنقود لا تفتقد القلب فحسب بل الشرف وأية ذاكرة أيضاً . إن النقود تكون جديرة بالاحترام تلقائياً لو أبقيت عليها فترة من الوقت . لا ينبغى أن تحسبوا أنى أحط من قيمة النقود . فأننى أعجب بها أشد الإعجاب . أيها السادة ، هل يمكننى أن أقدم لمجموعتنا بعض الوافدين الجدد . فاتر ، سأضعهم هنا بجواركم ياعلب عصير الطماطم المركز . فلنحتف بمخللات شطائر الزبد هذه فى بيتها الجديد . إنها من نيويورك ، ولدت وقطعت إلى شرائح وعبئت هناك . كنت أناقش موضوع النقود مع أصدقائى هنا . إن عائلة من أرقى عائلاتكم — أوه ، لابد أنكم تعرفون اسمها ! وأظن أن أى فرد فى العالم يعرفه . حسنا ، لقد بدأت

بدايتها الضخمة من بيع اللحم البقرى للبريطانين حينما كانت بلدنا فى حرب مع البريطانيين ، وثروة هذه العائلة تحظى بالإعجاب مثل أية ثروة . وكذلك أفراد أسرتها . هناك أسرة أخرى ، وربما كانت تتكون من أعظم رجال المصارف جميعاً . لقد اشترى مؤسسها ثلاثمائة بندقية من الجيش . كان الجيش قد نبذها لأن بها تلفاً خطيراً ، وهكذا اشتراها هو بثمن بخس ، ربما بخمسين سنتاً للقطعة. وبعد فترة قصيرة جداً كان الجنرال « فريمونت » قد استعد ليبدأ هجرته البطولية إلى الغرب ، واشترى البنادق ، دون معاينة ، بعشرين دولاراً للقطعة . ولم يسمع أحد مطلقاً إذا ما كانت قد انفجرت فى أيدى قواته . وتلك كانت النقود التى تجلب النقود . لا تهم كيفية الحصول عليها طالما أنك تحصل عليها وتستغلها للحصول على المزيد . إننى لا أتهكم . فولى نعمتنا وسيدنا مارولو ، ذو الاسم الرومانى القديم ، محق كل الحق . فحين يتعلق الأمر بالنقود ، تقوم قواعد السلوك العادية بأجازة . لِمَ أتحدث إلى أصناف البقالة ؟ ربما لأنكم تكتمون السر . فأنتم لا ترددون كلماتى ، ولا تنقلون الإشاعات . النقود موضوع سمج وغير محمود حينما تكون متوفرة لديك فحسب أما الفقير فيجدها ساحرة . ولكن ألا توافقوننى على أنه إذا اهتم المرء فعلا بالنقود ، فينبغى عليه أن يعرف شيئاً عن طبيعتها وشخصيتها وميولها ؟ أخشى أن يكون المهتمون بالنقود لذاتها باستثناء الفنانين العظماء والمقترين قلة نادرة من الرجال . و باستطاعتك أن تركل بعيداً أولئك المقترين الذين يقيد الخوف تصرفاتهم » .

كانت على الأرض الآن كومة ضخمة من صناديق الورق المقوى الفارغة . حملتها إلى المخزن لكى تسوى حافاتها وتحفظ . فكثير من الناس يحملون فيها مؤنهم إلى البيت ، وهى كما قد يقول مارولو : « إنها توفر كياس ، يافتى » .

وها هي كلمة « فتى » تعود ثانية . لن آبه لها أكثر من ذلك . إنني أريده أن يدعوني « فتى » بل حتى أن يفكر في على أنني «فتى» . بينما كنت أرص الصناديق، تناهى إلى طرق على الباب الأمامي ، وتطلعت إلى ساعتي الضخمة الفضية العتيقة التي من طراز ساعات السكة الحديد ، هل تعلم أنني لأول مرة في حياتي لم أكن قد فتحت حالما صارت الساعة التاسعة . وهاقد بدأ واضحاً أمامي أنها التاسعة والربع . لقد استغرقتني تلك المناقشة مع أصناف البقالة . كنت أستطيع من خلال ستار الباب الزجاجي الذي يقطعه الحديد أن أرى أنها كانت مارجي يانج هنت . لم أكن في الحقيقة قد تطلعت إليها من قبل ، ولم أكن قد تفحصتها . وربما كان ذلك هو سبب قيامها بقراءة الطالع — لمجرد أن تتأكد من إحساسي بوجودها . لا ينبغي أن أتغير بسرعة كبيرة .

دفعت الأبواب ففتحتها .

— « لم أكن أقصد إزعاجك » .

— « ولكني تأخرت في الفتح » .

— « صحيح ؟ »

— « بالتأكيد . إنها تجاوزت التاسعة » .

دخلت وهي تسير في تلكؤ ، وبرز ردفاها إلى الخارج ، بديعين مستديرين كان ثدياها نافرين ، ولذا لم تكن في حاجة إلى تأكيد وجودها . ومارجي هي ما قد يطلق عليه الفتى جوى اسم « وجبة » ، وربما سماها كذلك ابني آلان أيضا . ربما كنت أراها للمرة الأولى . كانت تقاطيعها متناسقة ، وأنفها طويل قليلاً ، والشفتان قد حددتا بشكل أكثر امتلاء عما هما

عليه ، والسفلى على الأخمص . كان شعرها مصبوغا بلون بنى كستنائى غامق مما لايحدث فى الطبيعة ، ولـكنه كان بديعاً . كان ذقنها رقيقاً ومحدداً ، ولـكن كان بالوجنتين كثير من العضلات ، وعظام الوجنتين مقسمة جداً . وقد لقيت عينا مارجى كل عناية . وكانتا بذاك اللون الذى كلون البندق الضارب إلى الزرقة وإلى لون الصلب الذى يتغير فى الضوء . كان وجها فيه جلد ، وجها تحمل واستطاع أن يتحمل حتى العنف ، وحتى اللـكم . كانت عيناها تضربان فيما حولها ، ناحيتى ، وناحية أصناف البقالة ، ثم تعودان إلى . وتخيلت أنها ذات ملاحظة دقيقة جداً وذات ذاكرة قوية أيضا .

ـــ « أتعشم ألاتـكون لديك نفس مشكلة الأمس . »

وضحكت : « كلا ، كلا . أنا لا ألتقى بوكيل متجول كل يوم . هذه المرة نفدت القهوة التى لدى فعلاً . »

ـــ « معظم الناس كذلك . »

ـــ « ماذا تقصد ؟ »

ـــ « حسنا ، إن الأفراد العشرة الأول فى كل صباح يكونون ممن نفدت قهوتهم »

ـــ « صحيح ؟ »

ـــ « بالتأكد . على فكرة ، أريد أن أشكرك على إرسالك وكيلك المتجول لى » .

ـــ « تلك كانت فكرته . »

ـــ « ولـكنك اقترحتها . أى نوع من القهوة ؟ »

— « لايهم ، إننى أصنع قهوة رديئة مهما كان النوع الذى آتى به . »

— « هل تستعملين المكيال ؟ »

— « بالتأكيد ، ولكنها تظل رديئة . إن القهوة ليست هى ـ كدت أقول ليست مثل « فنجانى من الشاى » .

— « لقد قلتها فعلا . جربى هذه الخلطة». والتقطت علبة من الرف وعندما مدت يدها لتأخذها منى ـ ومع تلك الحركة الصغيرة فحسب ـ تحرك كل جزء فى جسدها ، وأعلن عن نفسه فى هدوء : إننى هنا ، ليس هناك ما هو أفضل منى . كان كل شىء جديداً ، أراه من جديد . وحبست أنفاسى . مارى تقول إن المرأة تستطيع أن تبعث باشارات أولا تبعث ، حسبما تشاء . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن مارجى تملك نظام ارسال يمتد من طرف حذائها المدبب ذى الجلد اللامع حتى شعرها المتموج الكستنائى الناعم .

— « يبدو أنك تخلصت من آلام أمعائك » .

— « كانت آلامها شديدة علىّ بالأمس ، ولا أعرف من أين تأتى » .

— « أنىّ لى أن أعرف ! فهى حينما تحدث لى لاتكون لنفس السبب المعتاد » .

— « لقد أديت عملاً طيباً بقراءة ذلك الطالع » .

— « وهل أزعجك هذا ؟ »

— « كلا . أردت أن أعرف فحسب كيف قمت بذلك » .

— « أنت لا تعتقد فى هذه الأمور » .

— « إن الأمر ليس اعتقاداً . لقد أصبت بعض الأشياء فى الصميم . أشياء

كنت أفكر فيها ، وأشياء كنت أقوم بها » .

— « مثل ماذا ؟ »

— « مثل أن الوقت قد حان لحدوث تغيير ما » .

« أنت تحسبنى قد رتبت الورق ، أليس كذلك » ؟

— « هذا لا يهم . لو كنت قد قمت بذلك ـ فما الذى جعلك تفعلين ؟ هل فكرت فى ذلك ؟ » أمعنت النظر فى عينى ، فى شك ، وتساؤل . وقالت فى رقة : « أجل ! لم أقصد ذلك ، لم أفكر أبدا فيه . فلو كنت قد رتبته ، فما الذى جعلنى أفعل ذلك ؟ كان ذلك سيبدو وكأنه تحطيم لنظام ثابت » .

أطل مستر بيكر برأسه من الباب ، وقال : « طاب صباحك ، يا مارجى . إيثان ، هل فكرت أى تفكير فى إقتراحى ؟ »

— « أجل بالتأكيد . وأود أن أتحدث إليك » .

— « فى أى وقت تشاء ، يا إيثان » .

— « حسناً ، أنا لا أستطيع الخروج خلال الأسبوع . أنت تعلم أن مارولو لا يكاد يأتى إلى هنا إطلاقا . هل ستكون بالبيت غداً ؟ »

— « بالتأكيد ، بعد العودة من الكنيسة . تلك فكرة . فلتأت بمارى حوالى الساعة الرابعة . وبينما تثرثر السيدات حول قبعات عيد القيامة ، نتسلل نحن و ـ » .

— « لدى مائة شىء أود السؤال عنها . أعتقد أنه من الأفضل أن أكتبها » .

— « مرحبا بأى سؤال يتعلق بأى شىء أعرفه . إلى اللقاء إذن . طاب صباحك ، يامارجى » . وحين انصرف ، قالت مارجى : « إنك تبدأ بسرعة »

— « ربما كان مجرد إنصياع . على فكرة ـ أتعرفين ما الذى سيكون

ممتعا ؟ كيف سيكون الحال إذا قلبت الورق دون توضيب أو شيء من هذا القبيل ورأيت مدى مطابقته للأمس » .

قالت : « كلا ! ذلك لن ينفع — أتسخر منى ، أم أنت تعنى ذلك حقاً ؟»

— « إن الكيفية التى أنظر بها إلى الأمر ، لا تهتم باعتقادى . فأنا لا أومن بالإدراك الحسى الزائد ، ولا بالبرق أو القنبلة الهيدروجينية ، ولا حتى بأزهار البنفسج أو مدارس تربية الأسماك - ولكنى أعرف أنها موجودة . أنا لا أومن بالأشباح ولكنى رأيتها » .

— « إنك تسخر الآن » .

— « كلا أنا لا أسخر » .

— « أنت تبدو نفس الرجل » .

— « وأنا لست كذلك . وربما لن يكون أحد ، لمدة طويلة » .

— « ما الذى سبب هذا التغير ، يا إيثان ؟ »

— « لا أدرى ربما مللت بقائى موظفاً فى محل بقالة » .

— « لقد آن الأوان » .

— « هل تحبين مارى حقاً ؟ »

— « أحبها بالتأكيد ، لماذا تسأل ذلك السؤال ؟ »

— « لأنه لا يبدو عليك أنك من نفس النوع - حسناً ، إنك مختلفة عنها أشد الإختلاف » .

— « أدرك ماذا تعنى . ولكنى أميل إليها فعلاً ، أحبها » .

— « وكذلك أنا » .

— « محظوظ » .

— « أعرف أنى كذلك » .

— « كنت أقصدها هى . حسناً ، سأذهب لأصنع قهوتى الرديئة . وسأفكر فى اتفاق الورق ذاك »

— « كلما أسرعت كان أفضل ، قبل أن تهبط فورة الحماس » .

خرجت بصاحبها وقع أقدامها ، وعجبت كم من الناس كنت أنظر إليهم طيلة حياتى ولكنى لم أرهم قط . إن التفكير فى ذلك أمر مخيف . ها هى نقطة استشهاد مرة أخرى . حين يلتقى اثنان من الناس ، يتغير كل واحد منهما بتأثير الآخر وهكذا يكون لديك شخصان جديدان ، وربما يعنى ذلك ـ ياللجحيم ، إنها مسألة معقدة . لقد اتفقت مع نفسى أن أفكر فى مثل تلك الأشياء ليلاً حينما لا أستطيع النوم . لقد أفزعنى عدم فتح المحل فى الموعد المحدد . ذلك يشبه إسقاط مدينك أو عويناتك لدى رؤيتك مشهدا لجريمة قتل ، مثل أولئك الذين يسمونهم ماذا ـ فى شيكاغو . ما معنى ذلك ؟ أية جريمة ؟ وأى قتل ؟ .

عند الظهر أعددت أربع شطائر من الجبن ولحم الخنزير بالخس والمايونيز . « لحم خنزير وجبن ، لحم خنزير وجبن ـ حين يتزوج الرجل ، يعيش فى جبن » وأخذت اثنين من الشطائر وزجاجة كوكا كولا إلى باب المصرف الخلفى وناولتها للفتى جوى « هل وجدت الغلطة »

— « ليس بعد . أعرف إننى قريب جداً منها ، ولكنى أعمى » .

— « لم لا تستريح حتى يوم الاثنين ؟ »

— « لا أستطيع ، فالعمل فى المصارف عملية غريبة الشكل » .

— « أحياناً إذا لم تفكر فى شىء فإنه يتبادر إلى ذهنك » .

— « أعرف ذلك. شكراً من أجل الشطائر » وتطلع داخلهما ليستوثق من وجود الخس والمايونيز .

أن العمل فى محل البقالة فى أصيل يوم السبت السابق لعيد القيامة هو ما يمكن أن يطلق عليه ابنى الجاهل المبجل « عمل يذهب للشيطان » . ولكن حدث فعلاً شيئان أثبتا لى على الأقل أنه كان يجرى فى أعماق بعض التغير العميق الكامن . أقصد أنه بالأمس ، أوفى أى أمس ، لم أكن لأفعل مافعلت . كان الأمر يشبه النظر إلى عينات لورق الحائط . وأظن أننى فضضت نموذجاً جديداً » .

كان أول ماحدث هو دخول مارولّو . كان داء النقرس المصاب به يؤلمه بشكل فظيع جداً ، وكان يوالى ثنى ذراعيه مثل حاملى الأثقال .

— « كيف تسير الأمور ؟ »

— « ببطء ، ياألفيو » لم أكن قد ناديته باسمه الأول من قبل أبدا .

— « لاأحد بالبلدة » .

— « أننى أفضل أن تنادينى بياقى » .

— « ظننت أنك لاتحب هذا » .

— « لقد اكتشفت أننى أحبه ، ياألفيو » .

— « الجميع غادروا البلدة . » لابد أن كتفيه كأنما يحترقان وكأن رملاً ساخناً كان يجرى فى مفاصله .

— « منذ متى أتيت من صقلية » .

— « منذ سبع وأربعين سنة . زمن طويل » .

— « وهل عدت مطلقاً إلى هناك » ؟

— « كلا »

— « لم لاتذهب فى زيارة » ؟

— « لماذا ؟ لقد تبدل كل شىء »

— « ألا ينتابك الفضول للذهاب إلى هناك ؟ ».

— « ليس كثيراً » .

— « ألك أى أقارب أحياء ؟ » .

— بالتأكيد ، هناك أخى وأولاده ؛ وقد أنجب أولاده أولاداً » .

— « أظنك تريد رؤيتهم ؟ »

وأعتقد أنه تطلع إلى : مثلما تطلعت إلى مارجى ، ورآنى لأول مرة .

— « ماذا دبرت فى ذهنك ، يافتى » ؟

— « يؤلمنى أن أراك مريضا بالنقرس . وقد فكرت كيف يكون الجو دافئا فى صقلية وربما خلصك هذا من الآلام » .

ونظر إلى فى شك : « ماذا جرى لك ؟ »

— « ماذا تعنى » :

— « أنت تبدو متغيراً » .

— « أوه ! لقد تواترت إلى بعض الأنباء الطيبة »

— « انت لاتنوى ترك العمل ؟ »

— « ليس الآن وإذا كنت تود القيام برحلة إلى إيطاليا ، فيمكننى أن أعدك بأننى سأبقى هنا » .

— « ماهى الأنباء الطيبة ؟ »

— «لاأستطيع بعد أن أخبرك . إنها تشبه الآتى .. » ومددت راحتى إلى الأمام وإلى الخلف .

— « نقود » .

— « محتمل . اسمع ، إنك غنى بما فيه الكفاية : لماذا لاترجع إلى صقلية وتريهم كيف يبدو الثرى الأمريكى ؟ وتغمر جسدك ببعض حرارة الشمس . يمكننى أن أعنى بالمحل ، وأنت تعلم هذا . »

— « ولن تترك المحل ؟ »

— « كلا ، ياللجحيم . أنت تعرفنى بما يكفى لتعلم أننى لن أتركك وأهرب ؟ »

— « إنك تغيرت يافتى . لماذا ؟ »

— « لقد قلت لك اذهب وداعب الأطفال » .

قال : « إننى لاأنتمى إلى هناك . »

ولكنى كنت أعلم أننى غرست فى نفسه شيئا ما ـ شيئا ما بالفعل .

وكنت أعلم أنه سيأتى إلى المحل فى ساعة متأخرة تلك الليلة ويتفحص الدفاتر . إنه وغد شكاك .

كان قد انصرف لتوه حين ـــ حسناً ، مثلما حدث بالأمس ـ دخل اوكيل المتجول لشركة ب . ب . د .

قال : « لست فى عمل ، أننى أقضى عطلة نهاية الأسبوع فى مونتوك ، وفكرت فى المجىء إلى هنا » .

وقلت : «إنى سعيد أنك فعلت ، فإنى أود إعطائك هذه »

ومددت المحفظة وقد برزت منها الورقة ذات العشرين دولاراً .

— « ياللجحيم ، تلك نية حسنة . لقد أخبرتك أنى لست فى عمل »

— « خذها ! »

— « ما الذى ترمى إليه » .

— « أنها فى عرفنا تمثل عقداً » .

— « ماالأمر ، هل أنت متضايق ؟ »

— « كلا بالتأكيد » .

— « إذن لماذا ! »

— « خذها ! انها لاتحتوى كل الزيادات »

— « ياللمسيح ـ عرضت عليك شركة وايلاند عرضاً أفضل ؟ »

— « كلا » :

— « من إذن ، مؤسسات التنزيل اللعينة ؟ »

ودفعت الورقة ذات العشرين دولار فى جيبه الأمامى خلف منديله المدبب ، وقلت :

« سأحتفظ بالحفظة ، إنها لطيفة » .

— « اسمع ، لا أستطيع أن أقدم عرضاً دون التحدث إلى المكتب الرئيسى . لا تغلق الباب بيننا حتى يوم الثلاثاء . وسأتصل بك تليفونياً . وإذا قلت أننى هيو الذى يتكلم ، فستعرف من يكون » .

— « أنت الذى ستدفع أجر المكالمة التليفونية » .

— « حسنا ، إذن أبق الباب مفتوحا بيننا ، هل ستفعل ؟ »

قلت : « إنه مفتوح . هل ستقوم بصيد السمك ؟ »

— « من أجل السيدات فحسب . لقد حاولت أن آخذ تلك المرأة الشهية

مارجى إلى هناك ، ولـكنها لم ترد الذهاب . لقد ردت على بوقاحة تقريباً . أنا لا أفهم السيدات » .

— « انهن يزددن غرابة على غرابة » .

قال : « تستطيع أن تقول ذلك ثانية . » ولم أكن قد سمعت ذلك التعبير خلال خمسة عشر عاما . و بدأ عليه القلق ، فقال :

— « لا تتصرف أى تصرف قبل أن تسمع نبأ منى . ياللمسيح ، وكنت أحسب أننى أستطيع أن أخدع فتى ريفياً » .

— « لن أبيع معلمى بثمن بخس » .

— « هراء . أنت رفعت النسبة فحسب » .

— « بل رفضت رشوة فحسب ، إذا كنت تحس بدافع للـكلام عن الموضوع » .

وأظن ذلك يثبت أننى كنت مختلفاً عن الآخرين . و بدأ الشاب يتطلع إلى فى احترام ، وارتحت إلى ذلك بل أحببته . كان الغبى يعتقد أنى مثله ، وأننى أمهر منه فى التجارة فحسب .

قبل أن أستعد مباشرة لغلق المحل ، طلبتنى مارى فى التليفون . قالت :

— « إيثان ، والآن لا يركبك الجنون — »

— « من أى شىء ، ياساق الزهرة ؟ »

— « حسنا ، هى تشعر أنها فى غاية الوحشة وظننت — حسناً ، لقد دعوت مارجى للغذاء » .

— « ولم لا ؟ »

— « ألست حانقا ؟ »

— « ياللجحيم ، كلا » .

— « إياك أن تسب ، فغداً عيد القيامة » .

— « هذا يذكرنى بشىء ، اكوأجمل ثيابك ، فسنذهب إلى منزل بيكر فى الساعة الرابعة » .

— « إلى منزلهم ؟ »

— « اجل ، لتناول الشاى » .

— « سيكون على أن أرتدى ثوبى الذى أعددته للذهاب إلى الكنيسة فى عيد القيامة » .

— « رأى طيب ، يارأس نبات السرخس » .

— « ألست حانقاً بسبب دعوة مارجى ؟ »

واجبتها : « إنى أحبك . »وأنا أحبها . أحبها حقاً . هنا تذكرت تفكيرى فى كيف يمكن للانسان أن يتحول من نمط إلى نمط :

الفصل الخامس

عندما اقتربت من نهاية شارع إلم واستدرت فى الممشى المرصوف بالحصى والأحجار ، توقفت وتطلعت إلى البيت العتيق . كان يبدو مختلفا ، يبدو أنه ملكى . لم يكن ملكا لمارى ، ولا لأبى ، أو للقبطان العجوز ، ولكنه كان ملكى . كنت أستطيع أن أبيعه أو أحرقه أو أحتفظ به .

كنت قد صعدت درجتين فحسب من درجات السلم الخلفى ، عندماانفتح الباب الزجاجى محدثا ضجة ، واندفع آلان خارجا وهو يصيح :

— « أين البيكس ؟ ألم تحضر لى البيكس ؟ »

قلت : « كلا » . وزدت دهشة على دهشة ، لأنه لم يصرخ معبراً عن ألمه وخسارته . ولم يضرع إلى والدته كى توافقه على أننى قد وعدت .

قال : « أوه ؟ » وانصرف فى هدوء .

— « طاب مساؤك » قلتها لظهره المتقهقر ، فتوقف وقال : « طاب مساؤك » . وكأنه يقول كلمة غريبة قد تعلمها لتوه .

جاءت مارى إلى المطبخ ، وقالت : « لقد قصصت شعرك . وهى تشخص اى تبدل فى على أنه إما حمى أوقص شعر .

— « كلا ، يادبوس الشعر ، لم أفعل » .

— « حسنا ، كنت أدور كالسيخ لأهيىء البيت » .

— « لتهىء البيت ؟ »

— « لقد قالت إن مارجى قادمة لتناول الغداء » .

— « أعرف ولكن لم كل ضجة الأعياد تلك ؟ »

— « لم يتوفر وجود ضيف عندنا لتناول الغداء منذ دهور » .

— « ذلك صحيح . ذلك صحيح فعلاً » .

-- هل تنوى أن ترتدى حلتك الغامقة ؟ »

— « كلا ، بل الأولد دو بين ' حلتى الرمادية اللطيفة » .

— «ولم لا ترتدى الغامقة ؟ »

— « لا أريد أن أفسد كيها ، لأذهب بها إلى الكنيسه غداً » .

— « يمكنى ان اكويها غداً صباحاً » .

— « سأرتدى الأولد دو بين ، أكثر الحلل أناقة فى المقاطعة » .

وصاحت : « يا أولاد ، لا تلمسوا أى شىء ! لقد أخرجت الصحف. الا تريد ارتداء الحلة الغامقة ؟ »

— « كلا » .

— « ستكون مارجى فى أتم أناقه وأحلى هندام » .

— « مارجى تحب الأولد دو بين » .

— « وكيف تعرف ؟ »

— « لقد أخبرتنى » .

— « إنها لم تخبرك » .

— « كتبت خطاباً إلى الصحيفة بهذا الشأن » .

— « كن جاداً . هل ستكون لطيفاً معها فعلاً ؟ »

— « إننى أنوى أن أطارحها الهوى » .

— « كنت أحسب أنك تفضل ارتداء الغامقة — بمناسبة حضورها » ،

— « اسمعى ، يازهرتى ، حين جئت إلى هنا ، لم أكن أهتم أدنى إهتمام بما أرتديه أو بأى شىء . وفى لحظتين قصيرتين جعلت من المستحيل على أن أرتدى أى شىء سوى الأولد دويين » .

— « لمجرد أن تكون مزعجاً ؟ »

— « بالتأكيد » .

— « أوه ! » قالتها بنفس النغمة التى استعملها آلان .

— « ماذا أعددت للغداء ؟ أريد ان ارتدى ربطة عنق تتناسب مع اللحم » .

— «دجاج محمر . ألا تستطيع شم رائحته »

— « أظن أنى لم أستطيع ـ مارى ـ » ولكنى ـ أتم عبارتى . ولماذا أتمها ؟ أنت لاتستطيع أن تقاوم غريزة قومية . لقد ذهبت مارى إلى محل « سيفرايت » يوم سوق الدجاج. لأنه يباع هناك أرخص منه عندما رولو . ولكنى طبعاً أحصل عليه بسعر الجملة وقد سبق أن شرحت لمارى للساومات اللبقة التى تحدث فى المحلات ذات الإدارة الواحدة . فالصفقة تجتذبك وتجعلك تشترى عديداً من من الأشياء الأخرى التى لايكون شراؤها صفقة مجرد أنك تجدها فى متناول يدك . وكل واحد يعرف هذا وكل واحد يفعله »

ماتت محاضرتى لمارى منى فوراً قبل أن تولد . إيثان آلان هولى الجديد يتماشى مع الحماقات القومية و يستفيد منها عندما يستطيع .

قالت ماري : « آمل ألا تعتبرني خائنة » .

— « عزيزتي ، وماذا يمكن أن يـــكون فاضلاً ! وآثما فيا يتعلق بدجاجة » .

— « كانت غاية فى الرخص »

— « أعتقد أنك فعلت الصواب .. فعلت مايليق بزوجة » .

— « إنك تهزل » .

كان آلان ينتظرني فى غرفة نومى : « هل أستطيع أن أتفرج على سيف الفرسان الرهبان الذى لديك ؟ »

— « بالتأكيد . إنه فى ركن الدولاب » .

كان يعرف جيداً جداً أين يوجد . و بينما كنت أخلع ملابسى ، أخرجه من جرابه الجلدى ثم من غمده وشرع السلاح المطلى المتألق فى الضوء ثم تطلع إلى وقفته النبيلة فى المرآة .

— « كيف تسير فى كتابة المقال ؟ »

— « هه ؟ »

— « أليس ماتقصده هو : عفواً يا سيدى ؟ »

— « أجل ، ياسيدى » .

— « قلت ، كيف يسير العمل فى المقال ؟ »

— « أوه ! رائع » .

— « هل تنوى أن تتمه ؟ »

— « بالتأكيد » .

— « بالتأكيد » ؟ .

— « بالتأكيد ، يا سيدى » .

— « تستطيع التفرج على القبعة أيضا . أنها فى ذلك الصندوق الجلدى الكبير على الرف . لقد اصفرت ريشتها نوعا ما » .

دخلت حوض الاستحمام الضخم العتيق المقسع القاع ذى الأرجل التى على شكل أقدام أسد . كانوا يصنعونها ضخمة فى تلك الأيام لينعم المرء فيها بحمامة . وفركت عن جلدى بفرشاة آثار مارواللو واليوم كله ، وحلقت ذهنى وأنا فى حوض الاستحمام دون النظر فى مرآة ، وأخذت أتحسس باطراف أناملى بحثا عن سالفى . وقد يجمع الكل على أن ذلك عمل ممعن فى رومانتيه وانحطاطه . وعندما مشطت شعرى ، نظرت فى المرآة . لم أكن قد رأيت وجهى منذ فترة طويلة . من المحتمل جدا أن تحلق ذقنك كل يوم ، ولكنك فعلا لا ترى وجهك أبدا ، خاصة إذا كنت لا تهتم به كثيراً . إن الجمال لا يعدو أن يكون بسمك البشرة فحسب ، ولكنه يجب أيضا أن ينبع من الداخل . وأفضل لى أن أكون الثانى إذا كان على أن أحصل على مكانة ما . ليس معنى هذا أن لى وجهاً قبيحاً ، كل ما فى الأمر ، أنه بالنسبة لى لا يثير الاهتمام . ورسمت بوجهى بعض تعبيرات ثم أقلعت . فلم تكن تعبيرات نبيلة أو متوعدة أو متكبرة أو هازلة . بل كان الوجه هو نفس وجهى اللعين يتصنع تلك التعبيرات .

حين عدت إلى مخدعى ، كان آلان يرتدى قبعة الفرسان ذات الريشة ، وإذا كان ارتداؤها يجعلنى أبدو أبلها إلى ذلك الحد فينبغى أن أتنازل عنها . كان صندوق القبعة الجلدى مفتوحا فوق الأرض . وكانت له ساندة من الورق المقوى المكسو بالقطيفة تشبه سلطانية حساء مقلوبة .

— «ترى هل يستطيعون تبيض ريشة النعامة تلك ، أم ينبغى على أن آتى بواحدة جديدة ؟ »

— « لو أتيت بواحدة جديدة ، فهل أستطيع أن آخذ هذه ؟ »

— « ولم لا ؟ اين إيلين ؟ انى لم أسمع صوتها الفتى الزاعق » .

— « إنها تكتب فى مقالتها ، أنا أحب امريكا » .

— « وأنت ؟ »

— « إننى أفكر فيها . هل ستأتى ببعض البيكس إلى البيت ؟ »

— « ربما أنساه . لم لا تأت إلى المحل يوماً وتأخذه ؟ »

— « حسنا . أتسمح لى أن أسألك عن شىء ما - ياسيدى ؟ »

— « سأحس بالتملق » .

— « هل كنا نمتلك شارع هاى بأكمله ماعدا عمارتين ؟ »

— « أجل » .

— « وهل كانت لدينا سفن لصيد الحيتان ؟ »

— « أجل » .

— « حسنا ، ولماذا لا نمتلكها الآن ؟ »

— « لقد فقدناها » .

— « وكيف حدث ذلك ؟ »

— « حين أفقنا من نومنا ، كنا قد فقدناها » .

— « تلك نكتة » .

— « إنها نكتة عميقة جدا وجادة ، لو شرحتها » .

— « كنا نشرح ضفدعة فى المدرسة » .

— « هذا فى صالحك ، ولكنه ليس فى صالح الضفدعة . أية ربطة من هذه الربطات الجميله ألبس ؟ »

— « الزرقاء » ، قالها دونما اهتمام . « قل لى هل تستطيع ـ بعد أن ترتدى ملابسك ـ هل يسمح وقتك بالصعود إلى السندره ؟ »

— « سأدبر أمر الوقت إذا كان الموضوع هاماً » .

— « وهل ستأتى ؟ »

— « نعم » .

— « حسنا . سأصعد الآن وأضىء النور » .

— « سألحق بك خلال لحظتين من اللحظات التى يستغرقها ربط رباط العنق » .

كان وقع قدميه يبعث صوتاً أجوف فوق سلم السندرة الذى لاتغطيه سجادة إذا فكرت فى عملية عقد ربطتى فى أثناء أدائها ، فإن العقدة تميل إلى أخذ شكل مستدير ، أما إذا تركت أصابعى تتابع طريقها وحدها ، فإنها تتم العملية بإتقان . ووكلت الأمر إلى أصابعى . وأخذت أفكر فى سندرة منزل آل هولى العتيق ، منزلى ، وسندرتى . إنها ليست سجناً مظلماً يملؤه العنكبوت ، ويلقى فيه الحطام ومانحن فى غنى عنه . فلها نوافذ ذات ضلف زجاجية صغيرة من القدم بحيث يتسرب الضوء منها بنفسجيا ، ويبدو المنظر الخارجى متمايلاً مثل عالم مرئى خلال الماء . والكتب المخزونة هناك ليست كتباً تنتظر إلقائها بعيداً أو إعطائها إلى معهد البحرية . بل إنها تجلس مستريحة على أرففها تنتظر من يكتشف قيمتها من جديد. والكراسى بعضها قد انقضت موضته منذ بعض الوقت ، وبعضها تراخت

مقعدته ، ولـكنها لاتزال ضخمة لينة . وهى أيضا ليست مكاناً متربًا . فتنظيف المنزل يشمل تنظيف السندرة أيضا ، وحيث إنها تظل مغلقة معظم الوقت ، فإن الغبار لايدخلها . وأذكر حين كنت طفلاً أحبو بين روائع الـكتب ، أو حين كانت الـكروب تثقل على ، أو عند ما كنت أصل إلى مرحلة خيالية لاتنبض تماما بالحياة وتتطلب الوحدة ، أنى كنت أعتكف فى السندرة ، لأرقد مكومًا فى كرسى ضخم واتخذ قالب الجسم ، فى ضوء اللافندر البنفسجى المنبعث من النافذة ، كنت أستطيع هناك أن أتأمل الدعامات الضخمة ذات الأربعة أوجه التى تسند السقف ـ وأرى كيف عشقت واحدة فى الأخرى وكيف ثبتت فى مكانها بخوابير من خشب البلوط . وحتى حينما تمطر الدنيا مطراً يتدرج وقعه على السقف من خشخشة الرذاذ إلى الزئير ، تظل السندرة مكانًا لطيفًا آمناً . ثم هناك الـكتب ، الـكتب التى يسبغ عليها الضوء لونا هادئا ، الـكتب المصورة التى كانت ملك أطفال نموا ، وتركوا ذريتهم ، ثم مضوا ، كتب « الثرثارين » وسلسلة «رولو» وألف كتاب عن أعمال الرب ـ النار ، والطوفان ، وأمواج المد ، والزلازل ـ وكلها حافلة بالصور ، ثم « جحيم جوستاف دوريه المصورة » ومعها قصائد دانتى الرباعية وكأنها قوالب طوب بين الصور ، ثم قصص « هانز كريستيان أندرسن » التى تحز فى القلب ، والعنف والقسوة اللذان يجمدان الدم فى العروق فى كتب الإخوة جريم ، ثم كتاب « وفاة آرثر » بجلاله ولوحاته التى رسمها « أوبرى بيروسلى » ذلك المخلوق الملتوى العليل ، وكيف كان اختياره غريبًا حين صور « مالورى » العظيم الممتلىء رجولة .

أذكر كيف كنت أفكر فى مدى حكمة رجل مثل « هـ . ك . أندرسن . »

لقد باح الملاك بأسراره إلى أعماق بئر ، فبقيت أسراره فى مأمن . والرجل الذى يبوح بأسرار أو يحكى قصصاً ينبغى عليه أن يفكر فيمن يسمعه أو يقرؤه ، لأن للقصة عدداً من التأويلات بمثل عدد ما لها من قراء . فكل امرىء يأخذ منها مايريده أو يقدر عليه وهكذا يغيرها بما يتناسب معه . البعض ينتقى أجزاء وينبذ الباقى ، والبعض يصفى القصة خلال شبكة تحيزه ، والبعض يضفون عليها ابتهاجهم . وينبغى أن يكون فى القصة بضع نقاط اتصال مع القارىء لكى تجعله يحس معها بالألفة فحينئذ فحسب يمكنه تقبل غرائبها . فالحكاية التى قد أحكيها لآلان ينبغى أن يختلف بناؤها عن بناء نفس الحكاية حين تحكى لمارى ، وتلك بدورها تشكل بشكل يتناسب مع مارولو، إذا كان مارولو سيشترك فى سماعها . ولكن ربما يكون بئر هوساى أندرسون هو الأفضل . فهو يتلقى فحسب ، والصدى الذى يردده منخفض وسرعان مايزول .

أحسب أننا جميعاً ، أو أن غالبيتنا ، نقيم من أنفسنا حراساً على علم القرن التاسع عشر، ذلك العلم الذى أنكر وجود أى شىء لم يتمكن من قياسه أو تفسيره. فالأشياء التى لم نستطع تفسيرها، استمرت، ولكن المؤكد أنها أستمرت دون أن نؤيدها ببركاتنا . ونحن لم ندرك مالم نستطع تفسيره ، وخلال ذلك ترك جزء كبير من العالم للأطفال والمجانين والأغبياء والمتصوفين ، لأولئك الذين كان اهتمامهم بما هو كائن أكثر من اهتمامهم بسبب وجوده . وكثيرة جداً هى الأشياء القديمة الحلوة المخزونة فى سندرة العالم، لأننا لانريدها من حولنا ولا نجسر على إلقائها بعيداً .

تدلى من إحدى دعامات السقف مصباح وحيد غير مظلل . أما أرضية

السندرة فتكسوها ألواح من خشب الصنوبر المحفور باليد ، عرض الواحد منها عشرون بوصة وسمكه بوصتان ، وهى ركيزة متينة فسيحة للأكداس المرتبة من الحقائب الكبيرة والصناديق ، والمصابيح والفازات الملفوفة فى الورق ، وكل ما استبعد من أنواع الحلى . ويتألق الضوء فى رقة على أجيال من الكتب موضوعة فى خزانات كتب مكشوفة — وكلها نظيفة لا يعلوها التراب . وعزيزتى مارى متعقبة تراب حازمة لا تلين ، وهى أنيقة الهندام مثل باشجاويش . لذا ترتب الكتب حسب حجمها ولونها .

كان آلان يسند جبهته إلى الجزء الأعلى لخزانة كتب ويحملق بناظرية إلى أسفل حيث الكتب . وقد وضع يده اليمنى على شعيرة سيف الفرسان المقدسين وجعل طرفه المدبب إلى أسفل وكأنه عصا .

— « أنت تشكل صورة رمزية ، يابنى . فلنسمها (شباب ، وحرب ، وتحصيل) » .

— « أريد أن أسألك — لقد قلت إنه توجد كتب أرجع إليها للحصول على المادة » .

— « أى نوع من المادة ؟ » .

— « وطنية عصر الجاز ، لأكتبها فى المقالة » .

« أفهم . وطنية عصر الجاز . ما رأيك فى هذا ؟ » (هل عزت الحياة وحلا السلم ، بحيث صار ثمن شرائهما هو الأغلال والعبودية ؟ ألا فلتمنع عنا هذا ، ياإلهى العظيم ! أنا لا أعرف أى طريق سيسلك الآخرون . ولكن فيما يتعلق بى امنحنى الحرية أوهبنى الموت !) » .

— « عظيم ! تلك هى البذور » .

— « هى كذلك بالتأكيد . فى تلك الأيام كانت الأرض مأهولة بالعمالقة » .

— « ليتنى عشت حينذاك . فى سفن القراصنة . ويالى من صبى ! بانج بانج ! سلوا سيوفكم ! آنية من ذهب وسيدات يرتدين ثيابا حريرية وجواهر . ليتنى عشت فعلاً حينذاك . لقد عاش بعض أهلنا تلك الفترة ـ عاشوها فعلاً . لقد قلت هذا أنت نفسك » .

— « كان نمطاً من القرصنة المهذبة ـ كانوا يسمونها سفناً تجارية تابعة للأسطول الحربى . وأظن أن الحياة لم تكن بمثل العذوبة التى تبدو بها من بعد . لحم مملح و بسكويت . فى تلك الأيام أيضاً كان مرض الأسقربوط موجوداً على سطح الأرض » .

— « لم يكن ذلك ليهمنى . كنت سأحصل على الذهب وأعود به إلى البيت . أظنهم لن يدعوك تفعل هذا الآن » .

— « كلا ـ لقد صارت القرصنة الآن أكثر ضخامة وتنظيماً . إنهم يسمونها ديبلوماسية » .

— « هناك ولد فى مدرستنا كسب جائزتى تليفزيون ـ خمسين دولاراً ثم مائتى دولار . فكيف حدث ذلك ؟ »

— « لابد أنه ذكى » .

— « هو ؟ طبعًا لا . إنها حيلة كما يقول . عليك أن تتعلم الحيلة وحينئذ تصير ملماً بسر المهنة » .

— « سر المهنة ؟ »

— « بالتأكيد ـ مثل قولك أنك مقعد أوأنك تعول أمك العجوز بتربية الضفادع . وذلك يكسبك اهتمام الجمهور وهكذا يختارونك . ولديه مجلة تنشرفيها أية مسابقة تجرى فى القطر كله هل أستطيع الحصول على واحـــدة من تلك المجلات ، يابابا ؟ »

— « حسناً ، لقد انتهت القرصنة ، ولـكنى أعتقد أن دافعها لا يزال حياً »

— « ماذا تقصد ؟ »

— « الحصول على شىء من لا شىء . ثروة دون ما جهد » .

— « هل أستطيع الحصول على تلك المجلة ؟ »

— « كنت أظن أن أمثال تلك الأشياء قد لطخها العار منذ فضائح البايولا »

— « يا للجحيم ، كلا . أقصد كلا ، ياسيدى . إنهم بدلوا قليلا فى شكلها . انى أحب فعلاً أن اقتطع نصيبى من بعض تلك الأسلاب » .

— « هى أسلاب ، أليس كذلك ؟ »

— « كلها نقود ، ولايهم كيفية الحصول عليها » .

— « إنى لا أومن بذلك . فإن الحصول على النقود بتلك الطريقة لايضيرها ولـكنه يضير الشخص الذى يحصل عليها » .

— « لا أدرك كيف . أنه ليس عملاً منافياً للقانون . كما أن بعض أعاظم الناس فى هذا البلد ... » .

— « تشارلز ، ياولدى ، ياولدى » .

— « ماذا تقصد بقولك ، تشارلز ؟ » .

— « هل ينبغى أن تكون غنياً ، يا آلان ؟ هل ينبغى أن تكون ؟ »

— « أتظننى أحب أن أعيش دون موتوسيكل ؟ ينبغى أن يكون هناك عشرون فتى لديهم موتوسيكلات . ثم كيف يكون الحال إذا لم تكن لدى أسرتك ولو سيارة ، ولندع جانبا التلفزيون ؟ »

— « إننى مذهول حقاً » .

— « إنك لا تدرى كيف يكون الحال ، يا بابا . فى أحد الأيام كتبت فى الفصل موضوعاً عن جدى العظيم وكيف كان قبطان سفينة لصيد الحيتان » .

— « أجل ، لقد كان كذلك فعلاً » .

— « ثم انفجر الفصل كله ضاحكاً . أتدرى ماذا يطلقون على ؟ الحيتانى. فهل يعجبك ذلك ؟ » .

— « يالشناعة » .

— « لم يكن الأمر ليصير بهذه الشناعة ، لو كنت محامياً أو موظفاً فى مصرف أو شيئاً من هذا القبيل . أتدرى ماذا أنوى أن أفعل بأول جزء أكسبه من الأسلاب ؟ »

— « كلا ، ماذا تنوى أن تفعل ؟ »

— « سأشترى لك سيارة ، لكيلا تشعر بالأسى وأنت ترى الآخرين جميعا يمتلكون سيارات » .

وقلت : « شكراً لك ، يا آلان . » وأصاب الجفاف حلقى .

— « أوه حسناً . على كل أنا لا أستطيع الحصول على رخصة الآن » .

— « ستجد كل خطب أمتنا العظيمة فى ذلك الصندوق يا آلان . وأتعشم أن تقرأ بعضها » .

— « سأفعل حتماً ، فإنى أحتاج إليها » .

ــ « إنك تحتاج إليها بالتأكيد. صيد طيب» .نزلت السلم بهدوء ، وكنت أبلل شفتى فى أثناء نزولى . كان آلان على حق ، فقد كنت شعر بالأسى . عندما جلست فى كرسى الـكبير أسفل مصباح القراءة ، وأحضرت لى مارى الجريدة .

— « كم أنت مبعث راحة ، ياحبيبتى » .

— « تلك البذلة تبدو لطيفاً حقاً » .

- « أنت تخسرين جيداً وتطبخين جيداً » .

— « وربطة العنق تناسب لون عينيك » .

— « أنت تدبرين شيئاً ما . أستطيع أن أحدس . سأبادلك سراً بسر » .

قلت : « ولـكن ليس لدى سر » .

-- « اعنمى واحداً ! »

— « لا أستطيع ، هيا ، يا إيثان ، أخبرنى » .

— « هل ثمة أطفال متسمعون يسترقون السمع ؟ »

— « كلا » .

— « حسناً ، زارتنى اليوم مارجى يانج هنت . نفذت قهوتها ، هذا ماقالته ، ولـكنى أعتقد أنها تستحثنى على شىء ما » .

— « هيا ، تـكلم » .

— « حسنا ، كنا نتكلم عن الطالع وقلت إنه سيكون من الممتع أن نعيد قراءته مرة أخرى لنرى ماذا قد بقى بلا تغيير » .

— « غير معقول ! »

— « بل هذا ما فعلته وقد قلت أنه سيكون أمراً ممتعاً » .

— « ولـكنك لا تحب مثل تلك الأمور » .

— « إنى أحبها حينما تـكون مفيدة . »

— « وتعتقد أنها ستفعل ذلك الليلة ؟ »

— « لو اهتممت بأن تعطينى بنساً نظير أفـكارى ، فإننى أظن أن ذلك هو سبب قدومها » .

— « أوه ، كـلا ! بل أنا التى دعوتها » .

— « بعد أن هيأت ذهنك لذلك » .

— « إنك لا تميل إليها » .

— « بالعكس — لقد بدأت أميل إليها جداً ، وأحترمها » .

— « أود لو أستطيع معرفة متى تهزل » .

حينئذ دخلت إلين فى هدوء بحيث لا يسعك أن تعرف ما إذا كانت تسترق السمع أم لا ، وإن كنت أشك فى أنها كانت تتسمع علينا . وإيلين فتاة بكل ما فى الـكلمة من معان ، وتبدو عليها أنوثة فتاة الثالثة عشره بكل وضوح ، حلوة وحزينة ، مرحة ورقيقة ، بل متمارضة حين تدعو الحاجة . وهى فى تلك المرحلة التى تشبه العجين الذى بدأ فى التخمر . وربما تغدو جميلة ، وربما لاتغدو . وهى تحب الاستناد ، وتستند إلى . وتتنفس فى وجهى أيضاً ، ولـكن نفسها حلو كتنفس بقرة . كما أنها تحب اللمس أيضاً . . .

استندت إيلين إلى مسند كرسى . ولمس كتفها الصغير الرقيق كتفى وجرت بأصبع قرمزى منحدرة مع كم ردائى ثم وصلت إلى الشعرات التى على معصمى فسرت فيه دغدغة . كان الشعر الأشقر الذى على ذراعيها يلمع ، مثل التبر تحت

ضوء المصباح. فتاة منحرفة، إنها كذلك ، ولكنى أعتقد أن كل الفتيات الممتلئات أنوثة ، منحرفات أيضا .

قلت : « أتستعملين طلاء أظافر » .

— « ماما تسمح لى باستعماله إذا كان قرمزياً فحسب . أظافرك غير مشذبة »

— « هل هى كذلك » ؟

— « ولكنها نظيفة » .

— « لقد دعكتها » .

— « إنى أكره الأظافر القذرة التى كأظافر آلان » .

— « لعلك تكرهين آلان كله ، جملة وتفصيلاً » .

— « أجل » .

— « هذا خير لك . ولماذا لاتقتلينه » .

— « أنت أحمق » . وتسللت أصابعها خلف أذنى .

ربما تكون قد وصلت بالفعل إلى مرحلة إثارة بعض الصبية .

— « سمعت أنك تعملين فى مقالك » .

— « أخبرك ، آلان » .

— « هل هى مقالة جيدة » ؟

— « أوه ، أجل ! جيدة جداً . سأدعك تقرؤها حين تتم » .

— « لى الشرف . أرى أنك ارتديت ثيابك استعدادا للمناسبة » .

— « هذا الثوب القديم ؟ اننى أدخر ثوبى الجديد للغد » .

— « فكرة طيبة ، فسيكون هناك فتيان » .

— « أنا أكره الفتيان . أنا أكره الفتيان فعلاً » .

— « أعلم أنك تكرهينهم . فالعداوه مبدؤك . أنا نفسى لا أميل إليهم كثيراً . والآن دعى الاستناد إلىّ دقيقة ، أريد قراءة الصحيفة » .

وانتفضت مثل كواكب السينما فى عام ١٩٢٠ ، وانتقمت لنفسها فى الحال حين سألت :

« متى ستصبح غنياً ؟ »

أجل ، إنها ستهب رجلاً ما وقتاً سيئاً . كانت غريزتى تدفعنى إلى أن أجذبها إلىّ ثم أصفعها ، ولكن هذا بالضبط ما كانت راغبة فيه . وإنى واثق أنها كانت تظلل عينها . فقد انبعث منها قليل من الشفقة مثل تلك التى تجدها فى عينى نمر أو قط .

قلت : « يوم الجمعة القادم » .

— « حسناً ، أود أن تسرع ، فقد سئمت الفقر » :

وانسلت خارجه بسرعة : وهى أيضاً متسمعة من وراء الأبواب . إننى أحبها فعلاً ، وذلك غريب لأنها تمثل كل مايثير اشمئزازى فى أى شخص آخر — ولكننى أعبدها .

ليست الجرائد لى فقد وصلت مارجى يانج هنت حتى قبل أن أفض جريدتى ، كانت أنيقه الهندام — أناقة الهندام التى يضفيها حلاق السيدات . وأظن أن مارى كانت تعرف كيف تم إضفاء تلك الأناقة ، أما أنا فلم أعرف .

فى الصباح كانت مارجى التى نفدت قوتها قد تهيأت من أجلى مثل فخ لصيد الدببة : وفى مساء نفس اليوم كانت تصوب رميتها إلى مارى ،

كانت ضيفة كاملة -- و بالنسبة لامرأة أخرى ـــ مسمفة ، وساحرة ، ومجاملة ، وحصيفة ، ومتواضعــة ، كانت تعاملنى كما لو كنت قدأمضيت أربعين سنة منذ الصباح ، كم هى شيء مدهش ، المرأة . أستطيع أن أعجب بما يفعلن وإن كنت لا أفهم لماذا يفعلنه .

بينما انهمكت مارجى ومارى فى ثرثرتها المرحة ، « ماذا فعلت بشعرك ؟ » ، « إنه يعجبنى » ... « ذلك هو لونك الذى يلائمك . ينبغى أن ترتديه دائماً » — شارات التعرف غير المؤذى بين النسـاء — كنت أفـكر فى أن أ كثر القصص التى سمعتها أنثوية ، تلتقى امرأتان وتصيح إحداهن « ماذا فعلت بشعرك ؟ إنه يشبه الشعر المستعار » ، « إنه شعر مستعار » ، « حسناً ، إنك لم تـكونى لتعرفيه أبداً » ،

ربما كانت تلك استجابات أعمق مما نعرفه أو مما لنا أى حق فى معرفته :

كان الغداء سلسلة من صيحات الإعجاب بروعه الدجاج الحمر ، وعمليات إنكار أنه لايصلح للأكل ، وكانت إيلين تدرس ضيفتنا وعينها تسجل ما ترى ، كل تفاصيل تصفيف شعرها وزينة وجهها : وعرفت حينئذ إلى أى حد يبدأن صغاراً فحصهن الدقيق لما يبنين عليه مايسمى بسرعة بديهتهن ، وتجنبت إلين عينى ، كانت تعلم أنها قد أطلقت سهمها ليردى ، وكانت تتوقع الانتقام ، حسناً جداً، ياابنتى المتوحشة. سأقتص من نفسى بأقسى طريقة يمكنك تصورها ، سأنسى الأمر .

كان غداء طيباً ، فاخراً جداً وبكميات كبيرة جداً ، مثلما ينبغى أن

تـكون عليه وليمة ، واستعملنا جبلاً من الصحاف مما لايستعمل عادة : وتلت القهوة العشاء ، وتلك أيضاً لا نتناولها عادة .

— « ألا تبقيك ساهرة » ؟

— « لاشيء يبقينى ساهرة »

— « ولا أنا » ؟

— « إيشـــان » !

وتلا ذلك الحرب الساكنة المميتة مع الصحاف : « دعينى أساعدك » ،

— « لا يمكن ، فأنت الضيفة » .

— « حسناً ، دعينى أحملها عنك » ؟

وبحثت عينا مارى عن الطفلين واستحثتهما همتها بسونكى مشرع . كانا يعرفان ماهو آت ، ولـكنهما كانا عاجزين .

وقالت مارى : « دائما مايقوم الطفلان بهذه العملية ، بل إنهما يحبان القيام بها ، كما أنهما يؤديانها على خير وجه . إنى لفخورة بهما » .

— « أليس ذلك لطيفاً ؟ لم تعودى ترى ذلك كثيراً الآن » .

— « أعرف . ونحن نشعر بأننا محظوظان لأنهما يرغبان فى المعاونة . »

كنت أستطيع قراءة مايدور فى ذهنيهما الصغيرين المتصيدين ، وهما يبحثان عن مهرب ، ويفكران فى الاحتجاج ، أو التمارض ، أو إسقاط الصحاف الجميلة العتيقة . ولا بد أن تكون مارى أيضا قرأت مايدور فى ذهنيهما الشريرين .

فقالت : « والجدير بالملاحظة أنهما لا يكسران أبدا أى شىء ، بل حتى لم تشرخ منهما كوب » .

وقالت مارجى : « طوبى لك ! وكيف علمتها ذلك ؟ »

— « أنا لم أعلمها . إنه شىء فطرى فيهما . أنت تعرفين أن بعض الناس أغبياء بالسليقة ، ولكن آلان وإيلين مفطوران على الذكاء فيما يتعلق بمهارتهما اليدوية » .

نظرت إلى الطفلين لأرى كيف تقبلا الأمر . كانا يعرفان أنهما قد غلبا على أمرهما . وأظنهما تساءلا إذا ما كانت مارجى يانج هنت تدرك هذا . كانا لا يزالان يبحثان عن مهرب . وأسقطت الحمل عليهما بكامل ثقله .

قلت : « إنهما يودان طبعا سماع المديح ، ولكننا نعطلهما . ستفوتهما السينما إذا لم نتركهما يلحقانها » .

كانت مارجى من الكياسة بحيث لم تضحك ، ومنت على مارى بنظرة إعجاب سريعة متحيرة . لم يكونا قد طلبا حتى الذهاب إلى السينما .

الأطفال فى سن المراهقة حتى إذا لم يحدثوا صوتاً ما ، إلا أن الجو يصير أكثر هدوءاً بعد انصرافهم ، فهم يبثون فى الهواء حولهم جواً من الغليان . فحينما انصرفا ، بدا وكأن البيت كله يرسل زفرة ارتياح ويستكن . لاعجب إذن فى ألا تغزو أشباح الضوضاء الغامضة إلا المنازل التى بها أطفال مراهقون .

كنا ثلاثتنا ندور فى حرص حول الموضوع الذى أدرك كل منا أنه آت ولا ريب . ذهبت إلى الدولاب ذى الواجهة الزجاجية ، وأخرجت ثلاث كئوس طويلة العنق ، على شكل زهرة الزنبق ، وفيها التفافة زهرة القطن ، وقد أحضرت من إنجلترا ، يعلم الله منذ متى وصببت من قنينه سعة جالون مغطاه بالقش ، أحال الزمن لونها وجعله داكناً .

وقلت : « روم جامايكا . لقد كان آل هولى رجال بحر » .

فردت مارجى يانج هنت : « لا بد أنها معتقة جداً » .

— « أكبر سنا منك ومنى ومن أبى » .

وقالت مارى : « إنها ستفقدك الوعى . ولكن ، حسناً ، لا بد أن هذا حفل حقيقى . فإيثان لا يأتى بها إلا فى الأفراح والمآتم فحسب . أتظن أن شرب هذا صواب ، يا عزيزى ؟ أعنى ، قبل عيد القيامة مباشرة » ؟

— « لم يكن العشاء الربانى كوكا كولا ، يا حبيبتى » .

— « مارى ، أنا لم أر زوجك أبدا بمثل هذا الحبور » .

وقالت مارى : « إنه الطالع الذى قرأتيه ، لقد بدله فى ليلة » .

كم هو شىء مرعب ذلك الكائن البشرى ، حشد من المقاييس والأرقام والمجلات ، ونحن لا نستطيع أن نقرأ منها إلا القليل فحسب ، وربما لا تكون قراءتنا لذلك القليل متقنة . وهج من الألم اللافح الدامى تكون فى أحشائى وتحرك إلى أعلى حتى انتشر فى المكان الذى تحت ضلوعى مباشرة ومزقه . وزأرت فى أذنى ريح هائلة دفعتنى مثل سفينة عاجزة ، تحطمت صواريها قبل أن نتمكن من إنزال قلوعها . وأصبح لفمى مذاق الملح المر ، ورأيت غرفة تنبض وتلهث . كانت كل إشارة تحذير تصرخ بالدمار ، تصرخ بالصدمة . واقتنصتنى بينما كنت أمر خلف كراسى السيدات وتثنتى على نفسى فى ألم احتضار مزلزل ، ومثلما حدثت فجأة اختفت فجأة . شددت جسدى وواصلت حركتى ولم تدرك حتى أن شيئا حدث . أدرك الآن كيف اعتقد الناس ذات يوم أن الشيطان يستطيع أن يستولى عليهم . وأنا غير واثق أننى لا أومن بذلك ... الاستيلاء !

الميلاد المضطرم لشيء غريب ، بينما كل عصب يقاوم ويفقد المعركة ثم يستقر مهزوماً ليعقد الصلح مع غازيه . الاغتصاب ـ تلك هي الكلمة ، إذا أمكنك التفكير في وقع كلمة يجدها لهيب أزرق كذلك المندفع من وابور لحام .

وجاء في صوت حبيبتي ، كانت تقول : « ليس من المؤذى حقا أن يسمع المرء أشياء لطيفة » .

وجربت صوتي ، كان قوياً ثابتاً ، « قليل من الأمل ، بل حتى الأمل الذى لاأمل فيه ، لا يؤذى أحداً على الإطلاق » .

قلتها ووضعت القنينة فيالدولاب ، ثم عدت إلى كرسى ، وشربت نصف كأس الروم العتيق ذى الرائحة الفياحة ، ثم جلست ووضعت ساقاً على ساق وشبكت أصابعى فى حجرى .

قالت مارى : « أنا لا أفهمه . كان دائما يمقت قراءة الطالع ، ويسخرمنها بالنكات . إننى فعلاً لا أفهم » .

كانت أطراف أعصابي تخشخش مثل عشب الشتاء الجاف حين تحركه الرياح ، وقد ابيضت أصابعى المتشابكة من الضغط عليها .

قلت : « سأحاول شرح الأمر لمسز يانج هنت ـ أقصد ، لمارجى . إن مارى تنحدر من عائلة إيرلندية نبيلة ولكنها فقيرة » .

— « لم نكن فقراء إلى ذلك الحد » .

— « ألا تستطيعين سماع الفقر فى حديثها » ؟

— « حسنا ، والآن ما دمت تذكر هذا » .

— « حسنا ، إن مارى قديسة ، أو كان ينبغى أن تكون ، فقد كانت جدتها مسيحية طيبة ، ألم تكن كذلك يا مارى » ؟

بدا لى أن قليلاً من العداوة بدأ ينمو فى أعماق عزيزتى ، واستطردت :

« ولكنها لم تصادف مشكلة فى الاعتقاد فى أهل الجان ، ورغم أن الاثنين لا يلتقيان من وجهة نظر علم اللاهوت المسيحى الخالص الذى لا التواء فيه » .

— « ولكن الأمر مختلف » .

— « طبعا إنه كذلك ، ياحبيبتى . كل شىء تقريباً مختلف . هل تستطيعين أن تكفرى بشىء لا تعرفين عنه شيئاً » .

وقالت مارى : « انتبهى إليه فسيوقعك فى فخ من الكلمات » .

— « لن أفعل ، فأنا لا أفهم فى الطوالع وقراءة الطوالع . فكيف أستطيع إنكارها ؟ إنى أومن بوجودها لأنها تتحدث » .

— « ولكنك لا تؤمن بصحتها » .

— « الصحيح هو أن الناس يمارسونها ، الملايين منهم ، ويدفعون النقود من أجلها . ويكفى أن يعرف المرء ذلك ليهتم بها ، أليس كذلك ؟ .

— « ولكنك لا — » .

— « انتظرى ! إن الأمر ليس هو إننى لا أؤمن بل إننى لا أعرف . وهما ليس نفس الشىء . وأنا لا أعرف أيهما يأتى أولا — الطالع أم قراءة الطالع » .

— « أحسبنى أعرف ماذا يعنى » .

— « صحيح ؟ » لم تكن مارى مسرورة .

— « فلنفترض ان قارىء الطالع كان ذا حساسية تجاه أشياء ستقع مهما كان الحال . أهذا ما تقصدين ؟ »

— « ذلك شىء مختلف . ولكن كيف يستطيع الورق أن يعرف ؟ »

قلت : « الورق لا يستطيع مجرد الحركة دون أن يكون هناك ثمة شخص ليقلبه » .

لم تنظر مارجى إلى ولكنى أدركت أنها أحست بتزايد قلق مارى، وكانت تريد توجيهات .

وسألت : « الا تستطيع أن نقوم باختبار ؟ »

— « حسنا ، ذلك أمر مضحك . إذ يبدو أن هذه الأشياء تقاوم الاختبار وتهرب ، ولكن لا ضرر من المحاولة . أتستطيع أن تفكر فى اختبار ؟ »

— « انتما لم تمسا شرابكما » .

رفعتا كأسيهما معاً وارتشفتا ثم وضعتاهما . وأفرغت كاسى ثم أحضرت الزجاجة .

— « إيثان ، أتظن أنه لا بد أن تشرب ؟ »

— « أجل ، يا عزيزتى » . وملأت كأسى . « لم لا تستطيعين أن تقلبى الورق وأنت مغمضة العينين ؟ »

— « لأنه ينبغى أن يقرأ » .

— « وكيف يكون الحال لو قلبته مارى أو أنا ، ثم قرأته أنت ؟ »

— « من المفروض أن يكون هناك اتصال وثيق بين القارىء والورق ، ولكنى لا أعرف ـ نستطيع أن نجرب » .

وقالت مارى : «اعتقد أننا إذا كنا سنقوم بالقراءة بأية حال من الأحوال ، فينبغى أن نقوم بها على الوجه الصحيح » . إنها دائما كذلك . لا تحب التغيير ـ أقصد ، التغيير الطفيف . أما التغيرات الضخمة فتستطيع معالجتها أفضل من أى شخص آخر ، فهى تنفجر ثائرة إذا جرح لها أصبع ، ولكنها تكون هادئة متماسكة إذا قطعت رقبتها . كنت أحس باختلاجة قلق لأننى سبق أن أخبرت

مارى أننا ناقشنا هذا الموضوع ، ثم هانحن أولاء يبدو علينا أننا نفكر فيه للمرة الأولى .

— « لقد تكلمنا عن الموضوع فى الصباح » .

— أجل ، حين ذهبت للاتيان بالقهوة . لقد كنت أفكر فى الأمر طوال اليوم . وأحضرت الورق » . إن مارى على استعداد أن تشوش على التصميم بالغضب ، وعلى الغضب بالعنف ، ولكنها ترتعب من العنف . وقد غرس ذلك الرعب فيها بعض أعمامها ممن يدمنون الخمر ، وهذا عار . كنت أستطيع أن أحس بخوفها يتزايد .

قلت : « فلنترك العبث بالطوالع ، ولنلعب لعبة الباتشيكا[1] بدلا من ذلك » . وأدركت مارجى التكتيك ، عرفته ، وربما سبق لها أن استعملته .

— « هذا يلائمنى » .

— « إن طالعى تقرر . سأصبح غنياً . فدعو الأمر يسير فى ذلك الاتجاه ».

— « ها أنت ترين ، لقد أخبرتك أنه لا يؤمن به . إنه يدور بك حول الموضوع تماماً و بعدئذ يتخلى عنك . إنه يدفعنى إلى الجنون أحياناً » .

— « صحيح ؟ أنت لم تظهرى ذلك أبدا . أنت دائما زوجتى العزيزة » .

أليس غريباً ما يحدث أحيانا من قدرتك على الإحساس بتيارات مضادة لها – ليس دائما ، بل أحيانا فحسب . إن مارى لا تستخدم عقلها فى التفكير المنظم وربما يجعلها ذلك أكثر استجابة للتأثيرات . كان ثمة توتر قد أخذ ينمو فى الغرفة . وعبرت ذهنى فكرة أنها قد لا تصبح من أحسن صديقات مارجى بعد الآن – إنها قد لا ترتاح اليها أبداً بعد ذلك .

---

(١) إحدى الألعاب التى تمارس بورق اللعب .

قلت : « إننى أحب فى الواقع أن أفهم ما يتعلق بالورق . فإنى جاهل بهذا الأمر . سمعت دائما أن الغجر يمارسون قراءة الورق ، فهل أنت غجرية ؟ لا أظن أننى التقيت بواحده منهن أبداً » .

وقالت مارى : « لقد كان اسمها الأول قبل الزواج روسياً ، ولـكنها من آلاسكا » .

إذن فذلك ما يفسر عظمتى الوجنة العريضتين .

قالت مارجى : « لدى سر آثم لم أبح لك به أبداً من قبل ، ياماري ، وهو كيف حدث أن جئنا إلى آلاسكا » .

قلت : « كانت ملك الروس ، ثم اشتريناها منهم »

— « أجل ، ولـكن هل عرفت أنها كانت سجناً ، مثل سيبريا ، سجناً لأبشع الجرائم ؟ »

— « أى نوع من الجرائم ؟ »

— « أبشعها . لقد حكم على جدتى لأمى بالنفى إلى آلاسكا لممارستها فنون السحر » .

— « وماذا فعلت ؟ »

— « كانت تثير العواصف » .

وضحكت : « أرى أنك توصلت إلى هذا بطريقة طبيعة » .

— « إلى إثارة العواصف ؟ »

— « بل إلى قراءة ورق اللعب — فهى نفس الشىء تقريباً » .

وقالت مارى : « إنك تمزحين ، ليس ذلك حقيقياً » .

ـــ « ربما كنت أمزح ، ياماري ، ولـكنه حقيق . كانت تلك هي أبشع من القتل . ولا زلت أحتفظ بأوراقها ـ إلا أنها باللغة الروسية فحسب » .

ـــ « أتستطيعين الـكلام بالروسية ؟ »

ـــ « القليل منها فحسب ، الآن » .

وقلت : « ربما لا تزال ممارسة فنون السحر هي أبشع الجرائم » .

قالت ماري: « أفهمت ماذا أعني ؟ إنه يقفز إلى هذا الجانب وذاك الجانب. ولا تعرفين أبداً في أي شيء يفكر .. وليلة الأمس استيقظ ـ نهض قبل شروق الشمس هذا الصباح ، وذهب ليتمشى » .

وقلت : « إنني وغد ! نذل لا رادع له ولا يعوض » .

ـــ « حسنا ، أحب أن أرى مارجي تقلب الورق ـ ولـكن بطريقتها الخاصة ودون تدخلك . و إذا بقينا نتكلم ، فسيأتي الأطفال إلى البيت وحينئذلن نستطيع ممارسة التجربة » .

قلت : « معذرة للحظة » . صعدت الدرج إلى مخدعنا . كان للسيف فوق الفراش وصندرق القبعة مفتوحا على الأرض . ذهبت الحمام وشددت السيفون . تستطيع أن تسمع الماء مندفعا في البيت كله بللت قطعة قماش في الماء البارد وضغطتها على جبهتي وبالذات على عيني . كانتا تبدوان كأنهما تجحظان بفعل ضغط داخلي . وكان ملمس الماء البارد حلواً ، فجلست على قعدة المرحاض وخفضت وجهي إلى المنشفة المبللة وحين صارت دافئة بللتها ثانية . وفي أثناء عودتي خلال المخدع ، التقطت قبعة الفرسان ذات الريشة من صندوقها ، ونزلت الدرج في خطوة عسكرية وأنا أرتديها .

قالت مارى : « أوه ، أيها الأحمق » .

وبدا عليها السرور والراحة . لقد مضى الـكرب من الجو .

وسألت : « هل يستطيعون قصر لون ريش النعام ؟ لقد استحالت ريشتها صفراء » .

— « أظن ذلك . سل مستر شولتز » .

— « سآخذها معى يوم الاثنين » .

— وقالت مارى « أتمنى أن تقوم مارجى بتقليب الورق . إننى تواقـة جداً لذلك » .

وضعت القبعة على العمود الأخير فى الدرابزين ، و بدأ منظرها مثل أميرال مخمور لوكان يوجد شىء كذلك .

— « أحضر منضدة الورق ، ياإيثان . فالعملية تحتاج إلى مـكان فسيح»

أحضرتها من دولاب الصالة ، وجذبت أرجلها ففتحتها .

— « مارجى تحب كرسياً مستقيم الظهر » .

ووضعت أحد كراسى مائدة الطعام « . أينبغى علينا أن نفعل شيئاً » ؟

فأجابت مارجى : « ركز تفـكيرك » .

— « فى أى شىء » .

— « قريبا بقدر الإمكان من لاشىء . الورق فى حقيبة يدى هناك على الأريـكة » .

كانت فـكرتى دائما عن الورق المستعمل فى قراءة الطالع أنه قذر وسميك

ومشى ، ولـكن هذا الورق كان نظيفاً لامعاً ، وكأنه مغطى بطبقة من البلاستك . كان ورقا أطول وأقل عرضاً من ورق اللعب وأكثر بـكثير من اثنين وخمسين ورقة . جلست مارجى منتصبة إلى المنضدة وفردت الورق على شكل مروحة ـ صوراً زاهية الألوان ومجمـوعات معقدة . كانت الأسماء مـكتوبة بالفرنسية : الإمبراطور ، الناسك، المركبة ، العدالة ، البابارى ، الشيطان ـ أرض ، وشمس ، وقمر ، ونجوم ، ومجموعات من السيوف ، والفناجين ، والهراوات ، والنقود ، فيما أعتقد ، لو كانت ، كلمة درهم تعنى النقود ، ولـكن شعار الورق كان على شكل وردة مما تزين به الدروع ، وكان لـكل مجموعة ملـكها ، وملـكتها ، وفارسها وبعدئذ رأيت ورقا غريبا — ورقا مزعجا ـ برج شرخته الصاعقة ، عجلة حظ ، رجل معلق من ساقيه فى مشنقة ، يسمى المشنوق ثم الموت ـ La mort ، هيكل عظمى معه منجل . وقلت : « كئيبة بعض الشىء . هل تعنى الصور وما تبدو عليه » ؟

— « الأمر متعلق بـكيفية حدوث علاقتها ببعضها . فلو جاء وضع الصور بالمقلوب ، فإنها تعنى عكس معناها » .

— « وهل يوجد اختلاف فى المعنى ؟ »

— « نعم . وذلك هو تفسير الطالع »

اللحظة التى أخذت مارجى فيها الورق ، صارت جامدة المظهر . وتحت الأضواء أظهرت يداها ما كنت قد رأيته من قبل، وهو أنها أكبر سناً مما تبدو . وسألتها : « أين تعلمت قراءة الورق » ؟

— « اعتدت أن أرقب جدتى ، ومارستها مؤخرا كخدعة فى الحفلات ـ أعتقد كوسيلة لجذب الانتباه » .

— « وهل تؤمنين بها » ؟

— « لاأدرى ، فأحيانا ينتج عنها أشياء ملحوظة . لاأدرى » .

— « أيمكن أن يكون الورق نوعاً من التركيز الدينى — التمرين النفسى » .

— « أحيانا أعتقد أن هذا صحيح . حينما أجد أننى أسبغ على ورقة قيمة لم تكن لها من قبل ، حينئذ غالباً مايكون الطالع صحيحاً » . كانت يداها كشيئين ينبضان بالحياة وهما تخلطان الورق وتقطعان ثم تخلطان وتقطعان ثانية، ثم تمدهما إلى لأقطع .

— « طالع من الذى سأقرأه » ؟

وصاحت مارى : « اقرئى طالع إيثان ، لنرى إذا ما كان سيتفق مع طالع الأمس » .

ونظرت مارى إلى ، وقالت : « شعر أشقر ، وعينان زرقاوتان . هل أنت أقل من الأربعين » ؟

— « بالضبط »

— « ملك المراوات » وعثرت على الورقة فى الشدة . « هذا هوأنت » — صورة ملك متوج يلبس لباس الملك و يمسك صولجاناً ضخماً لونه أحمر وأزرق ومطبوع تحت الصورة بالفرنسية (ملك المراوة) . وضعت مارجى الورقة ووجهها إلى أعلى ثم أعادت خلط الشدة . و بعدئذ قلبت الورق بسرعة ، وهى تتكلم بصوت غنائى أثناء قيامها بذلك . ورقة فوق ورقتى — « هذه تغطيك » . وورقة متقاطعة مع الورقه العلوية — « هذه تعترضك » . وواحدة أعلاها — « هذه تتوجك » . وواحدة إلى أسفل — « هذه أساسك . وهذه أمامك ، وهذه

خلفك » . كانت قد كونت صليباً من الورق فوق المنضدة . وبعدئذ و بسرعة قلبت أربع ورقات وجعلتهم فى خط إلى يسار الصليب ، وهى تقول ، « نفسك ، و بيتك ، وآمالك ، ومستقبلك » . كانت الورقة الأخيرة هى الرجل المشنوق بالمقلوب ، وقد كتب تحتها بالفرنسية (المشنوق) ولـكن من حيث كنت أجلس عبر المائدة كان وضعه معتدلاً إلى أعلى .

— « هذا كثير جداً على مستقبلى » .

قالت : « قد يعنى هذا النجاة . » كانت سبابتها تتابع خط شفتها السفلى .

وتساءلت مارى : « هل النقود موجودة هناك » ؟

— « أجل — إنها هناك » قالتها بذهن شارد . وفجأة جمعت الورق ، وخلطته مرات ومرات ، ثم فردته ثانية ، وهى تغمغم ترتيلها بصوت هامس . لم يكن يبدو عليها أنها تدرس أوراقا بعينها ، بل كانت تنظر إلى المجموعة كلها مرة واحدة ، كانت عيناها غائمتان تائهتان .

وفـكرت ، إنها خدعة جيدة ، مثار الشغف فى الأندية النسائية ـ أو فى أى مكان آخر . لابد أن العرافة القديمة كانت بهذا الشكل ، باردة ومعقدة ومركبة . فلو استطعت أن تبقى الناس متوترين ، يأخذون أنفاسهم بصعوبة ، وينتظرون وقتاً طويلاً ، فهم سيصدقون أى شىء — إنه ليس التمثيل ، بقدر ماهو التـكتيك ، والتوقيت الجيد . هذه المرأة كانت تضيع مع الوكلاء التجاريين المتجولين . ولـكن ما الذى أرادته منا أو بالأحرى منى ، وفجأة جمعت الورق ، وربتت عليه لتسويته فى شكل مربع ، ثم وضعته فى الصندوق الأحمر الذى كتب عليه بالفرنسية : رقم واحد - موللروسى - مصنع أوراق لعب .

قالت : « لاأستطيع القراءة . يحدث هذا أحياناً » .

قالت مارى مبهورة الأنفاس : « هل رأيت شيئاً لاتريدين قوله ؟ »

— « أوه ، بل سأقول كل شيء . ذات يوم عندما كنت صبية صغيرة ، رأيت حية تغير جلدها ، حية من ذوات الأجراس مما يوجد فى جبل روكى . وأخذت أرقب الأمر كله. حسناً والآن ، فى أثناء تطلعى إلى الورق ، اختفى الورق ورأيت الحية تغير جلدها ، جزء منه مغبر وممزق وجزء نظيف وجديد . وعليك أنت تتصورى الأمر » .

قلت : « يبدو أنها حالة غيبوبة . هل حدثت لك مطلقاً من قبل ؟ »

— « ثلاث مرات قبل هذه » .

— « وهل كان لها أية دلالة فى المرات الأخرى » !

— « لا ، على ما أعلم » ؟

— « ودائماً تبدو الحية » !

— « أوه كلا ؟ أشياء أخرى ، ولكنها بنفس السخف » .

وقالت مارى بحماس: « ربما كانت رمزاً لتغير الحظ الذى سيحدث لإيثان ».

— « هل إيثان حية ذات أجراس ؟ »

— « أوه . أدرك ماتقصدين » .

قالت مارجى : « هذا يجعلنى أحس بالتوتر والخوف . ففيما مضى كنت أحب الحيات ولكنى حين كبرت صرت أكرهها . إنها تسبب لى الرعب . يحسن بى أن أذهب » .

— « يستطيع ايثان أن يوصلك إلى البيت » .

— « لم أكن لأفكر فى ذلك » .

— « سيسعدنى أن أفعل » .

وابتسمت مارجى لمارى ، وقالت : « إن عليك تبقيه هنا معك . لأنك لاتعرفين كيف يكون الحال حين تكونين بدون رجل » .

فردت مارى : « هراء ، كنت تستطعين الحصول على زوج بإشارة من أصبعك » .

— « وذلك مافعلته من قبل . ولكن هذا لافائدة منه ، فهم إذا جاءوا بهذه السهولة ، لايستحقون عناء الحصول عليهم . احتفظى به فى بيتك . فقد يختطفه شخص منك » . وأتت بمعطفها بينما كانت تتكلم ـ يالها من امرأة سريعة الانسحاب . « غداء ممتع . أنعشم أن تدعوانى مرة أخرى . آسفة من أجل قراءة الطالع ، ياإيثان » .

— « هل سنراك غداً فى الكنيسة » !

— « كلا . إننى ذاهبة إلى مونتوك الليلة » .

— « ولكن الجو بارد جداً ورطب » .

— « إننى أحب أن أرى إشراقات الصباح فوق البحر هناك . طابت ليلتكما » .

كانت قد خرجت قبل أن أتمكن حتى من فتح الباب لها ، خرجت وكأن شيئاً ما كان يطاردها .

قالت مارى : « لم أكن أعلم أنها ذاهبة الليلة إلى هناك » ؟

ولم أستطع أن أقول لها : « وكذلك هى لم تكن تعلم » .

— « إيثان ـ ماذا تستنتج من قراءة الطالع الليلة ؟ »

ـــ « إنها لم تقرأ طالعاً . »

ـــ «أنك تنسى ، لقد قالت إنه ستكون هناك نقود . ولكن ماذا تستنتج من هذا ؟ أظن أنها رأت شيئا مالم ترد قوله ، شيئا بث فيها الرعب . »

ـــ « ربما تكون قد رأت الحية ذات مرة ولا زالت ذكراها باقية فى ذهنها. »

ـــ « ألا تعتقد أن لها ـ ممنى ؟ »

ـــ « ياقرص العسل ، إنك أنت الخبيرة فى الطوالع فكيف أستطيع أنا أن أعرف ؟ »

ـــ « حسنا ، إننى سعيدة على أية حال لأنك بت لا تكرهها . وكنت أظنك تكرهها . »

قلت : « إننى خداع ، فأنا أخفى أفكارى . »

ـــ « ليس عنى ، إنك لاتستطيع أن تفعل - إن الأطفال سيبقون إلى العرض الثانى . »

ـــ « وهل سيعودون ثانية ؟ »

ـــ « أقصد الأطفال . إنهما دائما يفعلان ذلك . فى اعتقادى أنك كنت مدهشاً فى قصة الأطباق . »

قلت : « إننى ملتو . وبالمناسبة ، لدى خطط لتكريمك . »

الفصل السادس

لقد عودتني خبرتي أن أضع جانباً اتخاذ قرار ، إلى أن أفكر فيه مستقبلاً . وذات يوم ، كنت أنسج قطعة من الزمن لأواجه بها المشكلة ، فوجدتها قد أكتملت فعلاً ، وحلت واتخذ فيها قرار . ولابد أن هذا يحدث لكل شخص ، ولكني لا أملك أية وسيلة لمعرفة ذلك . إن الأمر يبدو كما لو أن هيئة محلفين بلا وجوه قد التقت فى كهوف العقل المظلمة المنعزلة ، واتخذت قرارها . ولقد اعتدت دائماً أن أتخيل هـذه المنطقة الغامضة الأرقة مني ، على أنها تشبه ماء أسود ، عميقاً ، بلا أمواج ، منطقة تفريخ لا يبزغ منها إلى السطح سوى بضعة أنماط فحسب . أو ربما كانت مثل مكتبة عظيمة تحتوى تسجيلا لكل شيء حدث على وجه الإطلاق للكائن الحى منذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها الحياة .

وأظن أن بعض الناس أكثر دنوا إلى هذا المكان من الآخرين — كالشعراء مثلاً ، وذات مره ، حينما كنت أعمل مبكراً وليس لدى منبه ، استخدمت وسيلة أرسل بها اشاره ثم أتلقى الرد عليها . ففى أثناء رقادى على الفراش ليلاً ، كنت أرى نفسى واقفاً على حافة الماء الأسود . وكنت أتصور حجراً أبيض أمسك به فى يدى ، حجراً مستديراً . كنت أكتب على وجهه بحروف حالكه السواد « الساعة الرابعة » ، وبعدئذ ألقى بالحجر وأرقبه وهو يغرق ، ثم يدور ويدور ، حتى يختفى . وأفلحت هذه الطريقة معى . ففى الرابعة بالثانية ، كنت استيقظ . واستطعت فيما بعد أن استعملها لإيقاظى فى الرابعة إلا عشر دقائق أو فى الرابعة والربع . ولم تخب معى هذه الطريقة أبداً .

وكان يندفع إلى السطح حينئذ شيء غريب ، وأحياناً شيء مرعب وكأن ثعبان بحر أو وحشاً بحرياً قد برز الأعماق الهائلة .

منذ عام مضى فحسب ، توفى دنيس شقيق مارى فى بيتنا ، مات ميته شنعاء بسبب مرض أصاب الغده الدرقية وأرغم إفرازات الخوف على البقاء داخل جسده ، لدرجة أنه صار عنيفاً ، ومرعوباً ، وشرساً . وصار وجهه الأيرلندى العطوف الذى يشبه وجة حصان ، وجهاً وحشياً . وقد ساعدت فى الإمساك به ، وتهدئته ، وطمأنته خلال أحلامه بالموت . واستمر الحال أسبوعاً قبل أن تبدأ رئتاه فى الامتلاء بالإفرازات . ولم اشأ أن تراه مارى وهو يموت . لم تكن قد رأت أبداً منظر الموت ، وكنت أعلم أن هذا المنظر الحالى ، قد يزيل ذكراها الحلوه عن رجل عطوف كان أخاها . وبعدئذ ، وأثناء جلوسى منتظراً بجوار فراشه ، سبح مسخ طافياً من مائى الأسود . وكرهته . وددت أن أقتله ، أن أقضم رقبته بأسنانى . وانقبضت عضلات فكى واعتقد أن شفتى تراجعتا إلى الخلف مثل ذئب على وشك القتل .

وحين انتهى الأمر ، وفى إحساس مريع بالذنب ، اعترفت بما كنت أحسه للطبيب العجوز بيل ، الذى وقع شهادة الوفاة .

قال : « لا أعتقد أن هذا أمر غير عادى . لقد رأيته على وجوه الناس ، ولكن قليلين منهم يصرحون به » .

وسألته : « ما الذى يسببه ؟ »

أجاب : « لعلها ذكرى قديمة ، لعلها عود إلى زمن القبيلة حين كان الفرد المريض أو المصاب يعتبر خطراً . وبعض الحيوانات ومعظم الأسماك تمزق أخاها الضعيف وتأكله » .

— « ولكنى لست حيوانا — ولا سمكة » .

— « كلا ، إنك لست كذلك . وربما كان ذلك هو السبب فى أنك تجد الأمر غريباً . ولكنه موجود . إنه جميعه موجود هناك » .

إنه رجل طيب عجوز ، الطبيب بيل ، رجل عجوز منهك . لقد ولد نساء عائلاتنا ، ودفن أمواتنا طيلة خمسين عاما .

فلنعد إلى ذلك المؤتمر المنعقد فى الظلام — لابد أنه كان يعمل بعد انتهاء الوقت المحدد له . أحيانا يبدو على امرئ أنه يناقض نفسه لدرجة أن تقول : « لا يمكن أن يفعل ذلك . إن هذا مناف لشخصيته » . وربما لا يكون الأمر كذلك . ربما بدت صورته من زاوية أخرى ، أو ربما يكون الضغط فوقه وتحته قد غير من صورته . وأنت ترى هذا كثيراً فى الحرب — جبان ينقلب بطلاً ، شجاع يرتعد فرقاً . أو تقرأ فى صحيفة صباحية عن رجل لطيف ، ورب عائلة عطوف ، يقطع رقبة زوجته وأطفاله ببلطة ، أعتقد أننى أؤمن بأن المرء يتغير طوال الوقت . ولكن هناك لحظات بعينها يصير التغير فيها ملحوظاً .

ولو أردت أن أنقب بالعمق الكافى لاستطعت أن أتعقب فى الماضى مباشرة جذور تغيرى منذ ولادتى بل وقبلها . ففى الفترة الأخيرة بدأ كثير من الأشياء الصغيرة يشكل نمطاً لأشياء أكبر . وكأن الأحداث والخبرات كانت تلكزنى وتدفعنى بالمناكب فى اتجاه مضاد لاتجاهى العادى ، أو للاتجاه الذى توصلت إلى التفكير فى أنه عادى — اتجاه الموظف فى محل بقالة ، وفشله ، اتجاه الرجل المقيد بمسئوليات ملء بطون أفراد أسرته وكساء أجسادهم ، الرجل الذى حبس داخل قفص من العادات والتصرفات التى كنت أفكر فى أنها أخلاقية وفاضلة . وربما انتابنى نوع من الرضا عن النفس لكونى أصبحت ما أطلق عليه « رجلا طيباً » .

وكنت أعرف بالتأكيد ماذا يدور حولى . لم يكن مارولو فى حاجة لأن يخبرنى . فأنت لايمكنك العيش فى بلدة بحجم نيوبايتون دون أن تعرف كل شيء . لم أفكر كثيراً فى الأمر . لقد ثبت القاضى « دور كاس » ثمن تذاكر المواصلات لقاء مجاملات . وحتى هذا لم يكن سراً . والمجاملات تتطلب المجاملات . والعمدة ، وهو أيضا مقاول لأعمال البناء فى شركة « بد » لمواد البناء كان يبيع المعدات للبلدية بسعر مرتفع ، ولم تكن هنالك حاجة إلى بعضها . فلو أن شارعاً مرصوفاً جديداً كان سيمد ، فغالباً مايتبين أن المستر بيكر ومارولو ونصف دستة من قادة رجال الأعمال الآخرين قد اشتروا جميع الأراضى قبل أن يعلن تخطيط الشارع . كانت هذه مجرد حقائق عن الطبيعة ، ولكنى أومن دائما أنها ليست حقائق طبيعتى . كان مارولو ومستر بيكر والوكيل المتجول ومارجى يانج هنت وجوى مورفى يدفعوننى فى تزاحم ، وفجأة تحول دفعهم إلى دفعة قوية ، جعلتنى أقول: « ينبغى أن أحتجز بعض الوقت لكى أتدبر الأمر . »

كانت عزيزتى تهر فى نومها ، بابتسامتها الأثرية على شفتيها ، وقد بدأ عليها التألق الزائد المنبعث من الراحة والسلوى .

كان لابد أن ينتابنى النعاس بعد تجوالى فى الليلة السابقة ، ولكنى لم أكن كذلك . وقد لاحظت أننى نادراً ماأنعس إذا علمت أن باستطاعتى النوم طويلاً فى الصباح . كانت البقع الحمراء تسبح أمام عينى ، وضوء الشارع يلقى ظلال أغصان شجرات الدردار الجرداء على السقف ، فشكلت أمهاداً بطيئة الحركة ومستقرة ، لأن ريح الربيع كانت تهب . كانت النافذة نصف مفتوحة ،

والستائر البيضاء تنتفخ وتمتلىء كأشرعة فوق سطح مركب ألقى مراسيه . كانت مارى تصر على أن تكون ستائرها بيضاء نظيفة دائماً . وكانت تبعث فيها إحساساً بالرقة والطمأنينة . وهى تتظاهر بشىء من الغضب حين أقول لها إن سبب ذلك هو روحها الأيرلندية الموشاة بستائر الدانتيل .

كنت أحس أننى بخير وأننى مشبع أيضاً ، ولكن حين تغوص مارى فى لجة النوم ، تنتفى لدى الرغبة فى النوم . كنت أريد أن أستمر فى التذوق الكامل لإحساسى الطيب . كنت أريد أن أفكر فى مسابقة مقال « أحب أمريكا » التى كان أولادى سيدخلونها . خلاف تلك الأشياء وغيرها ، كنت أريد أن أفكر فيما كان يحدث لى وماذا سأفعل فيه ، ولذا كان طبيعياً أن أستخرج آخر شىء لأضعه فى المقدمة . ووجدت أن محاقى الظلام السود قد اتخذوا قرارهم فعلاً بشأنى . كان هناك ، منشوراً ومؤكداً . كان الأمر كأنه تدريب لسباق ثم استعداد ثم تجد نفسك أخيرا عند نقطة البدء وأنت على أهبة الاستعداد . لا خيار فى الأمر إذن . عليك أن تتحرك حين يطلق المسدس . ووجدتنى مستعدا وعلى أهبة الاستعداد . ، وفى انتظار الطلقة فحسب . ومن الواضح أننى كنت آخر من يعلم . كان جميع الناس الذين التقيت بهم فى يومى قد لاحظوا أننى أبدو فى خير حال ، وكانوا بهذا يقصدون أننى أبدو مختلفاً ، أكثر ثقة بالنفس ، ومتغيراً . لقد كان يبدو على ذلك الوكيل المتجول أثر الصدمة عصر اليوم . ولقد تفحصنى مارولو فى قلق . وأحس الفتى جوى بحاجته للاعتذار عن شىء فعلته . وبعد ذلك مارجى يانج هنت لعلها كانت أحدهم بصيرة فى حلمها عن الحية ذات الأجراس . فلقد نفذت إلى أعماق بطريقة ما ، وا كتشفت فى شيئا مؤكداً

قبل أن أتأكد أنا منه . وكان ارمز حية ذات أجراس . ووجدت نفسى أبتسم فى الظلام . وبعدئذ ، وفى اضطراب ، لجأت إلى أقدم حيلة — التهديد بالخيانة الزوجية ، طعم يلقى فى مد منساب لمعرفة أى أنواع السمك يقتات هناك. لم أذكر النداء الخفى لجسدها المستتر — كلا ، كانت الصورة صورة يديها المخلبيتين اللتين تبينان السن والعصبية ، وصورة القسوة التى تتأتى للمرء حين يفقد السيطرة على موقف ما .

أحياناً أرغب فى معرفة طبيعة الأفكار الليلية لأنها وثيقة الصلة بالأحلام . فتارة أستطيع توجيهها ، وتارة أخرى تجمح وتأتى مندفعة مثل خيل قوية لايمكن التحكم فيها .

ودخل دانى تيلور الصورة . لم أرغب فى التفكير فيه والشعور بالحزن عليه ولكنه جاء إلى الصورة على أية حال . كان على أن أستعمل خدعة تعلمتها ذات مرة من شاويش عجوز صلب المراس ، وكانت تفلح . فى أثناء الحرب كان يحل نهار ثم ليل ثم نهار وكلها تشكل قطعة واحدة . وحدة واحدة تدور كل أجزائها حول سائر الفظاعات القذرة التى قد تحدث فى تلك العملية المقززة . وفى أثناء ذلك لم أكن موقناً أننى أعرف آلامها لأننى كنت مشغولا ومتعباً بدرجة لاتوصف ، ولكن مؤخراً عاودتنى تلك الوحدة من نهار ثم ليل ثم نهار ، ثم أخذت تعاودنى ثانية فى أفكارى الليلية ، حتى صارت بالنسبة لى مثل ذلك الهوس الذى يطلقون عليه اسم « التعب من المعارك » والذى سموه ذات مرة صدمة القنابل . واستخدمت كل حيلة تسعها طاقتى كيلا أفكر فى تلك الوحدة ، ولكنها كانت تزحف عائدة على الرغم منى . كانت تنتظر النهار لكى تهاجمنى بالليل . وذات مرة وأنا مقلوب المعدة من الويسكى حكيت

الأمر للباشجاويش الذى يعمل تحت إمرتى وهو رجل عجوز اشترك فى حروب نسينا نحن إذا ما كانت قد حدثت على الإطلاق . ولو ارتدى أوسمته ، لما تبقى مكان لأزراره ـ مايك بولاسكى ، بولندى شيكاغو ، ولاعلاقة له بالبطل الذى بهذا الاسم . ومن حسن الحظ ، أنه كان مخمورا بدرجة خفيفة ، وإلا فربما كان قد أغلق فمه خوفاً من تهمة مؤكدة وهى التآخى مع ضابط .

استمع مايك إلى ذاهلا ، وهو يحدق فى نقطة بين عينى . وقال « أجـل ! أعرف هذه الحالة . والمشكلة هى ، أن المرء يحاول دفعها بعيداً عن ذهنه ثم لايجدى ذلك . والذى ينبغى عليك عمله هو الترحيب بها » .

— « ماذا تقصد ، يامايك بها » .

— « فلتتناول الأمر بشىء من التطويل — لتبدأ من البداية ولتتذكر كل ماتستطيع ، حتى تصل مباشرة إلى النهاية . وكلما عاودتك أفعل ذلك أبداً من البداية حتى النهاية مباشرة . وسرعان ماستتعب من معاودتك فتزول أجزاء منها ولن يمضى كثير من الوقت قبل أن تزول كلها » .

وجربتها وآتت ثمارها . ولا أدرى إذا ما كان مقلصو الرؤوس يعرفون هذا ولكن ينبغى عليهم أن يعرفوه .

وحين جاء دانى تيلور إلى مجال رؤيتى عالجته بطريقة الشاويش مايك .

حينما كنا صبيين معاً ، بنفس السن ، ونفس الحجم ، ونفس الوزن ، كانت عادتنا أن نذهب إلى مخزن الحبوب والعلف فى شارع هاى ونعتلى الميزان . كنت أسبوعاً أكون أثقـل من دانى برطل ، وفى الأسبوع التالى كان دانى يصل إلى وزنى . وكانت عادتنا أن نصطاد السمك والطيور ونسبح معاً ونخرج فى نزهات مع نفس الفتيات . وكانت عائلة دانى فى حالة

طيبة من الاستقرار مثل معظم العائلات القديمة فى نيو بايتون . و بيت آل تيلور هو ذلك البيت الأبيض ذو الأعمدة الطويلة المخططة والقائم بشارع بورلوك . وذات يوم كان لآل تيلور بيت ريفى أيضا — على مبعدة حوالى ثلاثة أميال من المدينة .

الريف الذى حولنا كله تلال متدحرجة مغطاة بالأشجار ، بعضها من الصنوبر الوحشى ، وبعضها الآخر من النمو الثانى لأشجار البلوط ، وشجر الجوز الأمريكى و بعض شجر الشر بين. وذات يوم، وقبل مولدى بزمن طويل ، كانت أشجار البلوط عملاقة ، كانت من الضخامة بحيث كانت تقطع منها قواعدالسفن المصنوعة محليا ودعاماتها وألواحها الخشبية من على مسافة قصيرة من الترسانة حتى اختفت كل تلك الأشجار . وفى هذا الريف ذى المساحة الصغيرة الكثيفة كان لآل تيلور ذات يوم بيت مقام وسط مرجة كبيرة ، هى المكان الوحيد المنبسط فى عدة أميال حولنا . ولا بد أنه كان ذات يوم قاع بحيرة لأنه كان منبسطاً مثل منضدة ومحاطاً بتلال واطئة . وربما احترق بيت آل تيلور منذ ستين عاماً مضت ، ولم يعد بناؤه ثانية . وحين كنا أطفالاً اعتدت أنا ودانى أن نركب الدراجات إلى هناك . كنا نلعب فى البدروم الحجرى ، و بنينا كوخ صيد من طوب الأساس القديم . ولا بد أن الحدائق كانت رائعة . فقد كان باستطاعتنا أن نرى طرقات على جانبيها الأشجار ، وما يشير إلى سياج نباتى مرسوم وحواجز ، بين الآثار المشوشة للغاية المتراجعة . وقد يوجد هنا أو هناك امتداد لسور حجرى، وقد وجدنا ذات مرة تمثالاً نظيفاً للإله « بان » على حامل مخروطى الشكل . كان قد سقط على وجهه ودفن قرنيه وذقنه فى الأرض الرملية الرطبة . فأقمناه ونظفناه واحتفلنا به لبعض الوقت ، ولكن الشره والفتيات

استحوذا علينا . وفى النهاية نقلناه على عربة إلى فلود هامبتون و بعناه إلى تاجر عاديات بخمسة دولارات . ولابد أنه كان قطعة جيدة ، بل ربما كان قطعة أثرية قديمة .

كنت أنا ودانى صديقين مثلما ينبغى أن يكون لـكل الصبية أصدقاء . و بعدئذ تم التحاقه بالأكاديمية البحرية . ورأيته مرة واحدة بالزى الرسمى ولم أره ثانية طيلة سنوات . ولقد كانت نيو بايتون ولا تزال بلدة ضيقة . صلات أهلها ببعضهم وثيقة . كان كل امرىء يعلم أن دانى قد طرد ولم يناقش أحد الأمر . انقرض آل تيلور ، حسناً ، تماماً مثلما انقرض آل هولى . فإننى الوحيد الذى تبقى منهم ، وكـذلك طبعا آلان ، ولدى . ولم يعد دانى إلا بعد أن ماتوا جميعا وعاد سكيراً . وحاولت فى أول الأمر مساعدته ولـكنه لم يكن يريدنى . لم يكن يريد أى شخص ولـكن بالرغم من ذلك كـنا وثيق الصلة ـ وثيق الصلة جداً .

نقبت فى كل ما أستطيع تذكره ، إلى أن وصلت إلى ذلك الصباح حين أعطيته دولاراً ليتسنى له أن يجد مسكنه الموضعى .

كان تركيب تحولى ناجماً عن إحساس بضغوط خارجية ، من رغبة مارى ورغبات آلان ، وحنق إيلين ، ومعونة المستر بيكر . وفى النهاية فحسب وحينما يصبح العمل مهيئاً ومعداً ، يرسى الفـكر السقف على البناء ويأتى بالـكلمات للشرح والتبرير . فلنفترض أن وظيفتى المتواضعة التى لاتنتهى لم تـكن فضيلة وإنما كانت كسلاً أخلاقياً !! فأى نجاح ، يتطلب جرأة . وربما كنت مجرد جبان ، أخشى النتائج — وفى كلمة واحدة ، كسولاً . والنجاح العملى فى بلدتنا ليس معقداً أو غامضاً ، كما أنه ليس نجاحاً واسع المدى ، لأن من يمارسونه

قد وضعوا حدوداً مصطنعه لنشاطاتهم . فجرائمهم صغيرة وكذلك نجاحهم صغير . فلو حدث لك أن فحصت بتعمق الحكومة المحلية وتعقيد العمل فى نيو بايتون فسيتضح لك أن مائة قانون تشريعى وألف قاعدة أخلاقية قد كسرت ، ولكنها انتها كات بسيطة — اختلاسات طفيفة . لقد ألغوا من حياتهم جزءاً من الوصايا العشر واحتفظوا بالباقى . وحينما يحصل أحد رجالنا الناجحين على مايحتاج إليه أو يريده يعاود انتحال فضيلته بمثل البساطة التى يغير بها قميصه ، وكما قد يتضح لكل إنسان ، فهو لايؤذى على تقصيره ، مادام يأخذ على عاتقه ألا يمسك متلبساً.هل فكر أى منهم فى هذا ، لا أدرى. وإذا أمكن التجاوز عن الجرائم الصغيرة ، فلم لامع جريمة خاطفة ، عنيفة ، جريئة ؟ وهل القتل بوساطة الضغط البطىء الثابت أخف وطأة بأى شكل من الأشكال عن قتل سريع رحيم بطعنة سكين ؛ إنى لا أشعر بالاثم من أجل حياة من قضيت عليهم من الألمان . ولنفترض أنى لوقت محدد ألغيت كل القوانين ، وليس مجرد بعضها . ألا يصير ممكناً استعادتها جميعاً ، حالما أتم التوصل إلى مقصدى ؟ ! مما لاشك فيه أن التجارة نوع من الحرب . لماذا ، إذن ، لانجعلها حرباً شاملة سعياً وراء السلام ، إن مستر بيكر وأصدقاءه لم يطلقوا على أبى الرصاص ، ولكنهم نصحوه وحينما انهار كيانه ، ورثوه . أليس ذلك نوعاً من القتل ، هل هناك أية ثروة واحدة ضخمة مما نعجب به ، جمعت دون قسوة قلب ؟ لايستطيع التفكير أن يهدينى إلى أية واحدة .

وإذا كان ينبغى على أن أضع القوانين جانباً بعض الوقت ، فأنا أعلم أنه ستصيبنى بعض الندبات . ولكن هل ستكون أسوأ من ندبات الفشل التى

أصابتنى ؟ كون المرء حياً بأى شكل من الأشكال معناه أن يصاب بالندبات .

كان هذا التفكير كله هو دوارة الهواء على سقف بناء من القلق والضجر كان من الممكن أن يحدث لأنه قد حدث فعلاً . ولكن هل أستطيع إذا فتحت ذلك الباب . أن أغلقه ثانية بأية حال من الأحوال ؟ لم أكن أستطيع أن أعرف إلى أن أفتحه . . . . هل كان مستر بيكر يعرف ؟ وهل حدث أن فكر فيه مستر بيكر قط ؟ . . . . كان القبطان العجوز يعتقد أن آل بيكر أحرقوا « البيلادير » من أجل التأمين . فهل يمكن أن يكون ذلك — متحالفاً مع سوء حظ أبى — هما السبب فى رغبة مستر بيكر فى مساعدتى ؟ هل كانت تلك ندباته ؟

كان من الممكن وصف ما يحدث بأنه مثل سفينة ضخمة تجذبها وتخبطها وتدفعها وتسحبها قاطرات صغيرة عديدة . وحالما تستدير بفعل المد والقاطرات ، ينبغى عليها أن تتخذ طريقا جديدا ثم تبدأ فى إدارة آلاتها . وعلى القنطرة التى هى مركز التخطيط ، فينبغى أن يطرح السؤال : « حسناً ، إننى أعرف الآن إلى أين أريد الذهاب . فكيف أذهب إلى هناك ، وأين توجد الصخور الكامنة ، وكيف سيكون حال الطقس ؟ »

وكنت أعرف أن الكلام هو إحدى الشعاب المهلكة . فكثيرون جداً يوشون بأنفسهم قبل أن يوشى بهم ، ويدفعهم لذلك نوع من الجوع التواق إلى العظمة ، ولو حتى عظمة العقاب . إن بثر أندرسن هى محل الثقة الوحيد الذى يوثق به ـ بثر أندرسن .

ناديت على القبطان العجوز « هل أتخذ طريق ، ياسيدى ؟ هل هو طريق جيد ؟ هل سيوصلنى إلى هناك ؟ »

ولأول مرة أنكر علىّ قيادته : « سيكون عليك أن تنفذها بنفسك . وما هو خير بالنسبة لشخص يكون شراً بالنسبة لآخر ، ولن تعرف ذلك إلا فيما بعد » .

ربما كان الوغد العجوز قد ساعدنى حينذاك ، ولكن ربما لم تؤدمساعدته إلى أى اختلاف . ما من أحد يريد النصيحة ـ وإنما التأييد فحسب .

الفصل السابع

عندما استيقظت ، كانت مارى العجوز النؤوم قد استيقظت وغادرت فراشها ، وكان إعداد القهوة ولحم الخنزير يجرى على قدم وساق . كنت أستطيع شم رائحتها . وما كان عليك أن تبحث عن يوم أفضل للقيامة ، يوم اختلط فيه اللون الأخضر والأزرق . ومن نافذة حجرة النوم كنت أستطيع أن أرى أن كل شىء قد بدأ يبعث — العشب ، والأشجار . لقد اختاروا لذلك العيد فصلاً مناسباً . وارتديت (الروب دى شامبر) الذى أرتديه فى عيد الميلاد وخفى عيد ميلادى . ووجدت فى الحمام بعضاً من دهان الشعر الذى يستعمله آلان ، فدهنت منه حتى أحسست أن فروة رأسى الممشطة التى سويتها بالفرشاة قد ضاقت علىّ مثل قبعة .

و إفطار يوم الأحد الموافق لعيد القيامة هو خليط من البيض والفطير المقلى ، ولحم الخنزير الذى يلتف حول كل شىء . وتسللت إلى مارى وربت عليها .

وقالت : « أوه . إننى لم أسمعك وأنت قادم . » ونظرت إلى « الروب دى شامبر » المنقوش ، ثم قالت : « جميل ، أنت لا تلبسه كثيراً » .

— « لاوقت لدى ، لم يكن لدى الوقت » .

قالت : « حسناً ، إنه جميل » .

— « ينبغى أن يكون كذلك . فقد اخترته أنت . هل ينام الأطفال رغم تلك الروائح الرائعة ؟ »

— « أوه ، كلا . إنهم بالخارج خلف البيت ، يلونون البيض . إنى لأعجب ما الذى يريده مستر بيكر » . والقفزة السريعة فى الكلام لا تفشل أبدا فى إثارة ريبتى . « مستر بيكر ، مستر بيكر . أوه . ربما يريد أن يساعدنى على البدء فى تحقيق طالعى » .

— « هل أخبرته ؟ عن موضوع الورق ؟ »

— « كلا ، بالطبع ياعزيزتى . ولكن ربما يكون قد خمن » . ثم قلت بلهجة جادة . « اسمعى ، يافطيرة الجبن ، أنت تعتقدين أننى أتمتع بعقلية رجل أعمال عظيمة ، أليس كذلك؟ »

— ماذا تعنى ؟ « كانت معها فطيرة لكى تقلبها ، وظلت الفطيرة مرفوعة .

— « يعتقد المستر بيكر أنه ينبغى على أن أستثمر ما أوصى لك به أخوك » .

— « حسنا ، إذا كان مستر بيكر — »

— « والآن انتظرى . أنا لا أريد فعل ذلك ، فتلك نقودك التى تكفل لك الأمن » .

— « ألا يعرف المستر بيكر عن تلك الأمور أكثر مما تعرف ياعزيزى » ؟

— « لست متأكداً . كل ما أعرفه أن أبى كان يعتقد أنه يعرف . وذلك هو السبب فى أننى أعمل لدى مارولوا » .

— « لازلت أعتقد أن مستر بيكر — »

— « هل ستهتدين برأيى ، يا حبيبتى ؟ »

— « حسنا ، طبعاً ... » .

— « فى كل شىء ؟ »

— « هل بدأت سخفك » .

— « إننى جاد جداً - جداً » .

— « أعتقد أنك كذلك . ولكنك لا تستطيع أن تستمر فى الشك فى مستر بيكر . لماذا ، إنه - إنه - » .

— « إنه المستر بيكر . سنستمع إلى ما عليه أن يقوله ثم بعدئذ - إننى لا أزال أرغب فى إبقاء تلك النقود فى المصرف حيث هى » .

اندفع آلان عبر الباب الخلفى كما لو كان قد قذف بقنبلة . وقال : « مارو للو - المستر مارو للو بالخارج . إنه يريد رؤيتك » .

وتساءلت مارى : « والآن ما الأمر ؟ »

— « حسنا ، ادعه للدخول » .

— « لقد فعلت ولكنه يريد رؤيتك بالخارج » .

— « إيثان ، ما الأمر ؟ أنت لا تستطيع الخروج بروبك . إنه أحد عيد القيامة » .

وقلت : « آلان ، عليك أن تخبر مستر مارو للو أننى لست مرتدياً ملابسى . قل له إنه يستطيع العودة فيما بعد . ولكن إذا كان فى عجلة من أمره ، فيمكنه أن يدخل من الباب الأمامى إذا كان يريد أن يرانى بمفردى . » وانطلق مسرعاً .

— « لا أعرف ماذا يريد . ربما يكون المحل قد سرق » .

واندفع آلان عائدا . « إنه يستدير إلى واجهة البيت » .

— « والآن ، ياعزيزى ، لا تدعه يفسد عليك إفطارك ، أتسمعنى ؟ »

مررت خلال البيت وفتحت الباب الأمامى ، كان مارو للو واقفا تحت السقيفة، وهو يرتدى أحسن ملابسه حلة من الجوخ الأسود الناعم وسلسلة ساعة ذهبية ضخمة . كان يمسك قبعته السوداء بيده وابتسم لى فى عصبية مثل كلب خرج عن نطاق بيته .

— « تفضل » .

قال : « كلا ، لدى كلمة واحدة فحسب أقولها ، لقد سمعت كيف قدم لك ذلك الفتى رشوة » .

— « أجل ؟ »

— « وسمعت كيف طردته »

— « من أخبرك ؟ »

— « لا أستطيع أن أقول » . وابتسم مرة أخرى .

— « حسنا ، وماذا بشأن ذلك ؟ أتحاول أن تقول إنه كان ينبغى على أخذها ؟ »

خطا إلى الأمام وهز يدى ، رفعها وخفضها مرتين بطريقة رسمية . وقال : « إنك فتى طيب » .

— « ربما لم يقدم عرضا كافيا » .

— « أتمزح ؟ أنت فتى طيب . هذا كل ما فى الأمر إنك فتى طيب » .

مد يده إلى جيبه الجانبى المنتفخ وأخرج كيسا . « خذ هذا » . ربت على كتفى وبعدئذ استدار فى حمأة ارتباكه وانصرف هاربا ، كانت ساقاه القصيرتان تدفعانه جيدا ورقبته السمينة ملتهبة حيث تبرز فوق ياقته الصلبة البيضاء .

— « ما ذاك ؟ »

نظرت داخل الكيس ـ بيض ملون من الحلوى لعيد القيامة . كان لدينا منه ملء برطمان زجاجى مربع كبير فى المحل. وقلت : «لقد أتى بهدية للأطفال ».

— « مارولللو ؟ أتى بهدية . لا أستطيع تصديق ذلك ».

— « حسناً ، ولكنه فعل »

— « لماذا ؟ إنه لم يفعل شيئاً مثل ذلك من قبل أبداً » .

— « أعتقد أنه بصراحة ، يحبنى » .

— « هل يوجد ثمة شىء لا أعرفه ؟ »

— « يازهرتى الأليفة ، يوجد ثمانية ملايين شىء لا يعرفها واحد منا » .

كان الطفلان إلى الداخل من الباب الخلفى المفتوح . ومددت الكيس إليهما ـ « هدية من معجب . لاتبدءا فى التهامها إلا بعد الإفطار » .

* * *

بينما كنا نرتدى ملابسنا استعدادا للذهاب للكنيسة ، قالت مارى : « أود أن أعرف ، لماذا كان كل ذلك » .

— « تقصدين مارولللو ؟ على أن أعترف ، ياعزيزتى ، بأننى أود أن أعرف أنا أيضا لماذا كان كل ذلك » .

— « ولكن كيساً من الحلوى الرخيصة » .

— « أتعتقدين أنها ربما كانت إمعانا فى البساطة ؟ »

— « لا أفهم »

— « زوجته متوفاة . وليس له فرخ ولا ولد . وقد أخذ السن يتقدم به . ربما ـ حسناً ، ربما يحس بالوحشة » .

— « إنه لم يأت إلى هنا من قبل أبداً . وبما أنه يشعر بالوحشة فينبغى

عليك أن تطلب منه رفع مرتبك . عسى ألا يأتى لزيارة المستر بيكر ، فسيجعلنى هذا غصبية » .

لقد راعيت أناقتى مثل زهور الحقل فارتديت حلتى الغامقة الأنيقة ، حلة الجناز السوداء ، والقميص والياقة المنشيين اللذين بلغا من البياض حداً جعلهما يلقيان بضوء الشمس ثانية فى وجهها والربطة الزرقاء السماوية ذات النقط الحريرية المنمقة .

هل كانت المسز مارجى يانج هنت تثير عواصف الأجداد ؟ من أين أتى مارولو بمعلوماته ؟ لايمكن أن يكون المستر بجر قد حكى إلى المسز يانج هنت ، ثم حكت هى إلى المستر مارولو . إننى لا أثق بك يامارجى يانج ، والسبب لايمكننى التفوه به . ولكن هذا ما أعرفه ، ما أعرفه تماماً . إننى لا أثق بك يامسز يانج . وبهذا الغناء المتردد فى رأسى ، أخذت أنقب فى الحديقة عن زهرة بيضاء أضعها فى عروتى فى عيد القيامة . فى الزاوية التى صنعها التقاء أساس البيت مع باب البدروم المنحدر يوجد مكان مصان ، والتربة يدفئها الفرن وتتعرض لكن شعاع صغير من شمس الشتاء . وهناك ينمو البنفسج الأبيض ، الذى جلب من الجبانة حيث ينمو برياً فوق قبور أسلافى . قطفت لعروتى ثلاث زهرات صغيرة شكلها كوجه الأسد ثم جمعت دستة من الزهور المستديرة لعزيزتى ، ورتبت حولها أوراقها الشاحبة لتصير باقة ، ثم ربطتها جيداً بقطعة من سلك الألومينيوم من المطبخ .

قالت مارى : « يالله ، إنها جذابة . انتظر حتى آتى بدبوس ، سوف أتزين بها » .

— « إنها أولى الزهرات — إنها التباشير الأولى ، يادجاجتي الحلوة . إنني عبدك . المسيح قام ، وعم الخير العالم » .

— « أرجوك ، لاتسخر من الأشياء المقدسة ياعزيزتي » .

— « يالله ، ماذا فعلت بشعرك » !

— « أيعجبك هكذا » ؟

— « إنني أحبه هكذا . صففيه دائماً بتلك الطريقة » .

— « لم أكن واثقة أنه سيعجبك . لقد قالت مارجي إنك لن تلاحظه مطلقاً : انتظر حتى أخبرها أنك فعلت . » وضعت على رأسها تاجاً من الزهور ، هدية الربيع السنوية إلى عيد القيامة . أيعجبك ؟ »

— « إني أحبه » .

كان الصغيران يمران الآن بمرحلة الفحص ، فحص آذانهما ، وأنفيهما ، وتألق حذائيهما ، وكل دقائق هندامهما ، وكانا يقاومان كل لحظة من هذه المرحلة . كان شعر آلان كثير الدهان إلى حد صعب عليه معه أن يطرف بعينيه . وكان كعبا حذائيه غير ملمعين ولكنه وبعنايه فائقة كان قد سوى خصلة من الشعر لكي تتأرجح فوق حاجبه الهلالي مثل موجة صيف .

كانت إيلين فتاة الفتيات ، وكان كل مايبدو منها منسقاً . جربت حظي مرة أخرى وقلت : « إيلين ، لقد غيرت طريقة تصفيف شعرك ، ولكنها تناسبك . ألا تعجبك ياعزيزتي ماري » .

وقالت ماري : « أوه . لقد بدأ الزهو يتملكها » .

وشكلنا موكباً سار من ممرنا إلى شارع « الم » وبعدئذ اتجه يساراً إلى بورلوك ، حيث توجد الكنيسة ، كنيستنا العتيقة ذات الأبراج البيضاء ،

والتى سرق تصميمها بكامله من تصميات كريستوفرورن . كنا جزءاً من مجرى متزايد ، وكانت كل امرأة فى أثناء مرورها تبدى بهجتها بقبعات النساء الأخريات .

قلت : « قد صممت قبعة لعيد القيامة . تاج بسيط أعلى الوجه من الشوك المصنوع من الذهب مع قطرات صغيرة من العقيق الحقيقى على الجبهة » .

— « إيثان . » قالتها مارى بحزم . « افترض أن شخصا سمعك » .

— « كلا ، لا أظنها يمكن أن تشيع . »

— « أعتقد أنك شنيع » . قالتها مارى ، وهذا ما كنته ، أسوأ من شنيع . ولكننى كنت أعجب كيف سيستجيب مستر بيكر للتعليق على شعره .

انضم نهير عائلتنا إلى السيالات الأخرى وتبادلنا تحيات فخمة ثم صار السيال نهراً يصب فى كنيسة سانت توماس الأسقفية ، وهى كنيسة متوسطة الارتفاع ، ربما أعلى قليلاً من الوسط .

حين يأتى الوقت الذى ينبغى على فيه أن أعرف ابنى بأسرار الحياة ، والتى لاشك فى أنه يعرفها ، فينبغى على أن أتذكر أن أقدم له معلومات عن الشعر فسيتوصل إلى أبعد مايرغب فيه قلبه الشهوانى الصغير إذا تسلح بكلمة رقيقة عن الشعر . وعلى أية حال، ينبغى على أن أحذره فبوسعه أن يرفسهن، يضربهن ، يسقطهن ، يوشوشهن ، أو يضربهن بالأرض . ولكنه ينبغى عليه ألا يهمل أبداً — أبداً — شعرهن وبهذه المعرفة يستطيع أن يكون ملكاً عليهن .

كان آل بيكر يصعدون الدرجات أمامنا مباشرة ، وتبادلنا تحيات منمقة :

« أعتقد أننا سنرا كم على تناول الشاى » .

— « أجل ، حقا : عيد قيامة سعيد لـكم » :

— « أيمكن أن يكون ذلك آلان ! كم كبر ، ومارى إيلين : حسناً ، لم يعد بإمكانى التعرف عليهم وهم ينمون بهذه السرعة » .

هناك شيء ماغال جداً بالنسبة لـكنيسة ترعرعت فيها ، فأنا أعرف كل ركن خفى ، وكل باب سرى فى كنيسة سانت توماس ، ففى هذا الحوض عمدت وعند ذلك الدرابزين وثق تعميدى ، وعلى ذلك المقعد جلس آل هولى مدة يعلم الله مداها ، وليس ذلك مجرد كلام . فلا بد أن القداسة تركت فى نفسى أثراً عميقاً ، وذلك لأننى أتذكر كل تدنيس ، وقد كان يوجد منه الـكثير ، وأظننى أستطيع أن أبين كل مكان حفرت فيه الحروف الأولى من اسمى بمسمار ، وعند ماثقبت أنا ودانى تايلور أحرف كلمةمفردة قبيحة بدبوس فى كتاب الصلوات العامة ، أمسك بنا مستر هويلر وعوقبنا ، ولـكنهم اضطروا لفحص كل كتب الصلوات والتراتيل ليتأكدوا أنه لايوجد المزيد .

وذات مرة ، فى مكان المرتلين ذاك أسفل منبر قراءة الـكتاب المقدس ، حدث شيء فظيع . كنت أرتدى الدانتيل وأحمل الصليب وأغنى بصوت كالثور من طبقة السوبرانو . وحدث أن كان القس يقوم بالطقوس الدينية ، وهو رجل عجوز لطيف ، بلا شعر ، ورأسه مثل بصلة مسلوقة ، ولـكنه كان بالنسبة لى يتألق بأشعة القدسية . كان الحال كذلك ، وأنا مأخوذ بالإلهام ، حين وضعت الصليب فى جرابه عند نهاية الاحتفال ، ونسيت أن أسقط المزلاج النحاسى الذى يثبته بالداخل . وعندقراءة الدرس الثانى رأيت — وأنا مرعوب — الصليب النحاسى الثقيل يتأرجح ، ثم يصدم تلك الرأس المقدسة الخالية من

الشعر . وتهاوى القس إلى أسفل مثل بقرة ضربت ببلطة . وفقدت الدانقيل لصبي لم يكن يستطيع الغناء بمثل جودتي ، صبي كان اسمه « سكنك فوت هيل » ، وهو الآن عالم في تاريخ الأجناس البشرية ، في مكان ما بالغرب . وبدت الحادثة وكأنها تبرهن لي أن النوايا ، سواء كانت خيرة أو شريرة ، ليست كافية . فهناك حظ أو قدر أو شيء ما آخر ، يتم وقوع الحوادث .

جلسنا طيلة أداء الطقوس ، وسمعنا الأنباء تعلن أن المسيح قد قام فعلاً . وكالعادة جعل ذلك الرعدة تسرى في عمودي الفقري . وأخذت العشاء الربانى بقلب خالص . لم يكن تعميد آلان ومارى إيلين قد ثبت بعد ، وصارا في غاية القلق وكان لابد من أن يريا النظرة الصلبة لكي يتوقفا عن حركتهما . وحين تكون نظرات مارى عدائية ، فإنها تستطيع أن تخترق حتى درع المراهقة .

وبعدئذ وفي ضوء الشمس الغامر ، شددنا على الأيدي وحيينا ، ثم شددنا على الأيدي وتمنينا للفيف جيراننا أطيب التمنيات بحلول الربيع . وكل أولئك الذين تحدثنا إليهم وهم يدخلون ، أعدنا تحيتهم وهم يخرجون ـ استمرار للترتيل ، الترتيل مستمر يأخذ شكل عادات سلوكية طيبة منمقة ، وتوسل هادىء يفرض ملاحظته واحترامه .

— « صباح الخير . وكيف حالك في هذا اليوم البديع ؟ »

— « بخير تماماً ، شكراً لك . كيف حال والدتك ؟ »

— « العمر يتقدم بها — يتقدم بها — إنها آلام ومتاعب تقدم السن . سأخبرها أنك سألت عنها » .

لا معنى للكلمات إلا في مجال الإحساس . فهل يتصرف أي فرد نتيجة

للتفكير أم أن الإحساس هو الذى يستحث على القيام بالفعل ، وأحياناً ما يستحث التفكير على القيام به ؛ وفى مقدمة استعراضنا الصغير تحت الشمس سار مستر بيكر ، وهو يتجنب الخطو فوق الحفر ، فأعاد إلى ذهنى صورة والدته التى توفيت منذ عشرين عاماً ، والتى ظلت فى مأمن من كسر ظهرها . أو المسز بيكر ، واسمها إمليا ، فكانت تتعثر إلى جواره ، محاولة أن تتوافق مع خطوة الغير منتظم بقدميها المترددين ، كانت امرأة ضئيلة تشبه طائراً متألق العينين ، ولكنه طائر يتغذى على الحبوب .

سار ابنى ، آلان بجوار أخته ، ولقد حاول كلاهما أن يعطى الانطباع بأنه غريب عن الآخر تماماً . أعتقد أنها تحتقره وأنه يشمئز منها . وقد يستمر هذا طيلة حياتيهما ، ولكنهما قد يتعلمان إخفاءه فى سحابة وردية من كلمات الحب . امنحيهما غداءهما ، ياشقيقتى ، يازوجتى — بيضها المسلوق جيداً والمخللات ، وشطائرهما المحشوة والبقول والزبد ، تفاحهما الأحمر الذى لا تزال تنبعث منه رائحة البرميل ، ثم أطلقيهما أحراراً فى الدنيا لينجبا .

وكان ذلك ما فعلته . وسارا مبتعدين ، وهما يحملان كيسيهما المصنوعين من الورق ، وكل واحد منهما إلى عالمه الخاص المفضل .

— « هل استمتعت بالخدمة الدينية ، ياعزيزتى ؟ »

— « أوه ، أجل . إنى أستمتع بها دائماً . ولكن أنت ـ أحياناً ما أتعجب إذا كنت مؤمناً ـ كلا ، إنى أعنى ما أقول . حسناً ، إن نكاتك ـ أحياناً ما ـ »

— « ارفعى مقعدك ، ياعزيزتى الحلوة » .

— « ينبغى أن أتناول غذائى عليه » .

— « غذاء الأقذار » .

— « ذلك ما أعنيه . نكاتك » .

— « ليس الغذاء شيئا مقدسا . ولو كان أكثر دفئا لاستطعت أن أحملك إلى قارب بمجدافين ولانطلق بعيداً عن حاجز الأمواج واصطدنا سمك البورجى » .

— « إننا ذاهبون إلى آل بيكر . هل تعرف إذا ما كنت تؤمن بالكنيسة أم لا ، يا إيثان ؟ لماذا تطلق على أسماء سخيفة ؟ إنك لا تكاد أبداً تستعمل اسمى » .

— « لأتلافى أن أكون متكرراً ومملاً ، ولكن اسمك يرن فى قلبى مثل جرس . هل أومن ؟ ياله من سؤال . هل أستخلص من « مجمع نيقية » كل جمله البراقة ، المشحونة مثل رصاصة بندقية سريعة الطلقات ، ثم أتفحصها ؟ كلا . ليس هذا ضرورياً . إنه شىء فريد ياماری . فلو جف عقلى وروحى وجسدى من الإيمان جفاف حبة بقول ، فإن الكلمات ، « الرب راعى فلا يعوزنى شىء . فى مراع خضر يربضنى . » لازالت تقلب معدتى رأساً على عقب وتحدث خفقة فى صدرى وناراً فى عقلى » .

— « لا أفهم »

— « فتاة طيبة . ولا أنا . فلنقل إنه عندما كنت طفلاً صغيراً ، وكل عظامى لينة رخوة ، وضعت فى صندوق أسقفى صغير على شكل الصليب وهكذا اتخذت شكلى . وبعدئذ ، حين كسرت الصندوق وخرجت منه ، بنفس الطريقة التى يهرب بها الفروج من البيضة ، هل يكون غريبا أننى أكون بشكل الصليب ؟ ألم تلاحظى إطلاقا أن الفراريج تكون بشكل البيضة بوجه عام ؟ »

— « إنك تقول مثل هذه الأشياء المرعبة ، حتى للأطفال . »

— « وهم يقولونها لى» . فلقد سألتنى إيلين ، الليلة الماضية فحسب ، «بابا ، متى سنصبح أغنياء ؟ »

ولكنى لم أقل لها ماأعرفه ، وهو : « سنصير أغنياء سريعاً ، وأنت يامن تعاملت مع الفقر بشكل سىء ستتعاملون مع الغنى أيضا بشكل سىء » . « وذاك صحيح . فهى فى الفقر حسودة . وفى الغنى قد تصبح وضيعة متعاظمة . فالنقود لاتغير الداء ، بل الأعراض فحسب » .

— « إنك تتكلم بهذا الشكل عن أطفالك فما الذى سيكون عليك أن تقوله عنى ؟ »

— « أقول إنك نعمة ، إنك غالية ، إنك الإشراقة فى حياة مليئة بالضباب . »

— « إنك تبدو مخموراً ـ على أية حال لست ثملاً . »

— « إننى كذلك . »

— « لست كذلك . وإلا لاستطعت أن أشم رائحتك » .

— « أنت تشمينها ، ياحبيتى » .

— «ما الذى اعتراك ؟» .

— « آه . أنت تعرفين ، أليس كذلك ؟ تحول ـ عاصفة ضخمة لعينة من التحول ، وأنت تحسين بالأمواج القصية فحسب » .

— « إنك تقلقنى ، ياإيثان . إنك تقلقنى حقا، ففيك وحشية » .

— « أتذكرين أوسمتى ؟ »

— « ميدالياتك التى نلتها فى الحرب » ؟

— « لقد منحت جائزة للوحشية ـ للضياع . لم يكن هناك رجل على ظهر الأرض قط يحمل فى قلبه قدراً من القتال أقل منى • ولكنهم صنعوا صندوقاً آخر وحشرونى فيه . كانت الفترة ، اللحظة ، تتطلب أن أذبح مخلوقات بشرية وفعلت » •

— « كان ذلك زمن الحرب وفعلت مافعلت من أجل بلدك »

— « إنه دائما نوع ما من الزمن . كم من وقت طويل تجنبت فيه زمنى الخاص • كنت جنديا بارعا لعينا ، ومن صنف سىء ـ ذكى وسريع ومجرد من الرحمة ، كنت وحدة ذات فعالية ، فى زمن الحرب • وقد أستطيع أن أكون وحدة بنفس المقدرة فى هذا الزمن » •

— « أنت تحاول أن تخبرنى بشىء ما » .

— « من المحزن بما فيه الكفاية إننى أحاول . ووقع الكلام يرن فى أذنى كأنه اعتذار . وأتعشم ألا يكون » .

— « أنا ذاهبة لإعداد الغداء » .

— « لست جائعا بعد إفطار عيد القيامة ذاك » .

— حسناً ، باستطاعتك أن تأكل شيئاً ما . هل رأيت قبعة مسز بيكر ؟ لابد أن تكون قد أتت بها من نيويورك » .

— « ما الذى فعلته بشعرها ».

— « هل لاحظت ذلك ؟ إنه بلون الشليك تقريباً » .

— حتى يكون ، (نور إعلان للأمم)

—« ولم ترد مارجى الذهاب إلى مونتوك فى هذا الوقت من العام» .

— « إنها تحب الصباح المبكر » .

— « إنها ليست ممن يبكرن فى الاستيقاظ . وأنا أمزح معها بشأن ذلك . ولـكن ألا تظن أن إحضار مارللو لحلوى البيض أمر غريب » .

— « أتربطين بين الحادثين ، استيقاظ مارجى المبـكر وإحضار ماروللو للبيض » .

— « لا تـكن سخيفاً » .

« لست كذلك ، ولمرة واحدة لست كذلك . إذا بحت الك بسر ، فهل تعدين بعدم البوح به » ؟

— « إنها نـكتة » .

— « كلا » .

— « حسنا ، أعدك » .

— « أعتقد أن ماروللو ينوى القيام برحلة إلى إيطاليا » .

— « وكيف تعرف ؟ هل أخبرك » .

— « ليس تماماً . إننى أرتب الأشياء مع بعضها ، أربطها ببعضها » .

— « ولـكن ذلك يعنى أنه سيتركك وحدك فى المحل . سيكون عليك أن تجد شخصاً ماليساعدك » .

— « أستطيع معالجة الأمر » .

— « إنك تقوم الآن بكل شىء من الناحية . سيكون عليك أن تجد شخصاً ما ليساعدك » .

— « تذكرى – إن الأمر ليس مؤكداً وأنه سر » .

— « أوه ، إننى لا أنسى وعداً مطلقاً » .

— « ولـكنك قد تلمحين إليه » .

— « لن أفعل ، يا إيڤان » .

— « أتعلمين من تـكونين ؟ أرنب صغير عزيز توج رأسه بالزهور »

— « فلتتناول ماتشاء من طعام فى المطبخ . إننى ذاهبة لأغتسل » .

حينما ذهبت ، تمددت فى مقعدى وسمعت فى أذنى الخفيتين : « الآن تطلق عبدك ياسيدى حسب قولك بسلام » . وملعون أنا إذا لم أستغرق فى النوم . سقطت على صخرة عالية إلى جوف الظلام ، هنالك مباشرة فى غرفة الجلوس ، وأنا لأأفعل ذلك عادة . ولأننى كنت أفـكر فى دانى تيلور فقد حلمت بدانى تيلور لم نكن صغيرين ولا عظيمين بل مكتملى النمو ، وكنا فى قاع البحيرة المسطح الجاف ومعنا أساس المنزل العتيق وفتحه البدروم . كان الوقت بداية الصيف ، لأننى أبديت ملاحظة بشأن امتلاء أوراق الشجر وكان العشب من الثقل بحيث كان ينثنى تحت ثقله ، إنه ذلك النوع من الأيام الذى يجعلك تشعر بالسمنة والحماقة أيضا . ومضى دانى خلف شجرة « دفران » فتياً منتصباً ورشيقاً كأنه عمود . وسمعت صوته ، مشوهاً وغليظاً مثل كلمات ينطق بها تحت ماء وبعدئذ صوت معه وكان هو يذوب ويسيل منحدرا فوق إطار جسده . وحاولت براحتى أن ألمه برقة إلى أعلى ، إلى مكانه مرة أخرى ، بالطريقة التى تحاول بها أن تلم إسمنتاً لزجاً حين ينساب من القالب ، ولـكننى لم أستطع . كان جوهره ينساب بين أصابعى . وهم يقولون إن الحلم لحظة . ولـكن هذا الحلم أخذ يستمر ويستمر وكلما زادت محاولتى زاد ذوبانه .

حين أيقظتنى مارى كنت ألهث من المجهود .

قالت : «إنها حمى الربيع ، تلك أولى بوادرها . حين كنت فتاة فى طور النمو كنت أنام كثيراً جداً ، حتى أرسلت أمى فى طلب الدكتور جرادى . كانت تظننى مريضة بمرض النوم ، كل مافى الأمر أننى كنت أنمو فى فصل الربيع » .

— « لقد اعترانى كابوس نهارى . لاأتمنى لأحـــد أن يرى حلماً مثل ذلك » .

— « سبب هذا كل مايحيط بك من اضطراب . اصعد ومشط شعرك واغسل وجهك : إنك تبدو متعباً ، ياعزيزى . هل أنت بخير ؟ لقد حان تقريباً وقت ذهابنا . لقد نمت ساعتين : لابد أنك كنت تحتاجها : ليتنى أعرف ما الذى يدور بخلد مستر بيكر » .

— « ستعرفين ، ياعزيزتى . عدينى أنك ستنصتين لـكل كلمة » :

— « ولـكنه قد يود الـكلام معك على انفراد . فرجال الأعمال لايحبون أن تنصت إليهم السيدات » .

— « حسنا ، إنه لايستطيع أن يتناول الأمر هكذا . فأنا أريدك معى » .

— « أنت تعرف أنه لاخبرة لى بالأعمال » .

— « أعرف — ولـكن نقودك هى ماسوف يتحدث عنه » .

لاتستطيع أن تعرف أناساً مثل آل بيكر إلا إذا ولدت وأنت تعرفهم — فالعلاقة ، بل حتى الصداقة ، شىء مختلف . وانا اعرفهم لأن آل هولى وآل بيكر كانوا متشابهين فى الدم ، ومنبت الأصل ، والتجربة ، وثروة الماضى . وهذا يوجد نواة مسورة ومحفورة حولها خندق ضد الدخلاء . وحين فقد والدى نقوده ، لم أنبذ تماما . ولا زال آل بيكر يتقبلوننى كفرد من آل هولى ربما طيلة حياتى لأنهم يحسون بأننى قريب لهم . ولـكننى قريب فقير : والنبالة دون

حال تقل تدريجيا ولن تظل نبالة . ودون نقود، لن يعرف آلان، ولدى، آل بيكر وسيكون ابنه غريباً عليهم ، دون أن يهم اسمه أو أسلافه . لقد صرنا أصحاب ضياع بلا أرض ، وقادة بلا فيالق ، وخيالة نسير على الأقدام . ولا نستطيع أن نبقى أحياء ، وربما كان ذلك أحد الأسباب فى التحول الذى أخذ يحتل مكانه فى نفسى ، إننى لا أريد النقود ، ولم أردها ابداً ، من أجل ذاتها ، ولكن النقود ضرروة لأحتفظ بمكانى فى مرتبة اعتدتها واسترحت إليها ، ولا بد أن هذا كله كان يعمل فى المكان المظلم الكائن أسفل مستوى تفكيرى ، وهو لم يبرز كفكرة بل كاعتقاد .

قالت مسز بيكر : « طاب أصيلكم ، إنى فى منتهى السعادة لأنكم تمكنتم من الحضور ، لقد أهملتمونا، ياماري، ألم يكن يوماً رائعاً ؟ هل استمتعت بالقداس. اما فيما يتعلق بالقس فإننى أعتقد أنه رجل ممتع جداً » .

وقال المستر بيكر : « نحن لا نكاد نراكم بما فيه الكفاية ، وإننى لأتذكر جدك وهو جالس فى نفس ذاك المقعد ، يحكى أن الأسبانيين القذرين قد أغرقوا السفينة « مين » ، وانسكب منه الشاى ، ولكنه لم يكن شايا فحسب ، كان القبطان هولى العجوز معتاداً أن يخلط الروم بقليل من الشاى . كان رجلاً عنيفاً ، وكان البعض يعتقدون أنه رجل مشاكس » .

كنت أستطيع أن أرى أن مارى بهتت أول الأمر ، ثم تملكها السرور بعدئذ من حرارة اللقاء . كانت لا تدرى طبعا أننى قد رقيتها بجملها وارثة . وصيت امتلاك النقود غالباً ما يكون مثار حديث كالنقود نفسها .

أما المسز بيكر ، ورأسها تهتز فى شىء من الإضطراب العصبى ، فكانت تصب الشاى فى فناجين رقيقة وهشة مثل براعم زهرة الماتوليا ، وكانت يدها

الجزء الوحيد الثابت من جسمها .

كان المستر بيكر يقلب بملعقة متأمله ، وقال : « لا أدرى ماإذا كنت أحب الشاى أم الاحتفال المصاحب له . إننى أحب كل الاحتفالات - حتى الحمقاء منها » .

وقلت : « أحسبنى أفهم . لأننى أحسست هذا الصباح بالراحة فى أثناء أداء الطقوس لأنه لم تكن بها مفاجآت . كنت أعرف الكلمات قبل أن ينطق بها » .

— « فى أثناء الحرب ، يا إيثان - استمعن إلى هذا ايتها السيدات ، لترين إذا ما كنتن تستطيعن تذكر أى شيء يشبهه - أثناء الحرب كنت اعمل كمستشار لوزير الحرب . وأمضيت بعض الوقت فى واشنجتون » .

— « كنت أمقتها . » قالتهامسز بيكر .

— « حسنا ، كان ثمة حفل شاى حربى ضخم ، حفل حقيقى ، فيه ما يقرب من خمسمائة ضيف كانت سيدة الحفل الأولى زوجة جنرال بخمس نجوم والتالية لها فى الأهمية زوجة لفتنانت جنرال . وطلبت زوجة الوزير ، وهى المضيفة ، من السيدة زوجة الجنرال ذى النجوم الخمس أن تصب الشاى ومن زوجة ذى النجوم الثلاث ان تصب القهوة . حسنا ، رفضت السيدة ذات المركز العالى لآن ، وأنا أستخدم كلماتها : . . « كل واحد يعلم أن القهوة أعلى مرتبة من الشاى » . والآن ، هل سمعتم مثل ذلك قط ؟ » وضحك . « وعندما إنتهى الحفل ، كان الويسكى أعلى مرتبة من أى شخص » .

وقالت مسز بيكر : « كان مكاناً لا استقرار فيه . وكان الناس يرحلون قبل أن يتوفر لديهم الوقت ليلموا بمجموعة من العادات أو الأخلاق » .

وقصت مارى حكايتها عن شاى إيرلندى فى بوسطن كان يعمل بغليه فى الماء فى أوعية مستديرة فوق نار مكشوفة ويقدم من مغارف من الصفيح . وقالت . « وكانوا لاينقعون الشاى ، بل يغلونه . ومثل ذلك الشاى قد يزيل طلاء منضدة » .

لابد أنه توجد بوادر شماترية فى مناقشة جادة أو عمل ، وكلما زادت حدة الموضوع ، كلما انبغى أن يزيد الغناء طولاً ومرحاً . إذ يجب على كل شخص أن يضيف إلى اللوحة قطعة من ريش أو قطعة ملونة . فلو لم تكن مارى ومسز بيكر جزءاً من الموضوع الجاد ، لكانتا قد حددتا منذ مدة طويلة نمطهما الخاص لتبادل الحديث . كان مستر بيكر قد صب بنبيذ فوق تربة الحادثة وكذلك فعلت عزيزتى مارى ، وقد كانت مبتهجة ومنفعلة لإثارة انتباههما . وبقى على مسز بيكر وعلى أن ندلى بنصيبينا ، وشعرت أن الكياسة فحسب تقضى أن أكون الأخير .

أخذت دورها واشتقت منبع حديثها من إناء الشاى مثلما فعل الآخرون . « أذكر الوقت الذى كانت توجد فيه عشرات الأنواع من الشاى ، » ومهدت لحديثها مبتهجة : « أجل كان لكل امرئ وصفات لكل شىء تقريبا . وأعتقد أنه لم يكن هناك عشب أو ورقة شجر أو زهرة لم يصنع منها نوع ما من الشاى . أما الآن فيوجد نوعان فحسب ، الهندى والصينى ، ولا يوجد الكثير من الصينى . أتذكرون حشيشة الدود والبابونج وأوراق البرتقال وأزهاره — ثم شراب الكامبرك ؟ » وسألت مارى : « ماهو الكامبرك ؟ »

— « مقادير متساوية من الماء الساخن واللبن الساخن . ويحبه الأطفال . وليس له طعم الماء واللبن . » كانت تلك قصة مسز بيكر .

وجاء دورى ، وقصدت أن أبدى بضعة ملاحظات حريصة لامعنى لها بشأن حفل شاى بوسطن ، ولـكنك لا تستطيع دائما أن تفعل ماتقصده ، فالمفاجآت تفلت دون إذن .

سمعت نفسى أقول : « لقد ذهبت للنوم بعد القداس ، وحلمت بدانى تيلور حلماً فظيعاً . أنتم تذكرون دانى »

وقال مستر بيكر : « ياله من شاب مسكين » .

ـــ « لقد كنا ذات يوم أقرب من الاخوة . ولم يكن لى أخ . وأظننا كنا أخين بصورة من الصور . إننى أحس أنه ينبغى على أن أكون حارساً لأخى دانى ، رغم أننى لا أنفذ ذلك طبعاً » . انزعجت مارى منى لـكسرى مجرى المحادثة . واقتصت قصاصاً صغيراً : « إن إيثان يعطيه نقوداً . ولا أعتقد أن هذا صواب . فهولا يستغلها إلا فى الشراب » .

وقال مستر بيكر : « حسناً ! »

ـــ « إنى لأعجب ـ على أية حال لقد كان الحلم كابوس ظهيرة . إننى أعطيه القليل جدا ـ دولاراً بين الحين والآخر . و، ذا يستطيع أن يفعل بدولار سوى أن يسكر ؟ ربما يستطيع بمبلغ محترم أن يحسن حاله »

وصاحت مارى : « لا يجرؤ أحد على فعل ذلك . سيكون ذلك بمثابة قتله . أليس الأمر كذلك يامستر بيكر ؟ »

وقال مستر بيكر: « ياللشاب المسكين . لقد كانت عائلة تيلور عائلة محترمة . ومما يؤلمنى أن أراه على هذه الحالة . ولـكن مارى على صواب . فيحتمل أنه قد يشرب حتى الموت . »

ـــ « إنه يفعل ذلك على أية حال . ولـكنه فى مأمن منى . فليس لدى

المبلغ المحترم لأعطيه له » .

وقال مستر بيكر : « إن الأمر أمر مبدأ . »

ساهمت مسز بيكر بوحشية نسائية : « ينبغى أن يكون فى إصلاحية حيث يمكنهم أن يرعوه » وتضايق ثلاثتهم جميعا منى ، إذ كان ينبغى على أن أظل فى موضوع حفل شاى بوسطن . غريب كيف أن العقل يأخذ فى المرح ، ولعب لعبة « السكيكا » أو « نغز ذيل الحمار » ، حينما يكون عليه أن يستخدم كل ملاحظة ، لكى يجد طريقاً خلال حقل الألغام الذى يتكون من خطط سرية وعقبات . كنت أفهم منزل بيكر ومنزل هولى، الجدران المعتمة والستائر ، ونباتات الجناز المطاطية التى لاعلاقة بينها و بين الشمس، الصور النصفية والمطبوعة، وذكريات أزمنة أخرى مصنوعة من فخار ومحار ، ومن أقمشة وخشب تربطها بالواقع وبالديمومة . المقاعد تتغير مع مقتضيات الموضة والراحة ولكن الصناديق والمناضد وأرفف الكتب ومناضد الكتابة تنتهى إلى ماض جامد . لقد كان اسم هولى يعنى أكثر من عائلة . كان بيتاً . وكان ذلك هو السبب فى تعلق دانى المسكين بمرجة تيلور . فبدونها ، سيكون بلا عائلة — وسرعان ما سيكون بلا اسم أيضا. فمن نغمة الحديث وإيقاعه وعن رغبة ، لغى الثلاثة الجالسون هناك اسم تيلور . وربما كان الأمر أن بعض الرجال يتطلبون بيتاً وتاريخاً ليطمئنوا أنفسهم أنهم موجودن — إنها صلة واهية ، فى أغلب الحالات . ففى المحل كنت أمثل الفشل والموظف ، وفى بيتى كنت أسمى هولى ، وهكذا لابد أن أكون أنا الآخر غير واثق من وجود اسمى . كان بيكر يستطيع أن يمد يد المعونة لهولى . ولولا بيتى ، لكنت قد ألغيت أنا الآخر . لم يكن الأمر أمر رجل لرجل ، بل بيت لبيت . لقد قاومت إزاحة دانى تيلور من الواقع ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أوقف الأمر .

وقد شحذت هذه الفكرة ذهنى وقومته . كان بيكر سيحاول إعادة صقل علاقته بآل هولى، لكى يشارك فى ميراث مارى الموهوم . كنت آلان على حافة حقل الألغام . وقسى قلبى على محسنى الكريم . وأحسست به يقسو و يتزايد ضرره وخطورته . وبتوجيه من عقلى جاءنى الإحساس بالمعركة ، و بقوانين الوحشية المتحكمة فيها ، والقانون الأول هو : دع حتى دفاعك يأخذ مظهر الهجوم .

قلت : « مستر بيكر ،نحن لا نحتاج إلى استعراض الماضى . فأنت تعرف خيراً منى الوسيلة البطيئة المتقنة التى فقد بها أبى ثروة آل هولى . لقد كنت متغيباً فى الحرب . فكيف حدث الأمر ؟ »

— « لم يكن هذا مقصده ، ولكن حكمه — »

— « أعرف أنه لم يكن رجل دنيا — ولكن كيف حدث الأمر ؟ »

— « حسناً . كانت الفترة هى فترة الاستثمارات المتهورة . وقد استثمر ماله بتهور » .

— « هل قدمت إليه أية نصيحة ؟ »

« لقد وضع ثروته فى أسلحة كان استعمالها قد بطل فعلا . وبعدئذ حينما ألغيت العقود ، خسر » .

— « أنت كنت فى واشنجتون . فهل كنت تعلم بأمر العقود ؟ »

— « بشكل عام فحسب » .

— « ولكنه كان كافياً لكيلا تستثمر أموالك » .

— « كلا ، لم أستثمرها »

— « هل نصحت والدى بشأن الاستثمارات ؟»

— « كنت فى واشنجتون »

ــ « ولكنك كنت تعلم أنه استدان النقود بضمان ممتلكات آل هولى، النقود التى سيستثمرها ؟ »

ــ « أجل ، كنت أعلم ذلك » .

ــ « هل نصحته بعكس ذلك ؟ »

ــ « كنت فى واشنجتون » .

ــ « ولكن مصرفك قام بالحجز »

ــ « ليس لمصرف أى خيار ، ياإيثان . أنت تعرف ذلك » .

ــ « أجل ، أعرف . إن المخجل فقط هو أنك لم تستطع نصحه » .

ــ « ينبغى ألا تلومه ، يا إيثان »

ــ « آلان بما أننى افهم الأمر ، فإننى لاألومه . وانا لم اقصد لومه ، ولكنى لم أكن أعرف أبداً ما حدث بالضبط » .

أظن أن مستر بيكر كان قد أعد افتتاحية . وبما أنه فقد فرصته ، فقد كان عليه ان يتلمس حواليه للحركة التالية . سعل ، وتمخط ثم مسح أنفه بمنديل من الورق من رزمة جيب مبططة ، ومسح عينيه بورقة ثانية ، ولمع نظارته بثالثة . ولكل شخص طريقته الخاصة لكسب الوقت ، وأعرف رجلاً يستغرق خمس دقائق ليعبىء غليونه ويشعله .

حين استعد ثانية ، قلت : « أعلم أنه ليس لى أى حق بينى وبين نفسى فى أن أسألك المساعدة . ولكنك أنت نفسك استرجعت شركة عائلتينا الطويلة» .

قال : «أناس طيبون . وغالباما كانوا رجالا ذوى تقدير ممتاز،ومحافظين» .

ــ « ولكنهم لم يكونوا عشوائيين أيضا ، ياسيدى . أعتقد أنهم كانوا إذا استقر رأيهم على طريق ما ، فإنهم كانوا يسيرون فيه » .

— « هذا ما كانوا يفعلون . »

— « حتى ولو أدى إلى إغراق عدو ـ أو إحراق سفينة ؟ »

— « كانوا مفوضين لفعل ذلك طبعاً . »

— « أعتقد ياسيدى ، أنه فى عام ١٨٠١ ، كانوا يسألون عما يشكل عدواً بالنسبة لهم . »

— « دائما مايعاد تعديل بعض الاصطلاحات عقب حرب . »

— « بالتأكيد . ولكننى لن أتعرض فى حديثى للموضوعات القديمة . بصراحة ، يامستر بيكر ، إننى أريد أن أسترد مركزى المالى . »

— « تلك هى الروح المعنوية ، ياإيثان . لقد اعتقدت لبعض الوقت أنك فقدت لمسة هولى العجوز . »

— « لقد فقدتها أو ربما لم أنمها . لقد عرضت المساعدة ، فمن أين أبدأ ؟ »

— « المشكلة هى ، أنك تحتاج رأس مال تبدأ به . »

— « أعرف ذلك . ولكن لو كان لدى بعض رأس المال ، فمن أين سأبدأ ؟ »

وقال : « لابد أن يكون هذا الحديث مملا بالنسبة للسيدات ـ ربما كان علينا أن نذهب إلى المكتبة . فالعمل شيء كئيب بالنسبة للسيدات . »

نهضت مسز بيكر : « لقد كنت على وشك أن أسأل مارى مساعدتى فى إنتقاء بعض ورق الحائط للمخدع الكبير . العيفات فى الطابق العلوى ، يامارى . »

— « أود أن تسمع مارى ـ »

ولكنها وافقتهما ، مثلما عرفت أنها ستفعل .

قالت : « أنا لا أعرف شيئا في الأعمال ، ولكنى أعرف في ورق الحائط . »

— « ولكن الأمر يخصك ، ياعزيزتى . »

— « إن الأمر يختلط على ، ياإيثان . أنت تعلم أن كذلك . »

— « ربما يختلط الأمر على أكثر بدونك ، ياعزيزتى » .

يحتمل أن يكون مستر بيكر هو الذى اقترح حكاية ورق الحائط . وأعتقد أن زوجته لاتختار الورق . فمن المؤكد أنه مامن امرأة اختارت الورق المعتم ذا الأشكال الهندسية للحجرة التى كنا نجلس فيها .

وبعد أن انصرفتا ، قال : « إذن ، مشكلتك هى رأس المال ، ياإيثان ، إن منزلك خال من الرهونات . تستطيع أن ترهنه . »

— « لن أفعل ذلك . »

— « حسنا . أستطيع أن أحترم ذلك ، ولكن هذا هو الرهن الوحيد الذى تملكه . هناك أيضا نقود مارى . إنها ليست كثيرة ، ولكنك ببعض النقود تستطيع أن تحصل على مزيد من النقود . »

— « لا أريد أن ألمس نقودها . فتلك هى ضمانها . »

— « إنها مودعة فى الحساب الجامد وهى لاتربح شيئا . »

— « فلتقل إننى تغلبت على حيرتى ، فما الذى يدور فى ذهنك ؟ »

— « هل لديك أية فكرة عن قيمة ميراث أمها ؟ »

— « كلا ــ ولكنه يبدو وافرا . »

نظف نظارته بعناية فائقة . « ماسأقوله مرتبط بأن يظل سرا . »

— « طبعا . »

— « من حسن الحظ أننى أعلم أنك لست ثرثاراً . وكذلك لم يكن أى فرد من آل هولى ، ربما باستثناء والدك . والآن ، إننى أعرف كرجل أعمال أن نيو باتيون توشك أن تنمو . ففيها كل مقومات النمو ـ ميناء ، شواطىء استحمام ، مياه جوفية . وإذا حدث أن بدأت نموها ، فلن يستطيع شىء أن يوقفها . وإن رجل أعمال طيب ليكون مديناً لهــذه البلدة بمساعدتها على التطور » .

— « والحصول على مكسب » .

— « طبعا » .

— « ولماذا ؟ ألم تنم حتى الآن ؟ »

— « أعتقد أنك تعرف سبب ذلك ـ الرجعيون الذين فى المجلس . إنهم يعيشون فى الماضى . وهم يعوقون التقدم » .

دائما ما كان يثير شغفى أن أسمع كيف يمكن أن يرتبط الحصول على ربح بحب البشرية . فلو جردنا المستر بيكر من نظرة التطلع إلى الأمام وثوب العمل لخير المجموع ، فإنه كان بالضبط ما اعتاد أن يكون . فهو وأقلية أخرى ، أقلية صغيرة جداً ، سوف يساندون إدارات البلدة الحالية حتى يشتروا ويسيطروا على كل التسهيلات فى المستقبل . وبعدئذ سوف يقلبون المجلس والعمدة ويتركون التقدم يسيطر ، وآنذاك فحسب سيتكشف أنهم كانوا يمتلكون كل منفذ يمكن للتقدم أن يأتى عن طريقه . ومن باب العاطفة المحضة ، رغب فى اشتراكى معهم نظير نصيب ضئيل . ولا أدرى ما إذا كان قد قصد أن يدعنى أعرف جدول الأعمال ، أو أن حماسه تغلب عليه ، ولكن الأمر جاء عن طريق التعميمات . فانتخابات البلدة تجرى فى السابع من يوليو . وعندما يحين ذلك الوقت ينبغى

على الجماعة المتطلعة إلى المستقبل أن تكون قد أمسكت بعجلة التقدم تحت سيطرتها .

أعتقد أنه لا يوجد ثمة رجل فى العالم لا يحب أن يقدم النصيحة . وكلما أصررت على إبداء بعض الملل زادت حمية أستاذى وتحديده للأمور .

قلت : « سيكون على أن أفكر فى الموضوع ، ياسيدى . إن ما يبدو سهلاً بالنسبة لك هو شىء غامض بالنسبة لى . وسيكون علىّ طبعاً أن أناقش الأمر مع مارى » .

فقال : « وذلك مكمن خطئك ، فلقد تزايد تدخل النساء كثيراً جداً فى الأعمال هذه الأيام » .

— « ولكنه ميراثها »

— « أفضل ما تستطيع أن تفعله من أجلها هو أن تجمع لها بعض النقود كمفاجأة . فهن يفضلنه هكذا » .

— « أتعشم ألا أبدو فى نظرك ناكراً للجميل ، يامستر بيكر . فإننى أفكر ببطء وسأمعن التفكير فى الموضوع فحسب . هل سمعت أن مارولو ذاهب إلى إيطاليا ؟ »

وصارت نظراته حادة « خيراً ؟ »

— « كلا ، مجرد زيارة » .

— « حسنا ، أتمنى أن يهيىء تدبيراً ما لحمايتك فى حالة إذا ما حدث له شىء ما . إنه لم يعد شاباً . هل كتب وصيته ؟ »

— « لا أدرى » .

— « لو جاءت شرذمة من أقاربه المهاجرين ، فربما تجد نفسك بدون وظيفة » .

وسكنت إلى غموض وقلت ، وقلت : « لقدقدمت لى أشياء كثيرة لأفكر فيها . ولكنى أتساءل إذا ما كان فى استطاعتك أن تقدم لى فكرة مبسطة عن موعد بدء العملية » .

— « أستطيع أن أقول لك هذا : النمو يعتمد إلى حد كبير جداً على المواصلات » .

— « حسنا ، ولكن طرق المواصلات الكبيرة أخذت تمتد إلى خارج البلدة » .

— « ولكن طريق المجىء إلى هنا لا يزال طويلاً . ونوع الرجال الذين معهم نمط النقود التى نريد أن نجتذبها سيودون المجىء بطريق الجو » .

— « ونحن لا نملك مطاراً ؟ »

— « هذا صحيح » .

— « والأكثر من ذلك ، أنه ليس لدينا مكان لإنشاء مطار دون إزاحة التلال المحيطة » .

— « عملية باهظة التكاليف . وستكون تكاليف العمل عائقاً » .

— « إذن ماهى خطتك ؟ »

— « إيثان ، عليك أن تثق بى وتسامحنى . لا أستطيع أن أخبرك بذلك فى الوقت الحاضر . ولكننى أعدك أنك لو استطعت أن تجمع بعضاً من رأس المال ، فسأعمل على أن أجعلك تصل إلى أدق الأسرار . وأستطيع أن أخبرك

أنه يوجد موقف حرج جدا ، ولكن ينبغى أن يحل » .

— « حسناً ، أظن هذه المعلومات أفضل مما أستحق » .

— « ينبغى على العائلات القديمة أن تتساند معاً » .

— « وهل مارولو جزء من المجموعة ؟ »

— « كلا بالتأكيد . إنه يتخذ طريقه الخاص مع جماعته الخاصة به » .

— « إنهم يسيرون فى توفيق كبير ، أليس كذلك » ؟

— « توفيق أكبر مما أعتقد إنه فى صالحهم . أنا لا أحب أن أرى أولئك الأغراب يزحفون وسطنا » .

— « والسابع من يوليو هو موعد الانطلاقة » .

— « هل قلت ذلك » ؟

— « كلا ، أظننى خمنته فحسب » .

— « لابد » .

ومع تلك الجملة عادت مارى من مهمة ورق الحائط وقدمنا واجبات الاحتفاء وسرنا فى بطء تجاه المنزل :

— « ماكان فى مقدورهما أن يكونا ألطف من ذلك . ماذا قال لك » ؟

— « نفس الشىء القديم . إنه ينبغى أن أستخدم نقودك لتكون لدى البداية ، وأنا لن أفعل ذلك » .

— «أعلم أنك تفكر فى ، ياعزيزى . ولكنى أرى أنك إذا لم تعمل بنصيحته فإنك تكون غبيا » .

— « أنا لا أميل إلى ذلك ، يامارى . افترضى أنه مخطىء . ستكونين بلا حمايته » .

— إننى أقول لك ، ياإيثان ، إنك إذا لم تفعل ، فسآخذ النقود وأسلمها إليه . أعدك أننى سأفعل » .

— « دعينى أفكر فى الأمر . إننى لاأريد توريطك فى العمل » .

— « ليس عليك أن تفعل . تلك النقود مودعة فى الحساب الجامد . وأنت تعرف ما تنبأ به الطالع » .

— «أوه ، ياإلهى – الطالع مرة أخرى » .

— « حسنا ، إننى أعتقد فيه » .

— « لوفقدت نقودك . فستكرهيننى» .

— « لن أفعل . وأنت نصيبى ، ذلك ماقالته مارجى »

— « ماقالته مارجى ، محفور فى دماغى ، بأحرف حمراء حتى يأخذنى الموت » .

— « لاتجعل الأمر نكتة » .

— « لعلنى لاأفعل . ولكن لاتدعى الطالع يفسد حلاوة فشلنا »

— « لاأفهم كيف يمكن لقليل من المال أن يفسد أى شىء . ليس الكثير من المال – بل مايكفى فحسب . » ولم أرد ، فسألت : « حسنا – هل تفهم أنت » ؟

وقلت : «يابنة الأمير ، لايوجد ثمة شىء يسمى ، مايكفى من النقود فحسب . هناك معياران فحسب : لانقود ، أو نقود دون الكفاية» .

— « ذلك ليس صحيحاً » .

— « بل صحيح . أتذكرين بليونير تكساس الذى مات حديثاً ؟ كان

يعيش فى غرفة بفندق ولايمتلك سوى حقيبة ملابس . لم يترك وصية ، ولاورثة ولكنه لم يملك القدر الكافى من النقود — وكلما زاد ماتملكيه ؛ قلت كفايته » .

قالت ساخرة : « أعتقد أنك تجدها خطيئة بالنسبة لى أن أرغب فى ستائر جديدة لحجرة الجلوس ، وسخان من الكبر بحيث يكفى لكى يستطيع أربعة أشخاص أن يستحموا فى نفس اليوم ، ولكى أستطيع غسل الصحاف أيضاً » .

— « إننى لم أتعرض للخطيئة ، أيتها السجانة ، بل كنت أقرر حقيقة ، قانونا من قوانين الطبيعة » .

— « يبدو أنك لاتكن أى احترام للطبيعة البشرية » .

— « إنها ليست الطبيعة البشرية ، ياعزيزتى مارى — بل الطبيعة المطلقة . السناجب تختزن عشرة أضعاف مايمكنها أن تستعمله من حبات الجوز . والسنجاب ذو الفم الواسع ، معدته الممتلئة إلى حد الانفجار ، يظل يحشوشدقيه ليصيرا كالحقائب . وكم من العسل الذى تجمعه النحلة الذكية ، تأكله النحلة الذكية » ؟

حينما يختلط الأمر على مارى أو ترتبك ، فإنها تنفث غضبها بنفس الطريقة التى ينفث بها الأخطبوط الحبر ، ثم تختفى فى سحابته المظلمة .

قالت : « إنك تضايقنى . أنت لا تستطيع أن تدع أى إنسان يتمتع بقليل من السعادة» .

— « ياعزيزتى ، الأمر ليس كذلك . إن ما أخشاه هو التعاسة اليائسة ، الرعب الذى تجلبه النقود ، والانزعاج والحسد . »

ولابد أنها كانت تخشى نفس الشىء دون أن تدرى . وسددت إلى

ضربتها ، تحسست مكاناً مؤلماً ، ووجدته وأدارت فيه كلماتها المسنونة : « هاهو ذا موظف فى محل بقالة لايملك شروى نقير أصابه الانزعاج مما سيكون عليه حاله حين يصير غنيا . أنت تتصرف كما لو كنت تستطيع أن تلتقط ثروة فى أى وقت تشاء . »

— « أحسبنى أستطيع ذلك . »

— « كيف ؟ »

— « ذلك هو مثار القلق . »

— « إنك لا تعرف كيف ، وإلا لفعلت من قبل . إنك تخادع فحسب وأنت دائما تخادع . »

تعمد التجريح يثير الغضب . وكنت أستطيع الإحساس بالحمى تنمو بداخلى . كانت الكلمات القبيحة ، الخانقة تتحرك إلى أعلى كالسم . وأحسست بكراهية مريرة .

قالت مارى : « انظر . هاهى ذى تذهب إلى هناك . هل رأيتها ؟ » .

« أين ؟ ماذا » ؟

— « ذهبت هناك خلف الشجرة مباشرة ثم دخلت فناءنا » .

— « ماذا كانت ، يامارى ، أخبرينى . ماذا رأيت » .

ورأيت ابتسامتها فى الغسق ، تلك الابتسامة النسائية التى لاتصـــدق . إنهم يسمونها حكمة ، ولكنها ليست كذلك ، بل هى أقرب إلى إدراك يجعل الحكمة بلا ضرورة .

— « إنك لم تر أى شىء ، يامارى » .

— « رأيت مشاجرة ـ ولـكنها ذهبت بعيداً » .

وضعت ذراعى حولها وأدرتها ناحيتى . « فلنذهب حول البناية قبل أن ندخل » .

أخذنا نسير الهوينا فى جوف الليل ولم نتـكلم ثانية ، فلم تـكن بنا حاجة للـــكلام » .

الفصل الثامن

عندما كنت طفلا كنت أصطاد المخلوقات الصغيرة وأقتلها فى نشاط ومرح. كانت الأرانب والسناجب ، والطيور الصغيرة ، ثم مؤخراً البط والأوز البرى تهوى مصطدمة بالأرض ، وهى حطام متفضن، وربما كنت مثل طفل زاد انغماسه فى هذا . كان يحيط بالأمر ثمة إبداع وحشى ليس فيه كراهية أو حقد أو شعور بالذنب . وحدّت الحرب من شهيتى للتدمير ، وربما كنت مثل طفل بالغ فى الانكباب على الحلوى . ولم يعد صوت انطلاق بندقيته سريعة الطلقات صرخة سعادة وحشية .

ومع بداية هذا الربيع أخذ زوج من الأرانب السمينة يقوم بزيارات يومية لحديقتنا وكان يحب أكثر مايحب زهور القرنفل التى لمارى العزيزة ، وكان يأكلها حتى تويجاتها الغضة .

وقالت مارى : « عليك أن تتخلص منها » .

وأحضرت بندقيتى من عيار (١٢) ، وكانت لزجة من الشحم ، ثم وجدت بعض الرصاصات القديمة السميكة مركبة على طلقات نمرة (٥) . وعند المساء جلست على الدرجات الخلفية وحين صار الأرنبان فى خط واحد نسفتهما كليهما بطلقة واحدة . وبعدئذ دفنت الحطام ذا الفراء تحت شجرة الليلق الضخمة ، وأنا أشعر بالتعاسة فى معدتى .

كان الأمر ببساطة أننى صرت غير معتاد على قتل الأشياء . ويمكن للمرء أن يعتاد أى شىء . الذبح أو الدفن أو حتى الإعدام ، ولاريب أن عملية التعذيب بجذب الأطراف ، تصير مجرد وظيفة حين يعتادها المرء .

وحين ذهب الأطفال إلى فراشهم قلت : « إننى خارج بعض الوقت »
لم تسأل مارى أين أو لماذا ، مثلما كانت تفعل منذ بضعة أيام مضت .

— « هل ستتأخر ؟ »

— « كلا ، لن أتأخر »

قالت : « لن أبقى مستيقظة ، فإنى نعسانة » . قالتها . وبدا أنها حين قبلت اتجاهاً ما ، كانت قد قطعت فيه شوطاً أبعد منى . كنت لا أزال أشعر بالأسى من أجل الأرانب . وربما يكون الوضع الطبيعى بالنسبة للرجل الذى يكون قد دمر شيئاً ما ، أن يحاول استعادة اتزانه بخلق شىء ما . ولكن هل كان ذلك هو دافعى ؟

تلمست طريقى إلى داخل الكوخ ذى الرائحة المتنة الذى يعيش فيه دانى تيلور . كانت هناك شمعة تحترق فى طبق إلى جوار فراشه العسكرى .
كان دانى فى حالة سيئة ، أزرق اللون ، هزيلاً ومريضاً . وكان لبشرته لمعان الزنك . كان من الصعب ألا يتقزز المرء من الرائحة التى تنبعث من المكان لقذر والرجل القذر ، وهو تحت غطائه القذر . كانت عيناه مفتوحتان وتتوهجان توقعت منه أن يهذى فى غيبوبة ، ولكنى صدمت حين تكلم بوضوح وبنغمة طريقة دانى تيلور .

— « ما الذى تريده هنا ، يا إيث ؟ »

— « أريد أن أساعدك »

— « أنت تعلم أن هناك خيراً من ذلك »

— « إنك مريض ».

— « أتظننى لاأعرف ؟ إننى أعرفه خيراً من أى شخص آخر » . وتحسس خلف فراشه وأتى بزجاجة « اولدفورستر » مملوءة إلى ثلثها . « أتريد جرعة ؟» .

— « كلا ، ياداني . ذلك ويسكى غالى الثمن » .

— « لى أصدقاء » .

— « من أعطاها لك ؟ »

— « ليس ذلك من شأنك ، ياإيث . » أخذ جرعة ووضعها إلى أسفل ، ولكنها ظلت غير مستقرة لحظة . وبعدئذ ارتد لونه إليه . وضحك . « كان صديقى يريد الكلام فى الأعمال ولكننى خدعته . زغت قبل أن يستطيع الكلام فى الموضوع . لم يكن يعلم مقدار الوقت القصير الذى يستغرقه الزوغان . أتريد الكلام فى الأعمال، يا إيث ؟ إننى أستطيع الزوغان بسرعة مرة ثانية ».

— « هل تشعر ناحيتى بأى شعور ، ياداني ؟ أية ثقة ؟ أى — حسناً ، شعور ؟ »

— « بالتأكيد ، ولكن حين يصل الأمر إلى ذلك الحد أكون سكيراً ، والسكير يكون أقوى شعوره متجها للشراب »

— « لو استطعت أن أهيىء النقود ، فهل تبحث لك عن علاج ؟ »

كان الشىء المخيف هو مدى السرعة التى انقلب بها عادياً وبسيطاً و — مثل نفسه . « قد أقول إننى سأفعل ، يا إيث . ولكنك لا تعرف مدمنى الخمر . سآخذ النقود وأشرب بها » .

— « حسنا ، افترض أننى دفعتها للمستشفى مباشرة ، أو لأى مكان آخر ».

— «إننى أحاول أن أقول لك . سأتمشى مع أنبل المقاصد ، وفى خلال بضعة أيام سأتهرب منها إنك لا تستطيع أن تثق بسكير ياإيث، ذلك هو مالا تستطيع

فهمه . دون ما اهتمام بما فعلت أو قلت ـ سأظل أتهرب »

— « هل تريد أن تتخلص من هذا الوضع ، ياداني ؟ »

— «أحسبني لا أريد. وأظنك تعرف ماأريد .» ورفع الزجاجة ثانية ، وعجبت مرة أخرى لسرعة رد الفعل . لم يعد داني القديم الذي عرفته فحسب . ولكن حواسه وإدراكه صارا حادين ، كان من الشفافية فعلاً بحيث قرأ أفكاري . وقال . « لاتثق بهذه اليقظة ، إنها تستغرق القليل من الوقت فحسب فالكحول ينعش ثم بعد ذلك يصيب بالكآبة . وأتمنى ألا تبقى هنا لترى ذلك . في هذه اللحظة بالذات ، لا أصدق أنه سيحدث . ولا أصدق أبداً حين أكون منتبهاً .

ثم تطلعت إلى عيناه ، نديتين لامعتين في ضوء الشمعة وقال : « إيثان ، لقد عرضت أن تدفع لشفائي ، وأنت لا نقود لديك ، ياإيثان . »

— « أستطيع الحصول عليها ، فقد ورثت ماري بعض المال عن أخيها . »

— « وأنت ستعطيني تلك النقود ؟ »

— « أجل ».

« حتى رغم قولي لك ألا تثق أبداً في سكير ؟ حتى حين أؤكد لك أنني سآخذ نقودك ثم أحطم قلبك . »

— « أنت الآن تحطم قلبي ، ياداني . لقد رأيت حقاً يتعلق بك . كنه هناك في المكان القديم ـ أتذكره . »

رفع الزجاجة ثم وضعها على الأرض وهو يقول : « كلا ، ليس بعد ـ ليس بعد . إيث ـ أبداً ـ أبداً لا تثق في سكير . فحينما يكون ـ حينما أكون ـ فظيع ـ شيئاً ميتاً ـ فلا يزال يوجد عقل ذكي خفي يعمل ، وهو ليس عقلاً

صديقاً . فالآن تماماً ، وفى هذه اللحظة بالذات ، أنا رجل كان صديقك . لقد كذبت عليك بشأن أننى زغت . أوه ، لقـد زغت فعلاً ، ولـكنى أعرف ما وراء الزجاجة » .

وقلت : « انتظر ، قبل أن تمادى إلى أبعد من ذلك ، وإلا فسيبدو الأمر — حسناً ، ربما تنتابك الظنون بى ، لقد كان بيكر هو الذى أحضر الزجاجة ، أليس كذلك ؟ »

— « أجل » .

— « وأراد منك أن توقع على شىء ما » .

— « أجل ، ولـكنى زغت » . وضحك لنفسه ضحكة مبحوحة ثم رفع الزجاجة إلى شفتيه مرة أخرى ، ولـكنى فى ضوء الشمعة رأيت أصغر فقاعة . لقد تناول نقطة فحسب .

— « ذلك أحد الأشياء التى أريد أن أخبرك بها ، يا دانى . هل كان ما أراده المـكان القديم ؟ » .

— « أجل » .

— « وكيف حدث أنك لم تبعه » ؟

— « أعتقد أننى أخبرتك . إنه يجعلنى سيداً ، وإن كان يفتقد سلوك السيد فحسب » .

— « لا تبعه ، يا دانى . تمسك به » .

— « وماذا يعنيك فى الأمر ؟ ولم لا أبيعه » ؟

— « من أجل كبريائك » .

— « لم يعد متبقياً لى أية كبرياء ، إنه وضع فحسب » .

— « بلى ، لديك كبرياء . فحين طلبت منى نقوداً ، كنت خجلاً . وذلك يعنى الـكبرياء » .

— « كلا ، لقد أخبرتك . تلك كانت خدعة . إنى أقول لك إن مدمنى الخمر أذكياء . لقد ارتبكت ، وأعطيتنى دولاراً لأنك حسبتنى خجلاً . كنت أريدشراباً فحسب » .

— « لا تبعه ، يا دانى . إنه مكان قيم . وبيكر يعلم هذا . إنه لا يشترى أى شىء لا تـكون له قيمة » .

— « وما القيم فيه » ؟

— « إنه المـكان الوحيد القريب من هنا ، والمسطح بما يكفى لإنشاء مطار » .

— « أفهم » .

— « لو احتفظت به ، فيمكن أن يكون بداية كاملة بالنسبة لك يا دانى . تمسك به . باستطاعتك أن تبدأ العلاج وحين تخرج سيكون لديك عش ملىء بالبيض » .

— « ولـكن لن تتوفر لى الراحة . لعله من الأفضل أن أبيعه وأشرب بثمنه ثم — « حين ينـكسر الغصن سيسقط المهد ، وإلى أسفل سيهوى الطفل والمهد وكل شىء » كان يغنى بصوت حاد و يضحك . « أترغب فى المـكان يا إيث ؟ ألهذا السبب جئت إلى هنا ؟ » .

— « ما أرغب فيه هو أن تـكون بخير » .

— « إننى بخير » .

— « أريد أن أشرح لك الأمر ، يا دانى . لو أنك صعلوك ، لاستطعت أن تـكون حراً فى فعل ما تشاء . ولـكنك تمتلك شيئاً ترغبه وتحتاجه

مجموعة من المواطنين المتطلعين إلى المستقبل » .

— « مرجة تيلور . وأنا أنوى التمسك بها . إننى الآخر متطلع إلى المستقبل » .

وتطلع فى وله إلى الزجاجة .

— « دانى ، لقد أخبرتك . إنها المكان الوحيد الصالح لإقامة مطار . إنها مكان أساسى . عليهم أن يمتلكوها — إما ذلك و إما أن يسووا التلال ، وهم لا يستطيعون تحمل تكاليف ذلك » .

— « إذن فأنا أمسكهم من خناقهم ، و إنى أنوى أن ألوى » .

— « لقد نسيت ، يا دانى . إن رجلاً ذا ممتلكات ، وعاء ثمين . لقد سمعت لتوى أن أكثر عطفهم عليك سيكون وضعك فى إصلاحية حيث ستلقى العناية التى تحتاجها »

— « إنهم لن يجسروا » .

— « أوه ، بلى إنهم سيجسرون وسيحسون ببرهم من أجل ذلك . إنك تعرف العملية . فالقاضى ، وأنت تعرفه ، سيحكم عليك بأنك غير أهل لإدارة ممتلكات . وسيعين وصياً ، وباستطاعتى أن أخمن من سيكون . وهذا كله سيكون باهظ التكاليف ، وهكذا ستباع ممتلكاتك طبعاً لدفع النفقات ، وأضمن أيضاً من سيكون موجوداً لشرائها »

كانت عيناه تتألقان ، وكان ينصت وقد فغر فاه ، كان الآن يتطلع بعيداً .

— « أنت تحاول أن تخيفنى ، يا إيث . لقد اخترت وقتاً غير مناسب . تصدنى فى الصباح حين أكون بردانا والعالم أمامى قيىء أخضر . أما فى هذه اللحظة بالذات — فإن قوتى تعادل قوة عشرة لأن الزجاجة هنا » . ولوح بها كالسيف وصارت عيناه كـكوتين تتألقان فى ضوء الشمعة .

« هل قلت لك يا إيث » ؟ أظنني فعلت - إن للسكير نوعاً خاصاً من الذكاء الشرير » .

— « ولكنني أخبرتك بما سوف يحدث » .

— « أوافقك ، وأعلم أنه صواب . لقد حددت هدفك . ولكنك بدلاً من أن تخيفني ، أيقظت في شيطاني . ان من يظن أن السكير عاجز لهو أحمق . إن السكير عربة خاصة جداً ولها قدراتها الخاصة . أستطيع أن أبادل القتال ، ويبدو أنني الآن بالذات أريد ذلك » .

— « يا للفتى الرائع . ذلك هو ما أود أن أسمع » .

صوب إلى عنق زجاجة الويسكي وكأنها حبة التصويب التي تكون في نهاية البندقية .

— « أنت ستقرضني نقود ماري ؟ »

— « أجل » .

— « دون ما أي ضمان » .

— « أجل »

— « مع علمك أن فرصة استردادها واحد في الألف » ؟

— «أجل » .

— « ثمة شيء قيم يرتبط بالسكير ، يا إيث وهو أنني لا أصدقك » ولعق شفتيه الجافتين .

— « هل ستضع النقود بين يدي » ؟

— « وقتما تقول » .

— « لقد قلت لك ألا تفعل » .

— « ولكنى سأفعل » .

فى هذه المرة أمال الزجاجة للخلف وارتفعت الفقاعة الكبيرة داخل الزجاج وحين توقف عن الشرب ، كانت عيناه ، قد ازدادتا لمعاناً ، ولكنهما كانتا باردتين ومبهمتين مثل عينى حية . « أنستطيع الحصول على النقود هذا الأسبوع ، ياإيث ؟ » .

— « أجل » .

— « هل معك الآن دولاران ؟ »

كان ذلك ما معى بالضبط ـ ورقة من فئة الدولار ، ونصف ، وربع وقطعتان من فئة العشرة سنتات وقطعة من فئة الخمسة سنتات ، ثم ثلاث قطع من فئة السنت . وصببتها فى يده الممدودة .

أفرغ الزجاجة وأسقطها على الأرض : « إننى لم أضعك أبداً فى عداد الأذكياء ياإيث . هل تعلم أن مجرد العلاج الأساسى سيتكلف حوالى ألف دولار ؟ » .

— « حسناً » .

— «هذه مهزلة ياإيث . ليس لعب شطرنج ، إنه لعب بوكر . وقد اعتدت أن أكون بارعاً جداً فى البوكر ـ بارعاً جداً . إنك تتعشم أن أجعل من مرجتى رهناً . كما أنك تتعشم أن ماقيمته ألف دولار من الشراب سوف يقتلنى ، وهكذا سيكون لك مطار مالك يمينك » .

— « ذلك شىء قذر ، ياداني »

— « لقد حذرتك من أننى قذر »

— « ألا تستطيع أن تظن أننى قصدت نفس ماقلت » ؟

— « كلا . ولكن لدى وسيلة لكى ـ أبقى الأمر كا قلت . أنت تتذكرنى فى الأيام الخوالى ، ياإيث أتظننى لاأتذكرك ؟ كنت الصبى ذا القاضى القابع فى داخله . حسناً بدأت أشعر بالظمأ ، والزجاجة فارغة . إننى خارج . ثمنى ألف دولار » .

— « حسناً » .

— « نقداً يوم الأربعاء » .

— « سأحضرها » .

— دون ملحوظة ، ودون توقيع ودون أى شىء . ولاتظن ، ياإيثان ، أنك تتذكرنى كما كنت فى الأيام الخوالى . لقد غير صديقى الذى هنا كل ذلك . لاإخلاص عندى ، ولااستقامة . ولن تحصل على أى شىء ، سوى ضحك من القلب » .

— « سأطلب منك فحسب أن تحاول » .

— « بالتأكيد ، سأعدك بذلك ، ياإيث . ولكننى آمل أن أكون قد أقنعتك بقيمة وعد سكير . عليك فحسب أن تحضر النقود . ابق طالما تشاء ، فبيتى بيتك . إننى خارج ، وسأراك يوم الأربعاء ، ياإيث . » رفع نفسه خارجاً من فراش الجندية العتيق ، وقذف الغطاء خلفه ، وسار إلى الخارج فى خطو مترنح لم تكن سوستة سرواله مقفولة .

جلست لحظة أرقب الشمعة وهى تذوب وتتقطر فى الدهن الذى بالطبق . كان كل ماقاله صحيحاً . ماعدا شيئاً واحداً كنت قد راهنت عليه لم يكن قد تغير إلى ذلك الحد الكبير . ففى مكان ما من الحطام ، كان يوجد دانى تيلور لم أصدق أنه يستطيع أن يستأصل دانى ، كنت أحب دانى وكنت على استعداد

لـكى ـ لـكى أفعل ماقاله بالضبط . كنت فعلاً على استعداد . ومن مبعدة سمعته يغنى فى صوت رائق مرتفع من طبقة الفالستو :

أسرع ، أيها المركب الأنيق ، كطائر فرد الجناح .

« إلى الامام » يصيح بها الملاحون .

واحمل الغلام الذى ولد ليكون ملـكا

على البحر والسماء .

* * *

بعد لحظة موحشة نفخت الشمعة ثم سرت إلى البيت عن طريق شارع هاى لم يـكن ويلى قد نام بعد فى سيارة البوليس .

قال : « يبدو لى أنك تخرج كثيراً ، ياإيث » .

— « أنت أدرى بالسبب » .

— « بالتأكيد . إنه الربيع ، حلم الشباب » .

كانت مارى نائمة ، وهى تبتسم ، ولـكنى حينما دلفت إلى جوارها ، استيقظت نصف يقظة . كان الأسى فى معدتى — الأسى البارد ، المؤلم . واستدارت مارى على جنبها وضمتنى إليها وكنت فى أشد الحاجة إليها . كنت أعلم أن الأسى سيقل ، ولـكنى الآن بالذات كنت أحتاج إليها . ولا أدرى ما إذا كانت قد استيقظت فعلاً ، ولـكنها حتى فى أثناء نومها كانت تحس بوجودى .

بعد ذلك استيقظت ، وقالت : « أعتقد أنك جوعان » .

— « أجل ياهيلين » .

— « ماذا تريد » ؟

— « سندويتش بالبصل ـ كلا ، سندويتشين بالبصل فى خبز الشعير » .

— « سيكون على أن آخذ واحداً لأجاريك » .

— « ألا تريدين واحداً ؟ »

— « طبعاً » .

نزلت السلم فى خفة وعادت فى فترة وجيزة ومعها الشطائر وعلبة ابن من الورق المقوى وكوبان .

كان بصلاً حاراً جداً ، وبدأت قولى : « مارى » ..

— « انظر حتى تبلع » .

— « هل تعنين بذلك أنك لا تريدين معرفة أمور الأعمال ؟ »

— « طبعاً ـ أجل » .

— « حسناً ، عندى مشروع ، وأريد ألف دولار » .

— « أكان ذلك شيئاً مما قاله لك مستر بيكر ؟ »

— « بشكل ما . ولكنه سرى أيضاً » .

— « حسناً ، عليك فحسب أن تكتب شيكاً » .

— « كلا ، ياعزيزتى ، أريد منك الحصول عليه نقداً . ولا بأس من أن تذيعى فى المصرف أنك تشترين أثاثاً جديداً أو سجاداً أو شيئاً ما » .

— ولكنى لا أفعل ذلك » .

— « ستفعلين » .

— « هل هو سر ؟ »

— « لقد قلت إنك تريدين الأمر على تلك الصورة » .

— « أجل ـ حسناً ـ إننى أريده فعلاً . إنه أفضل بتلك الصورة . هذه

بصلة حارة . وهل سيوافق مستر بيكر على مشروعك ؟ »

— « سيوافق عليه ، لو قام هو بتنفيذه » .

— « ومتى تريدها ؟ »

— « غداً » .

— « لا أستطيع أكل هذه البصلة . أحسب أن رائحتى قد صارت كريهة الآن بما فيه الكفاية » .

— « إنك حبيبتى » .

— « لا أستطيع فهم مارولو » .

— « ماذا تعنين ؟ »

— « مجيئه إلى المنزل ، وإحضاره الحلوى » .

— « إن الرب يعمل بطريقة غامضة » .

— « والآن لا تسخر من المقدسات . فعيد القيامة لم ينقض بعد » .

— « بلى ، لقد انقضى ، فالساعة الآن الواحدة والربع » .

— « يا إلهى الرحيم . يجدر بنا أن ننام » .

— « آه . تلك هى المضايقة ـ نقلاً عن شيكسبير » .

— « أنت تجعل من أى شىء نكتة » .

ولكنها لم تكن نكتة . بقى الأسى ، لم أكن أفكر فيه ولكنه أخذ يغيض ، وأحياناً كنت أسائل نفسى ، لم آتألم ؟ يستطيع الرجال أن يعتادوا أى شىء ، ولكن الأمر يستغرق وقتاً . فذات مرة منذ زمن بعيد ، اشتغلت بوظيفة سائق أحمل النيتر وجلسرين فى مصنع ديناميت . كان الأجر عالياً لأن المادة خداعة . وفى بداية الأمر كنت أجزع مع كل خطوة أخطوها ، ولكن فى

خلال أسبوع أو حوالى ذلك صار الأمر مجرد وظيفة . أجل ، لقد اعتدت حتى العمل كموظف فى محل بقالة . يوجد ثمة شيء مرغوب فى أى شيء اعتدته حين تقارنه بشيء لم تعتده .

فى الظلام والبقع الحمراء تسبح فى عينى ، سألت نفسى عما اعتادوا أن يسموه أمور الضمير ، ولم أستطع أن أجد أى جرح . وتساءلت عما إذا كنت أستطيع ، بعد أن خططت طريقى ، أن أغير الاتجاه أو حتى أرجع البوصلة تسعين درجة ، وفكرت فى أننى كنت أستطيع ذلك ، ولكنى لم أرغب فيه .

كان لدى بعد جديد ، وكنت مأخوذاً به . كان الأمر كأنه اكتشاف مجموعة من العضلات غير المستعملة ، أو كأن حلم الطفولة بقدرتى على الطيران قد تحقق . وغالباً ما أستطيع إعادة تمثل الأحداث ، والمناظر ، والمحادثات ، ثم أختار من بين التفصيلات المتقهقرة التى هربت منى فى العرض الأول .

كانت مارى تجد غرابة فى مجىء مارولو إلى المنزل بحلوى البيض ، وأنا أثق فى إحساس مارى بالغرابة . وكنت قد فكرت فى الأمر على أنه نوع من تقديم الشكر لأننى لم أخدعه . ولكن سؤال مارى جعلنى أعيد الفحص بحثاً عن شيء أعرفه ولكنه فاتنى .

إن مارولو لا يكافئ على أشياء مضت ، إنه يرشو لأشياء قادمة . وهو لم يكن راغباً فىّ إلا بقدر ما يمكننى أن أكون ذا نفع بالنسبة له . واسترجعت تعليماته بشأن التجارة والحديث عن صقلية . لقد فقد ثقته فى مكان ما . كان يرغب بشكل ما فى شيء منى أو كان يحتاج إلى شيء ، وكانت هناك وسيلة لاكتشاف ذلك . فلو أننى طلبت منه شيئاً ، ثم رفض كالعادة ، وبعد ذلك أحصل منه عليه ، فإننى كنت أعرف عندئذ أنه فقد إتزانه وأنه منزعج إلى حد

كبير . تركت مارولو جانباً واتجهت إلى مارجى . مارجى - ذلك يعطيك فكرة عن عمرها . « مارجى ، إننى دائماً أحلم بك ، يامارجى . إننى أهب العالم نظير ...»

أعدت تمثل مناظر مارجى فوق البقع السابحة على السقف ، محاولاً ألا أضيف أية زيادة عما هو موجود حقاً . خلال مدة طويلة ، ربما عامين ، كانت توجد ثمة مسز هنت التى هى صديقة لزوجتى ، ولم أكن أصغى لأى جزء من الحديث الدائر بينهما . وفجأة بعد ذلك ، برزت مارجى يانج هنت ، ثم بعد ذلك مارجى . ولا بد أنها جاءت إلى المحل قبل يوم الجمعة الحزينة ، ولكنى لم أستطع تذكر هذا . ففى ذلك اليوم بدأ الأمر وكأنها تعلن عن نفسها . وقبل ذلك يحتمل أنها لم ترنى أكثر مما كنت أراها . ولكنها منذ ذلك الوقت فصاعداً صارت حاضرة — فى كل مناسبة ـ محركة ومسببة للارتجاف ماذا كانت تريد ؟ هل من الممكن أن يكون الأمر معاكسة بريئة خالصة من امرأة ليس أمامها سوى القليل جداً لتفعله ؟ أم أنها كانت تتحرك تبعاً لخطة ؟ كان يبدو لى أنها قد أعلنت عن نفسها إلىّ — جعلتنى أشعر بوجودها وأبقتنى قلقاً من ناحيتها . بدا لى أنها بدأت قراءة الطالع ثانية ، بإيمان خير ، قاصدةً أن تجعل منه عرضها المعتاد ، بما فيه من صقل واحتراف . ثم حدث شىء ما ، شىء مزق هذا الإيمان تماماً . فلم تقل لها مارى ما يسبب لها التوتر ، وكذلك لم أفعل أنا . هل رأت حقيقة ، رؤيا الحية؟ سيكون هذا أبسط التفسيرات وربما أصدقها . ربما كانت حقا ذات بصيرة ، داخلية على عقول الآخرين . وقد جعلتنى حقيقة أنها أمسكت بى فى منتصف طريق تحولى ميالاً لتصديق هذا ، ولكن يحتمل أنها كانت مصادفة . إذن ما الذى جعلها تهرع إلى مونتك حين لم تكن تقصد الذهاب ، ألتلحق بالبائع

المتجول ، أم لتستكشف الأمر لمارللو ؟ على أية حال لم أصدق أنها تبوح بأشياء لم تتعمد البوح بها . فى مكان مامن صناديق الكتب التى فى السندرة كانت هناك قصة حياة من — أكان اسمه بيرنج ، كلا ، باراوف إسكندر بارانوف ، الحاكم الروسى فى مكان ماحوالى عام ١٨٠٠ . وربما يوجد ثمة ذكر لألاسكا على أنها كانت سجنا للساحرات . كانت قصة مارجى بعيدة الاحتمال جداً . ينبغى أن أراها . وفكرت فى أننى قد أستطيع الزحف إلى أعلى هناك الآن دون أن أوقظ مارى .

حينئذ سمعت صريراً على درجات السلم البلوطى العتيق ، ثم صريراً ثانياً وثالثاً ، وهكذا عرفت أنه لم يكن استقراراً للبيت ناجماً عن تغيير درجة حرارة الجو ! بل لا بد أنها إيلين تسير فى نومها .

إننى طبعاً أحب ابنتى ، ولكنها أحيانا تخيفنى ، لأنها تبدو وكأنها ولدت ذكية ، وفى نفس الوقت غيورة ومحبة . كانت دائما تغار منى. بدا لى أن انشغالها بأمور الجنس بدأ فى سن مبكر جدا ، ولعل ذلك هو شعور الآباء دائماً . فحينما كانت فتاة صغيرة جداً ، كان شغفها الذى لايحد بشئون الجنس الآخر محيراً . وبعدئذ سرت فى سر التحول الجسدى ، وهنا لم تكن توجد ثمة فتاة ملائكية طاهرة مثلما يوجد فى المجلات . بل كان البيت يغلى من العصبية والجدران تهتز من القلق . لقد قرأت أن الفتيات البالغات فى العصور الوسطى كن يعتبرن عرضة لممارسة السحر . وأنا غير متأكد أن الأمر ليس كذلك . فلفترة ما وجد لدينا ما سميناه على سبيل المزاح الشبح المثير للشغب . كانت الصور تسقط من علاقاتها ، والصحاف تقذف إلى الأرض . وكان يوجد دق فى السندرة ، وطرق فى البدروم . ولا أدرى ماذا كان سبب ذلك ، ولكن اهتمامى بالموضوع

كان كافياً لـكى أبقى عينى على إيلين ، وعلى حضورها وانصرافها الخفى - كانت تشبه قطة ليلية وأقنعت نفسى بأنها ليست مسئولة عن السقوط والتحطيم والدق والطرق ، ولـكنى وجدت أيضا أن هذه الأشياء لم تـكن تحدث أبداً حينما تـكون خارج المنزل . ربما كانت تجلس وهى تحدق فى الفراغ حين يأتى الشبح المثير للشغب ، ولـكنها كانت دائماً موجودة عند حضوره .

وأذكر أننى سمعت فى طفولتى أن بيت آل هولى العتيق مسكون منذ فترة طويلة بروح أحد أسلافنا من القراصنة الطهوريين ، ولـكن ، تبعاً للحكايات فإنه كان روحاً مهذباً يسير ويتجول ويئن كما ينبغى . كانت الدرجات تصر تحت وزنه غير المرئى وكان يدق على الجدار حين كانت ثمة وفاة وشيكة الوقوع . كانت كل تصرفاته سليمة كلها ذوق . أما الشبح مثير للشغب فـكان شيئاً مختلفاً تماماً — حقوداً ، وخبيثاً ، ومشا كساً ، ومنتقماً . فهو لم يكسر أبداً شيئاً غير ذى قيمة . وبعدئذ غادرنا . وأنا لم أصدق إطلاقاً بحقيقة وجوده . كان نكتة العائلة ، فيما عدا أنه كان موجوداً هناك ، وهناك كانت توجد الصور المحطمة والخزف المبعثر .

حين غادرنا ، بدأت إيلين السير فى نومها ، كما تفعل الآن . كان باستطاعتى أن أسمع خطواتها البطيئة الواثقة من نفسها وهى تهبط السلم . وفى نفس الوقت تنهدت عزيزتى مارى فى عمق وغمغمت وهى إلى جوارى . وقفزت نسمة فحركت على السقف ظلال الأغصان المورقة .

انزلقت بهدوء من الفراش وانسللت داخل ثوب حمامى ، لأننى ، مثل أى شخص آخر كنت أومن أن من يسير فى نومه ينبغى عدم إزعاجه وإيقاظه .

قد يبدو من هذا أننى لم أكن أحب ابنتى ، ولـكنى أخافها نوعا ما لأننى لا أفهمها .

لو أنك استعملت درجاتنا قرب نهايتها من جهة الحائط ، فإنها لا تصر . وقد اكتشفت ذلك حين كنت صبيا أجيد التسلل وأنا آت إلى البيت من عند الأسوار الخلفية للبلدة . ولا أزال أستخدم معرفتى عند ما لا أرغب فى إزعاج مارى . واستخدمتها الآن — تحركت فى سكون نازلاً على الدرج وأنا أسحب أصابعى على الحائط كمرشد لى . كان هناك ضوء سفلى معتم كالدانتيل ينفذ من الجانب الذى فيه مصباح الشارع ثم يتبدد إلى شبه ظلمة بعيداً عن النافذة . ولـكنى استطعت رؤية إيلين . و بدت وكأن لها وميضاً ، ربما بسبب رداء نومها الأبيض . كان وجهها يحجبه الظل ، ولـكن ذراعيها ويديها كـانت تلتقط الضياء . كـانت تقف عند الدولاب ذى الواجهة الزجاجية حيث تحفظ كـنوز العائلة التى لا قيمة لها ، أوانى العاج المحفور ، ونماذج الحيتان التى تنتج دهن القيطس والقوارب كـاملة بمجاذيفها وحديدها و بحارتها ، وحربة صيد الحوت فى مقدمتها — وجميعها منحوتة من أسنان الحيتان التى تشبه العظم ومن أنياب فيل البحر ، ونموذج مصغر للسفينة « بيل آدير » بطلائها اللامع ، وقد علا التراب أشرعتها الطويلة وحبالها البنية اللون . وكانت توجد بالدولاب قطع من التحف الصينية التى أتى بها القباطنة القدامى من الشرق بعد أن جردوا المنطقة الصينية من حيتان القيطس ، قطع ونتف صغيرة ، من العظم والعاج ، آلهة ضاحكة وجادة ، تماثيل لبوذا ، مهيبة ومتسخة ، زهور محفورة على حجر المرو الوردى وحجر الطلق و بعضها على حجر اليشم الأخضر — أجل ، على نوع جيد من حجر اليشم — وفناجين رقيقة شبه شفافة وجميلة . وقد تـكون بعض الأشياء

قيمة — مثل الأحصنة الصغيرة التى لاشكل لها والتى لازالت تدب فيها الحياة ـ ولكنها لو كانت ذات قيمة ، فإن هذا يكون محض مصادفة ، بل لابد أنها كانت محض مصادفة . فكيف كان يمكن لرجال البحر أولئك ، قتلة الحيتان، أن يعرفوا الجيد من الردىء — أم أنهم كانوا يعرفون ؟ أم أنهم عرفوا ؟

كان الدولاب دائماً بالنسبة لى هو المكان المقدس لأصل العائلة — الأقنعة الرومانية التى كانت للسلف ، أو معبودات وآلهة البيت التى ترد إلى حجر سقط من القمر . بل كان لدينا أيضاً جذر من نبات تفاح الجن — على شكل رجل صغير كامل ، وكان عندنا أيضاً عروس بحر حقيقية ، وقد صارت رثة جداً الآن ، ولكنها صنعت بإتقان عن طريق حياكة الجزء الأمامى لقرد مع الجزء الخلفى لسمكه سويا . وقد تقلصت بمضى السنون وظهرت الغرز ، ولكن أسنانها الصغيرة كانت لاتزال تبين فى ابتسامة وحشة .

أعتقد أن لدى كل عائلة شيئاً سحرياً ، شيئاً يرتبط بها ، وهو الذى يشعل حماسها ويبعث فيها الراحة والإلهام من جيل لجيل . وكان مالدينا هو ـ ماذا سأقول ؟ نوعاً من كتلة صغيرة من حجر شبه شفاف ، ربما كان حجر المرو أو الحجر اليشم الأخضر أو حتى حجر الطلق . كانت مستديرة ، قطرها أربع بوصات وتبلغ بوصة ونصف عند قمتها المستديرة . وعلى سطحها حفر شكل مضفر لا نهاية له ، بدا وكأنه يتحرك ولكنه لا يصل إلى مكان . كانت شكلاً حياً ، ولكن لا رأس له ولا ذنب ، ولا بداية أو نهاية . ولم تكن الصخرة زلقة الملمس ، بل كانت تلتصق قليلا مثل اللحم ، وكان ملمسها دائماً دافئاً . كان باستطاعتك أن تنظر فيها ولكن فى الواقع ليس خلالها . أعتقد أن أحد رجال البحر من دمى قد أحضرها من الصين عند عودته . كانت سحراً ـ جميل أن

تراها ، وتلمسها ، وتفركها بوجنتك أو تربت عليها بأصابعك . كانت هـــذه الـكتلة الغريبة السحرية تعيش فى الدولاب الزجاجى . وكطفل وصبى ورجل ، كان مسموحا لى أن ألمسها ، وأمسكها ، ولـكن لا أحملها بعيداً أبداً . كان لونها ولفاتها ومادتها تتغير تبعاً لتغير حاجاتى . فافترضت ذات مرة أنها صدر ، وبالنسبة لى كصبى صارت صديقاً حميماً ، يثير الحماس ويؤلم . وربما تطورت فيما بعد إلى مخ أو حتى أحجية ، ذلك الشىء الذى لا رأس له ، ولا نهاية ، ذلك الشىء المتحرك ــ السؤال الـكامن جميعه بداخله ، والذى لا يحتاج إلى إجابة لتدميره ، أو لبداية أو نهاية لتحديده .

كان للخزانة الزجاجية قفل نحاسى منذ عهد المستعمرات ومفتاح نحاسى مربع ، موجود دائماً فى القفل .

كانت ابنتى النائمة تمسك بالـكتلة السحرية فى يديها ، وهى تربت عليها بأصابعها ، وتدللها كما لو كانت شيئاً حياً . كانت تضغطها إلى صدرها الذى لم يتشكل بعد ، وتضعها على وجنتها أسفل أذنها ، وتحـكها بأنفها مثل الجرو الرضيع ، وكانت تترنم بأغنية خافتة مثل أنة فرح واشتياق . كان حب التدمير من خصالها . وتملـكنى الخوف بادىء الأمر من أنها قد ترغب فى تحطيمها إلى فتات أو إخفائها بعيداً ، ولـكنى أدركت الآن أنها كانت أما ، وحبيباً ، وطفلا ، بين يديها .

عجبت كيف يمكننى إيقاظها دون إزعاجها . ولـكن لماذا يوقظ السائرون فى نومهم ؟ أخوفا من أنهم قد يؤذون أنفسهم ؟ إننى لم أسمع قط عن أذى وقع فى هذه الحالة ، اللهم إلا فى أثناء إيقاظهم . ولم ينبغى على التدخل ؟ لم يكن هذا كابوساً مليئاً بالألم والخوف بل كان أقرب إلى السرور والمشاركة التى تتعدى

مفهوم اليقظة . فأى حق لى فى إفساده ؟ وتحركت فى سكون عائداً ثم جلست فى مقعدى الضخم ، أنتظر .

بدت الغرفة المعتمة وكأنها تموج بذرات من الضوء الناصع وهى تتحرك وتدور مثل سحابات من فراش الليل . وأظن أن هذه الذرات لم تكن موجودة هناك حقا ، وإنما كانت فحسب وخزات الإنهاك وهى تسبح فى سائل عينى ، ولكنها كانت مقنعة جداً . وقد بدا حقيقياً فعلاً ، أن تألقاً كان ينبعث من ابنتى إيلين ، ليس من بياض منامتها فحسب ، بل ومن بشرتها كذلك . كنت أستطيع أن أرى وجهها ، وكان المفروض ألا أتمكن من ذلك فى الغرفة المظلمة . و بدا لى أنه لم يكن وجه فتاة صغيرة على الإطلاق — وكذلك لم يكن وجهاً ناضجاً ومكتملاً ومحدد الملامح . كانت شفتاها مضمومتين بحزم ، وهذا مالم تكونا عادة تفعلانه .

بعد فترة أعادت إيلين الطلسم بثبات ودقة إلى مكانه ، وأغلقت الخزانة ذات الواجهة الزجاجية وأدارت المفتاح النحاسى الذى يبقيها مغلقة . و بعدئذ استدارت وسارت متجاوزة مقعدى ثم صعدت الدرج . هناك شيئان لعلى تخيلتهما — الأول ، أنها لم تكن تسير كطفلة بل كامرأة مكتملة ، والثانى ، أنها فى أثناء انصرافها أخذ ضياؤها يستنزف بعيداً . قد تكون هذه انطباعات وليدة ذهنى ، ولكن شيئا ثالثا لا يكون كذلك . ففى أثناء صعودها الدرج ، لم يكن هناك ثمة صرير للخشب . ولا بد أنها كانت تسير قريباً من الجدار ، حيث لا يجأر وقع الخطوات بالشكوى .

بعد بضعة لحظات تبعتها ، ووجدتها فى فراشها ، نائمة ومغطاة بعناية . كانت تتنفس من فمها ، وكان وجهها وجه طفل نائم .

ومرغماً ، نزلت الدرج ثانية وفتحت الدولاب الزجاجى . تناولت كتلة الحجر بين يدى . كانت دافئة من جسم إيلين . وكما كنت أفعل فى طفولتى ، تعقبت بطرف سبابتى الشكل المنساب الذى لا ينتهى ، واسترحت إلى ذلك . وأحسست بأننى وثيق الصلة بإيلين بسبب هذا .

— إنى أعجب ، هل جعلتها الصخرة بشكل ما وثيقة الصلة بى وبآل هولى ؟

الفصل التاسع

في يوم الاثنين راغ الربيع الخاتل متجهاً إلى الشتاء بمطر بارد وريح عاصف قارس قطع الأوراق الرقيقة فى أشجار كانت واثقة به تمام الوثوق . أما العصافير الضخمة الجريئة الشبقة فى المروج ، والتى كانت تقصد ممارسة الحب ، فقد تمزق شملها مثل خرق ، مبتعدة عن طريقها وعن هدفها ، وأخذت تزقزق فى غضب ضد الجو المتقلب .

حييت السيد « رد بيكر » فى جولته ، وذيله يدفع للجانبين مثل راية معركة حربية . كان أحد المعارف القدامى ، وقد أخذ ينظر بعينه شذراً إلى المطر . وقلت : « من الآن فصاعداً يمكن أن نكون أنا وأنت صديقين فى الظاهر ، ولكنى أشعر أن الصواب هو أن أخبرك أن ابتسامتينا تخفيان تنافساً وحشياً ، صراعاً لإنهاء العمل ثم الاختفاء تحت الغطاء »

كان مورفى موجودا فى موعده . وربما كان ينتظرنى — ربما ، وقال : « ياله من يوم فظيع » . بينما كان معطفه الواقى من المطر والمصنوع من الحرير العازل للمطر يخفق وينتفخ حول ساقيه . « سمعت أنك قمت بزيارة إجتماعية لرئيسى » .

— « كنت فى حاجة إلى بعض النصح . وقد قدم إلى الشاى أيضا » .

— « إنه خير من يفعل ذلك » .

— « أنت تعرف كيف تكون النصيحة ، أنت ترغب فيها فحسب ، إذا اتفقت مع ما أردت أن تفعله بأية حال من الأحوال » .

— « يبدو وكأن هناك استثماراً » .

— « عزيزتى مارى تريد بعض الأثاث الجديد . وحين تريد امرأة شيئاً ما فإنها تغلف الأمر أولاً فى ثوب يبدو معه وكأنه استثمار طيب » .

وقال مورفى : « ليس النساء فحسب ، إننى أفعل ذلك أنا نفسى » .

— « حسناً ، إنها نقودها . وهى تريد أن تذهب للتسوق والمساومة » .

وعند ناصية شارع هاى راقبنا لافتة من الصفيح تنتزع مفكوكة من محل « راب » للعب ، ثم تذهب منزلقة وتصر باعثة صوتا كصوت منبعث من حادثة تصادم .

— « قل لى ، سمعت أن رئيسك ينوى القيام برحلة إلى وطنه إيطاليا » .

— « لا أدرى . وإن كنت أستغرب أنه لم يذهب قبل ذلك مطلقاً ، فتلك العائلات وثيقة الصلة ببعضها إلى حد فظيع » .

— « ألديك وقت لتناول فنجان من القهوه ؟ »

— « ينبغى أن أقوم بالكنس . من المؤكد أنه سيكون يوماً حافلاً بالشغل بعد العطلة » .

— « أوه ، تعال . عش فى ترف . إن الصديق الشخصى لمستر بيكر يمكنه أن يدبر الوقت لتناول فنجان من القهوة » . لم يقلها بمثل الوضاعة التى تبدو بها وهى مطبوعة . كان يستطيع أن يجعل أى شىء يبدو بريئاً حسن المقصد .

طيلة كل تلك السنوات لم أذهب إلى مقهى فورماستر لتناول فنجان قهوة فى الصباح ، وربما كنت الرجل الوحيد فى البلدة الذى لم يفعل ذلك . كان عرفاً ، وعادة ، ومنتدى . صعدنا إلى المقاعد المرتفعة بجوار الطاولة ، ثم صبت لنا مس لينش — التى كانت زميلتى فى المدرسة — القهوة دون أن تسكب

أيامنها فى الطبق . كانت تستند إلى الفنجان زجاجة صغيرة من القشدة ولـكنها دحرجت مكعبين من السكر ملفوفين بالورق مثلما تدحرج زهر النرد ، لدرجة أن صاح مورفى « ياعينا الحية » .

مس لينش ـ مس لينش. كانت كلمة « مس » جزءا من اسمها الآن ، بل جزءاً منها هى نفسها . وأعتقد أنها لن تستطيع أبداً أن تستأصلها . وأنفها يزداد احمراراً كل عام ، ولـكن بسبب الجيوب الأنفية ، لا الشراب .

قالت : « طاب صباحك ، ياإيثان . أتحتفل بشىء ما ؟ »

— « لقد جرنى إلى هنا » . قلتها ، وبعدئذ ، كتجربة فى الشفقة ، قلت : « آنى » .

استدارت رأسها فجأة كما لو كانت قد سمعت طلقة مسدس ، وبعدئذ ، عندما نفذت الفـكرة إلى ذهنها ، ابتسمت ثم ، أتدرى ، بدت تماماً مثلما كانت فى الفصل الخامس ، بأنفها الأحمر وكل شىء .

— « إنه لجميل أن نراك ، ياإيثان » . قالتها ثم نفضت أنفها فى منديل من الورق .

قال مورفى : « حين سمعت بالأمر ، تملـكتنى الدهشة » . والتقط الورقة التى كانت على مكعب السكر . كانت أظافره مصقولة . « تطرأ عليك فـكرة ، وبعدئذ تصبح ثابتة ثم تعتقد أنها حقيقية . ثم تصيبك الدهشة حين لا تجدها كذلك » .

— « لا أدرى عمَ تتـكلم » .

— « وأظننى أنا الآخر لا أدرى. ملعونة أوراق اللف هذه. لم لا يمـكنهم أن يضعوه سائباً فى طبق فحسب ؟ »

— « ربما لأن الناس قد يستعملون منه كمية أكبر . »

— « أظن الأمر كذلك . اعرف فتى عاش ذات يوم على السكر فترة من الوقت . كان يذهب إلى المقهى ، ويدفع عشرة سنتات ثمناً لفنجان من القهوة ، يشرب نصفه ، الذى يكون قد ملأه بالسكر . على الأقل لم يمت جوعاً » .

وكالمعتاد ، كنت أعجب إذا لم يكن ذلك الفتى هو مورفى ـ شخص غريب، قوى ، رجل لا يبدو عليه السن ويضع طلاء أظافر . واعتقد أنه كان رجلاً متعلماً بدرجة لا بأس بها ، ولكن ذلك كان مبعثه فحسب عملياته وأسلوبه فى التفكير . كان علمه مختفياً فى لهجة نصف دنيوية ، هى لغة الجاهل اللامعة الصلبة المصقولة . وسألت :

— « ألهذا السبب تستعمل قطعة سكر واحدة » ؟

وابتسم وقال : « لكل شخص نظريته ، أنا لا أهتم إلى أى مدى يبلغ الإنهاك بالفتى ، فستكون له نظرية عن سبب إنهاكه . إن نظرية تستطيع أن تجعلك تضل الطريق ، لأنك ستتبعها رغم علامات الطريق . وأظن أن ذلك هو ما خدعنى بشأن رئيسك » .

لم أكن قد تناولت قهوة خارج البيت منذ مدة طويلة . ولم تكن القهوة طيبة جداً . لم يكن لها مذاق القهوة إطلاقا ولكنها كانت ساخنة وسكبت بعضها على قميصى ، فعرفت أنها بنية اللون أيضاء

— « أظننى لا أعرف قصدك » .

— « كنت أحاول أن استرجع من أين تولدت لدى الفكرة . أظن لأنه

قال أنه ظل هنا أربعين عاماً . لعلها خمسة وثلاثون أو سبعة وثلاثون عاماً ، حسنا ، ولـكنها ليست أربعين عاماً » .

— « احسبنى لست ذكياً جداً » .

— « وهذا يجعل قدومه فى عام ١٩٢٠ . ألازلت لم تفهم بعد ؟ حسناً ، حين تـكون فى مصرف يتعين عليك أن تصرف للناس بسرعة ، وأن تتحرى عن المزاحمين ، كما تعلم . وسرعان ماتتوفر لديك مجموعة مبنية من الأحكام . إنك حتى لا تفـكر فيها . إنها تحدث عند موطن الخطر ـ ويمكن أن تـكون مخطئا . فلعله جاء فى عام ١٩٢٠ ، ويحتمل أن أكون مخطئاً » .

فرغت من قهوتى ، وقلت : « حان الوقت للانصراف . »

وقال مورفى : « وأنت أيضا تستغفلنى لوكنت قد سألت أسئلة ، لأصبحت صعب المنال عليك . ولـكنك لا تفعل ، وهكذا أجدنى مضطرا لإخبارك . فنى عام ١٩٢١ صدر أول قانون طارىء للهجرة » .

— « ثم » ؟

— « فى عام ١٩٢٠ كان باستطاعته الدخول . وفى عام ١٩٢١ يحتمل أنه لم يكن يستطيع » .

— « وبعد » ؟

— « وهكذا ـ على أية حال أن ذهنى الذكى يقول ـ أنه جاء بعد عام ١٩٢١ عن طريق الباب الخلفى . ولهذا فهو لا يستطيع الذهاب إلى بلده لأنه لا يستطيع الحصول على جواز سفر للعودة » .

— « يا إلهى . إننى سعيد لأننى لست مصرفياً » .

— « يحتمل أنك كنت تـكون أفضل منى . فإننى أتـكلم كثيراً جداً ،

لو كان سيعود إلى بلده ، فإننى أكون مخطئاً حقاً . انتظر – إننى آت . القهوة على حسابى » .

وقلت : « إلى اللقاء ، يا آنى » .

— « تعال مرة أخرى ، يا إيثان . إنك لا تأتى أبداً » .

— « سأفعل » .

بينما كنا نعبر الشارع قال مورفى : « لا تبح لسيادة المهاجر الإيطالى أننى كشفت ورقة فى كونه طعماً معرضا للإبعاد ، هل ستفعل » ؟

— « ولماذا أبوح بذلك » ؟

— « ولم بحث أنا به ؟ ماذا يوجد فى حقيبة الجواهر تلك » ؟

— « قبعة فرسان أورشليم . وقد اصفرت ريشتها . سأرى إذا ما أمكن إعادة لونها الأبيض » .

— « هل تنتمى إلى تلك الفئة » ؟

— « إنه تقليد فى العائلة . لقد كنا ماسونيين قبل أن يصبح جورج واشنجتون الأب الأكبر » .

— « وهل كان كذلك ؟ أينتمى إليهم مستر بيكر » ؟

— « إنه تقليد فى عائلته أيضا » .

كنا قد صرنا فى الحارة الآن . وتحسس مورفى جيبه بحثاً عن مفتاح باب المصرف الخلفى . « ربما كان ذلك هو السبب فى أننا نفتح الخزانة وكأننا فى اجتماع المحفل . وربما كان يجدر بنا أيضا أن نمسك بالمشروع . إنه نوع من الأشياء المقدسة » .

وقلت : « سورفى ، إنك ملآن بالتجديف هذا الصباح . وعيد القيامة لم يطهر نفسك بالمرة » .

قال : « سأعرف فى بحر ثمانية أيام . كلا ، إنى أعنى ما أقول ، فحين تصير الساعة التاسعة تماماً نقف مجردين أمام قدس الأقداس ، و بعدئذ ينفتح القفل الميقاتى وينحنى الأب بيكرو يثنى ركبته اليمنى احتراماً ثم يفتح الخزانة ، وننحنى نحن جميعا إلى الأرض تحيه لإله العملة العظيم » .

— « إنك أحمق يامورفى » .

— « ربما يكون الأمر كذلك . اللعنة على هذا القفل العتيق . بإمكانك أن تفتحه بملقط ثلج ، ولـكن لا تستطيع بالمفتاح » .

هز المفتاح ورفس الباب حتى اندفع فى النهاية مفتوحا .

أخرج من جيبه قطعة من ورق الـكلينـكس وكبسها فى مركز زنبرك القفل . وأمسكت نفسى وأنا على وشك السؤال ، أليس ذلك خطراً ؟

وأجاب دون ما سؤال ، « الشىء اللعين لا ينفتح للمفتاح ـ طبعاً بيكر يتفحصه بعد فتح الخزانة ليرى ما إذا كان مقفولاً . لا تنقل شكوكى القذرة لماروللو ، هلا فعلت ؟ إنه عظيم الاقتدار » .

— « حسنا ، يامورفى . » قلتها واستدرت إلى بابى الخاص على الجانب الذى يخصنى من الحارة ، وتطلعت حوالى بحثاً عن القط الذى كان يحاول الدخول دائماً ، ولـكنه لم يكن هناك .

فى الداخل ، بدا لى المحل متغيراً وجديداً . رأيت أشياء لم أكن قد رأيتها أبداً من قبل ، ولم أر أشياء كانت تقلقنى وتزعجنى . ولم لا ؟ أحضر عينين

جديدتين لترى بهما عالماً ما ، أو حتى عدستين جديدتين ، وسرعان — ما ترى عالماً جديداً .

كان الصمام الذى ينز منه الماء فى (سيفون) المرحاض العتيق ينبعث منه فحيح ناعم . ولم يكن مارولو ليأتى بصمام جديد لأن الماء لم يكن على حسابنا ، فمن كان يهمه الأمر . ذهبت إلى مقدمة المحل ، ورفعت صنجة مشققة تزن رطلين من النوع القديم الطراز الذى كان يستعمل فى الميزان ذى الكفتين . وفى المرحاض علقت الصنجة على السلسلة أعلا الدلاية البلوطية المزركشة . اندفع الماء بعنف فى المرحاض وواصل الاندفاع . وعدت ثانية إلى مقدمة المحل لأنصت ، واستطعت أن أسمع الماء وهو يفور فى صحن المرحاض إنه صوت لايمكن أن يختلط عليك بأى صوت آخر . بعد ذلك أعدت الصنجة إلى قضيبها على الميزان واتخذت مكانى على منصتى خلف الطاولة . كان شعب كنيستى على الرفوف واقفاً ينتظر . ياللشياطين المسكينة ، إنها لم تكن تستطيع الابتعاد عن أماكنها . وقد لاحظت بالذات قناع ميكى ماوس ، وهو يبتسم لى من صندوقه بأعلا فى مقعده الكنسى من مأكولات الإفطار . وذكرنى ذلك بوعدى لآلان . وجدت العصا المناولة التى تستعمل فى الإتيان بالأشياء من الأرفف العليا ، وأنزلت صندوقاً وأقمته تحت معطفى فى المخزن . وحين عدت إلى منصتى ، ابتسم لى من أعلى ثانى ميكى ماوس فى الصف .

مددت يدى خلف الأطعمة المحفوظة وأخرجت الحقيبة الكتانية الرمادية ، التى تحفظ بها قطع النقود الصغيرة لتوضع فى آلة عد النقود ، و بعدئذ ، وحين تذكرت شيئاً ما ، مددت يدى إلى أبعد ، حتى عثرت على المسدس العتيق من عيار ٣٨-

ذلك الذى كان هناك منذ أبعد ما أستطيع أن أتذكر . كان مسدساً من ماركة إيفرجونسون مطلياً بالفضة ، وقد تقشرت عنه معظم الفضة . كسرت المسدس ورأيت الرصاصات خضراء بفعل صدأ النحاس . كانت ساقيته بطيئة الحركة جداً بسبب الشحم القديم ، لدرجة أنها كانت تدور بصعوبة . وضمت قطعت السلاح المشينة والتى يحتمل أن تكون خطرة فى الدرج أسفل آلة عد النقود ، وجذبت ميدعه نظيفة ، ولففتها حول خاصرتى ، وأنا أثنى طرفها العلوى إلى أعلى بإتقان لكى أخفى الخياطات .

هل يوجد ثمة شخص لم يفكر فى قرارات وأفعال وغزوات ذوى القدرة والبطش فى هذه الأرض ؟ وهل يولدها العقل وتوجهها الفضيلة ، أم يمكن أن يكون بعضها نتاج الحوادث ، نتاج أحلام اليقظة ، نتاج التخيل ، ونتاج القصص التى نحكيها لأنفسنا ؟ إننى أعرف حتى متى ظللت ألعب لعبة التخيل ، لأنى أعرف كيف بدأت بقواعد مورفى للقيام بسطو ناجح على مصرف . كنت قد تمتمت فى كلماته بمرح طفولى ، ان يعترف به البالغون عادة . كانت لعبة مضحكه تجرى متوازية مع الحياة فى المحل ، وكان كل شىء يحدث يقع فى مكانه من اللعبة . المرحاض الذى ينز الماء ، قناع ميكى ماوس الذى أراده آلان ، حكاية فتح الخزانة . وسقطت منحنيات جديدة وزوايا فى مكانها من اللعبة ، ورقة السكلينكس التى تدس فى قفل الباب الذى فى الحارة . وقليلاً قليلاً نمت اللعبة ، ولكنها كانت كلها مرسومة فى ذهنى حتى هذا الصباح . وكان موضع صنجة الميزان فوق سلسلة المرحاض هو أول مشاركة جسمانية قمت بها من أجل الباليه الموجود فى الذهن . وكان إخراج المسدس العتيق هو المشاركة الثانية وكنت قد بدأت الآن أتساءل عن التوقيت . كانت اللعبة تنمو فى شكلها السليم .

إننى لاأزال أحمل ساعة والدى الفضية من طراز «هاميلتون السكة الحديدية» بعقر بيها السميكين وأرقامها السوداء الضخمة ، وهى ساعة مدهشة من حيث الإخبار عن الوقت ، إن لم يكن من حيث الجمال . وقد وضعتها فى الصباح فى جيب قميصى قبل أن أكنس المحل . وكنت أراجع الوقت ، بحيث إننى فى التاسعة إلا خمس دقائق كنت قد فتحت الأبواب الأمامية و بدأت لتوى أولى ضربات المقشة التى أقوم بها طواعية لرصيف الشارع . وإنه لمن المدهش مدى كثرة القمامة التى تتجمع بعد عطلة نهاية الأسبوع ، ثم ماذا حدث مع المطر ، صارت القمامة طيناً رقيقاً .

بالمصرفنا من آلة دقيقة مدهشة ـ مثل ساعة والدى طراز السكة الحديدية . ففى التاسعة إلا خمس دقائق جاء مستر بيكر مع الريح من شارع الم . ولابد أن هارى روبيت ، وأديث آلدن كانا يراقبانه . فقد خرجا من الباب الخلفى لمقهى فورماستر ، وانضما إليه فى منتصف الشارع .

ناديت : « طاب صباحك ، يامستر بيكر . طاب صباحك ، إديث . طاب صباحك ، ياهارى . »

— «طاب صباحك ، ياإيثان . إنك ستحتاج إلى خرطوم ماء لإزاله ذلك»

ودخلوا المصرف .

أسندت مقشتى إلى مدخل المحل ، وأخذت الصنجة من الميزان ، وذهبت خلف آله النقود ، ففتحت الدرج ، ثم قمت بتنفيذ تمثيل صامت سريع ، ولكنه رزين . سرت إلى المخزن ، وعلقت الصنجة على سلسلة المرحاض ، وشبكت طرف ميدعتى بأعلى قماطها الذى يكون على البطن ، وارتديت معطفى الواقى من المطر ، ثم خطوت إلى الباب الخلفى وفتحته مواربا . وعندما عبر عقرب الدقائق

الأسود فى ساعتى رقم ١٢ ، بدأ جرس ساعة دار الإطفاء صلصلاته ، عددت ثمان خطوات عبر الحارة ، وبعدئذ عشرين خطوة فى ذهنى . حركت يدى وليس شفتى وتركت عشر ثوان تنقضى ، ثم حركت يدى مرة أخرى . رأيت هذا كله فى ذهنى — كنت أعد بينما تقوم يدى بحركات معينة — عشرين خطوه ، سريعة ولكنها رزينة ، وبعدئذ ثمان خطوات أخرى . أغلقت باب الحارة ، خلعت معطفى ، وفردت ميدعتى ، وذهبت إلى المرحاض ، تناولت الصفحة من فوق السلة وأوقفت خرير الماء ، وتحركت إلى خلف الطاولة ، فتحت الدرج ، فتحت صندوق قبعتى ثم أغلقته ولصقته ، وعدت إلى الداخل مرة أخرى ، وتناولت مقشتى ، ثم تطلعت إلى الساعة . كانت قد تجاوزت التاسعة بدقيقتين وعشرين ثانية . رائع جداً ، ولكن بقليل من المران يمكن اختصار الوقت إلى أقل من دقيقتين .

كنت قد فرغت من كنس نصف الرصيف فقط ، حين جاء ستونى ، مدير البوليس ، عبر الشارع من مقهى فورما-تر .

— « طاب صباحك ياإيثان . ناولنى بسرعة نصف رطل من الزبد ، ورطلاً من لحم الخنزير ، وزجاجة لبن ، ودستة من البيض لقد نفد كل ما كان لدى زوجتى . »

— « بالتأكيد ، ياحضرة المدير . كيف حال كل شىء ؟ » أحضرت الأشياء معاً ، وفردت كيساً بصوت عال . قال : « بخير . لقد جئت من دقيقة مضت ، ولكنى سمعتك فى المرحاض . »

— « سيستغرق الأمر منى أسبوعاً حتى اتخلص من آثار ذلك البيض المسلوق » .

وقال ستونى : « ذلك حق . على المرء أن يمضى ، عليه أن يمضى . »

إذن كان الأمر على مايرام .

و بينما كان على وشك الرحيل ، قال : « ما أمر صديقك ، دانى تيلور ؟ »

— « لاأدرى – هل هو فى إحدى نو باته ؟ »

— « كلا ، كان يبدو بخير تماماً ، ونظيفاً بدرجة لا بأس بها . كنت جالساً فى السيارة ، وقد جعل منى شاهدا على توقيعه . »

— « على أى شىء . ؟ »

— « لا أدرى . كان معه ورقتان ولكنهما كانتا مطو يتين إلى الخلف ولذا لم أستطع أن أرى . »

— « ورقتان ؟ »

— « أجل ، اثنتان . وقع مرتين وشهد مرتين . »

— « هل كان فى وعيه ؟ »

— « بدا كذلك . و كان شعره مقصوصاً و يرتدى ربطة عنق . »

— « ليتنى أستطيع تصديق ذلك ، ياحضرة المدير . »

— « وأنا كذلك . يالفتى المسكين . أحسبهم لا يكفون أبداً عن المحاولة . على أن أذهب للبيت . » وخب مبتعداً . إن زوجة ستونى تصغره بعشرين عاماً . عدت وأزلت بالفرشاة قطع القمامة الكبيرة عن الرصيف . شعرت بالحقارة . ربما تكون المرة الأولى دائما قاسية .

كنت مصيباً بشأن العادة الملحة . بدا لى أن كل شخص بالبلدة قد نفد من عنده كل شىء . وحيث إن طلبياتنا من الفواكه والخضر لا تأت إلا قرب الظهر فقد كانت المبيعات ضئيلة جداً . ولكن حتى مع قلة الموجود لدينا ، فإن الزبائن أبقونى أقفز هنا وهناك .

دخل مارولو حوالى الساعة العاشرة ولدهشتى مد لى يد العون ، بقيامه بالوزن واللف وضرب النقود فى آلة عد النقود . لم يكن قد عاوننى فى المحل منذ مدة طويلة . كان غالباً ما يتجول فيه فحسب ثم يتطلع حواليه و ينصرف وكأنه مالك أرض يعيش بعيداً عن أملاكه ولكنه فى هذا الصباح عاون فى فتح علب وصناديق المواد الجديدة حين أتت . وبدا لى أنه قلق ، وأنه كان يدرسنى حينما كنت لا أتطلع إليه . لم يكن لدينا الوقت للكلام، استطعت أن أحس بعينيه مستقرتين على . وخطر لى أنه لابد قد سمع بأننى رفضت رشوة . ربما كان مورفى مصيباً . فهناك نوع معين من الرجال ، حين يسمع أنك كنت أمينا يتحسس بحثا عن الخيانة التى دفعت إلى الأمانة . إن فكرة ، « ماذا يستفيد من هذا » ؟ لابد أن تكون قوية بالذات فى رجال يلعبون بحياتهم نفسها كما لو كانوا يلعبون البوكر . بعثت فى الفكرة ضحكة ساخرة صغيرة ولكنها عميقة ، بحيث لم تدفع حتى ولو بفقاعة إلى السطح .

حوالى الساعة الحادية عشرة ، دخلت عزيزتى مارى ، متألقة فى ثوب جديد من القطن المطبوع . كانت تبدو جميلة وسعيدة ولاهثة الأنفاس قليلاً ، وكأنها قد فعلت شيئاً مبهجاً ولكنه خطير — وكانت قد فعلت فعلاً . ناولتنى مظروفاً بنياً من ورق مانيلا المتين .

قالت : « ظننت أنك قد تحتاج إلى هذا » . وابتسمت لمارولو ابتسامتها المشرقة التى تشبه ابتسامة طائر ، والتى تبتسمها حين لا تكون ميالة فعلاً لشخص ما . وهى لم تكن تميل أو تثق بمارولو وكان هذا دأبها ودائما ما أرجع هذا إلى حقيقة أن الزوجة لا تميل مطلقاً إلى رئيس زوجها أو سكرتيرته .

قلت : أشكرك ، ياعزيزتى . إنك حصيفة جداً وآسف لأننى لاأستطيع أن آخذك إلى نزهة فى زورق فى النيل تواً » .

قالت : « أنت مشغول » .

— « حسناً ، ألم ينفذ كل ما لديك من مؤن ؟ »

— « بالتأكيد ، ومعى قائمة . هل ستأتى بالأشياء إلى المنزل الليلة ؟ إننى أعلم أن انهما كلك لا يمكنك من إعدادها الآن » .

— « ولكن لا بيض مسلوق . . . »

— كلا ، ياعزيزى . كلا اسنة بأكملها » .

— « من المؤكد أن أرانب عيد القيامة كانت جد مشغولة »

— « مارجى تريد أن تأخذنا لتناول العشاء فى مقهى فورماستر الليلة - وهى تقول إنهـــا لاتتمكن أبدا من تكريمنا » .

قلت : «رائع »

— « وتقول إن بيتها صغير جداً »

— « أهو كذلك ؟ »

قالت : « إننى أعطلك عن عملك » .

كانت عينا ماروللو على المظروف البنى الذى فى يدى . فوضعته تحت ميدعتى وحشوته فى جيبى . كان يعرف أنه مظروف من مصرف . وكنت أستطيع أن أشعر بذهنه يتصيد مثل كلب صيد يتعقب الفيران فى مقلب قمامة مدينة .

قالت مارى : « لم تتح لى فرصة لأشكرك من أجل الحلوى، يامستر ماروللو. لقد أحبها الأطفال » .

قال : « إنها مجرد أمنيات طيبة بمناسبة عيد القيامة . إن ثوبك يشبع الربيع » .

— « شكراً . إننى ابتللت أيضا ، إذ حسبت أن المطر ولى ، ولكنه عاد ثانية » .

— « خذى معطفى الواقى ، ياماري » .

— « لن أفكر فى هذا . إنه الآن مجرد رذاذ . فلتعد أنت الى زبائنك » .

زادت الحركة سوءاً . أطل مستر بيكر إلى الداخل ورأى صف الناس المنتظرين ثم انصرف . وصاح : « سأعود فيما بعد » .

وظلوا يجيئون ، وهم يتزايدون حتى الظهر ، وعندئذ ، ومثلما يحدث عادة توقفت الحركة كلها . كان الناس يتناولون غداءهم . وخفت صوت المواصلات فى الشارع . ولأول مرة منذ الصباح لم يكن هناك من يريد شيئاً . شربت مزيداً من اللبن من علبة الورق المقوى التى فتحتها . وإننى أقيد أى شىء آخذه من المحل ، ثم أخصمه فحسب من راتبى . ومارولل يدعنى أخذ الأشياء بسعر الجملة . وهذا يكون فرقاً كبيراً . ولا أعتقد أننا كنا نستطيع أن نعيش براتبى لو لم يفعل مارولل ذلك .

أسند ظهره إلى الطاولة وعقد ذراعيه وآلمه ذلك ، ولذا دفع يديه فى جيوبه الى أن آلمه ذلك أيضاً .

قلت : « إننى مسرور جداً لأنك مددت لى يد العون . لم أر أبداً تزاحماً كهذا من قبل ، على كل أحسبهم يستطيعون مواصلة الحياة على ما تبقى من سلطة البطاطس » .

— « إنك تؤدى العمل بشكل رائع ، يافتى » .

— « إننى أودى وظيفتى » .

— « كلا ، إنهم يعودون ، لأنهم يميلون إليك »

— « اعتادوا على فحسب ، إذ أننى هنا منذ الأزل . » وعندئذ حاولت محاوله بسيطة دقيقة لسبرغوره . « أراهن أنك تتطلع إلى تلك الشمس الحامية فى صقلية . إنها حامية فى صقلية . فقد كنت هناك إبان الحرب » .

وتطلع مارواللو بعيداً : « إن عزمى لم يستقر بعد » .

— « ولم لا ؟ »

— « حسنا ، لقد ابتعدت عنها فترة طويلة جداً — أربعين عاماً . وأنا لا أعرف أحداً هناك » .

— « ولكن لك أقارب » .

— « وهم أيضاً لا يعرفوننى » .

— « إننى أود بالتأكيد لو أستطيع أن قضى عطلة فى إيطاليا — دون بندقية وحزمة ميدان . ورغماً عن ذلك ، فإن أربعين عاماً فترة طويلة . فى أى سنة جئت إلى هنا ؟ »

— « ١٩٢٠ — منذ أمد بعيد » .

بدا أن مورفى قد أصاب الهدف . ربما يكون لدى رجال المصارف ورجال الشرطة ورجال الجمارك غريزة ما . وحينئذ ، تبادرت إلى ذهنى محاولة سبر غور أخرى ، وربما أعمق قليلاً . فتحت الدرج وأخرجت المسدس العتيق وقذفته فوق الطاولة . وضع مارواللو يديه خلف ظهره : « ماذا لديك هناك ، أيها الفتى » ؟

— « كنت أفكر فحسب فى أنه ينبغى عليك الحصول على ترخيص له »

إذا لم يكن لديك ترخيص . فقانون سوليفان قانون قاسى » .

— « ومن أين أتى ؟ »

— « لقد كان موجوداً هنا طيلة ذلك الوقت ؟ »

— « لم أره مطلقاً . إنه لا يخصنى إنه ملكك » .

— « ليس ملكى . وأنا أيضا لم أره قبل ذلك أبداً . وينبغى أن يكون ملكاً لشخص ما . وطالما هو موجود هنا أن تعتقد أنه يجدر بك أن تقدم طلباً للحصول على ترخيص ! أمتأكد أنت أنه لا يخصك ؟ »

— « إننى أقول لك إننى لم أره أبداً . وأنا لا أحب الأسلحة النارية » .

— « ذلك مضحك . كنت أعتقد أن جميع رجال المافيا الكبار يحبونها» .

— « ماذا تعنى بمافيا ؟ أتحاول أن تقول إننى من المافيا ؟ »

وجعلت من الأمر نكتة كبيرة بريئة : « حسبما سمعت ، فإن جميع الصقليين ينتمون للمافيا » .

ألقيت بالمسدس فى الدرج ، وقلت : « عش وتعلم ! حسناً ، أنا بالتأكيد لا أرغب فيه . ربما يكون من الأفضل أن أعطيه لستونى ، وأقول له إننى عثرت عليه خلف شىء ما ، لأن ذلك هو ما حدث » .

وقال ماروللو : « فلتفعل ذلك فأنا لم أره طيلة حياتى . وأنا لا أريده . إنه ليس ملكى » .

قلت : « حسنا ، فلينته ذلك الموضوع » .

إن استخراج ترخيص تبعاً لقانون سوليفان يتطلب مجرد بضع مستندات وغالباً بنفس العدد اللازم لاستخراج جواز سفر .

لعبت الأفكار بعقل رئيسى . ولعل أشياء صغيرة كثيرة قد وقعت بشكل متقارب جداً من بعضها البعض .

دخلت مس الجار العجوز تجرجر نفسها فى خطوات متقاربة ، وهى ترتدى جونلة جاهزة ، وهى الأميرة الملكية فى نيوبايتون . وبين مس الجار والعالم كان يوجد لوحان من الزجاج غير القابل للكسر ، وبينهما فراغ . وساومت على دستة من البيض . وحيث إنها كانت تعرفنى منذ كنت صبياً صغيراً ، فهى لم تعتقد أبدا أننى يمكن أن أكون شيئاً آخر . واستطعت أن أرى دهشتها وسرورها لأننى تمكنت من حساب باقى النقود .

قالت : « شكراً لك يا إيثان » . وانزلقت نظراتها على طاحون البن وعلى ماروللو وأبدت اهتماماً متساوياً بكليهما . « كيف حال أبيك يا إيثان ؟ »

قلت . « بخير ، يامس الجار » .

— « بلغه تحياتى ، أيها الولد الشاطر » .

— « حاضر يا سيدتى . سأفعل بالتأكيد ، يا سيدتى » . ولم أكن أنوى أن أعيد تصحيح إحساسها بالزمن .. وهم يقولون إنها لا تزال تملأ ساعة جدها ليلة كل أحد ، رغم أنه تمت كهربتها منذ سنوات . لن يكون الأمر سيئاً فى تلك الحالة ، أن يتوقف بها الزمن — لن يكون سيئاً بالمرة ، أن ينتج من هذه اللحظة أصيل لا نهاية له . وأومأت برأسها فى جدية محيية طاحون البن قبل أن تنصرف .

— « مخلولة فى عقلها » . قالها ماروللو وأدار سبابته فى صدغه .

— « لا يغير ذلك من شخص ، ولا يصيب بالأذى شخصاً » .

— « إن أباك متوفى . لماذا لم تخبرها إن أباك متوفى ؟ »

— « لوأنها صيدقتني ، فإنها ستنسى . وهي دائماً ماتسأل عنه . ولم ينقض وقت طويل منذ أبطلت السؤال عن جدى . وهم يقولون ، إنها كانت صديقته ، تلك العنزة العجوزة » .

أبدى مارولو ملاحظته : « مخلولة في عقلها » . ولـكنه تمالك نفسه لسبب ما ، مرتبط بإحساس مس الجار غير العادى بالزمن . من الصعب أن تعرف إلى أى مدى يكون الرجل بسيطاً أو معقداً . وحين نـكون فى غاية التأكد ، تكون فى العادة مخطئاً . وإننى أعتقد ، عن طريق العادة والممارسة ، أن مارولو قد قصر صلاته بالناس على ثلاث علاقات : الأمر ، والتملق ، والشراء . ولا بد أن العلاقات الثلاث قد نجحت فى أغلب الأحوال بما يسمح له بالاعتماد عليها . وعند نقطة ما من تعامله معى فقد العلاقة الأولى .

قال : « إنك فتى طيب ، كما أنك صديق طيب أيضاً »

— « إن القبطان العجوز ، الذى كان جدى ، اعتاد أن يقول : « لوأردت الاحتفاظ بصديق فلا تختبره أبداً » .

— « ذلك ذكاء » .

— « لقد كان ذكياً » .

— « ظللت طيلة يوم الأحد أفـكر ، يافتى — وحتى فى الـكنيسة كنت أفـكر » .

وعرفت أنه قلق بشأن عملية الرشوة ، أو اعتقدت ذلك على الأقل ، وهكذا أثرت القضية لـكى أوفر عليه الوقت .

— « كنت تفـكر فى تلك الهدية اللطيفة ، هه ؟ »

— « أجل » . وتطلع إلى فى إعجاب : « إنك ذكى أيضاً » .

— « لست ذكياً بالدرجة التى تجعلنى أعمل لصالحى » .

— « لقد بقيت هنا مدة طويلة — اثنتى عشرة سنة ؟ »

— « إنه كذلك — مدة طويلة جداً . وقد حان الوقت للتغيير ، ألا تعتقد ذلك ؟ »

— « ولم تأخذ أبدا أى شيء من النثريات ، ولم تأخذ أبداً إلى البيت أى شيء دون أن تقيده » .

— « إن الأمانة إحدى مآخذى » .

— « لا تجعل من الأمر نكتة . إن قولى صحيح ، فأنا أراجع عليك ، وأعرف » .

— « بإمكانك أن تشبك الميدالية على قابة سترتى اليسرى » .

— « كل واحد يسرق — البعض أكثر ، والبعض أقل — ولكنك أنت لا تسرق ، أنا أعرف » .

— « ربما كنت أنتظر لأسرق المحل بأكمله » .

— « لا تمزح إن ما أقوله صحيح » .

— « ألفيو ، أنت تملك جوهرة ، فلا تلمعنى كثيراً جداً ، وإلا أظهر معجون التلميع ما بالداخل » .

— « لماذا لا تكون شريكى ؟ »

— « بأى شيء ؟ بمرتبى ؟ »

— « سنتحايل على ذلك بطريقة ما » .

— « وحينئذ لا أستطيع أن أسرقك دون أن أسرق نفسى » .

وضحك فى إعزاز . « إنك ذكى ، يافتى . ولكنك لا تسرق » .

« إنك لم تنصت إلى . ربما أدبر أخذ المحل بكامله » .

— « إنك أمين ، يافتى » :

— « ذلك ما أقوله لك . حينما أكون أكثر الناس أمانة ، لا يصدقنى أحد . إننى أقول لك ياألفيو أن تخفى بواعثك ، وتقول الحقيقة » .

— « ماهذا الكلام الذى تقوله » ؟

— « Ars est celare Artem . الفن لا يفسره إلا الفن » .

وحرك شفتيه بتلك الجملة، و بعدئذ انفجر ضاحكا. وصاح :هو ! هو ! هو! Hic erat demonstrandum وهذا هو المطلوب » .

— « أتريد زجاجة كوكا كولا باردة » ؟

— « إنها تسىء إلى هنا ! » وطوح ذراعيه متقاطعين على معدته .

— « أنت لم تبلغ من كبر السن ما يجعل معدتك رديئة ، فأنت لم تتعد الخمسين » .

— « بل فى الثانية والخمسين ، ومصاب بمعدة رديئة » .

وقلت : « حسناً ، إذن فقد جئت إلى هنا وأنت فى الثانية عشرة ، إذا كان قدومك فى عام ١٩٢٠ . أعتقد أنهم يبدأون تعليم اللغة اللاتينية فى سن مبكر فى صقلية » .

قال : « كنت صبياً فى جوقة المرتلين ».

فقلت :

— « وأنا نفسى تعودت أن أحمل الصليب فى الجوقة . سأشرب زجاجة كوكا كولا . ألفيو . فلتستنبط لى وسيلة لأشترى بها هذا المكان وسأفكر فيها . ولكنى أحذرك ، بأننى لا أمتلك نقوداً »

— « سنستنبطها » .

— « ولكنى سأحصل على نقود » .

كانت عيناه على وجهى ، و بدا أنهما لا تستطيعان أن تحولا نفسيهما . وقال ما رولو باللاتينية فى رقة : « إننى أثق بك » .

جاشت بداخلى قوة لم تكن العظمة مبعثها . فتحت زجاجة كوكا كولا ، وحينما قلبتها إلى الخلف تطلعت أسفل محتوياتها البنية إلى عينى مارولو .

— « إنك فتى طيب » . قالها وهز يدى ، واستدار مبتعداً ، خارج المحل. و بدافع ما ، ناديت عليه : « كيف تشعر بذراعك ؟ »

واستدار بنظرة دهشة ، وقال : « لم يعد يؤلمنى بعد » . وتابع سيره وهو يكرر لنفسه الكلمات « لم يعد يؤلمنى بعد » .

عاد مضطرباً : « كان عليك أن تأخذ تلك العمولة » .

— « أية عمولة ؟ »

— « الخمسة فى المائة » .

— « لماذا ؟ »

— « كان عليك أن تأخذها . يمكنك أن تشاركنى تدريجياً ، عليك فحسب أن تتمسك بستة فى المائة » .

— « كلا »

— « ماذا تقصد بكلا ، إذا كنت أنا أقول نعم ؟ »

— « لن أحتاجها ، يا ألفيو . ولو احتجتها لأخذتها ، ولكنى لا أحتاجها » .

تنهد تنهيدة عميقة .

لم يكن الأصيل بنفس ازدحام الصباح ؟ ولكنه لم يكن خفيفاً كذلك . ودائماً توجد فترة كساد بين الثالثة والرابعة ـ وغالباً ماتكون من ثلث إلى نصف ساعة ، ولا أعلم سببها . وبعدئذ تعود الحركة ثانية ، ويكون الزبائن فى هذه المرة أناساً عائدين إلى بيوتهم من العمل ، وزوجات يحضرن طعام العشاء فى آخر لحظة .

فى فترة الكساد دخل مستر بيكر . وانتظر ، وهو يتطلع إلى الجبن والصلصة فى الثلاجة ، حتى خلا المحل من زبونين ، وكلاهما من المشترين المتميعين ، من النوع الذى لا تعرف مايريد ، النوع الذى يلتقط الأشياء ثم يضعها ، آملا أن يقفز شىء مابين أذرعتهم ويطلب منهم أن يشتروه .

وأخيراً انتهى الزبونان وانصرفا .

قال : « إيثان ، هل علمت أن مارى سحبت ألف دولار ؟ »

— « أجل ، ياسيدى · لقد أخبرتنى أنها تنوى فعل ذلك » .

— « أتعلم السبب الذى تريدها من أجله ؟ »

— « بالتأكيد ، ياسيدى . لقد كانت تتكلم عنه طيلة شهور . إنك تعرف حال النساء . يصاب الأثاث بقليل من البلى ، ولكنهن فى نفس اللحظة التى يقررن فيها الحصول على أثاث جديد ، يصير الأثاث القديم غير صالح » .

— « ألا تظنها حماقة أن تصرف تلك النقود الآن على مثل ذلك النوع من الأشياء ؟ لقد أخبرتك بالأمس أنه ستكون هناك فرصة ما » .

— « إنها نقودها ، ياسيدى » .

— « إننى لم أكن أتحدث عن مقامرة ، يا إيثان . كنت أتحدث عن

استثمار مؤكد النتيجة . وإنى واثق أنها كانت تستطيع بتلك الألف ، أن تشترى أثاثها فى خلال سنة ، ثم يظل باقياً لديها ألف أخرى » .

— « مستر بيكر ، لاأستطيع بوجه حق أن أمنعها من إنفاق نقودها » .

— « ألم تستطع إغراءها ، ألم تستطع إقناعها ؟ »

— « لم يحدث هذا منى أبداً » .

— « أنت فى ذلك تبدو وكأنك والدك ، ياإيثان . ذلك يبدو رخاوة . وإذا كنت أنوى مساعدتك لكى تقف على قدميك ، فلا أستطيع التعامل معك وأنت رخو » .

— « حسنا ، ياسيدى » .

— « ولا يبدو الأمر وكأنها تنوى إنفاقها محلياً . كلا ، إنها تنوى اللف على محلات الجملة ثم تدفع نقداً . ولا يعرف أحد ما ستنتقيه . قد يطلب البائع المحلى سعراً أكبر ولكنه سيكون موجوداً إذا ظهر لها عيب فيما اشترت . ينبغى أن تتدخل ، ياإيثان . حاول أن تجعلها تعيد إيداعه ! أو قل لها أن تضع المال بين يدى . ولن تأسف على هذا أبداً . »

— « إنها نقود تركها لها أخوها ، ياسيدى » .

— « أعرف ذلك وقد حاولت إقناعها حين سحبتها . ولكنها أدارت عينها الزرفاوية بشكل غامض - وقالت إنها تريد أن تلقى نظرة هنا وهناك . ألا تستطيع أن تلقى نظرة هنا وهناك دون أن يكون هنا فى جيبها ألف دولار ؟ عليك أن تعلم هذا جيداً ، إذا كانت هى لا تعلم » .

— « أحسب أنه ليست لدى أية خبرة بهذا ، يا مستر بيكر . فلم نمتلك أية نقود منذ أن تزوجنا » .

— « حسنا ، يجدر بك أن تتعلم وتتعلم سريعاً ، وإلا فلن يبقى لديكم منها شيء مدة طويلة . إن عادة الإنفاق مثل المخدرات مع بعض النساء » .

— « لم تتح لمارى الفرصة لتنمية هذه العادة يا سيدى » .

— «حسناً إنها ستنميها ، دعها فحسب تتذوق الدماء وستتحول إلى قاتلة» .

— « مستر بيكر ، لاأظنك تعنى ذلك » .

— « إننى أعنيه أيضا » .

— «لم توجد زوجة قط أكثر منها حرصاً على النقود ، وقد كانت مضطرة لذلك » .

ولسبب ما أثار زوبعة ، وقال : «إنه أنت الذى خاب فيك أملى ، يا إيثان . إذا كنت تنوى الحصول على أية مكانة فينبغى عليك أن تكون سيد بيتك . كان باستطاعتك أن تؤجل الأثاث الجديد لفترة قصيرة أخرى » .

— « كنت أستطيع ، ولكنها لا تستطيع » وخطرت لى الفكرة بأن رجال المصارف ربما استطاعوا أن يدربوا عيونهم لتصبح مثل أشعة إكس وتظهر النقود ، وبأن فى وسعه أن يرى الظروف خلال ثيابى . « سأحاول إقناعها ، يا مستر بيكر » .

— « هذا إذا لم تكن قد صرفتها فعلا . هل هى بالمنزل الآن ؟ »

— « قالت إنها ستستقل الأوتوبيس إلى ريدج هامبتون » .

— « يا إلهى الرحيم ! ها هى ألف دولار تضيع » .

— « حسناً ، ولكن لازال لديها بعض رأس المال » .

— « ليست تلك هى النقطة . إن وسيلة دخولك الوحيدة هى النقود » .

وقلت فى نعومة : « والنقود تجلب النقود » .

— « ذلك صواب . أبعد ذلك عن ناظريك وستكون أوزة ضائعة ، ستظل موظفاً فى بقالة طيلة البقية الباقية من حياتك » .

— « إننى آسف لأن هذا حدث » .

— « حسناً ، من الأفضل أن تطبق القانون » .

— « إن النساء مضحكات ، يا سيدى . ربما أعطاها حديثك بالأمس عن كسب النقود الفكرة ، بأن الحصول عليها سهل » .

— « حسناً ، أوضح لها الحقيقة ، لأنه بدون هذا لن تستطيع الحصول على أى شىء » .

— « أتتناول زجاجة كوكا كولا باردة يا سيدى ؟ »

— « أجل » .

لم يكن يستطيع شربها من الزجاجة . وكان على أن أفتح كيساً من أكواب الرحلات المصنوعة من الورق ، وقد هدأت الكوكا كولا من حدته قليلاً . فقد غمغم بصوت كالرعد المتراجع .

دخلت سيدتان زنجيتان ممن يسكن عند التقاطع ، وكان عليه أن يبتلع كوكا كولاته وغضبه . « عليك أن تكلمها » . قالها فى وحشية وخطا خارجاً وعبر الشارع ليذهب إلى بيته . وعجبت إذا ما كان الحنق قد تملكه لأنه كان مرتاباً ، ولكننى لا أظن الأمر كذلك . كلا ، أظنه كان حانقاً لأنه أحس بأنه قد فقد عادته فى إصدار الأوامر . ويمكن أن يتملك الحنق على شخص ما ، عند ما لا يأخذ بنصيحتك .

كانت السيدتان الزنجيتان مرحتين . وهناك عند التقاطع ، تقطن جماعة من الملونين وهم أناس ظرفاء جداً . وهم لا يشترون منا كثيراً لأن لهم محلهم الخاص، وهم يقومون بشراء أشياء للمقارنة من حين لآخر فحسب ، ليروا ما إذا كان ولاءهم المنصرى لا يكلفهم الكثير جداً . وهن يساومن فى الأسعار أكثر مما يشترين، وأنا أفهم السبب ، وهن أيضا ، نساء جميلات ، لهن تلك السيقان ، الطويلة المستقيمة الرشيقة . إنه لعجيب ما يمكن أن يفعله سوء التغذية فى فترة الطفولة بجسم الكائن البشرى وروحه فيما يتعلق بالجمال .

قبل الغلق مباشرة اتصلت تليفونياً بمارى . « يا حمامتى ، سأتأخر بعض الوقت » .

— « تنسى أننا سنتناول العشاء مع مارجى فى الفورماستر » .

— « إننى أذكر » .

— « حتى متى تنوى أن تتأخر ؟ »

— « عشر أو خمس عشر دقيقه . أريد أن أتمشى وأتطلع إلى الكراكة فى الميناء » .

— « لماذا ؟ »

— « أفكر فى شرائها » .

— « أوه » !

— « أتريدين منى أن أحضر لك بعض السمك؟ »

— « حسناً ، إذا وجدت بعض سمك الفلوندر المفلطح الطازج . فذلك تقريباً هو كل ما يباع ».

— « حسناً ـ سأهرع إليه » .

— « والآن لا تتلكأ . سيكون عليك أن تستحم وتغير ملابسك . فأنت تعرف الفورماستر » .

— « لن أتأخر ، يا حلوتى ، يا حبيبتى . لقد صب على مستر بيكر جام غضبه لأننى تركتك تنفقين ألف دولار » .

— « ذلك العنزة العجوز ! »

— « مارى ! إن للجدران آذاناً » .

— « قل له أن يفعل ما يستطيع » .

— « ولكنه لا يستطيع . وبالإضافة ، فإنه يعتقد أنك غبية » .

— « ماذا ؟ »

— « وأننى رخو ، رخو ـ وأنت تعرفين كيف أكون » .

كانت مضحك ضحكتها المرتعشة الحلوة ، تلك التى كانت تبعث فى روحى أكبر قدر من السرور .

قالت : « أسرع إلى البيت ، يا عزيزى . أسرع إلى البيت » كيف يكون وقع هذا على رجل ! حين علقت سماعة التليفون ، وقفت إلى جواره وأنا ضعيف ومتهالك وسعيد فى وقت واحد ، إذا كانت توجد حالة كتلك . حاولت أن أتذكر كيف كان الحال قبل مارى ، ولكن لم أستطع التذكر ، أو كيف يمكن أن يكون الحال بدونها ، ولم أستطع تصوره ، إلا بأنه سيكون حياة يحوطها السواد . وأظن أن كل واحد فى فترة أو أخرى يكتب شاهد قبره . ويمكن أن يكون شاهدى ، « وداعا ، يا شارلى » .

كانت الشمس قد انحدرت أسفل التلال الغربية ، ولـكن سحابة مغبرة ضخمة كانت تغترف ضوءها وتلقيه على الميناء وحاجز الأمواج ، وعلى البحر خلفه ، لدرجة أن صارت الموجات ذات الزبد حمراء كالورود . كانت الركائز الخشبية التى فى الماء بجوار رصيف المدينة ، تتـكون من ثلاث كتل من الخشب يربطها عند القمة سير من الحديد ، وتنحدر كأنها أبراج مطار لتمزق ثلج الشتاء . وعلى قمة كل منها وقف طائر نورس بلا حراك ، وهو غالباً ذكر ، ذو صدار أبيض لا تشوبه شائبة وجناحين رماديين نظيفين . وإنى لأتساءل : هل كل منها يملك مكانه ، ويستطيع بيعه وتأجيره حسب مشيئته ؟. كانت هناك بضعة قوارب صيد بداخل الميناء . وأنا أعرف كل الصيادين ، وقد عرفتهم طيلة حياتى ، كانت مارى على صواب . لم يكن لديهم سوى سمك الفلوندر . وابتعت أربع سمكات طازجة من « جولوجان » ووقفت بينما كان يقطعها لى شرائح ، وسكينه ينزلق على طول السلسلة الفقرية بنفس السهولة التى تنزلق بها حين تـكون فى الماء . وفى الربيع يوجد موضوع حديث وحيد أكيد ـ متى سيصل سمك الشواطىء الشرقية ؟ وكانت عادتنا أن نقول : « عندما تزهر الليالق سيصل سمك الشواطىء الشرقية . » ولـكنك لا تستطيع أن تعتمد على هذا القول . يبدولى أن سمك الشواطىء الشرقية لم يصل طيلة حياتى أو أنه كان قد انصرف لتوه . ويا له من سمك جميل حين تحصل على واحدة منه رشيق كالسلمون المرقط ، ونظيف ، وفضى مثل ـ الفضة . ورائحته طيبة . حسناً ، لم يكن يجرى فى مياهنا . فلم يمسك جولوجان ولو واحدة منه .

وقال جو : « أما أنا ، فإننى أحب السمك النفاخ . والشىء المضحك ،

حينما تدعوه السمك النفاخ لا يقربه أحد ، ولـكن سمه فراريج البحر ، وسيتقاتل الزبائن من أجله » .

— « كيف حال ابنتك ، ياجو » ؟

— « أوه ، يبدو عليها التحسن ، ثم تأخذ فى الذبول ثانية ، إن هذا يقتلنى » .

— « هذا سيىء جدا . إننى آسف من أجلك » .

— « لو كان هناك ثمة ما يمكن عمله » .

— « أعرف ـ الطفلة المسكينة . إليك كيساً ، أسقط فيه السمكات .. بلغها حبى ، ياجو » .

نظر طويلا فى عينى كما لو كان يأمل فى أن يستخلص منى شيئا ما ، دواء ما . وقال « سأفعل ذلك ، ياإيث . سأبلغها » .

خلف حاجز الأمواج كانت « كراكة » البلدة تعمل ، و« بريمتها » العملاقة تحفر الطين والأصداف البحرية ، بينما تدفع المضخات القذارة خلال ماسورة على عوامات ، وتقذفها على الشاطىء خلف الحواجز التى اسودت من القار . كانت أنوار تشغيلها مضاءة وكذلك مصابيح سيرها ، كما علقت كرتان حمراوتان لتنبئا أنها تعمل . كان هناك طباخ شاحب يرتدى قبعة بيضاء ومبدعة ويسند ذراعيه العاريتين إلى القضيب ويتطلع إلى أسفل الماء العكر ، وأحيانا ما يبصق فى الموجة الهائجة . كانت الريح تهب إلى الشاطىء وتجلب من عند « الكراكة » رائحة الطين النتنة ، والمحارات التى ماتت منذ أمد بعيد ، والأعشاب الملوثة مع الرائحة الحلوة المنبعثة من خبز قرفة فى فطيرة تفاح . واستدارت « الكراكة » الضخمة فى جلال وهى تحفر فى القناة .

وحينئذ وفى ومضة وردية ، التقطت أشرعة يخت صغير ضوء الشفق ، ثم اقتربت وفقدت الضوء ، وتجولت عائداً ، ثم استدرت إلى الخلف مخلفا دار البحرية الجديدة ، ونادى اليخت القديم ، وقاعة الفرقة الأمريكية بمدافعها البنية الطلاء والرابضة بجوار درجاتها .

كانوا يعملون إلى ساعة متأخرة فى ساحة القوارب ، وهم يحاولون طلاء القوارب المخزونة ، وإعدادها لمواجهة الصيف القادم . كان البرد غير العادى فى الربيع المبكر قد أعادهم ثانية للطلاء والتلميع .

سرت مسرعاً متجاوزاً مصانع القوارب ، وبعدئذ منحدراً خلال بقعة الأرض ذات الأعشاب النامية متجهاً إلى حافة الميناء ، وبعدئذ عدت فى بطء متجها إلى كوخ دانى المتواضع ، وصفرت لحناً قديماً على عكس رغبته .

وبدا أنه لم يرغب فى ذلك ، فقد كان كوخه خاوياً ، ولكنى كنت أعلم علم اليقين كما لو كنت أراه ، أن دانى كان يرقد مختفيا بين الأعشاب ، وربما بين الجذوع المربعة الضخمة التى تبعثرت حول المكان . وحيث أنى كنت أعلم أنه سيعود حالما انصرف ، فقد تناولت المظروف البنى من جيبى وأسندته فوق فراشه القذر وانصرفت مبتعداً ، وأنا لا أزال أصفر ، ماعدا لمحظة واحدة حين ناديت بصوت رقيق « وداعا ،يادانى . وحظاً سعيداً . » وسرت فى طريقى أصفر عائداً إلى الشارع ثم فى اتجاه بورلوك ، وتجاوزت البيوت الفخمة إلى شارع إلم ، وبنفس الحال إلى منزلى - بيت آل هولى .

وجدت عزيزتى مارى فى قلب عاصفة ، كانت تدور فى هدوء وبطء وسط الأنقاض ، ورياح ضخمة تهب من حولها . كانت تدير عملية التدمير وهى تلبس

ردائها الداخلى المصنوع من النايلون الأبيض وترتدى خفها ، كان شعرها المغسول حديثاً قد التف حول مشابك الشعر فوق رأسها وكأنه قطيع ضخم من الخنازير الرضيعة . لا أستطيع أن أتذكر متى خرجنا لتناول العشاء فى مطعم . فلم يكن نستطيع دفع تكاليفه ومن ثم فقدنا العادة . وقد أهاج انفعال مارى الوحشى الأطفال ، وأوصلهم إلى حافة إعصارها الشخصى . لقد أطعمتهم ، وغسلتهم ، وأصدرت لهم الأوامر ، ثم ألغت الأوامر . وكانت لوحة الكى منتصبة فى المطبخ ، وملابسى العزيزة القيمة مكوية ومعلقة على ظهور الكراسى . كانت مارى تتوقف فى أثناء ركضها لتمر بالمكواة على ثوب كانت تكويه . كان الطفلان قد بلغ بهما السرور حد ألا يأكلا ، ولكنهما كانا قد تلقيا الأوامر .

لدى أربع حلل تسمى « الحلل الأحسن » — وهذا عدد طيب بالنسبة لموظف فى محل بقالة ، وتحسستها بأصابعى على ظهور الكراسى . كانت أسماؤها : الزرقاء العتيقة ، وجورج بروان الحلوة ، ودوريان جراى ، وحلة الجناز السوداء أو الحصان الساكن .

— « بأية واحدة سأرتدى ، ياحاصتى ؟ »

— « حاصتى ؟ أوه ! حسناً ، إنها ليست رسمية ، كما أنها ليلة الاثنين بودى أن أقول إنها يمكن أن تكون جورج بروان الحلوة ، أو دوريان أجل ، دوريان ففيها من الرسمية ما يكفى ، دون أن تبدو رسمية » .

— « مع ربطتى البابيون الحريرية المنقطة ؟ »

— « طبعاً » .

اندفعت إيلين داخلة . « بابا ! أنت لن ترتدى البابيون ! فأنت كبير السن جداً على ذلك » .

— « إننى لست كذلك . إننى شاب ومرح وطائش » .

— « ستكون طائر عنز مضحك . إننى سعيدة لأننى لن أذهب معكم » .

— « وأنا أيضا . من أين خطرت لك فكرة أننى عنز عجوز ؟ » .

— « حسنا ، إنك لست عجوزاً ، ولكنك كبير السن جداً على ارتداء بابيون » .

— « أنت رجعية صغيرة رديئة » .

— « حسنا ، مادمت ترغب فى أن تكون عنزاً مضحكاً » .

— « ذلك ما أرغب فى أن أكونه . مارى ، ألا تريدين أن أكون عنزاً مضحكاً » .

— « دعى والدك وشأنه ، فعليه أن يستحم . لقد أخرجت لك قميصاً على الفراش » .

وقال آلان : « لقد وصلت إلى منتصف مقالتى « أنا أحب أمريكا . »

— « هذا حسن ، لأننى أنوى الحاقك بعمل فى الصيف القادم » .

— « عمل ؟ » .

— « فى المحل » .

— « أوه ! لم يبد متحمساً جداً » .

فتحت إيلين فمها ، ولكنها استرعت انتباهنا ولم تقل شيئاً . وكررت مارى الأشياء الخمسة والثمانين التى ينبغى على الأطفال أن يفعلوها ، أو لا يفعلوها فى أثناء خروجنا ، وصعدت أنا الدرج لآخذ حمامى .

كنت أعقد ربطتى العزيزة الزرقاء الحريرية المنقطة ، ربطتى الحريرية الوحيدة الزرقاء المنقطة ، حين استندت إيلين إلى الباب من الداخل . وقالت فى أنوثة مخيفة : « لن تـكون بمثل هذه الرداءة ، لو كنت أصغر فى السن » .

— « انك ستمنحين زوجا سعيداً وقتا تعساً ، ياعزيزتى » .

— « بل حتى طلبة الفصول المتقدمة فى المدرسة العليا لا يرتدونها » .

— « ولـكن رئيس الوزراء ما كميلان يرتديها » .

— « ذلك مختلف . بابا هل يعتبر غشاً أن ينقل شيء ما من كتاب ؟ »

— « أو ضحى ؟ »

— « حسنا ، لو أن شخصاً ، لو كنت أكتب مقالى ونقلت مادة من كتاب ـ فماذا يكون ذلك ؟ »

— « سيعتمد الأمر على كيفية فعل ذلك » .

— « أقول كما قلت ـ أوضح » .

— « ألا تعنين » مثلما قلت أنا « ؟ »

— « نعم » .

— « حسنا ، لو وضعت قوسين صغيرين حولها وتذييلاً تقولين فيه من الذى كتبها ، فيمكن أن تضيف الموضوع مهابة ونفوذاً . وأعتقد أن نصف مايكتب فى أمريكا اقتباسات إن لم يكن مختارات . والآن هل تعجبك ربطتى ؟ »

— « افترض أنك لم تضع تلك العلامات » .

— « حينئذ تصير سرقة مثل أى نوع آخر من السرقة . أنت لم تفعلى ذلك ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا » .

— « إذن فما هى مشكلتك ؟ »

— « وهل يمكنهم أن يضعوك فى السجن ؟ »

— « يمكن – إذا حصلت على نقود فى مقابلها . لا تفعلى هذا ، يا ابنتى .
والآن ما رأيك فى ربطتى ؟ »

قالت « أعتقد أنها لا تلائمك إطلاقاً » .

— « إذا كنت تنوين اللحاق بالآخرين ، فيمكنك أن تخبرى أخاك ذا العينين الطارفتين أننى أتيت له بقناع ميكى ماوس الدامى ، وليحل العار عليه » .

— « إنك لا تصغى إلى أبدا ، لا تصغى إصغاء حقيقياً » .

— « بل إننى أصغى فعلاً » .

— « كلا ، أنت لا تفعل . وستأسف على ذلك » .

— « وداعاً ، ياليدا . بلغى سلامى للأوزة » .

ابتعدت فى تكاسل ، إنها طفلة أسمنتها الرغبة . والبنات يقتلننى . حين يستحلن إلى بنات .

كانت زوجتى مارى جميلة فعلا ، جميلة فعلا ومتألقة . ومن داخلها كان يشع ضياء ينبثق من مسامها . وتناولت ذراعى وهى تسير فى شارع إلم تحت الأشجار المتعانقة وأنوار الشارع تتراقص فوقنا : وأقسم أن ساقينا كانت تتحرك فى خطوات مختالة رقيقة كخطوات الخيل الأصيلة حين تصل إلى حاجز السباق .

— « ينبغى أن تأتى إلى روما ! إن العالم العظيم يناديك . »

فضحكت . وأقسم أنها ضحكت بشكل يسبغ الشرف على ابنتنا .

— « سنخرج مرات متعددة ، يا عزيزتى » .

— « متى ؟ »

— « حين نصير أغنياء » .

— « ومتى يتم ذلك ؟ »

— « حالا . وسأعلمك كيفية ارتداء الحذاء » .

— « وهل ستشعل سيجارتك بورق من فئة العشرة دولارات ؟ »

— « بل من فئة العشرين » .

— « إننى أحبك » .

— « إنها قشور ، ياسيدتى . ولا ينبغى أن تقولى ذلك ، فأنت تحرجيننى تمـاماً »

منذ فترة ليست بالطويلة ركب أصحاب الفورماستر نوافذ مقوسة تطل على الشارع ، وهى نوافذ ذات ألواح مربعة صغيرة من زجاج القنينات ، وقد صممت لتجعل المكان يبدو عتيقا وأصيلاً ـ وقد بدا كذلك ـ ولكن الناس الجالسين إلى المناضد بالداخل ، كانت أشكال وجوههم تتغير بسبب الزجاج الملتف . فأحد الوجوه يبدو كله وكأنه فك ، ووجه آخر وكأنه عين كبيرة فارغة ، ولكن هذا كله كان يزيد من عمر وأصالة الفورماستر العتيق . وذلك أيضا ما كنت تضفيه عليه نباتات منقار الغرنوق وأعشاب اللوبيليا المزروعة فى الأحواض التى بأسفل النوافذ .

كانت مارجى فى انتظارنا ، مضيفة إلى أطراف أناملها . وقدمت لنا رفيقها ، شخص يدعى مستر هارتوج من نيويورك ، لوحته الشمس وتهيأت له أسنان كأنها أذن سيد من الريف . وقد بدا على مستر هارتوج الانطواء والخجل ، ولكنه

كان يجيب على كل جملة بضحكة استحسان ، كانت هى مشاركته فى الحديث ، ولم تكن مشاركة رديئة .

قالت مارى : « كيف حالك ؟ »

وضحك مستر هارتوج .

وقلت : « أتعشم أن تعلم أن رفيقتك ساحرة . »

وضحك مستر هارتوج . وكنا جميعاً نشعر بأننا فى خير حال .

قالت مارجى : « لقد طلبت منضدة مجاورة للنافذة ، تلك التى هناك . »

— « وقد جعلتهم أيضا يضعون زهورا خاصة ، يامارجى . »

— « مارى ، كان على أن أفعل شيئاً ما لأرد كل عطفك . »

واستمرتا على هذا المنوال فى أثناء و بعد أن أجلستنا مارجى ، وكان مستر هارتوج يضحك فى كل لحظة ، من الواضح أنه رجل ذكى . ورسمت خطة استخلص بها كلمة منه ولكن فيما بعد .

كانت المائدة المعدة تبدو رائعة و بيضاء جداً ، وكانت الفضيات التى ليست من الفضة تبدو مفضضة بشكل زائد .

قالت مارجى : « إننى المضيفة وذاك يعنى أننى الرئيسة ، وأنا أقول مارتينى سواء أردتموه أم لا ، وضحك مستر هارتوج .

وجاءت كئوس المارتينى ، لم تكن أكوابا صغيرة كحمامات الطيور ومعها شرائح ملتوية من قشر الليمون . كان مذاقه الأول لاذعاً مثل عضة الخفاش مصاص الدماء ، و بعث خدره البسيط ، و بعد ذلك رق طعم الشراب ، وقرب نهاية الكأس استحال شربه إلى شىء طيب .

وقالت مارجى : « سنتناول كأسين . الطعام جيد هنا ولـكنه ليس بمثل جودة الشراب » .

و بعدئذ قصصت كيف كنت أخطط دائماًلفتح بار ، يمـكنك فيهأن تتناول كأسك الثانى من المارتين فحسب . وحتما كنت سأجمع ثروة .

وضحك مستر هارتوج ، وظهرت فوق مائدتنا أربعة حمامات طيور أخرى ، حين كنت لاأزال أمضغ شريحة الليمون الأولى .

نمت لدى مستر هارتوج القدرة على الكلام مع أول رشفة من شرابه الثانى كان صوته منخفضاً متذبذباً ، مثل ذلك الذى يكون لممثل أو مغن أو وكيل متجول يدعو لنوع من المنتجات لايرغبه الناس . و بإمكانك حتى أن تسميه صوتاً يدعو للنعاس .

قال : «مسز يانج هنت تقول إنك من رجال الأعمال هنا . إنها بلدة ساحرة لم تتلف بعد » .

وكنت على وشك أن أقول له طبيعة عملى بالضبط ، حين تناولت مارجى دفة الحديث ، وقالت : « إن مستر هولى هو قوة المستقبل فى هذا البلد »

— « هكذا ؟ وفى أى حقل تعمل ، يامستر هولى ؟ »

فقالت مارجى : « كل شىء كل شىء على الإطلاق ، ولـكن ليس بطريقة مكشوفة كما تعلم . » كان فى عينيها ألق الشراب . وتطلعت إلى عينى مارى كان التألق قد بدأ يكسوها ، وهكذا حكمت أن الآخرين قد تناولا زوجاً من كئوس الشراب قبل أن تأتى ، أو على الأقل مارجى .

قلت : « حسناً ، ذلك ينقذنى من مهمة إنكاره » .

وعاد مستر هارتوج إلى ضحكته . « إن لك زوجة بديعة ، وذلك نصف المعركة » .

— « بل ذلك كل المعركة » .

— « إيثان ، ستجعله يعتقد أننا نتشاجر » .

— «أوه ، إننا فعلاً نفعل!» واجترعت نصف الكأس وأحسست بالدفء يقفز إلى أعلى خلف عيني . وكنت أتطلع إلى قاع الزجاجة فى إحدى تربيعات النافذة الصغيرة . كانت تلتقط ضوء الشمعة وبدا أنها تدور فى بطء . وربما كان ذلك ـ تنويما مغناطيسياً ذاتياً ، لأننى سمعت صوتى يتتابع ، وكنت أصغى إلى نفسى من خارج نفسى . « إن مسز مارجى هى ساحرة الشرق . والمارتينى ليس شرابا ، إنه جرعة دواء » . كانت الزجاجة ذات الوميض لا تزال تجتذبنى .

— « أوه ، ياإلهى ! كنت دائما أعتقد أننى مثل أوزما . ألم تكن ساحرة الشرق ساحرة شريرة ؟ »

— « كانت كذلك فعلا . »

— « ألم تتلاشى ؟ »

وخلال الزجاج المعقوف رأيت صورة رجل يمشى ماراً على الرصيف . كان شكله كله قد تشوه بواساطة تحريف الزجاج ، ولكنه كان يميل برأسه قليلا ناحية اليسار ، ويسير بطريقة عجيبة على الجزء الخارجى من قدميه . كان دانى يفعل ذلك . ورأيت نفسى أقفز إلى أعلى وأهرع خلفه . رأيت نفسى أجرى إلى ناصية شارع إلم ، ولكنه كان قد اختفى فعلاً ، ربما فى الحديقة الخلفية للمنزل الثانى

وصحت ، داني ! داني ! أعدإلى النقود . أرجوك ، ياداني ، أعدهاإلى . لاتأخذها إنها نقود مسمومة . إنني سممتها ! »

سمعت ضحكة كانت ضحكة مستر هارتوج . وقالت مارجى : « حسنا ، كنت أفضل أن أكون أوزما . »

مسحت الدموع من عيني بفوطة ، وقلت شارحاً : « كان ينبغى أن أشرب الشراب ، لا أن أحمى عينى فيه . انه يحرق . »

وقالت مارى : « إن عينيك محمرتان تماماً » .

لم أستطع العودة إلى الحفل ، ولكنى سمعت نفسى أتكلم وأحكى حكايات وسمعت زوجتى مارى تضحك ضحكة كالجد المذهب ، وهكذا خمنت أننى كنت مرحاً ، بل وحتى جذاباً ، ولكنى لم أستطع أبداً أن أعود إلى المنضدة . وأظن أن مارجى عرفت الأمر . فقد ظلت تنظر إلى وفى عينها سؤال مختف ، عليها اللعنة . لقد كانت ساحرة .

لاأدرى ماذا كان أمامنا للأكل . أذكر نبيذاً أبيض ، ولعل ذلك كان سمكاً . كانت الزجاجة المتألقة تدور وكأنها مروحة . وكذلك كان يوجد براندى ولذا فلابد أن أكون قد تناولت قهوة ـ و بعدئذ انتهى الأمر .

وفى أثناء خروجنا ، وحينما تقدمتنا مارى ومستر هارتوج ، تساءلت مارجى :

— « إلى أين ذهبت » ؟

— « لاأعرف ماذا تقصدين » .

— « إنك ذهبت بعيداً . كنت هنا جزئياً فحسب » .

— « ألست ، ساحرة » !

قالت : « حسناً ، أيها البرعم الصغير » .

فى طريق عودتنا إلى البيت ، كنت أفتش فى ظلال الحدائق . كانت مارى متعلقة بذراعى ، وخطواتها مهتزة قليلا . وقالت :

— « ياله من وقت ممتع ، لم أمض من قبل أبداً وقتا أمتع من هذا » .

— « كان وقتاً لطيفاً » .

— « إن مارجى مضيفة كاملة . ولاأدرى كيف سأرد لهـا مثل ذلك العشاء » .

— « إنها كذلك بالتأكيد » .

— « وأنت ياإيثان كنت أعلم أنك تستطيع أن تكون مرحاً ، ولكنك أضحكتنا طيلة الوقت .لقد قال مسترهارتوج إنه تعب من كثرة الضحك على المستر رد بيكر » .

هل تكلمت عن ذلك ؟ عن أية حكاية ؟ لابد أن أكون قد فعلت . أو دانى أعد النقود ! أرجوك !

وقالت زرجتى مارى : « أنت أفضل من عرض مسرحى » . وفى مدخل بيتنا جذبتها إلى بقوة شديدة ، لدرجة أنها شهقت وهى تقول : « إنك منقلب المزاج ، ياعزيزى . إنك تؤلم . أرجوك لاتدعنا نوقظ الأطفال » .

كان قصدى أن أنتظر حتى تنام ، و بعدئذ أنسل إلى الخارج ، لأذهب إلى كوخة لأبحث عنه ، بل وحتى لأجعل البوليس يقتفى أثره . ولكنى كنت أعلم جيداً . لقد اختفى دانى . كنت أعـلم أن دانى قد اختفى . ورقدت فى الظلام أرقب النقط الحمراء والصفراء وهى تسبح فى دموع عينى . كنت أعلم مافعلت .

وكان دانى يعلمه أيضاً . فكرت فى قتلى للأرنب الصغير . ربما تكون هذه أول مرة فحسب يتملكنى فيها البؤس . وينبغى مواجهته . ينبغى على المرء فى الأعمال وفى السياسة أن يحفر ويمهد طريقه خلال رجال ، لكى يتوصل إلى القمة وحالما يصل إلى هناك ، يستطيع أن يكون عظيماً وعطوفاً ـ ولكن يتحتم عليه أولا أن يصل إلى هناك .

الفصل العاشر

يبعد مطار تمبلتون عن نيوبايتون حوالى أربعين ميلاً فحسب ، وذلك يقارب خمس دقائق طيران بالنسبة للنفاثات . وهى تحلق فوقنا بانتظام متزايد ، كأسراب من البعوض المميت . وأتمنى لو استطعت الإعجاب بها ، أو حتى حبها مثلما يحبها ابنى آلان . وربما استطعت حبها لو كان لهذه الطائرات أكثر من غرض واحد ، ولكن مهمتها الوحيدة هى القتل وأناقد امتلأت معدتى منه . إننى لم أتعلم ، مثل آلان ، أن أحدد مواقعها بالتطلع أمام الصوت الذى ينبعث منها . إنها تخترق الحاجز الصوتى محدثة فرقعة تجعلنى أعتقد أن الفرن قد انفجر . وحين تحلق فوقنا فى أثناء الليل ، تتداخل فى أحلامى فأستيقظ وبى إحساس سىء بالمرض ، وكأن روحى قد أصيبت بقرحة .

فى ساعة مبكرة من الصباح أحدث سرب منها فرقعاته فقفزت مستيقظاً ، وأنا أرتعد قليلا . ولابد أنها جعلتنى أحلم بتلك البنادق الألمانية من عيار ٨٨ ملليمتر التى تستخدم فى كافة الأغراض والتى اعتدنا أن نعجب بها ونخشاها كثيراً جداً .

كان جسدى يخزنى من عرق الخوف ، وأنا راقد فى ضوء الصباح المتجمع ، أصغى إلى مغازل الخسة الرقيقة وزئيرها يغيض على البعد . وفكرت كيف كانت تلك الرعدة تحت جلد كل إنسان فى العالم ، لم تكن فى ذهنه ، بل عميقة تحت الجلد . إن الأمر ليس أمر النفاثات بقدر ماهو الغرض منها .

حين تتضخم حالة أو مشكلة تضخماً كبيراً جداً ، فإن الناس يتقونها بعدم التفكير فيها . ولكنها تتعمق إلى الداخل وتختلط بعديد من الأشياء الأخرى

الموجودة هناك فعلاً ، وينتج عن هذا الحزن والقلق ، والإحساس بالإثم والاضطرار للحصول على شيء — أى شيء — قبل أن يضيع جميعه . وربما لا يتناول علماء النفس الذين يسيرون على خطوط تجميع ، عقداً بالمرة ، بل يتناولون تلك الرؤوس الحربية التى قد يحدث يوما ما أن تصير سحباً على شكل نبات عيش الغراب . والحقيقة أن كل من أراه تقريباً ، يبدو لى عصبياً وقلقاً ومرتفع الصوت قليلاً ، وأحمق فى مرح مثل أناس يسكرون فى ليلة رأس السنة . وكأنه يطبق المثل القائل : ينبغى تناسى المعارف القدامى وتقبيل زوجة جارك .

أدرت رأسى ناحية زوجتى . لم تكن تبتسم فى نومها . كان فمها متدلياً إلى أسفل ، وقد أحاطت بعينيها غير المقفلتين تماماً هالات الإعياء ، وإذن فهى مريضة ، لأنها تبدو هكذا حين تكون مريضة . وهى أحسن الزوجات صحة فى العالم إلى أن تمرض — وهذا ليس دائما — وحينئذ تصير أشد الزوجات مرضاً فى العالم .

أحدث سرب آخر من النفاثات فرقعة وهو يخترق حاجز الصوت . ربما نكون قد أمضينا نصف مليون عام لكى نعتاد استخدام النار ، وأقل من خمسة عشر عاما لكى نوجد التفكير فى هذه القوة التى هى أكثر وحشية من النار بكثير . هل أتيحت لنا الفرصة قط لنجعل منها أداة طيعة ؟ وإذا كانت قوانين التفكير هى قوانين الأشياء ، فهل يمكن أن يحدث انقسام ذاتى فى الروح ؟ وهل هذا ما يحدث لى الآن ، ويحدث لنا ؟

أذكر قصة حكتها لى العمة ديبورا منذ أمد بعيد . فى فترة مبكرة من القرن الماضى كان بعض أفراد عائلتى ينتمون إلى طائفة « حواريى

المسيح (*) » . وكانت العمة ديبورا طفلة آنذاك، ولكنها كانت تذكر كيف أن نهاية العالم آتية فى وقت محدد . وترك والداها وراءهما كل شىء يمتلكانه ما عدا ملاءات الفراش . وتلك التفا بها ، وفى الوقت المتنبأ به ذهبا إلى التلال ليلاقيا نهاية العالم . كان مئات من الناس ، يصلون ويغنون . وهم يرتدون الملاءات ، وحل الليل فعلا غناؤهم ورقصوا ، وحين اقترب الموعد المحدد ، سقط شهاب — حسب قولها — وصرخ كل فرد . كانت لا تزال تستطيع تذكر الصراخ . كانوا كالذئاب — حسب قولها — وكالفهود ، رغم أنها لم تر فهداً قط . وحينئذ حانت اللحظة . وأمسك رجال ونساء وأطفال يتدثرون بالبياض أنفاسهم . واستمرت اللحظة واستمرت . وأصابت الأطفال زرقة فى الوجوه — وبعدئذ انقضت اللحظة . لقد تم الأمر وغرر بها مما أدى إلى دمارهم . ومع الفجر زحفوا إلى أسفل التل وحاولوا استرداد الملابس التى خلفوها ، مع آنيتهم وقدورهم وثيرانهم وحميرهم . وأنا أذكر إلى أيه درجة من السوء كانت أحاسيسهم .

أعتقد أن ما أعاد تلك القصة إلى ذاكرتى هو التفاتات — كل ذلك الجهد الهائل والوقت والمال لكى نختزن كل ذلك الموت . هل كنا سنحس بالخديعة لو لم نستعملها أبداً ؟ بوسعنا أن نطلق صواريخ فى الفضاء ، ولكننا لا نستطيع أن نشفى غضباً أو حزناً .

فتحت زوجتى مارى عينيها ، وقالت : « إيثان ، أنت تتكلم مع نفسك . ولا أدرى عن أى شىء ، ولكن صوتك عال . أبطل التفكير ، يا إيثان » .

(*) حواريو المسيح « طائفة أسسها فى بنسلفانيا سنة ١٨١٠ توماس واسكندر كامبل » وهى طائفة تتمسك بالكتاب المقدس وحده ، وتحتفل بالعشاء الربانى كل يوم أحد . وقد انفصلوا بكنائسهم وأصبحوا طائفة مستقلة ، وسميت كنائسهم باسم « كنائس المسيح » .

كنت على وشك إقتراح أن تكف عن الشراب ، ولكنها بدت بائسة جداً . وأنا دائما لا أعرف متى ينبغى على ألا أمزح : ولكنى هذه المرة قلت :

— « أهى رأسك ؟ »

— « أجل » .

— « ومعدتك ؟ »

— « أجل » .

— « وكل جسمك ؟ »

— « كل جسمى » .

— « هل أحضر لك شيئا ؟ »

— « أحضر لى قبراً » .

— « ابقى راقدة » .

— « لا أستطيع . على أن أهيىء الأطفال للمدرسة » .

— « سأقوم بهذا » .

— « عليك أن تذهب لعملك » .

— « سأقوم بهذا ، أقول لك » .

وبعد لحظة ، قالت : « إيثان ، أعتقد أننى لاأستطيع النهوض . إننى أشعر أننى مريضة جداً » .

— « هل آتى بطبيب ؟ »

— « كلا » .

— « لاأستطيع أن أتركك بمفردك . أيمكن أن تبقى إيلين معك » ؟

— « كلا ، فلديها امتحانات » .

— « هل أتصل تليفونيا بمارجى يانج هنت لتأتى إلى هنا » ؟

— « لقد رفعوا تليفونها . وستحصل على جهاز جديد » .

— « يمكننى المرور عليها وسؤالها المجىء » .

— « ستقتل أى إنسان يوقظها فى هذه الساعة المبكرة » .

— « باستطاعتى أن أدس ورقة تحت بابها » .

— « كلا ، لا أريدك أن تفعل » .

— « ليس فيها شىء » .

— « كلا ، كلا ، لا أريدك أن تفعل . لاأريدك أن تفعل » .

— « ولكنى لاأستطيع أن أتركك بمفردك » .

— « إنه لأمر مضحك . إننى أشعر بتحسن . أظن أن الصياح فيك هو الذى فعل ذلك . حسناً ، هذا صحيح » .

قالتها ، ثم لكى تبرهن على صحة قولها ، نهضت وارتدت الروب دى شامبر كان التحسن بادياً عليها بالفعل .

— « أنت رائعة ، ياعزيزتى »

جرحت نفسى فى أثناء الحلاقة ، ونزلت لتناول الإفطار وقطعة صغيرة حمراء من ورق التواليت ملتصقة بوجهى .

لم يكن مورفى واقفا تحت السقيفة يخلل أسنانه حين مررت بها . كنت سعيداً فلم أكن راغبا فى رؤيته . وأسرعت لمجرد أنه قد يحاول اللحاق بى .

حين فتحت الباب المفضى إلى الخارة رأيت مظروف المصرف البنى الذى دفع بأسفله . كان ملصوقاً ، ومظاريف المصارف تكون متينة . لذا كان على أن أخرج مطوتى من جيبى لأشقه وافتحه .

ثلاث ورقات من ورق كراسة مدرسية مسطرة من التى ثمنها خمسة سنتات وقد كتبت بقلم رصاص ناعم . وصية : « أنا ، وأنا بكامل قواى العقلية » . «وفى مقابل أننى. . .» وملحوظة بخط اليد : « أوافق على أن أرد وأرهن ما » . وكانت كلا الورقتين موقعتين ، والكتابة أنيقة متقنة . ثم « عزيزى إيث : هذا هو ما تريده » .

شعرت ببشرة وجهى تتصلب وكأنها ظهر سرطان البحر . وأغلقت باب الحارة ببطء كما لو أنك تغلق باب مدفن . فردت الورقتين الأوليين بعناية ووضعتهما فى حافظتى ، أما الأخرى — فقد كورتها ووضعتها فى المرحاض وجذبت السلسلة . وهو مرحاض ذو (سيفون) مرتفع ، و (سلطانية) ذات حافة ما . وقاومت الورقة المكورة عبور الحافة ، ولكنها فى النهاية عبرتها .

كان باب الحارة مفتوحاً قليلاً حين خرجت من المرحاض . وأظن أننى كنت قد أغلقته . وفى أثناء ذهابى متجهاً إليه ، سمعت صوتاً خافتاً ، وحين تطلعت إلى أعلى ، رأيت تلك القطعة اللعينة على أحد رفوف المخزن العليا ، تحاول غرس مخلبها فى الجانب المعلق من فخذ خنزير . وقد استهلكت فى طردها إلى الحارة مقشة ذات يد طويلة ومطاردة كاملة فبينما كانت تجرى متجاوزة إياى ، خبطتها خبطة عنيفة ، ولكننى أخطأتها وكسرت يد المقشة على قائمة الباب .

لم يكن ثمة احتفال من أجل الأطعمة المحفوظة فى العلب ذلك الصباح . فلم أستطع استرجاع نص . ولكننى أخرجت خرطوماً لأغسل الرصيف الأمامى

وبالوعة الماء أيضا . و بعد ذلك نظفت المخزن كله حتى الأركان التى طال إهمالها واختنقت من التراب . وكنت أيضا أغنى :

« الآن أحالت شمس يورك الساطعة »

« شتاء سخطنا إلى صيف رائع » .

أعرف أن هذه ليست أغنية ، ولكنى غنيتها .

القسم الثاني

الفصل الحادى عشر

نيو بايتون مكان جميل وميناؤها ، الذى كان عظيماً ذات يوم ، تحميه من رياح الشمال الشرقى المعولة جزيرة بعيدة . وأبنية القرية مبعثرة حول مجموعة متشابكة من المياه المتوغلة فى الأرض والتى يغذيها المد، وهى فى حالة المد والجزر تبعث تيارات عنيفة خلال قنوات تنساب من الميناء ومن البحر . إنها ليست بلدة مزدحمة أو حضرية . وفيما عدا المنازل العظيمة التى كان لصيادى الحيتان الذين انقرضوا منذ أمد بعيد ، فالمساكن صغيرة أنيقة ، موزعة بين أشجار عتيقة بديعة : بلوط من أنواع متعددة ، وأسفندان ودردار ، وشجر جوز و بعض من أشجار السرو ، ولكن الشجر المحلى هو البلوط فى معظم الأحوال ، فيما عدا أشجار الدردار المغروسة منذ القدم فى الشوارع الرئيسية . وذات يوم كانت أشجار البلوط البكر من الكثرة والضخامة بحيث أن عديداً من مصانع السفن كانت تأخذ من المنطقة المجاورة حاجتها من ألواح السفن وزواياها ، وقواعدها وهيا كلها .

المجتمعات ، مثل الناس ، لها فترات صحة وفترات مرض — بل حتى فترات شباب وكهولة ، وأمل ويأس . فقد مضى عهد كانت فيه نيوبايتون تنتج زيت الحوت الذى أضاء العالم الغربى . فقد كانت مصابيح الطلاب فى أكسفورد وكمبردج تأخذ وقودها من هذا المركز الأمريكى . وبعدئذ تفجر البترول ، أو الزيت الصخرى ، فى بنسلفانيا ، وحل الكيروسين الرخيص ، المسمى بزيت الفحم ، محل زيت الحيتان فجعل غالبية صيادى البحر يعتزلون عملهم . وحل المرض أو اليأس بنيو بايتون — وهى حالة ربما لم تشف منها . وهناك بلدان أخرى

ليست بعيدة جداً ، نمت وازدهرت عن طريق منتجات وأوجه نشاط أخرى ، ولكن نيو بايتون ، التى كانت كل دفعة حياتها تتركز فى السفن ذوات القلاع المربعة ، والحيتان ، غرقت فى الكسل . وتجاوزت حية تزايد السكان الزاحفة من نيو يورك ، نيو بايتون ، تاركة إياها لذكرياتها . وكما يحدث فى الغالب ، أقنع أناس نيو بايتون أنفسهم بأنهم يحبونها هكذا . فقد وفرت عليهم ضوضاء وفوضى المصطافين ، ووهج لافتات النيون الزاهى ، وانفاق نقود السياح وجلبتهم . وحول المياه الداخلية البديعة بنيت بضعة منازل جديدة فحسب . ولكن حية تزايد السكان واصلت تلويها الزاحف ، وكان كل فرد يعلم أنه إن آجلاً أو عاجلاً ستبتلع قريته نيو بايتون . واشتاق أهل البلدة لذلك ، ومقتوا فكرته فى آن واحد. كانت البلاد المجاورة غنية ، أغرقتها غنائم السياح ، وانتفخت من المفاسد ، وتألقت بالمنازل العظيمة لمحدثى الغنى . كانت بايتون القديمة تحتضن الفن وصناعة الفخار والمخنثين من الرجال ، وكانت النساء الملعونات ذوات الأقدام المفرطة من سلالة لزبوس ينسجن أقمشة مصنوعة باليد كما ينسجن الدسائس المنزلية الصغيرة .

أما نيو بايتون فكانت تتكلم عن الأيام الغابرة وعن سمك الفلاوندر المفلطح ومتى سيبدأ سمك الشواطىء الشرقية فى السريان .

على أطراف المياه الداخلية المليئة بالبوص ، أقام البط البرى أعشاشه ، وخرج يسبح مع أسطول صغير من صغاره ، وحفرت فيران المسك جحورها وأخذت تسبح رشيقة فى الصباح المبكر . كانت النسور السماكة تتحلق ، وتصوب ، ثم تنقض على السمك ، وطيور النورس تحمل اللزيق الصدفى والمحار

المروحى الشكل عاليا فى الهواء ، ثم تسقطها لكى تتكسر فتنفتح لتأكلها .
وكانت بعض كلاب البحر لاتزال تشق الماء وكأنها همسات خفية مغطاة بالفراء،
كانت الأرانب تنسل لسرقة الحدائق ، والسناجب الرمادية تتحرك مثل
أمواج صغيرة فى شوارع القرية . كانت الديوك البرية تصفق أجنحتها وتصيح
فى سعال . وفى الماء الضحل وازنت طيور البلشون الزرقاء نفسها ، وكأنها
سيوف طويلة ذات أرجل ، وعندما حل الليل صرخت طيور العجاج ، وكأنها
أشباح تشعر بالوحشة .

الربيع يحل متأخرا فى نيو بايتون وكذلك الصيف ، ولكن عندما يحل
يكون له صوت خاص ناعم ، ووحشى ، وكذلك رائحة وإحساس . ففى فترة
مبكرة من يونيو يتفجر عالم أوراق الشجر ونصاله وأزهاره ، ويصير كل غروب
مختلفاً عن الآخر . وبعدئذ فى المساء تعلن طيور الدراج عن أسمائها القصيرة ،
وبعد حلول الظلام يتكون جدار صوتى مصدره صقر الليل الأمريكى . وتغدو
أشجار البلوط محملة بالأوراق ، وتقذف بأزهارها ذات « الشرابات » الطويلة
بين العشب . وبعدئذ تلتقى كلاب من بيوت مختلفة وتذهب فى رحلات ،
وهى تتجول ذاهلة سعيدة فى الغابات ، وأحياناً لا تعود إلى البلدة طيلة أيام .

وفى شهر يونيو ، ومدفوعاً بالغريزة ، يجز الرجل العشب ويبذر البذور ،
ويتفرغ لمعركة مع الخلد والأرنب ، والنملة والخنفساء ، والطير ، وكل الحيوانات
الأخرى التى تتجمع لتسلب منه حديقته . وتتطلع المرأة إلى نهاية البتلات الملتوية
لوردة ما وتنتشى قليلاً ، ثم تتنهد ، وتصبح بشرتها بتلة وعيناها سداتين .

يونيو شهر بهيج — بارد ودافىء ، رطب وصياح بالنمو بإعادة إنتاج الحلو
والمؤذى ، والبانى والمخرب . فيه تتجول الفتيات فى شارع هاى فى سراويل

واسعة تبرز شكل أجسادهن ، وأيديهن متشابكة ، بينما تتربع على أكتافهن أجهزة راديوا ترانزستور صغيرة تشدو فى آذانهن بأغنيات الحب . أما الصبية اليافعون ، الذين يتفجرون سذاجة ، فيجلسون على المقاعد العالية فى محل تانجر وهم يحتسون فقاقيع المستقبل خلال مصاصات من القش . ويرقبون الفتيات بأعين معيزية جامدة ويتناقلون عبارات تحقير من واحد للآخر ، بينما تنشج أعماقهم من اللوعة .

وفى شهر يونيو يهبط رجال الأعمال على محل « آل وسو » أو « الفورماستر » ليتناولوا كوباً من الجعة ، أو يبقوا لتناول الويسكى ، وفى الأصيل تزحف السيارات المتربة إلى بوابة المنزل القصى المنعزلة ، الذى بلا طلاء وقد جذبت كل ستائره ، هناك عند نهاية شارع ميل ، حيث تتلقى أليس ، مشاكل الأصيل لرجال قرضهم شهر يونيو بنابه . وطيلة اليوم كله تقلع قوارب التجديف من عند حاجز الأمواج وبها رجال ونساء سعداء يتملقون البحر من أجل عشائهم .

ويونيو شهر طلاء وتشذيب ، شهر خطط ومشاريع . وإنه لرجل نادر ذلك الذى لايحضر إلى بيته بلاط الأسمنت وقطع الخشب الصغيرة ، ورسوماً تخطيطية لتاج محل مرسومة على ظهر مظاريف . وعلى الشاطىء ترقد مائة قارب صغيرة بطنها إلى أسفل وقاعها إلى أعلى ، وقيعانها تتألق بالطلاء النحاسى ، وأصحابها يشدون قاماتهم ويبتسمون لصف الموج البطىء الذى لا يتحرك . ولا تزال المدرسة تتمسك بالأطفال العنيدين حتى قرب نهاية الشهر ، وعندما يحين وقت الامتحان ، يعلو زبد الثورة ويتحول الزكام العادى إلى وباء ، طاعون ، يختفى يوم إغلاق المدرسة .

وفى شهر يونيو تنبت بذرة الصيف السعيدة . « إلى أين سنذهب فى يوم الرابع من يوليو الرائع ؟ لقد حان الوقت الذى ينبغى علينا فيه أن نخطط لأجازتنا » .

ويونيو هو أم القادرين ، ففيه يسبح البط الصغير فى شجاعة ربما إلى فلك السلاحف الخطافة المختفى تحت الماء ، ويندفع الخس تجاه أرض التحاريق ، وجذوع الطماطم الخلفية العنيدة ناحية الديدان القارضة ، وتقاوم العائلات مباهج الرمل وحرق الشمس بليال نكدة فوق جبال يعلو فيها صوت سيمفونيات بعوض . « سأحصل هذا العام على راحتى . ولن أجهد نفسى كثيراً . وهذا العام لن أسمح للأطفال أن يجعلوا من أسبوعى حريتى جحيماً لا يطاق . إننى أعمل طول العام » وينتصر التخطيط للأجازة على الذاكرة ويصير كل ما فى العالم على ما يرام .

لقد ظلت تيو بايتون فى سبات وقتاً طويلاً . والرجال الذين يحكمونها ، سياسياً وأخلاقياً ، واقتصادياً ، استمروا طويلاً فى حكمهم حتى صارت وسائلهم مقررة فالعمدة ، والمجلس ، والقضاة ، والشرطة كانوا أبديين . كان العمدة يبيع الأجهزة للمجلس البلدى ، والقضاة قد حددوا ثمن تذاكر المواصلات مثلما كانوا يفعلون منذ أمد بعيد ، لدرجة أنهم أصبحوا لا يذكرون هذا على أنه ممارسة عمل قانونى — على الأقل هذا ما قالته كتب القانون . وحيث أنهم كانوا رجالاً عاديين ، فهم بالتأكيد لم يعتبروا هذا منافياً للأخلاق . إن الرجال جميعاً أخلاقيون ، وجيرانهم فحسب هم الذين ليسوا كذلك .

دهم الأصيل الأصفر نسمة الصيف الدافئة . ويتحرك فى الشوارع بعض الناس الذين يحتفون مبكرين بالفصول ، أولئك الذين ليس لديهم أطفال يربطوهم فى بيوتهم حتى تبطل المدرسة ، كانوا غرباء . وجاءت بعض السيارات ، وهى

تقطر قوارب صغيرة وقوارب كبيرة بموتور خارجى فوق مقطورات . وكان إيثان يعرف وعيناه مغمضتان أنهم مصطافون ، بسبب ماشتروا من أشياء ـ لحوم باردة وجبن مطبوخ ، و بسكويت هش وسردين العلب .

ودخل جوى مورفى ليتناول شرابه المرطب فى ساعة الأصيل ، مثلما اعتاد أن يفعل يومياً الآن حين أخذ الطقس يصير دافئاً . لوح بالزجاجة مشيراً إلى الثلاجة وقال : « ينبغى أن تضعوا هنا نافورة للصودا » .

— « ثم تنبت لى أربعة أذرع جديدة ، أو انشق إلى موظفين مثل حبة البيوندو ؟ لعلك نسيت ، أيها الجار جوى ، أننى لا أمتلك هذا المحل » .

— « ينبغى أن تمتلكه » .

— « هل يتحتم على أن أقص عليك قصتى المحزنة عن وفاة الملوك ؟ »

أعرف قصتك . فأنت لم تكن تعرف الفرق بين ما تبيع من اسبارجوس ، وبين خطأ فى مسك الدفاتر بالطريقة المزدوجة ، وكان عليك أن تتعلم بكل مشقة . والآن اسمع — لكنك تعلمت » .

— « تعلمت ما عاد على بقليل من الخير » .

— « لو أنه الآن محلك ، لكنت قد جمعت ثروة » .

— « ولكنه ليس كذلك » .

— « لو أنك فتحت محلاً مجاوراً ، لأخذت معك كل الزبائن » .

— « ما الذى جعلك تعتقد هذا ؟ »

— « لأن الناس يشترون ممن يعرفون . وهذا ما يدعى بذيوع الصيت وهو أمر ذو مفعول . »

— « ولكنه لم يجد من قبل ، فكل من فى البلدة كان يعرفنى ، ومع ذلك أفلست . »

— « ذلك كان شيئاً فنياً ، فلم تكن تعرف كيف تشترى » .

— « لعلى مازلت كذلك » .

— « بل إنك تعرف ، ولكنك لاتعرف حتى إنك قد تعلمت . وأنت لاتزال فى حالة ذهنية منهارة . انبذها ، يامستر هولى . انبذها ياإيثان » .

— « شكراً . »

— « إننى أميل إليك متى سيذهب مارولو إلى إيطاليا ؟ »

— « لم يقل . قل لى ، ياجوى ـ ماهقدار غناه ؟ كلا لاتفعل . أعرف أن المفروض فيك ألا تتكلم عن العملاء » .

— « أستطيع أن أكسر قاعدة من أجل صديق ، ياإيثان . إننى لا أعرف كل عملياته ، ولكن لو كان لحسابه لدينا أى معنى ، فأستطيع القول إنه غنى . فهو يدس أصابعه فى جميع أنواع الأعمال ـ قطعة عقار هنا ، وقطعة أرض خالية هناك ، وبعض البيوت على الشاطىء ، وحزمة من الرهونات الممتازة من الضخامة بحيث تلف خصرك » .

— « وكيف عرفت ؟ »

— « من صندوق الودائع . فهو يستأجر أحد صناديقنا الضخمة . وحين يفتحه ، فلديه مفتاح ولدى الآخر . وإنى أعترف أننى اختلست النظر . وأحسب أن فى أعماق ميلاً لاختلاس النظر » .

— « ولكن أعماله كلها سليمة المظهر أليس كذلك ؟ أعنى ـ حسناً ، إنك طوال الوقت تقرأ عن ـ حسناً ، المخدرات وعمليات الاحتيال وما إلى ذلك . »

— « لست أعرف عنه شيئاً مثل ذلك ، فهو لا يتكلم عن عملياته . إنه يسحب بعض النقود ، ثم يعيد إيداع البعض الآخر ، ولا أعلم فى أى مكان آخر يودع أمواله . لاحظ أننى لم أخبرك عن رصيده . »

— « إننى لم أسأل . »

— « أيمكنك السماح لى بتناول علبة جعة ؟ »

— « بشرط أن تشربها فى الخارج ، وأستطيع أن أصبها فى كوب من الورق . »

— « لم أطلب منك خرق القانون . »

— « هراء . » وثقب إيثان ثقوبا فى العلبة . « عليك فحسب أن تخفيها بجانبك إذا دخل أى شخص . »

— « شكرا . لقد فكرت فيك طويلاً ، ياإيثان . »

— « لماذا ؟ »

— « ربما لأننى فضولى . إن الفشل حالة ذهنية . إنه مثل واحد من تلك الفخاخ الرملية التى يحفرها صائد النمل . أنت تواصل الانزلاق إلى الخلف . قم بقفزة واحدة ملعونة لتخرج منه . يتحتم عليك أن تقوم بتلك القفزة ياإيثان . وإذا حدث مرة أن خرجت من الفخ ، فستجد أن النجاح أيضاً حالة ذهنية . »

— « هل هو فخ أيضاً . »

— « لو أنه كذلك ـ فإنه فخ من نوع أفضل . »

— « افترض أن رجلاً قام بالقفزة ، وأن شخصا آخر تردى فى الفخ . »

— « إن الله وحده يرى العصفور وهو يسقط، ولكنه يتركه لمصيره »

— « أتمنى لو عرفت ما تحاول أن تطلب منى عمله »

«وأنا أيضا أتمنى ذلك . ولو عرفته ، فربما فعلته بنفسى . إن صرافى المصارف لايصلون إلى منصب الرئاسة . ولكن رجلاً لديه حفنة من المال يصل . أحسبنى أحاول أن أقول ، تصيد أى شىء يمر بك . فربما لايقترب منك مرة أخرى . »

— « إنك فيلسوف ، باجوى ، فيلسوف مالى » .

— « لاتجعل من الأمر مزاحاً . وإذا لم يكن هذا الشىء لديك ففكر فيه فحين يكون المرء بمفرده يفكر فى أشياء . وأنت تعرف أن معظم الناس يعيشون ٩٠ ٪ من حياتهم فى الماضى ، و ٧ ٪ فى الحاضر ، وهذا يترك للمستقبل ٣٪ فحسب ، ولقد قال ساتشيل بيج العجوز أحكم ماسمعته فى حياتى بهذا الشأن . قال « لاتنظر إلى الوراء . فربما يكون هناك شىء ما سيسبقك » . ينبغى أن أعود . إن مستر بيكر ذاهب غداً إلى نيو يورك لبضعة أيام . إنه مشغول كحشرة » .

— « بأى شىء ؟ »

— « وأنى لى أن أعرف ؟ ولكنى أفرز البريد . لقد ظل يتلقى خطابات كثيرة من ألبانى » .

— « أشياء سياسية ؟ » .

— « إننى أفرزها فقط ، ولا أقرؤها . هل العمل راكد دائماً هكذا ؟ » .

— « أجل ، فيما حول الساعة الرابعة . سيبدأ النشاط خلال عشر دقائق أو مايقرب » .

— « أترى ؟ لقد تعلمت . أراهن أنك لم تكن تعرف هذا قبل إفلاسك سأراك . تصيد الحلقة الذهبية من أجل وصول سريع » .

جاءت الدفعة الشرائية الصغيرة فيما بين الخامسة والسادسة فى موعدها المحدد.

أما الشمس ، التى أبقاها تقديم الوقت لتوفير ضوء النهار ، فكانت لاتزال عالية والشوارع مضاءة كما لو كان الوقت منتصف الأصيل ، حين أدخل إيثان صناديق الفاكهة وأغلق الأبواب الأمامية ثم جذب الستائر الخضراء · وبعدئذ ، جمع التموين الذى سيحمله إلى البيوت ، وهو يقرأ أصنافه من قائمة ، ثم وضع جميعه فى كيس واحد كبير · وخلع مئزرته وارتدى معطفه وقبعته ثم صعد إلى الثلاجة وجلس فوقها وأنعم النظر فى أرفف جماعة المصلين . وقال : « لارسائل لكم » تذكروا فحسب كلمات ساتشيل بيج. أظن أنه ينبغى على ألا أنظر الى الوراء ».

أخرج من حافظته الصفحات المسطرة المطوية ، وصنع لها ظرفاً صغيراً من الورق المشمع . وبعدئذ ، فتح الباب المطلى المؤدى إلى عدة الثلاجة ، ودس المظروف المشمع فى ركن خلف آلة الضغط ، ثم أغلق عليها الباب المعدنى .

وتحت آلة عد النقود وجد على رف ، دليل تليفون مانهاتن المترب ذو الزوايا المنثنية ، والذى بقى هناك لتبليغ الطلبات العاجلة لمخزن الإمدادات . وتحت حرف الواو ، تحت الولايات المتحدة ، تحت عدل ، وقسم ا ٠٠٠ ، وتحرك أصبعه هابطاً مع عمود الأسماء ومتجاوزاً » قسم عدم الموثوق بهم بمبنى محكمة الولايات المتحدة. قسم الجمارك ، المركز الإدارى للاعتقالات المكتب الاتحادى للتحريات« وأسفله » مكتب الهجرة والتجنس ، ٢٠ وبرودواى ، ب ا ٣٠٠٠ — ، فى ليالى السبت والأحد والعطلات ول ٥٨٨٨ — ٦ »

وقال بصوت مرتفع : «إذن ول ٥٨٨٨ — ٦ ، ول ٥٨٨٨ — ٦ لأن الوقت متأخر . » وبعدئذ تحدث إلى بضائعه المعلبة دون إن يتطلع إليها ·

« إذا كان كل شىء سليماً وفوق مستوى الشبهات ، فلن يضار إنسان » ·

خرج إيثان من باب الحارة وأغلقه بالمفتاح· وحمل كيسه الملىء بالبقالة عبر الشارع إلى فندق ومقهى الفورماستر · كان المقهى يشيع ضوضاء ممن يتناولون الكوكتيل،

ولـكن الدهليز الصغير حيث تنتصب كابينة التليفون العمومى ، كان مهجوراً حتى من الـكاتب المسئول . أغلق الباب الزجاجى ، ووضع أشياء البقالة على الأرض ونثر مامعه من (فـكة) على الرف ، وأدخل فى الآلة قطعة من ذات العشرة سنتات ثم ضرب الصفر .

— « ترنك » .

— « أوه . ترنك ـ أريد أن أكلم نيويورك » .

— « هل تسمح أن تضرب الرقم من فضلك ؟ »

وفعل ذلك .

* * *

عاد إيثان من عمله ، وهو يحمل كيسه الذى به أشياء البقالة . كم هى طيبة ساعات الأصيل الطويلة . كان العشب فى الحديقة طويلاً وريانا ً لدرجة أنه كان يطبع مواطىء قدمية . وقبل مارى فى فتور .

قال : « يافرخ الضفدع ، لقد طال العشب وصار برياً . فهل تعتقدين أننى أستطيع أن أحمل آلان على قصه ؟ »

— « حسناً ، إنها فترة الإمتحانات . وأنت تعلم كيف تكون ، كما أنها فترة إنهاء الدراسة وما إلى ذلك ».

— « حسناً ، أحسبنى سأضطر إلى قص العشب بنفسى » .

— « إننى آسفة ياعزيزى . ولـكنك تعلم فى أية حالة هم » .

— « أجل ، بدأت أتعلم فى أية حالة هم » .

— « هل أنت غير معتدل المزاج ؟ هل لاقيت يوماً » ؟

— « فلتر . كلا ، لا أعتقد ذلك . لقد ظللت واقفاً على قدمى طيلة اليوم ، وإن فكرة دفع آلة قص العشب لاتجعلنى أقفز فرحاً » .

— « ينبغى أن يكون لدينا آلة قص عشب ميكانيكية . ولدى آل جونسون واحدة تستطيع أن تركبها فى أثناء العمل » .

— « ينبغى أن يكون لدينا بستانى . كان ذلك لدى جدى . أركبها فى أثناء العمل ؟ وحينئذ يستطيع آلان أن يقص العشب مادام سيكون راكباً » .

— « لاتكن قاسياً عليه . إنه فى الرابعة عشرة فحسب . جميعاً هكذا » .

— « من ـ فى اعتقادك ـ نشر خرافة أن الأطفال نشطاء » ؟

— « أنت فعلا مقلوب المزاج » .

— « فلتر . أجل ، أحسبنى كذلك . وذلك الصراخ يقودنى إلى الجنون » .

— « إنه يتمرن » .

— « هذا ماقلته » .

— « والآن لاتسقط مزاجك المقلوب عليه » .

— « حسناً ، ولكنه كان يساعدنى لو استطعت أن أفعل » . واندفع إيثان خلال حجرة الجلوس ، حيث كان آلان يصرح بكلمات غير واضحة المعالم من قصبة تتذبذب يعلقها على لسانه وقال : « ماذاك بحق الجحيم » ؟

وبصق آلان القصبة فى راحة يده . « لقد كانت فى صندوق البيكس . إنها آلة للكلام من البطن » .

— « هل أكلت محتويات الصندوق » ؟

— « كلا ، فإننى لاأحبها . على أن أتدرب ، يابابا » .

— « توقف لحظة . » وجلس إيثان . « ما المخطط الذى ترسمه لحياتك ؟ » .

« هه » .

— « المستقبل . ألم يخبروك بهذا فى المدرسة ؟ إن المستقبل بين يديك » .

انزلقت إيلين إلى داخل الحجرة ، وثنت جسدها على الأريكة كقطة مقعية . وترقرقت من فمها ضحكة تقطع الصلب .

قالت : « إنه يريد أن يظهر فى التليفزيون » .

— « هناك صبى عمره ثلاث عشرة سنة فحسب كسب مائة وثلاثين ألف دولار فى برنامج ألغاز » .

فقالت إيلين : « ثم اتضح أن الأمر كان مرتباً » .

— « حسناً ، ولكنه لايزال يمتلك مائة وثلاثين ألفاً » .

وقال إيثان فى رقة : « ألا تشغلك النواحى الأخلاقية » ؟

— « حسناً ، ولكنه مبلغ كبير من المال » .

— « ألا تجده عملاً لاأمانة فيه » ؟

— « هراء ، كل واحد يفعله » .

— « ورأيك فيمن يقدمون أنفسهم فى طبق من الفضة ، ومع ذلك لايوجد من يأخذهم ؟ وهم لايمتلكون الأمانة ولا المال » .

— « تلك هى الفرصة التى تغتنمها ـ وقد تؤدى إلى تحطيم المرء بنفس الطريقة التى تحطم بها الكعكة » .

— « أجل ، إنها تتحطم ، أليس كذلك ؟ » واستطرد إيثان : « وهكذا شأن أخلاقك . اجلس معتدلاً هل أسقطت كلمة « سيدى » من مفردات لغتك » ؟

بدأ الصبي مأخوذاً ، ونظر متحققاً ليرى ما إذا كان هذا القول مقصوداً ، وبعدئذ انتصب فى جلسته فى تكاسل ، وهو ممتلىء امتعاضا . وقال : « كلا ، ياسيدى . »

— « كيف تسير فى المدرسة ؟ »

— « حسناً ، فيما أعتقد » .

— « كنت تكتب مقالاً عن كيف تحب أمريكا . هل أوقف تصميمك على تدميرها ذلك المشروع » ؟

— « ماذا تقصد بكلمة ، تدمير ـ ياسيدى » ؟

— «هل تستطيع أن تحب بأمانة شيئا غير أمين » ؟

— « ياللجحيم ، يابابا ، إن كل شخص يفعل ذلك » .

— « وهل يعود ذلك عليها بالخير » ؟

— « حسنا ، لاينتقدها أحد سوى بضعة من ذوى الرؤوس الفارغة . لقد فرغت من المقالة » .

— « طيب ، أود أن أراها » .

— « لقد أرسلتها » .

— « لابد أن لديك نسخة منها » .

— « كلا ، ياسيدى » .

— « افترض أنها فقدت » ؟

— « لم أفكر فى ذلك . بابا ، أود لو استطعت الذهاب إلى المعسكر مثلما يفعل كل الفتيان الآخرين » .

— « لانستطيع تحمل نفقاته . وليس كل الفتية الآخرين يذهبون — قلة منهم فحسب » .

— « أتمنى لوكان عندنا بعض المال . » وحملق فى يديه ثم لعق شفتيه . ضاقت عينا إيلين وتركزت نظراتها .

كان إيثان يدرس ابنه ، وقال : « سأجعل هذا ممكنا . »

— « سيدى ؟ »

— « يمكننى أن أحصل لك على وظيفة تؤديها فى المحل هذا الصيف » .

— « ماذا تقصد بكلمة ، تؤديها » ؟

— « أليس سؤالك ، ماذا تقصد بكلمة ، تؤديها ؟ ستحمل البضائع إلى الأرفف وتشذب الخضروات وتكنس ، وربما يمكنك إذا أثبت جدارة ، أن تخدم الزبائن » .

— « أريد أن أذهب إلى المعسكر » .

— « وتريد كذلك أن تربح مائة ألف دولار » .

— « ربما أكسب مسابقة المقال . إنها على الأقل رحلة إلى واشنجتون . نوع مامن العطلة بعد سنة بكاملها فى المدرسة » .

— « الآن . هناك قواعد لاتتغير فيما يختص بالسلوك ، والمداعبة والأمانة أجل ، بل وحتى فيما يختص بالنشاط . لقد حان الوقت الذى أعلمك فيه أن تمارس هذه القواعد شفاهاً . على الأقل ستعمل » .

رفع الصبي باصريه إلى أعلى . « أنت لا تستطيع » .

— « عفواً ؟ »

— « قوانين العمل الخاصة بالأطفال . إننى لا أستطيع حتى أن أحصل على ترخيص قبل أن أبلغ السادسة عشر . أتريد منى أخرق القانون ؟ »

— « أتعتقد أن جميع الصبية والفتيات الذين يساعدون والديهم هم أنصاف عبيد وأنصاف مجرمين ؟ » كان غضب إيثان من النوع الذى يبين تماماً مثل حبه . ونظر آلان بعيداً

— « إننى لم أعن ذلك ، ياسيدى » .

— أنا واثق أنك لم تعنه . ولن تفعل ذلك ثانية . لقد جدعت أنفك على عشرين جيلاً من آل هولى وآل آلان . كانوا رجالاً شرفاء . وربما تستحق يوماً ما أن تكون واحداً منهم » .

— « أجل ، ياسيدى . هل أستطيع الذهاب إلى حجرتى ، ياسيدى ؟ »

— « تستطيع » .

صعد آلان الدرج فى بطء .

وحين اختفى ، جعلت إيلين تلف ساقيها وكأنهما محركين . انتصبت فى جلستها وجذبت (جونلتها) إلى أسفل وكأنها سيدة شابة .

— « كنت أطالع خطب هنرى كلاى . من المؤكد أنه كان مجيداً » .

— « أجل ، كان كذلك » .

— « هل تذكرها ؟ »

— « فى الحقيقة لا ، على ما أعتقد . فقد انقضى زمن طويل منذ قرأتها »

— « إنه عظيم » .

— « إن قراءته لا تبدو لى قراءات تلميذة فى مدرسة »

— « إنه عظيم فعلاً » .

نهض إيثان من مقعده ، يدفعه يوم طويل مرهق إلى العودة للجلوس .
ووجد ماری فی المطبخ محمرة العينين غاضبة .

قالت : « لقد سمعتك . لست أدری ماذا تظن أنك كنت تفعل . إنه ليس إلاّ صبياً صغيراً » .

— « ذلك هو وقت البدء ، يا عزيزتی » .

— « لاتنادنی بعزيزتی . إننی لا أطيق طاغية » .

— « طاغية ؟ أوه يا ألهی » .

— « إنه ليس إلا صبياً صغيراً ، وقد قسوت عليه » .

— « أعتقد أنه يشعر الآن بأنه أحسن حالاً » .

— « لا أعرف ماذا تقصد . لقد سحقته وكأنه حشرة » .

— « كلا ، ياعزيزتی . لقد أعطيته نظرة خاطفة عن العالم . لقد كان يبنی نظرة زائفة » .

— « ومن أنت لتعلم ماذا يكون العالم ؟ »

وسار إيثان متجاوزاً إياها وخارجاً من الباب الخلفی .

— « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

— « لأقص العشب » .

— « كنت أعتقد أنك متعب » .

— « إننی كذلك ـ كنت كذلك » وتطلع من فوق كتفه رافعاً بصره إليها وهی واقفة داخل إطار الباب الزجاجی . وقال : « إن الرجل مخلوق وحيد»

وابتسم إليها لحظة قبل أن يخرج آلة قص العشب .

سمعت مارى أزيز السكاكين وهى تقطع فى العشب الناعم الرخص . وتوقف الصوت بجوار عتبة الباب ، وصاح إيثان : « مارى ، مارى ، ياعزيزتى أنا أحبـــك » . وصبت السكاكين الدوارة جام غضبها على العشب الزائد النمو .

الفصل الثاني عشر

كانت مارجي يانج هنت امرأة جذابة، مطلعة، وذكية، من الذكاء بحيث إنها كانت تعرف متى وكيف تخفي ذكاءها وراء قناع. وقد فشلت زيجاتها، أي فشل الرجال الذين تزوجوا منها، الأول لأنه كان ضعيفاً، والثاني كان أضعف ـ فقد مات. والمواعيد لا تسعى إليها، فهي تخلقها، كانت تصلح أسوار قلعتها عن طريق مكالمات تليفونية مختلفة، وعن طريق خطابات، و بطاقات تمن بالشفاء، وترتب لقاءات عارضة. كانت تحمل إلى المرضى حساء صنعته بيديها، وتتذكر أعياد الميلاد. وبهذه الوسائل أبقت الناس شاعرين بوجودها.

ولقد حافظت، أكثر من أية امرأة في البلدة على أن تبقى بطنها غير منبعجة، و بشرتها نظيفة متألقة، وأسنانها ناصعة، والخطوط التي بأسفل ذقنها غير مرتخية. كان جزء طيب من دخلها ينفق على الشعر، والأظافر، والتدليك، والكريم، والدهون وقالت نساء أخريات: «لا بد أن تكون أكبر سنا مما تبدو».

وحين لم تعد عضلات صدرها، تستجيب إلى الكريم، أو التدليك أو التمرينات، استخدمت حمالتين أنيقتين جعلت صدرها نافرا مرحا. وكان وضع مساحيق وجهها يستغرق وقتا متزايداً. وكان لشعرها كل البهاء، والتألق، والموج الذي تعد به المنتجات التي يعلن عنها التليفزيون. وحينما تكون في موعد غرامي، أو تتناول العشاء، أو ترقص، أو تضحك، أو تمرح، أو تجتذب مغازليها بشبكة من قطع المغناطيس الصغيرة، فمن ذا الذي يعلم بإحساسها البارد بالتكرار؟ فبعد قضاء فترة لطيفة، و إنفاق بعض المال، تذهب معه غالباً

إلى مسكنها ، إذا استطاعت أن تفعل ذلك بحصافة . ثم تعود بعد ذلك إلى ترميم أسوارقلاعها . فينبغى إن آجلاً أوعاجلاً ، أن يصير الفراش المشترط نخاً لاصطياد أمنها وراحتها في المستقبل . ولكن اللعبة المرجوة تسللت خارجة من الفكين المصنوعين من حشايا . وصارت مواعيدها الغرامية تتزايد شيئافشيئامع المتزوجين، والمترددين ، أو الحريصين . وكانت مارجى تعرف أفضل من أى شخص ، أن زمنها كان يدبر عنها . ولم تستجب لها أوراق الطالع حينما بحثت فيها عن العون لنفسها .

لقد عرفت مارجى العديد من الرجال ، وغالبيتهم مذنبين ، ومجروحى الكبرياء ، أو يائسين ، لدرجة أن نما لديها احتقار تجاه صيدها ، مثل ذلك الذى ينمو لدى صياد الهوام المحترف . كان من السهل أن تثير أمثال هؤلاء الرجال خلال مخاوفهم وكبريائهم . كانوا يتألمون طلباً للخديعة لدرجة أنها لم تعد تشعر بانتصارها — بل بنوع من الشفقة المزدرية فحسب . كان أولئك هم أصدقاؤها وعشيرتها . كانت تحميهم حتى من مجرد اكتشاف أنهم أصدقاؤها ، وتقدم لهم أفضل ما تمتلك لأنهم لم يطلبوا منها شيئاً . لقد كتمت أمرهم لأنها فى قرار نفسها لم تكن معجبة بنفسها . كان دانى تيلور واحداً من هؤلاء ، وألفيو مارولُّو واحداً آخر ، ومدير البوليس ستون وول جاكسون سميث شخصاً ثالثاً ، وكان هناك آخرون . كانوا يثقون بها مثلما تثق هى بهم ، وكان وجودهم الخفى هو الشىء الأمين الوحيد الدافىء الذى استطاعت أن تلجأ إليه لتسترد نفسها ، كان أولئك الأصدقاء يتحدثون إليها بحرية ودونما خوف . لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعاً من بئر أندرسون — تتقبل ولا تصدر أحكاماً ، وصموتة ، وكما أن لكل الناس رذائل خفية ، كانت مارجى يانج هنت تخفى فضيلة خفية ، ويحتمل

أن هذه الفضيلة الصامتة كانت السبب فى أنها تعرف عن نيوبايتون ، بل وحتى عن مقاطعة ويسكس ، أكثر من أى شخص ، وكانت معرفتها بعيدة عن الغرض لأنها لم تكن — أو لم تستطع — أن تستغلها لمصلحتها الخاصة . ولـكن فى نواح أخرى ، كان كل ما يقع بين يديها له فوائده

ولقد بدأ مشروعها بشأن إيثان آلان هولى عرضا ونتيجة لفراغ وقتها . وقد كان مصيباً بشكل ما ، حين اعتقد بخبث غرضها ، وأنه اختبار لسطوتها . فـكثيرون من الرجال الحزينين الذين كانوا يأتون إليها بحثاً عن الراحة والاطمئنان ، كانت وتوثقهم وتوهنهم ألوان من العجز الجسدى ، نقلت عدواها إلى جميع النواحى الأخرى فى حياتهم . ووجدت مارجى من السهل عليها عن طريق إطراءات بسيطة وتطمينات ، أن تطلق سراحهم منها ليخوضوا المعارك مرة أخرى ضد زوجاتهم المسلحات بالسياط . وكانت تعجب إعجاباً رائعاً بمارى هولى ، وعن طريق مارى بدا اهتمامها التدريجى بإيثان ، الرجل الموثق بنوع آخر من الندوب ، بوثاق اجتماعى اقتصادى استلب منه قوته ، وثقته . وحيث لم يكن لديها عمل ، أو حب ، أو أطفال ، فقد تساءلت عما إذا كانت تستطيع أن تفك إسار هذا الرجل المقعد ، وتوجهه ناحية غاية جديدة ما . كان الأمر بالنسبة لها لعبة ، نوعاً من الألغاز ، اختباراً ، ولم يكن هذا نتاجاً للشفقة ، بل كان ببساطة نتاجاً للفضول والفراغ . كان هذا رجلاً ممتازاً . وسيبرهن توجيهها له على تفوقها ، ولقد كانت فى حاجة متزايدة لهذا البرهان .

من المحتمل أنها كانت الشخص الوحيد الذى عرف عمق التحول فى إيثان وقد أخافها هذا ، لأنها حسبته من صنعها . كان الفأر ينمى لبدة أسد رأت العضلات تحت ملابسه ، وأحست بقسوة القلب تنمو خلف عينيه . ولابد أن

هذا ما أحسه أينشتين الرقيق ، حينما ومض مدركه الذى كان يحلم به عن طبيعة المادة فوق هيروشيما .

كانت مارجى تحب مارى هولى كثيراً جداً ، وكانت تكن لها القليل من الشفقة ، ولا رحمة على الإطلاق . إن سوء الطالع حقيقة من حقائق الطبيعة تتقبلهما النساء ، وخاصة حين يحل بغيرهن من النساء .

فى بيتها الصغير الناصع المقام وسط حديقة واسعة بالغة النمو، قريباً جداً من الميناء القديم ، مالت ناحية مرآة الزينة لتختبر أدواتها ، ومن خلال الكريم ، والبودرة ، وظلال العيون ، والرموش المشرعة فى سواد ، رأت عيناها التجعيدات المختفية ، وجفاف بشرتها ، وأحست بالسنون تزحف عليها مثل المد الصاعد حول صخرة فى بحر هادىء . هناك أسلحة لسن النضوج ، ولمنتصف العمر ، ولكن هذه الأسلحة تتطلب مراناً وحرفية لتكتسبهما بعد. ينبغى أن تتعلمهما قبل أن ينهار كيان شبابها و إثارتها و يتركها عارية ، عفنة ، ومثار سخرية . لقد كان نجاحها فى أنها لم تتهاو أبداً ، حتى ولا وهى وحيدة . والآن ، وكنوع من التجربة ، تركت فمها يتدلى حسبما يشاء وجفنيها يرتخيان نصف ارتخاءة . وخفضت من ذقنها المرفوعة عالياً ، وحينئذ ظهر إلى الوجودحبل متهدل ورأت فى المرآة أمامها عشرين عاماً تتسلق زاحفة عليها، وارتمدت حين أخبرها الهمس المثلوج بما يرقد فى انتظارها . لقد تأخر كثيراً جداً . ينبغى أن يكون لدى المرأة صندوق عرض زجاجى ، يكبر فيه السن ، مجهز بالأضواء ، والدعامات ، والقطيفة السوداء ، والأطفال ، والشيب والسمنة ، بالضحك المكتوم والاختلاس ، بالحب ، والحماية ، وقطع النقود الصغيرة ، وزوج هادىء قنوع ، أو بالأحرى وصيته الأكثر هدوءاً وأقل قناعة ، ومبلغ من المال موقوف عليها . إن المرأة

وحيدة حين يتقدم بها السن ، تصبح نفاية ملقاة بلا جدوى ، بذاءة صابتها التجاعيد ، بلا أتباع يحجلون حولها لينقوا ويغمغموا حول أوجاعها ويدلكوا آلامها .

وتشكلت فى معدتها نقطة خوف حارة . لقد كانت سعيدة الحظ مع زوجها الأول . كان ضعيفاً وسرعان ما عثرت على صمام ضعفه . كان يحبها بلا رجاء ، حباً بالغاً لدرجة أنها حين احتاجت الطلاق لم يطلب النص على عدم الزواج فى قرار النفقة .

وكان زوجها الثانى يعتقد أن لها ثروتها الخاصة ، قد كانت كذلك . عندما مات لم يترك لها الكثير ، ولكنها عن طريق النفقة التى كانت تأخذها من زوجها الأول، استطاعت العيش بشكل لائق، وارتداء الثياب الجيدة ، والتفكير فى قضاء وقت فراغها . فلنفرض أن زوجها الأول مات . هنا كانت تمكن نقطة الخوف. هنا كان يوجد كابوس الليل أو النهار — كابوس إذن الصرف الشهرى .

لقد رأته فى شهر يناير ، عند ذلك التقاطع الضخم الواسع بين شارع ماديسون والشارع السابع والخمسين . كان يبدو عجوزاً شاحباً . كان فناؤه يلح عليها . فلو توفى الوغد ، لتوقف إرسال النقود. وفكرت فى أنها ربما تكون الشخص الوحيد فى العالم الذى يصلى بجماع قلبه من أجل دوام صحته .

والآن جاءت إلى شاشة ذاكرتها صورة وجهه النحيل الصامت ، وعينيه الميتتين ، وفجرت تلك الصورة النقطة الحارة فى معدتها . لو أنه مات . .

توقفت مارجى عن التفكير ، وهى تميل تجاه المرآة ، ثم جذبت إرادتها مثلما يجذب المرء نبلة . وارتفعت ذقنها ، واختفت الخطوط ، وتألقت عيناها ،

واستكانت بشرتها لصيقة بجمجمتها ، وتربع كفتاها . وقفت منتصبة، ثم رقصت في دورة حاذقة على السجادة الحمراء الوثيرة . كانت قدماها عاريتين، وأظافرها تلمع بطلاء أحمر وردى . حتم عليها أن تندفع ، حتم عليها أن تسرع قبل فوات الأوان .

دفعت باب الدولاب ففتحته ، ووضعت يديها على الثوب الحلو المغرى الذى كانت تدخره لعطلة الرابع من يوليو ، والحذاء ذى الكعب المدبب كالقلم الرصاص، والجوارب التى هى أكثر بهجة من أية جوارب على الإطلاق . لم يعد بها الآن ثمة استرخاء . وارتدت ثيابها بمثل السرعة والإتقان اللذين يشحذ بهما جزار سكينه ، واختبرت شكلها أمام مرآة بطولها بالطريقة التى يختبر بها نفس الجزار حد سكينه على إبهامه . السرعة ولكن دون اندفاع ، السرعة من أجل الرجل الذى لن ينتظر . ثم بعدئذ — التمهل العرضى ، تمهل العليمة ، الذكية ، الأنيقة الواثقة من نفسها ، السيدة ذات الساقين الرائعتين والقفاز الأبيض الناصع ولم يتوان رجل مرت به عن النظر خلفها . وصفر سائق اللورى الذى يعمل عند الإخوة ميلر وهو يمر محملاً بشحنة من الأخشاب ، ورفع صبيان من فتية المدرسة أعيناً مشقوقة كميني فالنتينو ناحيتها، وابتلعا فى ألم اللعاب الذى غمر فميهما نصف المفتوحين . وقال أحدهما : « ما رأيك فى تلك ؟ » .

وأجاب الآخر : « أجل » .

— « ما رأيك لو — »

— « أجل » .

إن سيدة لا تتسكع — وخاصة فى بايتون . فينبغى أن تكون ذاهبة إلى

مكان ما ، أوليها عملما ، مهما كان صئيلاً وبلا معنى . وفى أثناء سيرها فى شارع هاى بخطوات منقوطة ، كانت تحيى وتحدث المارة وتستعرضهم بطريقة آلية .

مستر هول — كان يعيش على الاستدانة ، دأب على ذلك بعض الوقت .

ستونى — رجل خشن ، وفحل ، ولـكن أية امرأة تلك التى تستطيع العيش بمرتب أو معاش شرطى ؟ وبالإضافة إلى ذلك ، كان صديقها .

هارولدبيك ، ذو ضيعة حقيقية وكبيرة ، ولـكن هارولد كان غريب الأطوار كالبطة . وربما كان هو نفسه الشخص الوحيد فى العالم الذى لم يعلم بذلك .

ماك دويل — لطيف جدا أن أراك ، ياسيدى ؟ كيف حال ميللى ؟ انه لا يحتمل — اسكتلندى ، بخيل ، ومرتبط بزوجته — مقعد ، من النوع الذى يعيش إلى الأبد . كان لغزاً ، ولم يعرف أحد ماذا كان يمتلك .

دونالد راندولف ذو العينين النديتين — رائع حين يجلس على المقعد المجاور فى البار ، سيد مهذب فى البار تتغلغل تقاليده عميقة خلال سكره ، ولـكن لا فائدة ترجى منه ، إلا اذا أردت أن تقيم بيتا على مقعد بار .

هارولد لوس — قيل إنه كان على صلة قرابة بناشر مجلة (تايم) ، ولـكن من الذى قال ، هو نفسه ؟ رجل قد من صخر ، كان يتمتع بشهرة أنه حكيم ، وكان هذا مبنياً على نقص قوته فى التعبير .

إد وانتونر — كذاب ، مخاتل ولص . المفروض أنه كان يحتسى الخمر فى أثناء احتضار زوجته ، ولـكن إد لم يكن يثق بأحد . لم يكن يثق حتى فى أن كلبه لن يهرب منه ، وأبقاه مربوطاً يعوى .

بول سترايت — قوة فى الحزب الجمهورى كانت زوجته تسمى بترفلاى —

ليس اسم دعابة . بترفلاى ستراين ، وعمدت باسم بترفلاى ، تلك هى الحقيقة .
كان بول يستفيد إذا صار حاكم ولاية نيويورك جمهورياً . كان يمتلك مقلب
قمامة المدينة ، حيث يتكلف إلقاء حمل من القمامة هناك ربع دولار . ويحكى أنه
عندما صارت الفيران من السوء والضخامة بحيث أصبحت تشكل خطراً ، إن
بول كان يبيع تذاكر تبيح الحق فى صيدها بالرصاص، ويؤجر الأضواء الكاشفة
والبنادق — ويمدهم برصاصات من عيار ٢٢ ليطلقوها عليها . كان يبدو قريب
الشبه جدا برئيس الجمهورية لدرجة أن كثيرين من الناس كانوا يدعونه (آيك) .
ولكن دانى تيلور وهو فى ساعة شرب هادئة ذكره على أنه « بول أنبل الكل »
والتصقت به تلك التسمية . وصار اسمه حين لا يكون موجودا ، النبيل بول .

ماروللو — إنه ازداد مرضاً عما كان . إنه مريض مكتئب . كانت عينا
ماروللو عينى رجل أصيب فى معدته برصاص من عيار ٤٥ . لقد سار متجاوزاً
مدخل محله دون أن يدخله . ودخلت مارجى المحل ، وهى تهز ردفيها البديعين .

كان إيثان يكلم شخصاً غريباً ، رجلا أسود الشعر أقرب إلى الشباب ،
يرتدى سروالاً من طراز إيفى ليج وقبعة ذات حافة ضيقة . كان فى حوالى
الأربعين ، صلباً ، خشناً ، مستغرقا فيما كان يفعل .

كان منحنيا فوق الثلاجة و بدا وكأنه سيفحص لوزتى إيثان .

قالت مارجى : « هاى ، أنت مشغول ، سأعود فيما بعد » .

هناك أشياء لا نهاية لها ، تافهة ولكنها مشروعة ، يمكن لامرأة متسكعة
أن تؤديها فى مصرف . عبرت مارجى مدخل الحارة ودخلت إلى المعبد الرخامى
ذى الفولاذ المصقول .

حين رآها جوى مورفى أضاء البشر وجهه فى المربع ذى القضبان ، الذى تتكون منه نافذة الصراف . يالها من ابتسامة ، ويالها من شخصية ، وياله من رفيق دعابة طيب ، ولكن يالمنظره الزرى كزوج . لقد قدرته مارجى حق قدره كشخص ولد ليظل أعزباً ، شخص قد يقاتل حتى الموت فى سبيل بقائه وحيداً . لن يكن لجوى قبر مزدوج .

وقالت : « أرجوك ، ياسيدى ، هل لديك أية نقود جديدة غير مملحة ؟ »

— « عفوك ، ياسيدتى ، سأرى . إننى أكاد أكون واثقاً اننى رأيت بعضاً منها فى مكان ما كم تريدين ؟ »

— « حوالى ست أوقيات ، يامسيو » . وتناولت دفتراً مطوياً من حقيبتها الجلدية البيضاء ، ثم كتبت شيكا بعشرين دولاراً .

وضحك جوى . فقد كان ميالاً إلى مارجى . فمرة فى كل فترة ، ولكن ليس كثيراً جداً ، كان يخرج معها لتناول العشاء ثم ، يصطحبها إلى منزلها ولكنه كان أيضا يحب صحبتها وروحها المرحة .

وقال جوى : « مسز يابج هنت ، ذلك يذكرنى بصديق لى كان يعيش فى ميكسيكو مع بانكوفيللا . أتذكرينه ؟ »

— « لم أعرفه إطلاقاً » .

— « ليست هذه فكاهة . إنها قصة رواها لى الفتى . قال إنه عندما كان بانكو فى الشمال ، كان يعمل على آلة الطباعة التى تطبع البنكنوت من فئة العشرين بيسو . وطبع منه الكثير لدرجة أن رجاله أقلعوا عن العد ـ وهم لم يبرعوا فى العد على أية حال ـ وكان عليهم أن يزنوا النقود فى ميزان ذى كفتين » .

قالت مارجى : « جوى ، أنت لا تستطيع أن تقاوم إغراء سرد تاريخ حياتك » .

— « ياللجحيم ، كلا ، يامسز يانج هنت . لقد كنت فى حوالى الخامسة من عمرى حينذاك، إنها مجرد قصة . ثم دخلت سيدة حلوة سمينة ، هندية لكن سمينة . دخلت ثم قالت : « سيدى الجنرال ، لقد أعدمت زوجى وتركتنى أرملة فقيرة ومعها خمسة أطفال ، فهل تلك هى الوسيلة لإدارة ثورة شعبية ؟ » وأخذ بانكو يراجع ما تستحقه من مال مثلما أفعل أنا الآن .

— « لا رهونات عليك ، ياجوى » .

— « أعلم. إنها مجرد قصة » . وقال بانكو إلى أحد مساعديه العسكريين : «زن لها خمسة كيلو جرامات من النقود . » حسنا ، كانت تلك حزمة ضخمة. وربطوها بقطعة سلك وخرجت المرأة ، وهى تجرجر الحزمة الخضراء . و بعدئذ خطا ملازم إلى الأمام وحيا ثم قال : « سيدى الجنرال(وهم ينطقونها مى جرال)، نحن لم نطلق ارصاص على زوجها . كان مخموراً ، فوضعناه فى السجن الذى عند الناصية » . لم يكن بانكو قد رفع عينيه إطلاقا عن السيدة التى تسير مبتعدة ومعها حزمة النقود . وقال : « اخرج وأطلق عليه الرصاص . نحن لا نستطيع أن نخيب أمل تلك الأرملة المسكينة » .

— « جوى ، إنك لا تطاق » .

— « إنها قصة واقعية . وأنا أصدقها . » وأدار شيكها جانباً ، وقال : « أتريدين أن يُصرف هذا الشيك عشرينات ، أم خمسينات ، أم مئات ؟ »

— « أعطنى إياه ورقاً من فئة الخمسة والعشرين سنتاً » .

كان كل منهما يستمتع بالآخر .

وتطلع مستر بيكر من زجاج مكتبه الأغبش .

والآن كان هناك رهان . لقد حدث مرة أن زارها بيكر زيارة صحيحة من الناحية اللغوية ولكنها غامضة . كان المستر بيكر هو السيد مال . من المؤكد أن له زوجة ، ولكن مارجى كانت تعرف آل بيكر فى هذه الدنيا . فقد استطاعوا دائماً أن يوجدو أسباباً أخلاقية لعمل ما يريدون . وكانت سعيدة لأنها خذلته . فقد أبقاه هذا جامداً فى سجلها .

جمعت الأوراق الأربعة من فئة الخمسة دولارات التى أعطاها لها جوى ، وتحركت متجهة إلى مدير المصرف الأشيب . ولكن فى تلك اللحظة دخل الرجل الذى كانت قد رأته يحادث إيثان فى هدوء ، ومر من أمامها ، وقدم بطاقة، فأدخل إلى المكتب مستر بيكر وأغلق الباب .

قالت لجوى : « حسناً ، قبل قدمى » .

فقال جوى : « أبدع قدم فى مقاطعة ويسكس . أتريدين الخروج الليلة ؟ نرقص ، ونأكل ، وكل شىء من هذا القبيل ؟ »

قالت : « لا أستطيع . من ذاك ؟ »

— « لم أره من قبل أبداً . تبدو عليه سمات مفتشى المصارف . إننى فى لحظة كهذه أكون سعيدا بأمانتى ، بل وأكثر سعادة لاستطاعتى الجمع والطرح » .

— « أتعلم ، ياجو ، يوما ماستجعل من زوجة مخلصة ، امرأة لعينة هاربة » .

— « ذلك هو أملى الذى من أجله أصلى ، ياسيدتى » .

— « أراك فيما بعد » .

خرجت ، عبر الحارة ، ودخلت محل بقالة مارولو مرة أخرى .

— « هاى ، إيث »

— « هاللو ، مارجى » .

— « من كان ذلك الغريب الأنيق ؟ »

— « ألا تحملين معك كرتك البللورية ؟ »

— « مخبر سرى ؟ »

— « أسوأ من ذلك . مارجى ، هل يخاف كل الناس من الشرطة ؟ إننى أخشى الشرطة ، حتى ولو لم أفعل شيئاً » .

— « أكان ذلك الفتى المتدين ذو الشعر الأجعد شرطياً ؟ »

— « ليس تماماً . قال إنه من حكومة الاتحاد » .

— « ماذا كنت تدبر ، يا ايثان ؟ »

— « أدبر ؟ أنا ؟ ولماذا كلمة « أدبر » ؟ »

— « ماذا كان يريد ؟ »

— « إننى أعرف فحسب ماذا كان يسأل ولكننى لا أعرف ماذا كان يريد » .

— « وماذا كان يسأل ؟ »

— « منــذ متى وأنا أعرف رئيسى ؟ من غيرى يعرفه ؟ متى جاء الى نيو بايتون ؟ »

— « وماذا قلت له ؟ »

— « حين انضممت للجيش لقتال الأعداء ، لم أكن أعرفه . وحين عدت كان موجوداً هنا . وحين أفلست اشترى المحل ومنحنى وظيفة » .

— « وحول أى شىء – فى اعتقادك – تدور هذه الأسئلة ؟ »

— « يعلم الله » .

كانت مارجى تحاول أن تنظر فيما وراء عينيه . وفكرت . إنه يتظاهر بالسذاجة . إنى لأعجب ماذا أراد الفتى حقاً .

وقال فى هدوء بالغ أثار مخاوفها : « أنت لاتصدقيننى . وأنت تعرفين ، يامارجى ، إن أحداً لايصدق الحقيقة أبداً » .

— « الحقيقة المطلقة ؟ حين تقطع دجاجاً ، ياإيث ، تجده كله دجاجاً ، ولكن البعض لحمه غامق والبعض لحمه أبيض » .

— « أعتقد ذلك . بصراحة ، يامارجى ، إنى قلق . إننى أحتاج إلى هذه الوظيفة . وإذا حدث لألفيو أى شىء فسأعود إلى ذرع الشوارع » .

— « أتراك نسيت أنك ستصبح غنياً » ؟

— « إن التذكر أمر صعب ، وأنا لست غنياً » .

— « إيثان ، إننى أعجب إذا ما كنت تذكر . كان ذلك الربيع قرب عيد القيامة مباشرة . دخلت ، فناديتنى ياابنة أورشليم » .

— « كان ذلك فى يوم الجمعة الحزينة » .

— « ها أنت ذا تذكر فعلاً . حسناً ، لقد وجدت هذا الاسم . إنه فى إنجيل (متى) ، وهو رائع جداً ومخيف » .

— « أجل » .

— « ما الذى أتى به إلى ذهنك » .

— « عمتى العظيمة ديبورا . كانت تصلبنى مرة فى كل عام . ولايزال ذلك الصلب مستمراً » .

— « إنك تهزل . ولكنك لم تكن تهزل حينذاك » .

— « كلا ، لم أكن أهزل . وأنا لا أهزل الآن » .

فقالت فى فرح : « أتعلم ، إن الطالع الذى قرأته لك أخذ يتحقق » .

— « أعلم ذلك » .

— « ألا تعتقد أنك مدين لى بشىء ما » ؟

— « بالتأكيد » .

— « ومتى تنوى الدفع » .

— « هل يضيرك أن تدخلى إلى الغرفة الخلفية » ؟

— « لا أعتقد أنك تستطيع أن تفعل هذا » .

— « لا تعتقدين » ؟

— « كلا ، يا إيثان ، ولا أنت تعتقد ذلك . أنت لم ترتكب فى حياتك أبداً أيه حماقة مفاجئة » .

— « أستطيع أن أتعلم ، ربما » .

— « أنت لا تستطيع ارتكاب الحماقة حتى لو أردت » .

— « ربما أحاول » .

— « ستتطلب إثارتك حباً أو كراهية ، وكلاهما يتطلب إجراءات بطيئة وعظيمة » .

— « ربما تكونين على صواب : وكيف عرفت » ؟

— « لم أدر مطلقاً كيف عرفت » .

زلق باب الثلاجة ففتحه ، وأخرج زجاجة كوكا كولا ، نمت عليها فى الحال طبقة من الثلج وفتحها ، وناولها الزجاجة بينما أخذ يفتح زجاجة ثانية .

« ماذا تريدين منى » ؟

— « أنا لم أعرف فى حياتى قط رجلاً مثلك . لعلى أريد أن أرى كيف يكون الإنسان مع حب أو كراهية شديدة إلى هذا الحد » .

— « إنك ساحرة . لماذا لا تصفرين لتثيرى ريحاً » ؟

— « لا أستطيع أن أصفر . إننى أستطيع أن أثير زوبعة صغيرة تافهة فى معظم الرجال بحركة من حاجبى . فكيف أستطيع التصرف لأضرم فيك النار » ؟

— « ربما تكون قد أضرمتها » .

كان يدرسها بدقة دون أن يحاول إخفاء تفحصه ، وقال : « مبنية مثل ملحق دار من الطوب الأحمر ، لدنة وقوية وطيبة » .

— « وكيف تعرف ؟ إنك لم تمسنى قط » .

— « لو أنك فعلت ، لكان حريا بك أن تهربى منى هربك من الجحيم » .

— « ياحبيبى » .

— « دعك من ذلك . هناك خطأ ما . إننى من الغرور بما يكفى لأعرف مثار جاذبيتى . ما الذى تريدينه إنك امرأة حلوة شهية ولكنك أيضا ذكية . فماذا تريدين » ؟

— « لقد أخبرتك بطالعك وهاهو يتحقق » .

— « وتريدين أخذ نصيبك » .

— « أجل » .

— « الآن أستطيع أن أصدقك » . ورفع عينيه ، وقال : « ماري يامن تحتلين قلبي ، ارعى زوجك حبيبك ، صديقك الغالي . احرسيني من الشر الذي ينبع من داخلي ،ومن الأذى الذي يأتيمن خارجي إنني أر..و عونك ، يازوجتي ماري . فللرجل حاجة غريبة دوارة ، وألم الأجيال يضغط عليه كي ينثر بذاره في كل مكان . فصلي من أجلي » .

— « أنت زائف ، ياإيثان » .

— « أعلم ذلك . ولكن ألا أستطيع أن أكون زائفاً متواضعاً » ؟

— « إنني أخشاك الآن ، ولم أكن كذلك من قبل » .

— « لاأستطيع أن أدرك السبب » .

كانت في عينيهانظرة ممارسة السحر تلك ، ورآها هو .

— « مارولو » .

— « ماذا جرى له » .

— « إنني أسأل » .

— « سأكون معكبعد لحظة . نصف دستة من البيض ، قالب زبد ،حسناً وكيف حال القهوة معك » ؟

— « أجل ، أعطني علبة قهوة . أحب الاحتفاظ بها على الرف . مارأيك في ذلك اللحم المفروم المحفوظ في العلب » ؟

— « لم أجربه . يقولون إنه طيب جداً . سأكون معك بعد لحظة ، يامستر بيكر . ألم تأخذ المسز بيكر شيئاً من ذلك اللحم المفروم المحفوظ في العلب » ؟

— « لاأعلم ، ياإيثان . إننى آكل مايوضع أمامى . مسز يانج هنت أنت تزدادين جمالاً يوماً بعد يوم » .

— « هذا عطف منك ، يا سيدى » .

— « تلك هى الحقيقة . و ـ ترتدين ثياباً بديعة جداً » .

— « كنت أفكر فى نفس الأمر بالنسبة لك . أنت لم تعد الآن جميلا ، ولكن لك خياط مدهش » .

— « أحسبه كذلك . إنه يتقاضى أجراً كافياً » .

— « أتذكر الفتى العجوز الذى قال : « الأخلاق تصنع الرجل ؟ » حسناً قد تغير ذلك الآن . فالخياطون يصنعون الرجال فى أية صورة يشاءون » .

— « إن المشكلة فيما يتعلق بحلة متقنة الصنع ، هى أنها تعمر طويلاً جداً . فهذه عمرها عشر سنوات » .

— « لاأستطيع أن أصدق هذا ، يامستر بيكر . كيف حال مسز بيكر » .

— « بخير حال ، مما لايدع مجالا للشكوى . لماذا لاتزورينها ، يامسز يانج هنت ؟ إنها تشعر بالوحشة . ولايوجد كثيرون فى هذا الجيل يستطيعون متابعة مناقشة متعلمين . و يكهام قال ذلك . وهذا القول هو شعار كلية و ينشستر » .

واستدارت إلى إيثان : « أرنى مدير مصرف أمريكى آخر يعرف ذلك » .

وسرت الحمرة فى وجه مستر بيكر ، « إن زوجتى مشتركة فى سلسلة كتب عظيمة . وإنها لقارئة عظيمة . أرجو أن تزوريها » .

— « سيسعدنى ذلك . ضع حاجياتى فى كيس ؟ يامستر هولى . سآخذها وأنا فى طريقى إلى البيت » .

— « حسناً ، ياسيدتى . »

قال مستر بيكر : « إنها شابة رائعة حقاً . »

— « هى ومارى تتفقان فى هذا . »

— « إيثان ، هل جاء رجل الحكومة ذاك إلى هنا ؟ »

— « أجل . »

— « وماذا يريد ؟ »

— « لا أدرى . فقد سأل بضع أسئلة بشأن مستر مارولو . ولم أعرف الإجابة عليها ».

وحللنى مستر بيكر من صورة مارجى ، بنفس البطء الذى تنفتح به شقائق البحر ، وتقذف إلى الخارج محارة سرطان بحرى امتص كل مابه من لحم .

— « إيثان ، هل رأيت دانى تيلور ؟ »

— « كلا ، لم أره » .

— « هل تعلم أين يوجد ؟ »

— « كلا ، لا أعلم . »

— « ينبغى أن أتصل به . ألا تستطيع أن تفكر أين يمكن أن يكون ؟ »

— « إننى لم أره منذ ـ حسناً ، منذ شهر مايو . كان ينتوى محاولة العلاج مرة أخرى . »

— « ألا تعلم أين ؟ »

— « لم يقل . ولكنه كان راغباً فى المحاولة . »

— « أكانت مصحة عامة ؟ »

— « لا أظن ذلك ، ياسيدى . فقد اقترض منى بعض النقود ».

— « ماذا ! »

— « أقرضته قليلا من المال » .

— « كم ؟ »

— « استمحيك عذراً ؟ »

— « آسف ، يا إيثان . أنتما صديقان قديمان . آسف . هل كانت لديه نقود أخرى ؟ »

— « أعتقد ذلك » .

— « ولا تعلم مقدارها ؟ »

— « كلا ، ياسيدى . كان لدى إحساس فحسب أن لديه منها المزيد » .

— « إذا كنت تعلم أين هو ، فأرجوك أن تخبرنى . »

— « لو كنت أعرف لأخبرتك ، يامستر بيكر . ربما استطعت كتابة قائمة بأسماء أماكن العلاج ، ثم تتصل بها تليفونياً . »

— « هل اقترض المبلغ نقداً ؟ »

— « نعم » .

— « إذن ، فلا فائدة . لأنه سيغير اسمه » .

— « لماذا ؟ »

— « إنهم دائما يتصرفون كأبناء العائلات الطيبة . إيثان ، هل أخذت النقود من مارى ؟ »

— « أجل » .

— « ولم تهتم لذلك ؟ »

— « لم تكن تعلم » .

— « هاقد بدأت تصير ذكياً » .

« لقد تعلمت منك ، يا سيدى » .

— « حسنا ، لا تنسى هذا . »

— « ربما كنت أتعلم تدريجياً ، ولكن أغلب ما أتعلمه هو كثرة الأشياء التى كنت أجهلها . »

— « حسناً هل مارى بخير ؟ »

— « أوه ، إنها بخير وعافية . كم أتمنى لو أستطيع اصطحابها فى أجازة قصيرة فنحن لم نخرج عن نطاق البلدة طيلة سنوات » .

— «سيحين ذلك فى موعده يا إيثان . أظننى سأذهب إلى مين فى الرابع من يوليو فلم أعد أحتمل الضوضاء أكثر من ذلك » .

— « أعتقد أنكم محظوظون ، يا رجال المصارف . ألم تكن فى ألبانى مؤخراً ؟ »

— « ما الذى أوحى إليك بتلك الفكرة ؟ »

— « لا أدرى — سمعتها فى مكان ما . ربما تكون المسز بيكر قد أخبرت مارى » .

— « لا يمكن فلم تكن تعرف . حاول أن تتذكر أين سمعتها » .

— « ربما أكون قد تخيلت هذا فحسب » .

— « هذا يقلقنى ، يا إيثان . تذكر جاهداً أين سمعتها . »

— « لا أستطيع يا سيدى . وماذا يهم ما دامت ليست صحيحة؟ »

— « سأطلعك على سبب قلقى ، على أن يبقى الأمر بيننا . السبب هو أن

هذا القول صحيح . لقد دعانى الحاكم . انه أمر خطير اننى لأعجب من أين تسرب الخبر »

— « إذن فلا أريد أن أسمع »

— « لا خيار لك الآن فى الأمر ما دمت تعرف موضوع ألبانى إن الدولة تتفحص شئون المقاطعة والبلدة »

— « لماذا ؟ »

— « لأن الرائحة قد وصلت حتى ألبانى » .

— « ليست أموراً سياسية ؟ »

— « أظن أن أى شىء يتولاه الحاكم ، يمكن أن يسمى شئوناً سياسية ».

— « مستر بيكر ، لماذا لا يمكن أن يكون الموضوع على المكشوف ؟ »

— « سأقول لك لماذا . لقد شاع الخبر فى المنطقة العليا من الولاية ، وحينما بدأ المحققون يمارسون عملهم ، اختفت معظم السجلات » .

— « أفهم . كم أتمنى لو أنك لم تخبرنى . إننى لست ثرثاراً ولكنى أتمنى لو أننى لم أعرف » .

— « فيما يتعلق بذلك الموضوع ، أتمنى نفس الشىء ، يا إيثان » .

— « إن الإنتخابات فى السابع من يوليو . فهل سيثار الموضوع قبل ذلك ؟ »

— « لا أدرى ، إن الأمر متروك لحكومة الولاية » .

— « هل تعتقد أن مارولو مشترك فى هذا الموضوع ؟ إننى لا أستطيع احتمال فقدان وظيفتى » .

— « لا أظن ذلك . أما ذلك الرجل فكان من حكومة الاتحاد . من وزارة العدل . ألم تسأله عن أوراق تحقيق شخصيته ؟ »

— « لم أفكر فى هذا لقد أظهرها بسرعة خاطفة ولكننى لم أنظر فيها » .

— « حسناً ، كان ينبغى أن تفعل . ينبغى دائماً أن تفعل » .

— « لا أظن أنك راغب فى الابتعاد عن البلدة » .

— « أوه ، ذلك لا يهم . إن شيئاً لا يحدث قبل عطلة الرابع من يوليو . فقد هاجم اليابانيون بيرل هاربور فى عطلة نهاية أسبوع ، كانوا يعلمون أن كل شخص سيكون متغيباً » .

— « كم أتمنى لو استطعت أن آخذ مارى إلى مكان ما » .

— « ربما تستطيع ذلك فيما بعد . إنى أطلب منك أن تقدح ذهنك وتحاول أن تعرف أين يوجد تيلور » .

— « لماذا ؟ هل الأمر بهذه الأهمية ؟ »

— « إنه كذلك . ولا أستطيع أن أقول لك السبب فى هذه اللحظة بالذات » .

— « إذن ، فإننى أود فعلاً لو استطعت أن أجده » .

— « حسناً ، لو استطعت العثور عليه ، فقد لا تحتاج إلى هذه الوظيفة » .

— « إذا كان الأمر كذلك . فمن المؤكد أننى سأحاول ، ياسيدى » .

— « هكذا يكون الرجال ، يا إيثان . إننى متأكد أنك ستحاول . وإذا حددت مكانه فعلاً ، فعليك أن تطلبنى — فى أى وقت ، نهاراً أو ليلاً » .

الفصل الثالث عشر

إننى لأعجب لأناس يقولون إنه لاوقت لديهم للتفكير . ففيما يتعلق بنفسى، أستطيع أن أضاعف التفكير . إننى أجد أن وزن الخضر ، وقضاء فترة النهار مع الزبائن ، وشجار أو مغازلة مارى ، والكفاح مع الأطفال ـ لاشىء من هذه الأشياء يمنع وجود قطاع ثان مستمر من التفكير ، والتأمل . والتخمين . وبالتأكيد يتحتم أن يكون هذا صحيحاً بالنسبة لكل واحد . وربما كان عدم وجود الوقت للتفكير ، هو عدم وجود الرغبة فى التفكير .

لعله لم يكن لى أى خيار فى دخول تلك البلاد الغريبة التى دخلتها ، دون أن تكون مرسومة لى . كانت الأسئلة تغلى ، طالبة الانتباه إليها . ولقد كان عالماً جديداً بالنسبة لى حتى إننى احترت فى أمور لعل المستوطنين القدامى قد حلوها وألقوها جانباً حين كانوا أطفالاً .

لقد ظننت أننى أستطيع أن أبعث الحركة فى عملية ثم أسيطر عليها فى كل دورة من دوراتها . بل حتى أن أوقفها إذا أردت . والآن نما بداخلى الاعتقاد المخيف بأن مثل هذه العملية قد تصير شيئاً فى حد ذاتها ، أو شخصاً فى الغالب ، له غاياته الخاصة ووسائله ومستقل تماماً عن خالقه . ووردت إلى ذهنى فكرة أخرى مزعجة . هل بدأتها أنا حقاً ، أم كل مافى الأمر أننى لم أقاومها ؟ ربما أكون أنا المحرك ، ألم أكن أنا أيضاً محركاً ؟ وذات مرة بدا لى أنه لا توجد فى الشارع الطويل تقاطعات ، أو ممرات متشعبة ، أو اختيار .

كان الاختيار فى التقييم الأول . ماهى الأخلاقيات ؟ هل هى مجرد كلمات ؟

هل كان مما يشرفهم أن يقدروا ضعف والدى ، الذى سببه ذهن كريم وحـلم خاطىء الأصل بأن الرجال الآخرين يساونه فى الـكرم ؟ كلا ، فلقد كان العمل هو أن يحفروا له الهوة . لقد سقط فيه من تلقاء نفسه . لم يدفعه أحد . أ كان لاأخلاقيا أن نجرده مما عليه حين كان فى القاع ؟ من الواضح أنه لم يكن . والآن كان هناك حصار اختيارى بطىء يزحف على نيوبايتون ، ولقد بدأ تحريـكه أناس شرفاء . فإذا نجح ، فلن يظن أحد أنهم غير أمناء بل أذكياء . وإذا تدخل عنصر أغفلوه ، فهل يكون ذلك الحصار لا أخلاقياً ومشيناً ؟ أعتقد أن ذلك سيعتمد على ماإذا كان العنصر ناجحاً أم لا . فالنجاح ، بالنسبة لمعظم العالم ، لم يـكن أبداً شيئاً سيئاً . وإننى أذكر كيف يـكون ذلك ، زخف هتلر منتصراً دون مقاومة ، بحث كثيرون من رجال الشرفاء ، وجدوا فيه فضائل . وكذلك موسولينى : لقد جعل القطارات تسير فى مواعيدها ، وفيشى أتحدث من أجل صالح فرنـا ، ومهما يـكن من أمر ستالين ، فقد كان قوياً . القوة والنجاح — إنهما فوق الأخلاقيات ، وفوق النقد . يبدو إذن ، أن الأمر ليس ما تفعله ، بل كيف تفعله وماذا تطلق عليه . هل يوجد ثمة رادع فى الرجال ، رادع فى أعماقهم ، يوقف أو يعاقب ، يبدو أنه غير موجود . إن العقاب الوحيد هو جزاء الفشل . والجريمة لا تتم فعلا إذا قبض على المجرم . كان من المحتم — حلال الحركة المرسومة من أجل نيوبايتون أن يؤذى بعض الناس رغماً عنهم ، بل ويدمر بعضهم ، ولـكن هذا لم يعق الحركة بأية حال من الأحوال .

لم أستطع أن أسمى هذه صراعاً مع ضميرى . فما دمت قد أدركت النمط وقبلته ، فقد كان الطريق واضح المعالم والمخاطر ظاهره . إن ما أذهلنى أ كثر من

أى شىء آخر ، هو أن الأمر بدا وكأنه يخطط لنفسه ، كل شىء ينمو من الآخر وكل شىء يتفق مع بعضه البعض. وراقبته ينمو وأرشدته بأدق اللمسات فحسب .

لقد تحملت عبء مافعلته وخططت لفعله بمعرفة كاملة كانت غريبة على ، ولكنها ضرورية ضرورة الركاب لاعتلاء ظهر حصان عال . ولكن مادمت قد اعتليته ، فلن تكون ثمة حاجة للركاب . وربما لم أستطع إيقاف هذه العملية ولكنى لاأحتاج أبدأ إلى أن أبدأ واحدة أخرى . فلم تكن بى حاجة أو رغبة فى أن أكون مواطناً فى هذه البلاد الكئيبة الخطرة . لم يكن لى شأن بالمأساة المقبلة فى السابع من يوليو . فلم تكن عمليتى ، ولكنى كنت أستطيع أن أشارك فيها وأن أستخدمها .

إن واحدة من أقدم أساطيرنا وفى الغالب أكثرها افتقاراً إلى البرهان ، هى القائلة بأن أفكار المرء تبين فى وجهه ، وأن العينين هما نافذتا الروح . إن الأمر ليس كذلك . إن الذى يبين هو للرض وحده ، أو الهزيمة أو اليأس وهما نوعان مختلفان من أنواع المرض . والنادر من الناس من يستطيع أن يشعر بالمستور ، أن يحس تغيراً ويسمع إشارة خفية . أعتقد أن زوجتى مارى أحست بتغير ما ، ولكنها أساءت تأويله ، وأعتقد أن مارجى يانج هنت كانت تعلم – ولكنها ساحرة وذلك شىء مزعج . وقد بدت لى ذكية بقدر ماهى ساحرة – وكان ذلك أكثر إزعاجاً .

كنت أشعر شعور اليقين أن مستر بيكر سوف يذهب فى أجازة ، ربما فى أصيل يوم الجمعة فى عطلة الرابع من يوليو . وسيكون على العاصفة أن تثور يوم الجمعة أو السبت ليكون لديها الوقت الكافى لإعطاء أثرها قبل الانتخاب ، وكان منطقياً إفتراض أن مستر بيكر سيرغب فى أن يكون بعيداً حين تحل

الصدمة . وطبعاً ، لم يـكن ذلك يعنيني كثيراً . كانت العملية أقرب إلى تمرين في المشاركة ، ولـكنها حتمت قيامي بعدة تحركات يوم الخميس ، لمجرد احتمال أنه قد يسافر في تلك الليلة . كان موضوع يوم السبت عملياً لدرجة بديعة حتى أنني كنت أستطيع مزاولته في أثناء نومي . ولو كان لدى أي خوف من ذلك ، فقد كان خوفي أقرب شبهاً بالخوف البسيط الذي يصاحب الظهور على المسرح .

في يوم الإثنين ، ٢٧ يونيو ، دخل مارللو حالما فتحت . تجول في أرجاء المـكان ، وهو ينظر بشكل غريب إلى الأرفف ، وإلى آلة عدد النقود ، والثلاجة ، وسار إلى المؤخرة حيث المخزن وتفحصه . وإنك لتعتقد من الانطباع الذي على وجهه ، أنه كان يرى المـكان لأول مرة .

وقلت : « أتنوى القيام برحلة في الرابع من يوليو ؟ »

— « لم تقول ذلك ؟ »

— « حسناً ، كل من يستطيع تحمل النفقات يفعل ذلك » .

— « أوه ! وأين سأذهب ؟ »

— « وأين يذهب سائر الناس ؟ إلى كاتسكيل ، وحتى إلى مونتوك لصيد السمك . إن سمك التونه يجرى هناك » .

ولعل مجرد التفكير في الصراع مع سمكة وزنها ثلاثون رطلاً وهي تتواثب ، قد جلب إلى ذراعه آلام النقرس لدرجة أنه ثناها ، وفزع .

كنت على وشك أن أسأله متى ينتوى السفر إلى إيطاليا ، ولـكن ذلك بدا كثيراً جداً عليه . وبدلاً من ذلك ، تحركت ناحيته وأمسكته برقة من كوعه الأيمن ، وقلت :

— « ألفيو ، إنني لأحسبك أحمقاً . لماذا لاتذهب إلى أحسن إخصائي في

نيو يورك ؟ لابد أن يكون هناك شيء مالإيقاف ذلك الألم » .

— « لا أصدق ذلك . .

— « وماالذى ستخسره ؟ هيا اذهب ، وحاول » .

— « وماذا يهمك من ذلك ؟ »

— « أنا أهتم، ولـكنى اشتغلت هنا فترة طويلةمن أجل مهاجر غبىولوأن كلباً جبانا كان يتألم إلى ذلك الحد، لأحسست ألمهبنفسى .إنك تأتى إلى هنا وتحرك ذراعيك، وينقضى نصف ساعة قبل أن أستطيع تمالك نفسى . »

— « هل تحبنى ؟ »

— « ياللجحيم ، كلا ! إننى أمالئك لـكى ترفع مرتبى » .

وتطلع إلى بعينين كعينى الـكلب ، أطرافهما حمراء ، وقد كونت قزحيتاهما البنيتانالغامقتان وبؤبؤهما قطعةواحدة . وبدا عليه أنه يوشك أن يقول شيئاً ما ، ولـكنه غير رأيه فيا يختص بالأمر وقال :

« إنك فتى طيب » .

— « لاتعتمد على هذا » .

— « بل إنك فتى طيب ! » قالها منفجراً ، ثم وكأنه صدم من إظهاره لعاطفتة ، خرج من المحل وسار مبتعداً .

كنت أزن رطلين من اللوبياء للمسز دافيدسون عندما عاد ماروللو مندفعاً .

ووقف فى المدخل وصاح بى :

— « خذ سيارتى البونتياك » .

— « ماذا ؟ »

— « اذهب إلى مكان مايوى الأحد والإثنين » ·

— « لا أستطيع تحمل النفقات » ·

— « خذالأولاد معك · لقد أبلغت الجاراج أنك ستأخذ السيارة البونتياك وسيكون خزان الوقود ملآ نا » ·

— « انتظر دقيقة »·

— « فلتذهب إلى الجحيم . خذ الأولاد معك »· وقذف ناحيتى شيئاً ما يشبه كرة من الورق وسقط الشيء بين اللوبياء · وراقبته مسز دافيدسون وهو يندفع خارجا مرة أخرى إلى الشارع. والتقطت اللفة الخضراء من بين حبات اللوبياء — كانت ثلاث ورقات من فئة العشرين دولاراً مطوية على شكل مربع محكم الطى ·

— « ماذا جرى له ؟ »

— « إنه إيطالى مثير »·

— « لابد أن يكون كذلك ، مادام يلقى بالنقود ! »

لم يظهر بقية الأسبوع،وهكذا كان الأمر يسير على مايرام· إنه لم يسافر من قبل قط قبل أن يخبرنى. كان الأمر بالنسبة لى يشبه مراقبة استعراض يمر، بمجرد الوقوف ومراقبته وهو يمر أمامك وأنت تعرف ماذا ستكون الدفعة التالية،ولكنك تراقبه بنفس الاهتمام·

لم أكن قد توقعت الحصول على السيارة البونتياك . فهو لم يعر سيارته إطلاقا لأحد · كانت فترة غريبة ، وبدا وكأن قوة خارجية ما أو تصميماً قد تولى زمام الأحداث ، لدرجة أنها تزاحمت متلاصقة وكأنها قطيع من الأبقار فى عربة شحن · كنت أعلم أن العكس يمكن أن يكون صحيحاً . فأحياناً ماتحيد القوة أو التصميم عن الطريق ويدمر · ولايهم مدى الحرص فى التخطيط وعمقه . وأظن ذلك هو السبب فى إيماننا بحسن الحظ وسوء الحظ ·

فى يوم الخميس ، الموافق ثلاثين من يونيو ، استيقظت كالمعتاد فى ضوء الفجر اللؤلؤى المعتم ، وكان ذلك الآن بكوراً بالنسبة لفترة منتصف الصيف . كان الكرسى والمكتب عبارة عن نقطتين معتمتين ، والصور مجرد إيحاءات أكثر وضوحاً . وبدت ستائر النافذة البيضاء وهى تتنهد داخله وخارجه وكأنما تأخذ أنفاسها ، لأنه فجر نادر ذلك الذى لايحرك نسمة خفيفة فوق سطح الأرض.

حين أخرج من مرحلة النوم ، أكون متمتعاً بعالمين ، سماء الأحلام ذات الطبقات ، والمثبتات الوقتية التى يتمتع بها العقل المستيقظ . وتمددت فى تنعم — إحساس طيب ومخدر. إن الأمر يبدو وكأن الجلد قد انكمش فى أثناء الليل ، وعلى المرء أن يفرده ليناسب حجم النهار عن طريق نفخ العضلات ، وتحتوى هذه العملية متعة مخدرة .

فى بداية الأمر ، استرجعت مازلت أذكره من أحلام كما لو كنت ألقى نظرة سريعة على جريدة لأرى ما إذا كان بها ثمة شىء مفيد أومهم . ثم نقبت فى اليوم المقبل بحثاً عن أحداث لم تكن قد وقعت . وتلا ذلك أنى اتبعت تمريناً تعلمته من أحسن ضابط عملت معه . كان يدعى تشارلى أدواردز ، وهو برتبة ميجور وفى منتصف العمر ، ويحتمل أنه كان كبيراً بعض الشىء على أن يكون مشتركاً فى معارك حربية ، ولكنه كان ضابطاً جيداً . كانت له عائلة ضخمة ، زوجة جميلة وأربعة أطفال على التوالى ، وكان قلبه يستطيع التألم من الحب والشوق لهم ، إذا اسمح له بذلك . لقد أخبرنى بهذا التمرين . ففى عمله المميت ، لم يستطع تحمل أن يضلل الحب اهتمامه ويمزقه . وهكذا توصل إلى منهج . ففى الصباح ، هذا إذا لم يقفز من نومه إثر صيحة الانتباه ، كان يفتح ذهنه وقلبه لعائلته . كان يستعرض كل واحد بدوره ، كيف يبدو منظرهم ، وماذا

يشبهون ، ويربت عليهم ويطمئنهم على حبه . وبدا الأمر وكأنه كان يلتقط أشياء ثمينة من خزانة شيئاً بعد الآخر ، ثم يتطلع إلى كل منها ، ويتحسسه ، ويقبله ، ثم يعيده ثانية ، وفى النهاية يلقى عليهم تحية وداع قصيرة ثم يغلق باب الخزانة . كان الأمر كله يستغرق نصف ساعة إذا استطاع الحصول عليه ، وبعدئذ لم يكن عليه أن يفكر فيهم مرة أخرى طوال النهار — وقد استطاع أن يهب طاقته الكاملة ، دون أن تنحرف بها الأفكار المتصارعة والأحاسيس ، للوظيفة التى كان عليه أن يؤديها ، قتل الرجال . كان أفضل ضابط عرفته على الإطلاق . واستأذنته فى استعمال منهجه ، فمنحه لى . وحين قتل ، كان كل ما استطعت التفكير فيه هو أنه قضى حياة طيبة وذات أثر . لقد استوفى مسراته ، واستمتع بحبه ، وسدد ديونه ، وكم من الرجال يستطيعون مجرد الوصول إلى ذلك ؟ .

لم أكن أستعمل منهج الميجور تشارلى دائماً ، ولكن فى يوم مثل يوم الخميس هذا ، وحين عرفت أن انتباهى ينبغى أن يظل دون تشويش بقدر الإمكان ، استيقظت حين انفرج باب النهار مسافة صغيرة ، وزرت عائلتى مثلما كان الميجور تشارلى يفعل .

زرتهم حسب الترتيب الزمنى ، وانحنيت إلى العمة ديبورا . كان اسمها على اسم ديبورا القاضى ، ولقد قرأت أن القاضى كان قائداً حربياً . لقد كانت جدتى العظيمة تستطيع أن تقود الجيوش . فقد كانت تنظم فيالق الفكر . وقد انحدرت إلىّ منها فرحتى بالتعلم دون أن أرجو كسباً ملموساً . ورغم كونها حازمة إلا أنها كانت مشحونة بالفضول ، ولم تكن تهتم إلا قليلاً بمن ليس كذلك . وقدمت لها فروض الولاء . ثم قدمت للقبطان العجوز نخباً خيالياً ، وحنيت

رأسى لأبى . بل أننى أديت واجبى حتى تجاه الحفرة غير المأهولة فى ماضى ، والتى كنت أعرفها على أنها أمى . إننى لم أعرفها أبدا . فقد ماتت قبل أن أتمكن من ذلك وتركت فى الماضى الذى كان ينبغى أن توجد فيه ، حفرة فحسب .

شىء واحد أقلقنى . إن العمة ديبورا والقبطان العجوز ووالدى لم يبدوا واضحين . كانت تحديدات أشكالهم غير واضحة ومتموجة ، حيث كان ينبغى أن تكون واضحة تماماً مثل الصورة الفوتوغرافية .حسناً ، ربما تغيض الذكريات من الذهن كما تغيض الصور القديمة المطبوعة على ألواح الزنك — حيث تمتد خلفية الصورة لتغمر موضوعاتها . لم أكن أستطيع الاحتفاظ بهم إلى الأبد .

كان ينبغى أن تكون مارى التالية ، ولكنى نحيتها جانباً إلى ما بعد .

واسترجعت صورة آلان ، لم أستطع العثور على وجهه الفتى ، الوجه الذى يبين الفرحة والانفعال ، اللذين جعلانى أثق من كماله كرجل . لقد بدا بالصورة التى صار إليها — مكتئباً ، مغروراً ، حانقاً ، نائياً ومغلفاً بأسرار الألم والحيرة التى يبعثها بلوغه ، إنها فترة مرعبة مدمرة تلك التى ينبغى عليه فيها أن يعقر كل شخص قريب منه ، بل حتى أن يعقر نفسه ، مثل كلب وقع فى فخ وحتى فى الصورة التى رسمها له ذهنى ، لم يستطع الخروج من ضجره البائس ، ونحيته جانباً ، وأنا أقول له فحسب : «إننى أعلم . وأذكر مدى سوء تلك الفترة ، وكيف أننى لا أستطيع المساعدة ، كما لا يستطيعها أحد . أستطيع فقط أن أقول لك إنها ستنتهى ، ولكنك لا تستطيع أن تصدق ذلك ، فاذهب فى سلام — اذهب يصحبك حبى رغم أن أحداً منا لا يستطيع تحمل الآخر فى أثناء تلك الفترة» .

أنت إيلين تصحبها موجة من السرور . ستكون جميلة ، بل حتى أجمل

من أمها ، فحين يأخذ وجهها الصغير شكله النهائى ستكون لها السطوة الغريبة التى كانت للعمة ديبورا . إن حالاتها المزاجية ، وقساوتها ، وعصبيتها هى العناصر الأساسية لتكوين مخلوق غاية فى الجمال والمعزة . إننى أعرف هذا ، لأننى رأيتها تقف فى أثناء نومها ممسكة بالطلسم تضمه إلى صدرها وتبدو كامرأة مكتملة . وبقدر ما كان الطلسم هاماً بالنسبة لى ، ولا يزال ، فهو كذلك بالنسبة لإيلين . ربما تكون إيلين هى التى ستحمل وتنقل إلى جيل آت ماهو خالد فىّ . فى وأثناء تحيتى لها وضعت ذراعى حواليها ، بينما قامت هى، فى صورة مطابقة لبنات جنسها ، بدغدغة أذنى ثم ضحكت . ياعزيزتى إيلين ، يابنتى .

أدرت رأسى ناحية مارى ، التى كانت نائمة تبتسم إلى يمينى . وذاك هو مكانها ، فحينما تكون مبتهجة منشرحة الصدر ، تستطيع أن تدفن رأسها فى ذراعى اليمنى ، تاركة يدى اليسرى طليقة لمداعبتها .

منذ بضعة أيام مضت ، جرحت أصبعى السبابة بسكين منحن مما يستعمل فى قطع الموز فى المحل ، و يبست قشرة صلبة على طرف أصبعى . وهكذا كنت أمسح على أذنها بأصبعى الثانى ، ولكن فى رقة كافية لكيلا تزعجها ، وفى ثبات كاف لكيلا أدغدغها . وكما تفعل دائماً ، تنهدت تنهيدة عميقة مختزنة ، وانطلقت منها أنة خافتة . بعض الناس يقاومون الاستيقاظ ولكن مارى ليست منهم . فهى تقبل على اليوم متوقعة أنه سيكون يوماً طيباً . وحيث إننى أعلم هذا ، فإننى أحاول أن أقدم لها هدية صغيرة لأحقق اعتقادها . وأحاول أن أبقى على الهدايا للمناسبات ، مثل تلك التى أخرجتها الآن من حافظة ذهنى .

فتحت عينيها ، ومازالتا ضبابيتين من أثر النوم ، وسألت : « هل طلع النهار ؟ » ، ثم تطلعت إلى النافذة لترى إلى أى مدى أصبح النهار قريباً . وفوق المكتب تتدلى صورة فيها أشجار و بحيرة و بقرة صغيرة تقف فى ماء البحيرة . وحين ميزت ذيل البقرة وأنا فى فراشى ، علمت أن النهار قد طلع .

— « لقد أحضرت لك معى فيضانات من الفرح الغامر ، ياسنجابى الطائر » .

— « أنت مجنون » .

— « هل كذبت عليك مطلقاً ؟ »

— « ربما » .

— « هل أنت مستيقظة بما فيه الكفاية ، لكى تستمعى إلى فيضانات الفرح الغامر ؟ »

— « كلا » .

— « إذن سأحتجزها » .

استدارت على كتفها الأيسر ، فتكونت ثنية عميقة فى لحمها الطرى . « أنت كثير المزاح . فإذا كنت تنوى أن تقول إنك ستغطى العشب بالأسمنت — »

— « كلا » .

— « أو أنك ستبدأ فى تشييد ملعب للكريكيت »

— « كلا ، ولكنك تذكرين فعلاً الخطط القديمة الملغية » .

— « هل الأمر نكتة ؟ »

— « حسناً ، إنه شىء بالغ الغرابة والسحر ، لدرجة تقتضى منك أن تدعمى إيمانك » .

وصارت عيناها الآن صافيتين متيقظتين ، واستطعت أن أرى الارتعاشات البسيطة حول شفتيها وهى تستعد للضحك : « أخبرنى » .

— « هل تعرفين رجلاً من أصل إيطالى يدعى ماروللو ؟ »

— « ياحماقتك — لقد بدأت تصير سخيفاً » .

— « ستجدين الأمر كذلك . لقد رحل « السيد ماروللو » من هنا لبعض الوقت » .

— « إلى أين ؟ »

— « لم يقل » .

— « ومتى سيعود ؟ »

— « أبطلى التشويش علىّ ، فلم يقل ذلك أيضاً . أما ماقاله فعلاً ، وما أمر به — عندما عارضت — إن علينا أن نأخذ سيارته ونذهب فى رحلة سعيدة نقضى بها العطلة » .

— « إنك تسخر بى » .

— « هل أكذب كذبة تثير حزنك ؟ »

— « ولكن لماذا ؟ »

— « ذلك مالا أستطيع قوله . أما ما أستطيع أن أقسم عليه ابتداء من قسم فتية الكشافة حتى القسم البابوى ، فهو أن السيارة البونتياك المخططة كالقندس المسكى ، بخزانها ممتلئا بالوقود العذرى تنتظر إمتاع سعادتك » .

— « ولكن أين سنذهب ؟ »

— ذلك ، يازوجتى الحلوة ، هو ما ستقررى أمره ، وتستغلى اليوم كله وغدا ، ويوم السبت لتضعى خطته » .

— « ولـكن الاثنين عطلة ومعنى ذلك أننا سنقضى يومين كاملين » .

« ذلك صحيح » .

— أتستطيع تحمل النفقات ؟ فقد يتطلب الأمر النزول بفندق على الطريق أو شيئاً من هذا القبيل » .

« سواء استطعنا أم لا ، فلدى حافظة سرية » .

— « سخف ، فأنا أدرى بحافظتك . إننى لأستطيع تصور أنه يعير سيارته » .

— « وكذلك لاأستطيع أنا ، ولـكنه فعل » .

— « لاتنسى إنه أحضر حلوى فى عيد القيامة » .

— « ربما كان خرف الشيخوخة » .

— « إنى لأعجب ماذا يريد » .

— « ليس ذلك القول جديراً بزوجتى . ربما يريد منا أن نحبه » .

— « سيكون على أن أؤدى ألف شىء » .

— « أعلم أنك ستفعلين » واستطعت أن أرى ذهنها يقلب الاحتمالات مثلما يفعل الحفار الآلى وعرفت أننى فقدت انتباهها ، وقد لا أستطيع استردادها ثانية ، وكان ذلك طيباً .

فى أثناء الإفطار وقبل أن أتناول فنجانى الثانى من القهوة ، كانت قد اختارت ، ثم أسقطت من الاحتمال نصف أماكن اللهو فى شرق أمريـكا . لم يـكن قد توفر لعزيزتى المسكينة كثير من المرح خلال تلك السنوات الأخيرة القليلة .

قلت : « يا كلوى[١] ، أعلم أننى سألقى عناء فى اجتذاب انتباهك . ولكن لقد عرض على استثمار هام جداً . وأريد مزيداً من نقودك . أما النقود الأولى فأمرها يسير على مايرام » .

— « وهل يعلم مستر بيكر بالأمر ؟ »

— « إنها فكرته » .

— « إذن خذها ، وقع أنت الشيك » .

— « ألا تريدين معرفة مقدارها »؟

— « أحسب ذلك » .

— « ألا تريدين معرفة الاستثمار ؟ الأرقام ، والتمويل ، والتخطيطات ، والعائد المتوقع ، والمال الأميرى ، وكل ذلك » ؟

— « لن أفهمه » .

— « أوه ، بل ستفهمينه » .

— « حسناً ، لن أرغب فى فهمه » .

— « لاعجب فى أنهم يدعونك ثعلبة وول ستريت . ذلك الذهن العملى البارد كالثلج . الذى تقطع حدته الماس — إنه مخيف » .

قالت : « إننا سنقوم برحلة . سنقوم برحلة مدة يومين » .

وكيف لايستطيع المرء بحق الجحيم ألاّ يحبها ، وألاّ يعبدها ؟ وأخذت أغنى « من هى مارى — وماذا تكون » ؟ ثم جمعت زجاجات اللبن الفارغة وذهبت لعملى .

---

(١) Χλoγ = Clo كلمة يونانيه قديمة ، معناها : الفرس الحديث النماء ، أو أولى بوادر نماء النبات . وقد يكون معناها هنا (ياشجيرتى الصغيرة)

أحسست بحاجتى للحاق بجوى ، بمجرد التوصل إلى الإحساس بوجوده ، ولكن لابد أننى تأخرت لحظة أو أنه بكر لحظة . فقد كان يدخل المقهى حين أستدرت فى شارع هاى . وتبعته إلى الداخل وأخذت المقعد المجاور له . « لقد غرست فى هذه المادة ، ياجوى » .

— « هاى ، مستر هولى . إنها قهوة طيبة جداً » .

وحييت صديقه دراستى العجوز : « طاب صباحك ، ياآنى » .

— « هل ستصبح زبوناً منتظماً ، ياإيث » ؟

— « يبدو كذلك . أعطنى فنجاناً من القهوة السوداء » .

— « هاك قهوة سوداء » .

— « سوداء فى لون عين اليأس » .

— « ماذا ؟ »

— « سوداء » .

— « إذا رأيت أى بياض فى ذلك الفنجان ، ياإيث . سأعطيك فنجاناً آخر » .

— « كيف الأحوال ، يامورفى ؟ »

— « كما هى ، بل أسوأ فحسب » .

— « أتريد أن نتبادل الوظائف » .

— « أقبل ، على أن يكون ذلك قبل عطلة نهاية الأسبوع الطويلة » .

— « لست الشخص الوحيد الذى لديه مشاكل . فالناس عندى يختزنون الطعام أيضا » .

— « أحسبهم يفعلون . لم أكن قد فكرت فى ذلك » .

— « معدات الرحلات ، مخللات ، وسجق — وليساعدنا الله — فهم يأخذون كذلك نبات الخطمية . أليس هذا عملاً شاقا بالنسبة لك » .

— « بحلول الرابع من يوليو فى يوم اثنين وبمثل هذا الطقس البديع ، أتسخر ؟ وما يجعل الأمر أسوأ إن الرب العظيم يحس بحاجته إلى الراحة والاستجمام فى الجبال » .

— « تعنى المستر بيكر ؟ »

— « وأعنى جيمس ج . بلين » .

— « إننى أريد رؤيته ، بل فى حاجة إلى رؤيته » .

— « حسنا ، حاول اللحاق به إن استطعت ، فإنه يقفز هنا وهناك كقطعة نقود فى دف » .

— « بوسعى أن أحضر لك الشطائر إلى (الجبهة) ، ياجوى » .

— « ربما طلبت هذا منك » .

وقلت . « سأدفع هذه المرة » :

— « أوكى » .

عبرنا الشارع معاً ودخلنا الحارة .

— « وإننى لكذلك . لقد سئمت إلى حد كبير نقود الآخرين . لدى موعد حافل لقضاء نهاية الأسبوع ولكنى قد أكون محطماً جداً بحيث لا أكون مهيئاً له » . ودفع غلاف لادن فى القفل ، ودخل وهو يقول « إلى اللقاء » ثم أغلق الباب . دفعت الباب الخلفى ففتحه :

— « جوى ! أتريد شطيرة اليوم ؟ »

— « كلا ، شكراً » . صاح بهذا القول من الداخل المعتم ذى الرائحة

التى كرائحة ورنيش الأرضية . « ربما أحتاج إليها يوم الجمعة ، أما يوم السبت فمؤكد أننى سأحتاج إليها » .

— « ألا تغلق ساعة الظهيرة ؟ »

— « لقد قلت لك ، إن المصرف يغلق أما جوى فلا » .

— « عليك فقط أن تنادى على » .

— « شكراً — شكراً ، يا مستر هولى » .

لم يكن لدى ما أقوله لقوانى على الأرفف ذلك الصباح سوى : « صباح الخير ، يا سادة — خذوا راحتكم » .

قبل التاسعة ببضع لحظات ، كنت أمام الواجهة الخارجية ، أكنس الرصيف مرتدياً ميدعتى وممسكاً بمقشتى .

إن مستر بيكر من الانتظام بحيث يمكنك أن تسمعه يدق كالساعة ، وإنى واثق أنه يوجد داخل صدره زمبرك ساعة شعرى . الثامنة وست وخمسون ، وسبع وخمسون ، ها هو هناك قادم من شارع « إلم » ، الثامنة وثمان وخمسون ، عبر الشارع ، الثامنة وتسع وخمسون — صار أمام الأبواب الزجاجية ، حيث اعترضت طريقه وأنا أحمل مقشتى كأنها سلاح : « مستر بيكر ، أود التحدث إليك » .

— « صباح الخير ، يا إيثان . هل يمكنك الانتظار دقيقة ؟ تعال أدخل » .

تبعته ، وكان الحال كما قال جوى تماما — مثل احتفال دينى . حين اجتاز عقرب الساعة التاسعة واقفا فى حالة انتباه فعلاً . وحينئذ انبعثت تكة وأزيز من باب الخزانة الفولاذى الضخم . وبعدئذ أدار جوى الأرقام السرية وأدار العجلة التى تسحب المزاليج . واستدار باب قدس الأقداس مفتوحاً فى جلال ، ورفع

مستر بيكر يده بالتحية إلى النقود المتجمعة . ووقفت أنا خارج الحاجز الحديدى كمشترك متواضع فى العشاء الربانى ، ينتظر تناول العشاء .

واستدار مستر بيكر : « والآن ، يا إيثان . ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟ »

قلت فى صوت خافت : « أريد التحدث معك على انفراد ، ولا أستطيع ترك المحل » .

ـ « ألا يمكن الانتظار ؟ »

ـ « أخشى ألا يكون ممكناً » .

ـ « ينبغى أن يكون عندك من يساعدك فى المحل » .

« أعلم ذلك » .

ـ « لو أتيحت لى لحظة زمن فسآتى إليك . هل ثمة خبر عن تيلور ؟ »

ـ « ليس بعد . ولكنى استعرضت بعض الخطوط » .

ـ « سأحاول تدبر الأمر »

ـ « شكراً ، يا سيدى » . ولكنى كنت أعلم أنه سيأتى .

وقد أتى ، فى أقل من ساعة ، ووقف جانباً حتى انصرف الزبائن الموجودون .

ـ « والآن ـ ماذا هناك ، يا إيثان ؟ »

ـ « مستر بيكر ، بالنسبة للطبيب أو المحامى أو الكاهن توجد قاعدة من السرية . فهل يوجد مثل هذا الشىء بالنسبة لمدير مصرف ؟ »

ابتسم : « هل سمعت قط عن مدير مصرف يناقش مصالح عميل ، يا إيثان ؟ »

ـ « كلا » .

— « حسنا ، سل مرة لترى مقدار ما ستحصل عليه . و بالإضافة إلى ذلك التقليد ، فإننى صديقك ، يا إيثان » .

— « أعرف هذا . أحسبنى قلقاً قليلاً . لقد انقضى وقت طويل منذ أتيحت لى فرصة »

— « فرصة ؟ »

— « سأكشف أوراقى ، يا مستر بيكر . إن مارولو فى مأزق » .

وتحرك مقتربا منى : « أى نوع من المآزق ؟ »

— « لا أعرف بالضبط ، يا سيدى . أظن أن الأمر قد يكون دخولا غير مشروع إلى البلاد » .

— « وكيف عرفت ؟ »

— « لقد أخبرنى — ليس بالتفصيل فأنت تعرف أحواله » .

كدت أرى ذهنه يقفز هنا وهناك ، يلتقط قطعاً و يرتبها معاً ، وقال :

« استمر فذلك معناه الإبعاد من البلاد » :

— « أخشى أن يكون الأمر كذلك . لقد كان طيباً معى ، يا مستر بيكر . ولن أفعل أى شىء يؤذيه » .

— « أنت مدين لنفسك بشىء ما ، يا إيثان . وماذا أقترح عليك ؟ »

— « ليس الأمر مجرد اقتراح . لقد كان على أن أجمع هذا الرأى من كمية كبيرة من الكلام الملتوى المثير . ولكنى استنتجت أنه لو كان لدى خمسة آلاف دولار نقداً ، فإننى أستطيع امتلاك المحل » .

— « ذلك يبدو وكأنه ينوى الهرب — ولكنك لا تعلم شيئاً عن ذلك » .

— « لا أعلم أى شىء على وجه الحقيقة » .

— « وبهذا لن تكون هناك فرصة لاتهامك بالتواطؤ . فهو لم يخبرك بأى شيء محدد » .

— « كلا ، يا سيدى » .

— « إذن كيف توصلت إلى ذلك الرقم ؟ »

— « الأمر سهل ، يا سيدى . فذاك المبلغ هو كل مالدينا » .

— « ولكن هل كان يحتمل أن نحصل عليه بمبلغ أقل ؟ »

— « ربما » .

وتفحصت نظرته السريعة المحل وقدرت قيمته وقال : « لو أنك مصيب فى افتراضك ، فإنك تكون فى مركز مساومة طيب » .

— « إننى لست بارعاً جداً فى ذلك » .

— « إنك تعرف أننى لا أحبذ الصفقات التى تعقد فى الخفاء . ربما استطعت التحدث معه » .

— « انه خارج البلدة » .

— «متى سيعود ؟ »

— « لا أعلم يا سيدى . وتذكر ، انه مجرد إحساس عندى بأنه قد يقبل ، واذا كان لدى المبلغ نقداً ، فقد يعقد الصفقة . انه يحبنى كما تعلم » .

— « أعلم أنه يحبك » .

— « اننى أكره التفكير فى أننى انتهزت الفرصة » .

— « إنه يستطيع دائماً أن يحصل على المبلغ من شخص آخر. كان يستطيع الحصول بسهولة على عشرة آلاف دولار من — أى شخص » .

— « إذن فربما أكون مبالغاً فى الأمل » .

— « والآن ، لا تفكر بأفق محدود . عليك أولاً أن تبحث عن رقم واحد ، المال » .

— « رقم اثنين . إنها نقود ماري » .

— « فليكن . حسناً ، ما الذي دار بخلدك ؟ »

— « حسناً ، حسبت أنك قد تستطيع تحضير بعض الأوراق على أن تترك التاريخ والمبلغ على بياض . و بعد ذلك فكرت فى أن أسحب النقود يوم الجمعة » .

— « ولماذا يوم الجمعة ؟ »

— « حسناً ، إن الأمر أيضا مجرد تخمين ، ولكنه قال شيئا بخصوص كيف أن الناس جميعاً يتغيبون عن البلدة فى العطلة . وتصورت بشكل ما أنه قد يأتى حينئذ . أليس رصيده لديك ؟ »

— « كلا ، والله ! لقد سحبه حديثاً . لشراء مؤن ، كما قال . ولم أفكر فى أى شىء من هذا لأنه قد فعل ذلك قبلاً ، وكان دائما يعيد أكثر مما سحب » . ونظر مباشرة فى عينى فتاة غارقة فى الأصباغ تدعى مس اينجولد كانت تقف إلى جوار الثلاجة ، ولكنه لم يستجب لدعوتها الضاحكة . « أتعلم أنك قد تتلقى ضربة مرعبة فى هذه الصفقة ؟ »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « لأنه ، أولاً ، يستطيع أن يبيع المحل لنصف دستة من الناس المختلفين وثانيا ، أن المحل قد يكون غارقاً الى أذنيه فى الرهن . ولا توجد له حجة تمليك للبحث عنها » .

— « ربما استطعت أن أتبين الأمر فى مكتب موثق المقاطعة ، و اننى أعلم كم أنت مشغول ، يا مستر بيكر ، ولكنى أستغل صداقتك لعائلتى . و بالإضافة

الى هذا ، فأنت الصديق الذى يعرف مثل تلك الأشياء » .

ـــ « سأزور توم واطسون بشأن عقد التمليك . اللعنة ، يا ايثان ، انها فترة سيئة ، فإننى أريد القيام برحلة صغيرة غداً . واذا كان الأمر صحيحا وكان محتالاً ، فمن الممكن أن تستدعى للتحقيق الدقيق » .

ـــ « ربما يجدر بى اذن أن أترك الموضوع . ولكن ، يا الهى ، يامستر بيكر ، إننى سئمت بقائى موظفاً فى محل بقالة » .

ـــ « لم أقل أن تترك الموضوع ، بل قلت انك تغتنم فرصة » .

ـــ « ستكون مارى فى غاية السعادة اذا امتلكت المحل . ولكننى أظنك على صواب ، ينبغى عدم المقامرة بنقودها . أعتقد أن ماينبغى على فعله ، هو أن أستدعى رجال حكومة الاتحاد » .

ـــ « وسيفقدك ذلك أى امتياز يكون لك » .

ـــ « كيف ؟ »

ـــ « اذا أبعدوه ، فيمكنه أن يبيع ممتلكاته بواسطة وكيل ، وسيجلب هذا المحل مبلغا من المال أكثر مما تستطيع أن تدفع . وأنت لا تعلم فعلاً أنه ينوى الهرب ، فكيف تستطيع إخبارهم بأنه سيفعل ، اذا كنت لا تعلم ؟ أنت لا تدرى حتى أنه قبض عليه » .

ـــ « ذلك صواب » .

ـــ « والواقع ، أنك لا تعرف أى شىء عنه ـ معرفة يقينية . وكل ما أخبرتنى به هو شكوك غير واضحة ، أليس الأمر كذلك ؟ »

ـــ « أجل » .

ـــ « من الأفضل أن تنسى تلك الشكوك » .

— « ألن يبدو الأمر مريباً ـ فى حالة الدفع نقداً دون أى تسجيل ؟ »

— «يمكنك أن تكتب على الشيك ـ أوه شيئاً مثل » للاستغلال فى أعمال البقالة مع أ . ماروللو » وسيكون ذلك تسجيلا يفى بقصدك » .

— « افترض أن شيئاً من هذا لم يفلح » .

— « حينئذ تعيد إيداع النقود » .

— « أتعتقد أن الأمر يساوى المخاطرة ؟ »

— « حسناً ـ إن كل شىء مخاطرة ، يا إيثان . وإنها لمخاطرة أن تحمل كل تلك النقود الكثيرة هنا وهناك » .

— « سأكون حريصاً فيما يختص بذلك » .

— « أتمنى لو لم أكن مضطراً للبعد عن البلدة » .

كان ماقلته عن التوقيت لا يزال سارى المفعول . فطوال تلك الفترة لم يدخل المحل أحد ، أما الآن ودخل نصف دستة ـ ثلاث نساء ، ورجل عجوز ، وصبيان. وتحرك مستر بيكر مقترباً منى وتكلم فى صوت خافت : « سأعدها لك فى ورق من فئة المائة دولار وسآخذ أرقامها . حتى إذا قبضوا عليه تستطيع استرداد النقود » . وأحنى رأسه فى تجهم إلى النسوة الثلاث ، وقال للرجل العجوز « طاب صباحك ، ياجورج » . وأدخل أصابعه فى خشونة فى شعر الصبية الخشن . إن مستر بيكر رجل ذكى جداً .

الفصل الرابع عشر

إن أول يوم فى يوليو ، يوم يقسم العام مثلما يقسم الفرق شعر رأس . لقد سبق أن رأيته كحد مميز بالنسبة لى ـ فبالأمس كان يوجد نمط منى ، وغدا سيوجد نمط مختلف . لقد قمت بتدبيرى بحيث لا يمكن استعادته . كان الزمن والأحداث قد لعبت دورها على طول الخط ، وبدا أنها تزاملنى فى عملى . ولم أسدل ستاراً أبداً أخفى به عن نفسى ما كنت أفعل . فلم يدفعنى أى شخص لأختط الطريق الذى اخترته . واستبدلت إلى حين عادة فى السلوك والتصرف من أجل الراحة والكبرياء ، ومن أجل الحصول على متكأ للاطمئنان . ولعله سيكون من اليسير جداً ، أن اتفق على أننى فعلت هذا من أجل أسرتى ، لأنى كنت أعلم أنه عن طريق راحتهم وطمأنينتهم سأجد كبريائى . ولكن غرضى كان محدداً ، وحالما يتحقق ، فإننى أستطيع أن أسترد عادتى فى السلوك ثانية . كنت أعرف أننى أستطيع . فلم تجعل الحرب منى قاتلاً ، رغم أننى ظللت فترة أقتل الرجال . ولم يكن إرسال الفيالق ـ مع علمى أن بعض الرحال سيموتون ـ يثير فى نفسى أية فرحة بالتضحية مثلما كان يحدث للبعض ، ولم أستطع أبداً أن أشعر بالبهجة تجاه ما فعلت ، أو ألتمس العذر أو الصفح عنه . كان الشىء الرئيسى هو أن تعرف الغرض المحدد لما هو كائن ، وحالما يتحقق : توقف العملية خط سيرها . ولكن ذلك يكون ممكناً فحسب ، إذا عرفت ما أفعل ولم أخدع نفسى بالطمأنينة والكبرياء ، ثم بعدئذ أوقف العملية فى خط سيرها . لقد عرفت من المعارك أن القتلى والجرحى هم ضحايا عملية ما ، وليسوا ضحايا الغضب أو الكراهية

أو القسوة . و إنني أومن بوجود الحب ، في أثناء لحظة تقبل المصير ، بين الفائز والخاسر ، و بين القاتل والمقتول .

ولكن أوراق داني المجعدة كانت تؤلمني كالأسى ، و كذلك عيني مارولو الممتنين . لم أ كن قد رقدت مستيقظاً ، مثلما يقال إن الرجال يفعلون ليلة المعركة. بل جاء النوم سريعاً ، عميقاً ، تاماً ، وأطلق سراحي قبل الفجر ، بنفس الحرية التي أتى بها وكنت منتعشاً . لم أرقد في الظلام كالمعتاد ، وكان دافعي إلى ذلك أن أستعرض حياتي كما عشتها . وانزلقت من الفراش في هدوء ، وارتديت ملابسي في الحمام ، ونزلت الدرج ، وأنا أمشي قريباً من الحائط . ولم يثر دهشتي أنني ذهبت إلى الدولاب ، وفتحته . وعرفت الحجر الوردي باللمس . ووضعته في جيبي وأغلقت الدولاب ثم قفلته بالمفتاح . لم أ كن قد حملته بعيداً أبدا طيلة حياتي كلها ، ولم أ كن أعرف هذا الصباح اني سأفعل ذلك . وأرشدتني الذا كرة خلال المطبخ المظلم وخارج الباب الخلفي إلى الفناء المعتم . كانت شجرات الدردار المتعانقة متخمة بأوراقها ، كهف حقيقي مظـلم . لو كانت لدي حينئذ سيارة مارولو البونتياك لسقتها خارج نيو بايتون الى عالم ذاكرتي الأولى الذي أخذ يستيقظ . وتعقب أصبعي الرسم المتعرج الذي لا ينتهي على الطلسم الدافيء دفء البشرة في جيبي – طلسم ؟

إن تلك الديبورا التي أرسلتني طفلاً إلى الجلجثة ، كانت آلة دقيقة فيما يتعلق بالكلمات . فهي لم تكن تنظر إلى الكلمات على أنها هراء ولم تكن تسمح لي بأي تهاون في ذلك . أية سلطة تمتعت بها ، تلك المرأة العجوز ! ولو كانت ترغب في الخلود ، فقد كان لها في ذهني الخلود . وحين رأتني أتتبع الأحجبة بأصبعي ، قالت . « إيثان ، قد يكون ذلك الشيء الغريب طلسمك » .

— « وما هو الطلسم ؟ »

— « لو أننى أخبرتك ، فلن يعيها انتباهك المشتت إلا بشكل جزئى فحسب . ابحث عن معناها » .

لقد عرفت معنى الكثير جداً من الكلمات بنفسى ، لأن العمة ديبورا أثارت فضولى بشأنها أول الأمر ، ثم أرغمتنى بعدئذ على أن أشبع هذا الفضول بجهودى الخاص . وكان من الطبيعى أن أجيبها : « ومن الذى يعنيه الأمر ؟ » ولكنها كانت تعلم أننى سأتسائل وحدى بحثا عنها ، فتهجت الكلمة لتمكننى من تتبعها فى القاموس . ط ـ ل ـ س ـ م . كان اهتمامها بالكلمات عميقاً ، وكانت تكره إساءة استعمالها مثلما تكره تناول أى شىء بديع بإهمال . والآن ، وبعد عدة أجيال ، أستطيع أن أرى الصفحة — أستطيع أن أرى نفسى أخطىء فى تهجى كلمة « طلسم » . كانت كتابتها باللغة العربية مجرد خط متعرج به بروز عند نهايته أما باللغة اليونانية فكان باستطاعتى أن أنطق الاسم بسبب حدة لسان تلك المرأة العجوز . « هى حجر أو شىء آخر حفرت عليه أشكال أو شخوص تنسب إليها قوى خفية ناتجة من تأثير الكواكب السيارة ، والتكوينات الفلكية التى يصنع الشىء تبعا لها ، وهو يلبس غالباً كتعويذة تدرأ الشر عن حاملها أو تجلب له الخير » . وكان على حينئذ أن أبحث عن معنى كلمات « خفية » ، و « الكواكب السيارة » ، و « التكوينات الفلكية » ، ثم « تعويذة » كان الحال دائما هكذا . كلمة واحدة تقذف بكلمات أخرى مثل وتر النبلة . وحين سألتها فيما بعد : « هل تعتقدين فى فى الطلاسم ؟ » أجابت : « وما دخل اعتقادى فى الموضوع ؟ »

وضعت الحجر فى يديها » . ماذا يعنى هذا الشكل أو الشخص ؟ »

ــ « إنه طلسمك وليس طلسمى . إنه يعنى ماتريد له أن يعنى . أعده ثانية إلى الدولاب ، وسيبقى فى انتظارك» .

الآن ، و بينما كنت أسير فى الكهف الذى تكونه شجرات الدردار ، كانت العمة تبدو لى حية مثلما كانت دائماً ، وذلك هو الخلود الحق . وأعلى الحجر وأسفله كان التعريج يسير ، وحوله وأعلاه وأسفله ، ثعبان لارأس له ولاذنب ولاابتداء أو انتهاء . وكنت قد حملته معى بعيداً لأول مرة ــ هل لكى أدرأ الشر ؟ أم لأجلب الخير ؟ إننى لاأعتقد كذلك فى قراءة الطالع .

إن حد الضوء المتعرج المنبعث من الشرق كان هو شهر يوليو ، لأن يونيو كان قد رحل برحيل الليل . و إذا كان يونيو من ذهب فإن يوليو من نحاس ، و إذا كان من فضه فإن يوليو من رصاص . إن أوراق الشجر فى يوليو تكون ثقيله وسميئة ومتزاحمة . وشدو الطيور فى يوليو يكون ترجيعاً فارغاً لاعاطفة فيه ، لأن الأعشاش خاوية الآن ، والأفرخ الصغيرة السمينة تطير مترنحة فى غير إتقان . كلا ، إن يوليو ليس شهر وعد أو وفاء . فالفاكهة تنمو ولكنها ليست حلوة الطعم ولا لون لها ، والقمح حزمة خضراء رخوة سنابلها صفراء غير مكتملة النمو . وثمــــار القرع لازالت ترتدى تيجاناً سرية الشكل من النوار اليابس .

سرت إلى شارع بورلوك ، شارع بورلوك المزدحم المشبع . وأظهر ضوء الفجر النحاسى المتجمع شجيرات الورد مثقلة بأزهار فى منتصف العمر ، وكأنهــا نسوة لم تعد مشداتهن تخفى بطونهن المتزايدة السمنة ، مهما بقيت سيقانهن محتفظة بجمالها .

وفى أثناء سيرى البطىء وجدت نفسى لا أقول ، بل أحس بكلمة إلى اللقاء ـ لم تكن كلمة وادعاً . ولكلمة « وداعا » وقع حلو من التردد . أما كلمة « إلى اللقاء » فهى كلمة قصيرة حاسمة ، كلمة تصير معها الأسنان حادة لتقضم الخيط الذى يربط الماضى بالمستقبل .

وصلت إلى الميناء القديم . الى اللقاء بالنسبة لماذا ؟ لا أدرى . ولم أستطع أن أتذكر ، أعتقد أننى كنت أريد الذهاب إلى المكان ، ولكن امرءاً زامل البحر كان يعلم أن المد غامر وأن المكان يرقد تحت ماء معتم . وليلة البارحة رأت القمر الذى عمره أربعة أيام فحسب ، يشبه إبرة جراح منحنية سميكة ، ولكنه كان قوياً بما يكفى لجذب المد إلى فتحة كهف المكان .

لم تكن هناك حاجة لزيارة كوخ دانى على أمل أن أراه . فقد صار الضوء كافيا لأرى الحشائش تقف منتصبة فى الممر ، حيث كانت أقدام دانى قد داستها فسوتها بالأرض .

كان الميناء القديم مرصعا بمراكب الصيف ، قوارب رشيقة صواريها مكسوة بدثار من قماش القلوع به عرى نحاسية ، وهنا وهناك رجل بكر ليعد قاربه ، يزيح الصارى المستعرض ويطوى شراعاً جانبيا وأشرعة رئيسية ، أو ينشر شراعه الضخم وكأنه عش ضخم أبيض مجعد

وكان الميناء الجديد أكثر زحاماً . فقوارب الإيجار مربوطة لصق الرصيف ، فى انتظار من يعتليها من الركاب ، وصيادو الصيف المهووسون الذين يدفعون ثمنا ويكدسون الأحواض بالسمك ويتساءلون ساعة الأصيل — وقد التبس الأمر عليهم عما يفعلونه به . أكياس وسلال وجبال من سمك البورجى الأحمر ،

والقهقة ، والسمك الأسود ، وسمك أبو الحن ، وكلب الماء الرقيق ، كل هذا يصاد فى شراهة ، ليموت ، ثم يلقى ثانية إلى طيور النورس المنتظرة . إن طيور النورس تتجمع ثم تنتظر ، وهى تعلم أن صيادى الصيف سيسأمون من الكمية الوفيرة التى لديهم . فمن ذا الذى يريد أن ينظف ويقشر ملء كيس من السمك ؟ إن الاستغناء عن سمك أشق على النفس من صيده .

كان ماء الخليج الآن ناعماً نعومة الزيت ، والضوء النحاسى ينسكب فوقه . ووقف البط البحرى والحمام متمايلاً على حافة القناة ومع كل منه مرآته التوأم مقلوبة تحته من أعلى إلى أسفل فى الماء .

استدرت ناحية صارى العلم ونصب الحرب التذكارى ووجدت اسمى بين الأبطال الذين على قيد الحياة ، وبأحرف بارزة من فضة — كابتن إ . أ . هولى — وأسفله فى حروف، من ذهب أسماء رجال نيو بايتون الثمانى عشرة الذين لم يعودوا إلى أرض الوطن . كنت أعرف أسماء معظمهم وذات يوم كنت أعرف الرجال أنفسهم — لم يكونوا مختلفين حينئذ عن الباقين ، ولكنهم الآن مختلفون فأسماؤهم مكتوبة بالذهب . ولبرهة قصيرة تمنيت لو استطعت أن أكون معهم فى الصفوف السفلى ، كابتن إ . أ . هولى مكتوباً بالذهب ، لقد اجتمع الأغبياء ومدعو المرض ، والجبناء والأبطال كلهم سوياً وكتبت أسماؤهم بأحرف من ذهب . ليس الشجعان فحسب هم من يقتلون ، ولكن فرصة الشجعان فى القتل تكون أكبر .

ساق ويلى السمين سيارته مقترباً ثم توقف بجوار النصب وتناول راية من على المقعد المجاور له . قال : « هاى ، إيثان » وربط العرى النحاسية ، ثم رفع الراية ببطء إلى قمة السارية ، حيث تدلت متهدلة مثل رجل مشنوق ... « إنها

بالكاد تتحمل » . قالها ويلى وهو يلهث قليلاً . « انظر إليها ، بقى لها يومان آخران ، وبعدئذ ترتفع الراية الجديدة » .

— « ذات الخمسين نجمة ؟ »

— « أتراهن . لدينا واحدة من النايلون تشبه شيطاناً ضخماً ، فى ضعف ضخامة هذه ولا تزن أكثر من نصف وزنها » .

— « كيف حال الأولاد ، يا ويلى ؟ »

— « ليس لدى ما أشكو منه ـ لا بل لدى شكوى . إن يوم الرابع من يوليو الرائع هذا يكون دائماً فوضى . وحيث إنه يوافق يوم اثنين ، فسيكون هناك المزيد من الحوادث والشجارات والسكارى ـ سكارى ليسوا من أهل البلدة . أتريد أن أوصلك إلى المحل ؟ »

— « شكراً . على أن أتوقف عند مكتب البريد ، وأعتقد أننى سأتناول فنجاناً من القهوة » .

— « حسناً . سأوصلك . وكان بودى أن أدعوك إلى القهوة ولكن ستونى متحير حيرة شديدة » .

— « ما هى مشكلته » ؟

— « يعلم الله . لقد سافر مدة يومين ، ثم عاد متحيراً ومرتبكاً » .

— « إلى أين ذهب » ؟

— « لم يقل ، ولكنه عاد متحيراً . سأنتظرك حتى تحصل على بريدك » .

— « لا تزعج نفسك ، يا ويلى . إذ على أن أكتب بعض العناوين » .

— « على راحتك » . وانسحب بسيارته ثم انزلق مبتعداً مصعداً مع شارع

هاى . كان مكتب البريد لايزال معتماً ، والأرضية مدهونة بالورنيش حديثاً ، ولافتة منصوبة كتب عليها : خطر . أرضية زلقة .

كان صندوقنا هو رقم ٧ منذ أن بنى مكتب البريد العتيق . وأدرت رقم ج ½ ر وأخذت حزمة من الرسوم ونشرات الدعاية معنونة باسم صاحب الصندوق » . كان ذلك كل ماهنالك ـ حشو اسلة المهملات . تمشيت فى شارع هاى ، وفى نيتى أن أتناول فنجاناً من القهوة ، ولـكننى عزفت عن ذلك فى آخر لحظة ، أو لعلنى لم أرغب فى الحديث ، أو ـ لا أدرى لماذا ، لم أرد فحسب أن أذهب إلى مقهى الفورماستر . يا الهى ، أى خليط من الدوافع ذات الذيول المتشابكة هو الرجل ـ وكذلك المرأة أيضا ، فيما أعتقد .

كنت أقوم بكنس الرصيف ، حين ظهر مستر بيكر يدق الأرض بقدميه خارجاً من شارع « إلم » ، ثم دخل لحضور احتفال فتح القفل الميقاتى . وكنت أرتب بنصف حماس ثمار البطيخ الأصفر فى الحوامل التى عند مدخل المحل ، حين توقفت العربة الخضراء القديمة الطراز المسلحة أمام المصرف . ومن مؤخرتها خرج حارسان مسلحان كرجال الـكوماندوز ، وحملا الى داخل المصرف أكياس النقود الرمادية . وفى حوالى عشر دقائق خرجا وركبا القلعة ذات المسامير المبرشمة ثم ساقاها مبتعدين . وأحسب أنه كان عليهما أن ينتظرا حتى يعد مورفى النقود ويراجع عليه المستر بيكر ثم يعطيهما إيصالاً . إن العناية بأمر النقود مشكلة ضخمة مرعبة وكما يقول مورفى ، فإنك قد تجد فى أعماقك اشمئزازاً من نقود الآخرين . ومن حجم ووزن الأكياس ، لابد أن يكون المصرف قد توقع عمليات سحب ضخمة بمناسبة العطلة . لو كنت لص مصارف عادى ، فهاهو ذا الوقت المناسب للسطو عليه . ولـكننى لست لص مصارف عادى . إننى مدين

بكل ما أعرف لبال جوى ، فقد كان باستطاعته أن يكون لصاً عظيماً لوشاء . وإننى لأعجب فعلاً ، لماذا لم يشأ ذلك ، ولو حتى ليطبق نظريته .

تكدس العمل ذاك الصباح . وكان الأمر أسوأ مما قدرت أن يكون . واستحالت الشمس حامية قاسية وتحركت نسمة بسيطة جداً ، إنه نمط الطقس الذى يدفع الناس إلى القيام بأجازاتهم سواء أرادوا أم لم يريدوا . كان أمامى صف من الزبائن ينتظرون قضاء حاجتهم . وعرفت شيئاً واحداً ، فحتى لو قامت القيامة أو فاض الطوفان ، ينبغى أن أحصل على بعض المعاونة . وإذا لم يفلح آلان ، فسأطرده من العمل وآتى بشخص آخر .

حين دخل مستر بيكر فى حوالى الحادية عشرة ، كان فى عجلة من أمره . كان على أن أترك بعض الزبائن وحدهم ، ثم أدخل معه إلى المخزن .

وضع فى يدى مظروفا كبيراً وآخر صغيراً ، وكان فى غاية العجلة ، لدرجة أنه تكلم بصوت كالنباح وبنوع من الاختزال . « توم واطسون يقول إن العملية على مايرام . لا يعلم إذا ما كان المحل مسجلاً ، ولا يعتقد ذلك . إليك أوراق نقل الملكية . ضع التوقيعات حيث جعلت علامة . النقود عليها علامات وأرقامها مدونة . هاك شيكاً جاهزاً تماماً . عليك فحسب أن توقعه . آسف ، يا إيثان ، على أن أسرع . إننى أكره القيام بعمل مثل هذا » .

— « هل تعتقد أنه ينبغى على أن أسير قدماً » ؟

— « اللعنة ، يا إيثان ، أبعد كل تلك المشاق التى تكبدتها » .

— « آسف ، ياسيدى . أعلم أنك مصيب » . ووضعت الشيك فوق صندوق لبن محفوظ من اورق المقوى ، ووقعته بقلمى الذى لا تمحى كتابته .

لم يكن مستر بيكر فى عجلة من أمره عند فحص الشيك . « اعرض

ألفين فى البداية . وزد عرضك مائتى دولار فى كل مرة . وعليك أن تتأكد ، طبعاً ، أن حسابك فى المصرف قد صار خمسمائة دولار فحسب . وليساعدك الرب إذا نفذت نقودك » .

— « إذا كان المحل خال من الرهن ، ألا أستطيع الاستدانة عليه ؟ »

— « تستطيع بالتأكيد إذا أردت أن تلتهمك الفوائد » .

— « لا أعرف كيف أشكرك » .

— « لا تكن لين العريكة ، يا إيثان . ولا تجعله يخدعك بذلاقة لسانه . فهو يستطيع أن يسكرك بكلامه ، كل الصقليين هكذا . تذكر فحسب القاعدة الأولى » .

— « إننى ممتن جداً » .

قال : « ينبغى أن أذهب . أريد أن أصل الطريق الرئيسى قبل زحام مواصلات الظهيرة » . وخرج وكاد تقريباً يوقع مسز ويللو أرضا عند مدخل المحل ، حيث كانت تتفحص كل ثمرة بطيخ أصفر مرتين .

لم تخف حدة هوس اليوم بأية حال . وأعتقد أن الحرارة التى غمرت الشوارع وجعلت الناس متحفزين وفى أعماقهم ميل للشجار . وكنت تحسب أنهم يخزنون أشياء استعداداً لكارثة ، وليس استعداداً لعطلة . ولم يكن فى مقدورى أن أوصل سندويتشات إلى مقر مورفى لو أردت .

لم يكن على فحسب أن أخدم الناس ، بل أن أبقى عينى أيضا مفتوحتين .

كان جزء كبير من الزبائن من المصطافين ، غرباء عن البلدة ، وهم يسرقونك إذا لم تراقبهم . ويبدو أن الامتناع عن هذا ليس فى وسعهم . وهم أيضاً لا يسرقون دائما مايبدو أنهم فى حاجة إليه . والذى يتعرض لأسوأ عمليات

السرقة هى (البرطمانات) الصغيرة التى تحتوى الأشياء الغالية ، مثل الفواجراه ، والـكافيار ، وعيش الغراب . ولهذا جعلنى مارو والو أحتفظ بمثل تلك الأشياء خلف الثلاجة ، حيث ليس من المفروض أن يذهب الزبائن . وقد علمنى أن الإمساك بأحد سارق المحلات ليس عملاً صائباً . فهو يبعث القلق فى الزبائن جميعاً ، وقد يكون السبب — أن كلاً منهم ولو فى محيط أفـكاره — يكون مذنباً بشكل ما . والوسيلة الوحيدة هى أن تقيد الخسارة ضمن حساب شخص آخر . ولـكن إذا رأيت أحداً مايقترب إلى حد كبير من أرفف معينة، فأستطيع أن أوقف دفعته بقولى . « إن بصل الـكوكتيل هذا صفقة رابحة » . وكنت أرى الزبون يقفز وكأننى قد قرأت ما يجول بخاطره . أما أكثر شىء أمقته فى هذه العملية فهو الريبة . إذ أن الشعور بالريبة شىء مقبض . وهذا يثير حنقى ، إذ يكون الأمر كأن شخصاً واحداً يسىء إلى كثيرين .

انقضى النهار فى نوع من الـكآبة ، ومر الوقت بطيئاً . و بعد الخامسة دخل مدير البوليس ستونى ، هزيلاً عاساً وكأنه مصاب بقرحة . واشترى عشاء مما يؤكل أمام التليفزيون ، شرائح لحم بالطريقة الريفية وجزر ،و بطاطس مهموكة مطبوخة ومتجمدة فى نوع من صوانى الألومينيوم .

وقلت . « تبدو وكأنك أصبت بضربة شمس ، أيها المدير» .

— « حسناً ، إننى لست كذلك . إننى أشعر بأنى فى خير حال» .

وبدت عليه التعاسة .

- « أتريد عشائين من هذا » ؟

— « واحداً فقط . فزوجتى فى زيارة . إن رجل البوليس لايحصل على عطلات » .

—«أمر سيء جداً» .

— « وقد يكون جيداً كذلك . فأنا لاأتردد على البيت كثيراً ، وهؤلاء الغوغاء يزحمون كل مكان » .

— « سمعت أنك كنت مسافراً » .

— « من قال لك » ؟

— « ويلى » .

— « أفضل له أن يتعلم أن يبقى فمه الواسع مغلقاً » .

— « لم يكن يقصد الإيذاء » .

— « ليس لديه العقل الكافى ليقصد الإيذاء ، وربما ولا العقل الكافى ليبقى خارج السجن » .

— « ومن لديه العقل الكافى » ؟

قلت السؤال متعمداً ، وحصلت على إجابة أكثر مما توقعت .

— « ماذا تعنى بذلك ياإيثان » ؟

— « أعنى أن لدينا الكثير جداً من القوانين حتى إنك لاتستطيع أن تتنفس دون أن تخرج على قانون ما » .

— « تلك هى الحقيقة . فهكذا تسير الأمور بحيث إنك لاتعود تعرف الحقيقية » .

— « كنت أنوى أن أسألك أيها المدير — فى أثناء قيامى بالتنظيف ، عثرت على مسدس عتيق ، كله قذارة وصدأ . ويقول مارولللو إنه ليس له ، ومن المؤكد أنه ليس لى . فماذا أفعل به » ؟

— « أعطنى إياه ، إذا كنت لاترغب فى تقديم طلب لرخصة » .

— « سآتى به غداً من المنزل ، فقد وضعته فى علبة بها زيت . ما الذى تفعلونه بمثل تلك الأشياء ، ياستونى » ؟

— «أوه نختبرها لنرى ما إذا كانت قد أطلقت و بعدئذ نلقى بها فى المحيط». وبدا أنه أخذ يشعر بتحسن ، ولكنه كان يوماً طويلاً قائظاً . ولم أستطع أن أدعه يستمتع بشعوره .

— « أتذكر منذ سنتين مضيتا ، أنه كانت هناك قضية فى مكان بشمال الولاية ؟ كان رجال البوليس يبيعون الأسلحة المصادرة » .

وابتسم ستونى الابتسامة الحلوة التى لتمساح صغير ، وبنفس البراءة المرحة قال :

— « لقد أمضيت أسبوعا كالجحيم ، ياإيث . أسبوعا كالجحيم . فإذا كنت تنوى أن تستفزنى ، فلا تفعل ، لأننى أمضيت أسبوعاً كالجحيم » .

— « آسف ، أيها المدير . هل يوجد ثمة شىء يستطيع مواطن رشيد أن يفعله ليساعدك ، كأن يسكر معك » ؟

— « بحق المسيح أستطيع . إننى أفضل السكر عن أى شىء أستطيع أن أفكر فيه » .

— « ولماذا لاتفعل ؟ »

— « هل تعلم ؟ كلا ، فكيف يمكنك أن تعلم ؟ لوأنى عرفت فحسب لأى غرض ومن أين أتت » .

— « عم تتحدث ؟ » .

— « انس الأمر ، ياإيث . كلا — لاتنساه . إنك صديق للمستر بيكر. هل يقوم الآن بأى صفقات » .

— « إن صداقتى به ليست بذلك القدر الجيد ، أيها المدير » .

— « وماذا بشأن مارولو ؟ أين يوجد مارولو ؟ » .

— « ذهب إلى نيـويورك . إنه يريد أن يفحص مرض النقرس المصاب به » .

— « ياإلهى العظيم ! لاأدرى . انى لحسب لاأدرى . لو كان يوجد مجرد خيط ، لعرفت أين انقض » .

— « أنت تتكلم كلاماً لا معنى له ، ياستونى » .

— « كلا ، إننى لاأفعل . لقد تـكلمت كثيراً جداً حتى الآن » .

— « اننى لست غاية فى الذكاء ، ولـكن اذا كنت تريد أن تفرغ همومك » .

— « لاأريد . كلا ، لاأريد . إنهم لن يجعلونى أفشى أى سر بسيط حتى ولو عرفت من هم . تناسى الأمر ، ياايث . فإننى لست إلا رجلاً قلقاً » .

— « انك لم تستطع أن تفشى لى أى سر ، ياستونى . ماذا كان الأمر — هيئة المحلفين العليا »

— « إذن فأنت تعلم ؟ »

— « قليلاً » .

— « وماذا وراء ذلك ؟ »

— « التقدم » .

اقترب ستونى منى ، وقبضت يده الحديدية على الجزء الأعلى من ذراعى بشدة آلمتنى ، وقال فى وحشية : « إيثان ، هل تعتقد أننى شرطى جيد ؟ »

— « بل أحسنهم » .

— « إننى أرنو أن أكون كذلك . أريد أن أكون كذلك . إيث — هل تعتقد أنه يحق أن تجعل رجلاً ينم عن أصدقائه لينقذ نفسه ؟ »

— « كلا ، لا أعتقد » .

— « ولا أنا . إننى لا أستطيع الإعجاب بحكومة كهذه ، وما يخيفنى ، يا إيثان ، هو — أننى لن أكون ذلك الشرطى الجيد بعد ، لأننى لن أعجب بما أفعل » .

— « هل اصطادوك للشهادة ، أيها المدير ؟ »

— « إن الأمر كما قلت ، فلدينا الكثير جداً من القوانين حتى إنك تستطيع ان تأخذ نفساً عميقاً دون أن تخرج على واحد منها . ولكن يا إلهى قد كان الفتية أصدقائى ! إنك لم تكن لتفشى سرهم ، يا إيثان »

— « كلا ، لم أكن لأفعل . لقد نسيت عشاءك التليفزيونى ، أيها المدير ».

قال : « أجل ، إننى سأذهب إلى بيتى ثم أخلع حذائى ، وأرى كيف يفعلها رجال الشرطة الذين يظهرون فى التليفزيون . أتدرى ، أحيانا يكون منزل خال مكاناً لطيفاً للراحة . إلى اللقاء ، إيث » .

كنت أحب ستونى . وأعتقد أنه ضابط جيد . إننى أعجب أين سيقع الشص . كنت أغلق المحل وأجذب إلى الداخل صناديق الفاكهة من المدخل ، حين دخل جوى مورفى متلكئاً .

« أسرع ! » قلتها وأنا أغلق الأبواب الأمامية المزدوجة ، ثم أجذب الستائر الخضراء . تكلم فى همس .

« ماذا جرى لك ؟ »

« قد يرغب شخص مافى شراء شىء » .

— « أجل ! أعرف ما تعنى . يا إلهى ! إننى أكره العطلات الطويلة .
إنها تظهر أسوأ ما فى كل شخص . إنهم يبدأونها بحماقة ، ثم يعودون
منهوكين مفلسين » .

— « أترغب فى شراب بارد ريثما أجذب الأغطية على بضاعتى العزيزة ؟ »

— « لا يهم . ألديك شىء من الجعة الباردة ؟ »

— « لكى تأخذها معك فحسب » .

— « سأتناولها فى الخارج ، عليك أن تفتح العلبة فحسب » .

وثقبت ثقبين مثلثى الشكل فى العلبة ، وجعل قاعها إلى أعلاه ، وفتح
حنجرته ، ثم أفرغها داخل جوفه ، وقال « آه ! » ثم وضع العلبة
فوق الثلاجة .

— « إننا سنذهب فى رحلة » .

— « أنت أيها الشيطان المسكين . إلى أين ؟ »

— « لا أعلم ، فلم نتعارك بعد على هذا » .

— « هناك شىء ما يحدث . هل تعرف ما هو ؟ »

— « اعطنى بصيص نور » .

— « لا أستطيع . اننى أحس به فحسب . ان الشعر الذى فى قفاى به نوع
من الحكة . وتلك علامة مؤكدة . لقد خرج كل واحد قليلاً عن نظام حياته » .

— « ربما تتخيل هذا فحسب » .

— « ربما . ولكن المستر بيكر لا يقوم عادة بأجازات . ومع ذلك كان
فى عجلة لعينة لكى يغادر البلدة » .

وضحكت : « هل راجعت الدفاتر ؟ »

— « أتعرف ؟ لقد فعلت » .

— « إنك تمزح » .

— « عرفت ذات مرة مدير مكتب بريد ، فى بلدة صغيرة . وكان يعمل لديه فتى أبله ، يدعى رالف ـ بشعر أشقر ، ونظارة ، وذقن صغيرة دقيقة ، وزوائد أنفية كبيرة فى مثل حجم الغدد الدرقية . وقبض على رالف بتهمة سرقة طوابع بريد ـ كميات كبيرة من الطوابع ، ربما قيمته ألف وثمانمائة دولار . لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً كهذا ، فقد كان أبلها » .

— « أتعنى أنه لم يأخذ الطوابع ؟ »

— « إذا لم يكن أخذها فالأمر سواء وكأنه أخذها . إننى قلق ، ولن أسمح مطلقاً أن يقبض على ، مادمت أستطيع تلافى ذلك » .

— « ألهذا السبب لم تتزوج مطلقاً ؟ »

— « والله ، إننى إذ أفكر فى الأمر ، أرى أن ذلك أحد الأسباب » .

طبقت مئزرى ووضعته فى الدرج بأسفل آلة عد النقود : « إن الأمر يستغرق الكثير جداً من الوقت والجهد لكى تكون شكاكاً ، ياجوى وأنا لم أستطع تحمل ذلك الوقت الطويل » .

— « لابد أن تكون كذلك مادمت تعمل فى مصرف . إنك تخسر مرة واحدة فحسب . وكل ما يحتاجه الأمر هو همسة » .

— « لاتقل لى إنك شكاك » .

— « إنها غريزة . إذا خرج شىء ما قليلاً عن عادته ، فإن التنبيه ينطلق» .

— « يالها من طريقة حياة ! أنت لاتعنى ذلك حقاً » .

— « أظننى لا أعنيه . ولكنى ظننت فحسب أنك لو سمعت شيئاً ما ،

فإنك ستخبرنى — هذا إذ كان الأمر يعنينى بأية حال من الأحوال » .

— « أعتقد أننى لا أخبر أى إنسان بأى شىء أعرفه : وربما كان ذلك هو السبب فى أن أحداً لا يخبرنى بشىء . هل أنت ذاهب إلى البيت ؟ »

— « كلا ، أعتقد أننى سأذهب لتناول الطعام عبر الشارع » .

وأطفأت أضواء الواجهة . « أيضايقك الخروج من باب الحارة ؟ اسمع ، سأعد لك شطائر فى الصباح ، قبل الزحام . واحدة لحم خنزير ، وواحدة جبن فى خبز الشوفان ، مع الخس والمايونيز ، موافق ؟ مع زجاجة من اللبن » .

قال : « كان ينبغى أن تعمل فى مصرف » .

أعتقد أنه لم يكن أكثر وحدة من أى شخص آخر لمجرد أنه كان يعيش وحيداً . تركنى عند باب الفورماستر ، وللحظة تمنيت لو استطعت الذهاب معه . وفكرت فى أن البيت قد يكون فى حال من الفوضى .

وقد كان كذلك . كانت مارى قد خططت للرحلة . فهناك بالقرب من رأس مونتوك توجد سلسلة من مراعى البقر ، بها كل الترتيبات الخيالية التى تراها فيما يسمونه بمغامرات مراعى الغرب . والنكتة فى أنها أقدم مراعى للأبقار قبل اكتشاف تكساس . وأول مرسوم بشأنها صدر كان من الملك تشارلز الثانى . وفى الأصل كانت القطعان التى تمد نيويورك باللحوم ترعى هناك ، كما كان الرعاة يختارون بطريق الاقتراع ، مثل المحلفين ، لمدة خدمة محددة . ومن الطبيعى أنها الآن جميعها مهمازات فضيه وأدوات رعاة البقر ، ولكن البقر الأحمر لايزال يرعى فى المستنقعات . وقد فكرت مارى أنه سيكون لطيفاً أن نقضى ليلة الأحد فى واحد من بيوت الضيافة ، التى هناك .

كانت إيلين ترغب فى الذهاب إلى نيويورك ، والإقامة فى فندق ، ثم قضاء يومين فى ميدان تايمز . أما آلان فلم يكن راغباً فى الذهاب إلى أى مكان على الإطلاق وتلك إحدى وسائله ليسترعى الاهتمام ويثبت وجوده .

كان المنزل يغلى بالانفعال — إيلين بدموعها المعتصرة المتساقطة فى بطء ، ومارى منهكة وقد احمر وجهها من الإحباط ، وآلان يجلس مكتئباً وقد انسحب بعيداً ومذياعه الصغير يصرخ فى أذنه ، بأغنية صارخة مملولة عن الحب والفقدان ، فى صوت أدنى إلى الهستيريا . « لقد وعدت أن تكون مخلصاً . وبعدئذ أخذت قلبى المحب الوحيد ، وقذفته على الأرض مباشرة » .

وقالت مارى : « إننى على وشك التسليم » .

— « إنهما يحاولان مساعدتك فحسب » .

— « يبدو وكأنهما قد خرجا على عادتهما لكى يصيرا صعبى المراس » .

وقالت إيلين وهى ترشف : « لم يحدث أن أتيحت لى الفرصة قط لعمل أى شىء » .

وفى حجرة الجلوس رفع آلان صوت الراديو . « . . . قلبى المحب الوحيد ، وقذفته على الأرض مباشرة » .

— « ألا نستطيع أن نحبسهم فى البدروم ثم نذهب وحدنا ، ياجزرتى الصغيرة العزيزة » .

— « أنت تعلم ، أننى أتمنى فى هذه اللحظة لو استطعنا أن نفعل » ، كان عليها أن ترفع صوتها لكى يصير مسموعاً فوق الزئير المتدفق من أغنية قلبى المحب الوحيد .

ودون تحذير ، تملكتنى غضبة . واستدرت وخطوت متجهاً ناحية غرفة

الجلوس لأمزق ابنى إلى مزق ثم ألقى جثته الوحيدة المحبة فوق الأرض وأطأها بقدمى . وبينما كنت أتهادى خلال الباب توقفت الموسيقى . « نقطع هذا البرنامج لنقدم لكم نشرة خاصة . استدعى أصيل اليوم الموظفون الرسميون فى نيوبايتون ومقاطعة ويسكس للمثول أمام هيئة عليا المحلفين ، لكى يردوا على التهم التى تتراوح بين تحديد ثمن تذاكر المواصلات وأخذ رشاوى وعمولات غير مشروعة على عقود البلدة والمقاطعة . . » .

لقد وقعت الواقعة ـ العمدة ، المجلس ، القضاة ، وأصحاب المصانع . كنت أصغى دون أن أسمع ـ وأنا حزين مهموم . ربما كانوا يفعلون ما اتهموا به ، ولكنهم ظلوا يفعلونه مدة طويلة جداً لدرجة أنهم لم يعودوا يظنونه خطأ . وحتى إذا لو كانوا أبرياء ، فهم لا يستطيعون أن يطهروا سمعتهم قبل الانتخابات المحلية ، بل حتى إذا طهرت سمعة رجل فإن التهمة تظل فى الذاكرة . كانوا محاصرين . لابد أنهم يعرفون هذا . وأنصت انتظارا لذكر اسم ستونى ، ولكنه لم يرد ، وهكذا فإننى أظنه باعهم من أجل سلامته . فلا عجب إذن فى أن يشعر بالكآبة والوحدة .

كانت مارى تنصت عند الباب ، وقالت : « حسناً ! لم يتوفر لدينا الكثير من الإثارة منذ وقت طويل . هل تظن الأمر صحيحا ، يا إيثان ؟ »

— « إنى لأعجب ماذا يظن مستر بيكر » .

— « لقد ذهب فى أجازة . أجل ، إنى لأعجب ماذا يكون شعوره » .

تملك الآن الجموح موسيقاه .

أجلت الأنباء والعشاء والصحاف مشاكل رحلتنا ، حتى صار الوقت متأخراً جداً لإتخاذ قرار أو لمزيد من الدموع والشجار .

فى الفراش انتابت الرعدة جسدى كله . كانت وحشية الهجوم الباردة المفتقرة إلى العاطفة ، تبعث فى رعدة باردة خلال ليل الصيف الدافئ .

وقالت مارى : « إن جسدك كله مصاب بالرعدة ياعزيزى . أتعتقد أنك مصاب بمرض ؟ »

— « كلا ، ياخيالى ، أحسبنى كنت أشعر فحسب بما يتحتم أن يشعر به أولئك الرجال . لابد أن شعورهم مرعب » .

— « كف عن هذا ، يا إيثان . فإنك لا تستطيع أن تحمل مشاكل الناس الآخرين على عاتقيك » .

— « بل إننى أستطيع ، لأن هذا ما أفعله » .

— « عجبى إذا ما كنت ستصير مطلقاً رجل أعمال إنك فى غاية الحساسية يا إيثان وتلك ليست جريمتك » .

— « كنت أفكر فى أنها قد تكون جريمتى — وجريمة كل فرد » .

— « لا أفهم » .

— « لست أكثر منك فهماً ، ياحبيبتى » .

— « لو كان يوجد ثمة شخص فحسب ليبقى معهما » .

— « أعيدى ، أرجوك ، أيتها الحبيبة ! »

— « كم أحب أن أقضى عطلة معك أنت فحسب ، فلم يحدث ذلك منذ دهر » .

— « إننا فقراء فى القريبات المسنات الخاليات من المسئولية . فكرى فى الأمر . لو كان باستطاعتنا فحسب ، أن نحفظهم فى علب ، أو نخالهم لفترة قصيرة . مارى ، ياسيدتى ، فكرى فى الأمر . إننى أتوق لكى أكون بمفردى معك فى

مكان غريب . وسنستطيع أن نعبر الربى ونستحم عاريين عند حلول الليل ، وسأشعث شعرك على فراش من نبات السرخس » .

— « يا عزيزى ، أعرف ، ياعزيزى . أعرف أن الأمر كان عسيراً عليك لا تظننى لا أعرف » .

— « حسناً ، ضميني اليك . ودعينا نفكر فى وسيلة ما » .

— « إنك لا زلت ترتعد . أتشعر ببرد ؟ »

— « أشعر ببرد وقيظ ، بامتلاء وفراغ — و بأنى متعب » .

— « سأحاول التفكير فى شىء ما . سأحاول حقاً . إننى أحبهما طبعاً ، ولكن » .

— « أعلم ، وسأستطيع لبس البابيون » .

— « هل سيضعونهم فى السجن ؟ »

— « ليت بإمكاننا أن — » .

— « أولئك الرجال ؟ »

— « كلا . لن يكون ذلك ضرورياً . إنهم لايستطيعون مجرد الظهور قبل يوم الثلاثاء التالى ، والانتخابات يوم الخميس، وذلك هو سبب ماحدث».

— « إيثان ، ذلك تهكم . وأنت لست ممن يتهكمون بهذا الشكل . وسيكون علينا أن نرحل من هنا إذا كنت ستصير متهكماً لأنه تلك لم تكن نكتة ، بالطريقة التى قلتها بها . فإننى أعرف نكاتك . إنك كنت تعنى ما تقول » .

وصدمنى خوف ما . كان ما فى أعماق قد أخذ يبين . ولم أستطع ترك نفسى تكشف عما فى أعماقها .

فقلت : « أوه قولى لى ، يامس مومى ، هل تتزوجينى ؟ »
وقالت مارى : « أوه ! أوه ! »

كان خوفى المفاجىء من أننى ربما كنت أبين عما بداخلى عظيماً جداً . كنت قد أقنعت نفسى أن العينين ليستا مرآة الروح . إن بعض ما رأيت من أشد الحيل الأنثوية الصغيرة فتكاً كانت لها وجوه وعيون ملائكة . وهناك سلالة تستطيع أن تقرأ خلال البشرة وخلال العظم لتصل مباشرة إلى المركز ، ولكنهم ندرة . أما غالبية الناس ، فلا ينصب اهتمامهم إلا على أنفسهم . وقد قصت على ذات مرة فتاة كندية من أصل اسكتلندى قصة كانت قد آلمتها كما آلمنى قصها . قالت إنها فى أثناء مرحلة بلوغها وعندما أحست بأن أنظار الجميع مركزة عليها فى استهجان ، بحيث كانت تنتقل من حمرة الخجل إلى الدموع ثم إلى حمرة الخجل ثانية ، قال لها جدها الريفى فى حدة بعد أن لاحظ ألمها : « إنك لن تنزعجى كل هذا الانزعاج لما يعتقده الناس فيك إذا عرفت أنهم نادرا مايفعلون ». وقد شفاها ذلك ، وطمأننى قص الحكاية فى سرى ، لأنها قصة حقيقية . ولكن مارى ، التى تعيش عادة فى منزل من أزهار أنبتتها هى بنفسها ، قد سمعت منى نغمة ما أو أحست بريح لاذعة . كان هذا خطراً ، حتى ينتهى الغد .

لو أن خطتى زحفت إلى ذهنى مكتملة النمو ومهلكة ، لكنت قد نبذتها على أنها هراء . والناس لا يفعلون مثل تلك الأشياء ، ولكنهم يلعبون ألعاباً خفية . وقد بدأت لعبتى بقواعد جوى عن السطو على مصرف . ولعبتها كنقيض للسأم الذى تبعثه وظيفتى وكان كل شىء تلقاه فى طريقها ينتهى إليها — الآن وقناع ميكى ماوس ، المرحاض الذى ينز ، المسدس الذى علاه الصدأ ، حلول موعد العطلة ، الورقة التى يحشوها جوى فى قفل باب الحارة . ومثلما يحدث فى لعبة فقد

حددت وقت العملية . وصدقت عليها ، واختبرتها . ولـكن أليس رجال العصابات الذين يتبادلون إطلاق النار مع الشرطة ـ هم الصبية الصغار الذين تمرنوا على سرعة سحب مسدسات الصوت حتى أتقنوا العملية جيداً ، و بذا صار عليهم أن يستغلوا مهارتهم ؟

لا أدرى متى توقفت لعبتى عن أن تـكون لعبة . ربما كان ذلك حين عرفت أننى قد اشترى المحل وأنى سأحتاج إلى نقود لإدارته . ثم عامل آخر، وهو أنه يصعب على المرء أن يدع تخطيطا محكمًا دون أن يختبره أما بالنسبة للخيانة ، والجريمة ـ فلم يكن الأمر جريمة ضد رجال ، بل كانت تحسب ضد المـال ولن يؤذى أحد ، فالنقود مؤمن عليها . أما الجرائم الحقيقية فـكانت ضد رجال ، ضد دانى وضد ماروللو . و إذا كنت قد استطعت أن أفعل ما فعلت ، فليست السرقة إذن شيئا ذا بال . وكل ما يتعلق بها وقتى . ولن يحتاج أى شىء فيها إلى التـكرار . والحقيقة ، أننى قبل أن أعرف أن الأمر ليس لعبة ، كانت إجراءاتى وعدتى وتوقيتى أقرب ما يمكن إلى الـكمال . إن الصبى ذا المسدس الصوتى قد يوجد فى يده مسدسا من عيار ٤٥ مم .

كان من المحتمل طبعاً أن يقع حادث ما ، ولـكن ذلك الاحتمال يوجد فى أثناء عبور شارع أو السير تحت شجرة . لا أعتقد أن أى خوف تملـكنى . فقد تمرست على التخلص منه ، ولـكن كان بى شىء من انبهار النفس ، يشبه رهبة المسرح التى تعترى ممثلاً يقف بين الـكواليس فى ليلة الافتتاح . وكان الأمر يشبه مسرحية فى أن أى عدم توفيق ملموس قد تخص وأبعد .

ومن خلال قلقى بأننى لن أنام ، نمت ، نوماً عميقاً وفى حدود معرفتى لاتشوبه أحلام ، بل نمت أكثر من اللازم . كنت قد خططت أن أستغل

الظلمة التي تسبق النهار لاستعمال دواء التأمل المهدىء . وبدلاً من ذلك ، حين فتحت عيني ، كان ذيل البقرة التي في البحيرة واضحاً منذ مالا يقل عن نصف ساعة . واستيقظت في هزة تشبه هبة الهواء المندفع من متفجر شديد . أحياناً يمزق مثل هذا الاستيقاظ العضلات . أما استيقاظي فقد رج السرير لدرجة أن ماري استيقظت ، وهي تقول « ما الخبر ؟ »

— « لقد نمت أكثر مما يجب » .

— « هراء ، إن الوقت مبكر »

— « كلا ، يامفعولي المطلق . إن هذا يوم ممسوخ بالنسبة لي . فسيكون الناس اليوم سعداء بمواد البقالة . لا تنهضي أنت » .

— « ستحتاج إلى إفطار جيد » .

— « أتعرفين ماذا سأفعل ؟ سآخذ علبة قهوة في الفورماستر ثم أنقض على رفوف مارولو كالذئب » .

— « هل ستفعل ذلك ؟ »

— « استريحي ، يافأرة الفيران الصغيرة ، وحاولي أن تجدي لنا وسيلة نهرب بها من أطفالنا الأعزاء فنحن محتاجان إلى ذلك . إنني أعني هذا » .

— « أعرف أننا نحتاج إليه . وسأحاول التفكير » .

كنت قد ارتديت ملابسي وانصرفت ، قبل أن تتمكن من اقتراح أي من الأشياء الموسمية التي تقترحها من أجل حمايتي وراحتي .

كان جوى في المقهى ، وربت على المقعد المجاور له .

— « لا أستطيع ، ياموري فقد تأخرت . آني ، هل يمكنك إعطائي « كووات » من القهوة في علبة من الورق المقوى ؟ »

— « ستكون فى علبتين ، يا إيثان » .

— « طيب ، بل حتى هذا أفضل » .

وملأت وعائى الورق الصغيرين وغطتهما ثم وضعتهما فى كيس .

وفرغ جوى من قهوته ، وسار معى عبر الحارة .

— « سيكون عليك أن تتلو صلاة القداس هذا الصباح دون الأسقف » .

— « أظن ذلك . قل لى ، ماحال تلك الأنباء ؟ »

— « لا أستطيع هضمها » .

— « أتذكر أننى قلت إنى أشم رائحة شىء ما » .

— « لقد فكرت فى ذلك حينما سمعت بالأمر . إن لك أنفاً مدهشاً » .

— « ذلك جزء من مهنة التجارة . باستطاعة بيكر أن يعود الآن ، وإنى لأعجب إذا ما كان سيفعل » .

— « يعود ؟ »

— « ألم تشم أية رائحة من هناك ؟ »

وتطلعت إليه فى عجز : « إننى أفتقد شيئاً ما ولا أدرى حتى ما هو هذا الشىء » .

— « يا إلهى ! »

— « أتعنى أنه كان ينبغى أن أرى شيئاً ما » .

— « ذلك ما أعنيه . إن قانون الظفر والناب لا ينقض » .

— « أوه ، يا إلهى ! لابد أن هناك عالماً بأكمله أجهله . كنت أحاول أن أتذكر إذا ما كنت تحب كليهما بالخس والمايونيز » .

وقلت : « يجب أن أذهب . عندنا تخفيض خاص فى الشاى أرسل إليه

غطاء صندوق ، وستحصل على هدية علبة صغيرة من الشاى ! ألك معرفة بأية سيدة ؟ »

— « بالتأكيد أعرف ، وتلك هى آخر ما يريدنه من الجوائز . لا تتعب نفسك بإحضار الشطيرتين ، فسآتى لآخذهما . » ودخل من بابه ولم تكن هناك أى تكه من القفل . كنت آمل ألا يكتشف جوى أبداً أنه كان أفضل مدرس على الإطلاق . فهو لم يقدم لى المعلومات فحسب ، بل وضح العملية لى ، ودون أن يدرى ، أعدلى طريقاً .

ان كل من يعرفون هذه الأشياء ، أى الخبراء ، أجمعوا على أن النقود فحسب هى التى تجلب النقود . وأفضل السبل هى دائماً أبسطها . لقد كانت بساطة الأمر المذهلة هى أعظم قواه . ولكننى أومن فعلا بأن الأمر لم يكن يعدو حلماً مفصلاً ، حتى سار ما رولاو — دون أن تكون تلك غلطته — خلال ظلمته فوق صخره شاهقة . ولقد بدا لى ذات مرة أنه من المؤكد تقريبا أننى كنت أستطيع الحصول على الحل لنفسى ، وحينذاك فحسب سقطت أحلامى التى طارت عالياً إلى الأرض . وربما كان هناك سؤال جيد ولكنه غير سديد : لماذا أحتاج المال ، طالما أنى أستطيع الحصول على الحل ؟ وذلك ما أدركه مستر بيكر ، وكذلك جوى ثم ماروللو أيضا. أن الحل دون رأس مال جار أسوأ من لا محل على الإطلاق . فعلى جانبى الطريق الآيل للإفلاس تصطف قبور المخاطرات غير المأمونة . وقد صار لى الآن قبر على هذا الطريق . إن أكثر الجنود غباء لن يرمى قوته كلها فى فتح ثغرة داخل خطوط الأعداء ، دون أن تكون معه مدافع مورتار أو احتياطى أو بديلين له ، ولكن عديداً من الأعمال الوليدة يفعل ذلك . كانت نقود مارى تنتفخ فى جيبى الخلفى على شكل أوراق

مالية معلنة إلا أن مارللو سيأخذ منها أقصى مايستطيع الحصول عليه . و بعدئذ يحل أول الشهر . ومتاجر الجملة لا تفرط يدها فى بيع الأجل بالنسبة للمؤسسات التى لم تبرهن على حسن معاملتها معها بعد . ومن ثم فسأظل فى حاجة إلى نقود ، وتلك النقود تنتظرنى خلف الأبواب الفولاذية ذات التكات . وحين اختبرت عملية الحصول عليها ، التى رسمت وكأنها أحلام اليقظة ، وقفت صامدة تسترعى الانتباه . ولم يزعجنى كون السطو عملية غير قانونية إلا قليلاً جداً . و بالنسبة لمارولو لم تكن هناك أية مشكلة . فلو لم يكن هو الضحية ، فربما كان قد رسم هذه الخطة هو نفسه . أما الذى أقلقنى فهو دانى ، رغم أننى كنت أستطيع أن أفترض افتراضا صادقاً أنه قد انتهى على أية حال . وكانت محاولة المستر بيكر الفاشلة فى أن يفعل نفس الشىء مع دانى ، قد أعطتنى مبرراً أكثر مما يحتاج إليه كثير من الرجال . ولكن دانى ظل ناراً يحرق أحشائى ، وكان على أن أتقبل ذلك مثلما يتقبل المرء جرحاً فى معركة ناجحة . كان على أن أحيا بذلك الجرح فربما التأم بمرور الزمن ، أو ربما أحاطه سياج من النسيان مثلما يحدث أن تحيط الغضاريف بشظية من قذيفة .

كان الأمر العاجل هو النقود ، وقد أعدت تلك الحركة وتم توقيتها بمثل العناية التى تعد بها دائرة كهربية .

كانت قوانين مورفى صامدة جيدة وكنت أتذكرها ، بل أننى حتى أضفت إليها واحدا . القانون الأول : ألا يكون لك سابقة فى سجل السوابق . حسناً ، لم يكن لى أية سابقة . رقم اثنين : لا شركاء أو أمناء على السر . من المؤكد أنه ليس لى . رقم ثلاثة : لاسيدات . حسناً ، كانت مارجى يانج هنت هى الشخص الوحيد الذى أعرفه و يمكن أن يسمى سيدة ، ولم أكن أنوى أن أحتسى الشمبانيا

من حفها . رقم أربعة : لا تجعل مظاهر الثراء تبدو عليك . حسناً ، لن أفعل . لأننى سأستعمل المال تدريجيا فى دفع فواتير تجار الجملة . وكان عندى مكان لإخفائه ففى صندوق قبعة فرسان أورشليم ، كانت توجد دعامة من الورق المقوى المغطى بالقطيفة ، بحجم وشكل رأسى . وقد رفعت هذه الدعامة فعلا ، وغطيت أطرافها بمادة لاصقة حتى يمكن أن تعاد إلى مكانها فى لحظة .

التعرف — قناع ميكى ماوس . ولن يرى أى شخص شيئاً سواه . ومعطف قطنى قديم واق من المطر من محل مارولاو — وجميع المعاطف القطنية الواقية من المطر ذات اللون الأحمر القاتم تبدو متشابهة — وزوج من تلك القفازات المصنوعة من ورق السولفان الممزق مما يأتى مع اللفات . كان القناع قد تم قصه منذ عدة أيام ، وتم إلقاء الصندوق والمسحوق فى المرحاض ودفعهما الماء فيه ، مثلما سيحدث بالنسبة للقناع والقفاز . وكان المسدس الفضى العتيق من ماركة إيفور جونسون قد غطى بسناج مصباح ، وفى المرحاض كانت توجد صفيحة بها زيت سيارات ، سألقيه فيها تمهيداً لتسليمه للمدير ستونى فى أول فرصة .

ولقد أضفت إلى تلك القوانين قانونى الخاص النهائى : لا تكن طماعاً . لا تأخذ كثيراً جداً وتجنب أوراق العملة ذات الفئات الكبيرة . فإذا عثرت فى مكان ما على حوالى ستة أو عشرة آلاف دولار فى أوراق من فئة العشرة والعشرين دولاراً ، فسيكون ذلك كافياً ، وسيسهل التعامل بها وإخفاؤها . أما الحقيبة التى سأحمل فيها النقود ، فهى صندوق كعكة من الورق المقوى موضوع فوق الثلاجة ، وعند ما يراه أحد فى المرة التالية ستكون بداخله كعكة . ولقد حاولت تغيير صوتى بتلك القصبة المرعبة التى تجعل الصوت يشبه الكلام من البطن ، ولكنى نحيتها لاستخدم بدلاً منها الصمت والإشارة . كان كل شىء فى مكانه وجاهزاً .

كنت فى الغالب آسفا لأن المستر بيكر لم يكن هناك . فسيكون هنـاك مورفى ، وهارى روبيت ، وإديث آلدن فحسب . كان الأمر مرتباً لأدق جزء من الثانية . فى التاسعة إلا خمس دقائق سأضع المكنسة فى المدخل . وقد تمرنت على ذلك مرات ومرات . وسأطوى المئزر إلى أعلى ، واضع صنجة الميزان على سلسلة المرحاض لأجعله يستمر فى التدفق ، وسيسمع أى شخص يدخل صوت الماء ، ثم يتوصل بنفسه الى النتيجة . المعطف ، القناع ، صندوق الـكعـكة المسدس والقفازات . ثم أعبر الحارة مع دقات الساعة التاسعة وأدفع الباب الخلفى فافتحه ، ثم ارتدى القناع ، وأدخل عقب أن يئز القفل الميقاتى مباشرة و يجذب جوى الباب ليفتحه . ثم أشير بالمسدس إلى الثلاثة كى ينبطحوا أرضاً . وهم لن يسببوا أية مضايقة ، فالنقود مؤمن عليها — كما قال جوى — أما هوفلا . و بعدئذ ألتقط النقود ، وأضعها فى صندوق الـكعكة ، وأعبر الحارة وأضع القفازات والقناع فى المرحاض وأجذب عليها الماء ، وأضع المسدس فى صفيحة الزيت ، وأخلع المعطف . ثم أجذب مئزرى الى أسفل ، واضع النقود فى صندوق القبعة ، ثم ألتقط المـكنسة ، وأستمر فى كنس الرصيف ، بحيث أكون متواجداً وظاهراً حين يدق جرس الإنذار . وسيستغرق الأمر كله دقيقة واحدة وأربعين ثانية ، فقد تم توقيته ، ومراجعته ، ثم أعيدت مراجعته . ورغم العناية التى وضعت بها الخطة والتوقيت ، فلازلت أشعر بقليل من تلاحق الأنفاس وأنا أكنس المحل قبل أن أفتح البابين الأماميين . وارتديت مئزر الأمس لـكيلا تبدو فيه جدة التجعدات .

ولكن هل تصدق ، لقد توقف سير الزمن ، وكأن يوشع بطوقه المجنح قد أصابه سير الشمس فى مدارها . كأن عقرب الدقائق فى ساعة ابى الضخمة قد ثبت عقبيه وقاوم الصباح .

لم أكن قد خاطبت رعيتى بصوت عال منـذ وقت طويل ، ولـكنى خاطبتها هذا الصباح ، ربما بسبب حالتى العصبية .

قلت : « أصدقائى ، إن ما تشاهدونه سر . وأعلم أننى أستطيع الاعتمادعليكم فى البقاء صامتين . و اذا كان يمتلك أيا منكم أى شعور تجاه المسألة الأخلاقية التى اشتركتم فيهـا ، فإننى أتحدا كم وسأطلب منكم مغادرة المكان » وتوقفت برهة « اعتراضات ؟ حسناً جداً ، إذا سمعت إطلاقاً محارة أو كرنبة تناقش هذا الموضوع مع الغرباء ، فسيكون الحكم عليها هو الموت بشوكة العشاء » .

« وإننى لأرغب فى شكركم جميعاً . لقد كنا سوياً ، عمالاً متواضعين فى الـكرمة ، وكنت خادماً مثلكم ولـكن الآن هناك تحول سيحدث . فسأكون السيد هنـا من الآن فصاعداً ، ولـكنى أعد بأننى سأكون سيـداً طيباً شفوقاً متفاهماً . إن الوقت يقترب ، يا أصدقائى . والستار يرتفع وداعا ، « وعندما تحركت ناحية الأبواب الأمامية ومعى المـكنسة ، سمعت صوتى وهو يصيح : « دانى ، دانى ؟ اخرج من تفـكيرى » . وهزتنى رعدة هائلة لدرجـة أنه كان على أن أستند الى المـكنسة برهة قبل أن أفتح الأبواب

كان عقرب الساعات الأسود القصير الضخم فى ساعة أبى يشير الى التاسعة أما عقرب دقائقها الطويل الرفيع فـكان يشير الى نقصان ست دقائق عن التاسعة كان بوسعى أن أحس بدقات قلبها فوق راحتى وأنا أتطلع إليها .

الفصل الخامس عشر

كان يوماً مختلفاً عن الأيام الأخرى مثلما تختلف الكلاب عن القطط ، ومثلما يختلف كلاهما عن زهور الكريزانتيم أو أمواج المد أو الحمى القرمزية . والقاعدة فى ولايات عديدة ، وبالتأكيد فى ولايتنا ، أنه ينبغى على الدنيا أن تمطر فى عطلات نهاية الأسبوع الطويلة ، وإلا فكيف يمكن للجماهير الغفيرة أن تغرق بماء المطر وتصيبها التعاسة ؟ كانت شمس يوليو تحارب جمعاً كبيراً من السحب الصغيرة المتناثرة كالريش وتدفعها هاربة ، ولكن منابع الرعود كانت تطل من فوق الحافة الغربية ، إنها حاملات المطرقوية الساعد الآتية من وادى نهر الهدسن مسلحة بالبرق ، وقد بدأت فعلاً تغمغم لنفسها . ولو تم تنفيذ القاعدة كما يجب ، لاحتفظت بأمطارها حتى يصل أكبر عدد من المخلوقات البشرية السعيدة إلى الطرق الرئيسية والشواطىء ، وهم يرتدون ملابس الصيف ويتمتعون بخضرته .

أن معظم المحلات الأخرى لاتفتح قبل التاسعة والنصف . وكانت فكرة مارللو هى اختطاف حفنة من العمليات التجارية ، بجعلى أفتح المحل مبكراً نصف ساعة عن المحلات الأخرى . وقد فكرت فى أن أغير تلك العادة . فقد تسببت فى خلق شعور عدائى بيننا وبين المحلات الأخرى . أكثر مما يبرره ربحنا . ولكن ماروللو لم يكن يأبه كذلك لوحدث مطلقاً أن عرف به . كان أجنبياً ، مهاجراً قذراً ، مجرماً ، وطاغية ، مغتصباً لدم الفقراء ، وغداً . وحيث إننى دمرته ، فقد كان من الطبيعى أن تظهر أخطاؤه وجرائمه أمامى فى غباء .

أحسست بيد طويلة عجوز تدور بحافة ساعة والدى ، ووجدتنى أكنس كنسا رديئاً وعضلاتى متوترة ، منتظراً لحظة الحركة السريعة الناعمة للقيام بهمتى . كنت أتنفس خلال فمى ، وكانت معدتى تندفع ناحية رئتى مثلما أذكر أنها فعلت بى وانا فى انتظار هجوم .

كان عدد الناس بالخارج قليلاً ، بالنسبة لعطلة نهاية الأسبوع التى توافق السبت الرابع من يوليو . فقد مر رجل غريب — عجوز — وهو يحمل قصبة لصيد السمك وصندوق ادوات من البلاستيك الأخضر . كان فى طريقه الى رصيف ميناء البلدة ليجلس طيلة النهار مدلياً فى الماء شريحة هزيلة من سمك الصبير . وهو حتى لم يرفع رأسه ، ولكننى أرغمته على الانتباه .

— « أتعشم أن تصيد بعض سمكات كبيرة » .

قال : « إننى لا أصطاد شيئاً أبداً » .

— « أحياناً تأتى بعض السمكات الصغيرة » .

— « أنا لا أصدق هذا » .

انه متفائل متحمس ، ولكنى على الأقل أثرت شيئاً من اهتمامه .

ثم سارت جينى سينجل متدحرجة على الرصيف . كانت تتحرك كما لو كان لها عجل بدلا من القدمين ، وربما كانت أقل من يعتمد عليهم من الشهود فى نيوبايتون . فقد فتحت ذات مره مفتاح فرن الغاز ونسيت إشعاله . وكانت ستطيح بنفسها خلال السقف لو استطاعت أن تتذكر أين وضعت الثقاب .

— « صباح الخير ، يامس جينى » .

— « طاب صباحك ، يادانى » .

— « إننى إيثان » .

— « انه أنت طبعاً . إننى ذاهبة لأخبز فطيرة » .

وحاولت أن أحفر ندباً فى ذاكرتها » . فطيرة من أى نوع ؟ »

— « حسنا ، إنها من نوع فانى فارمر ولـكن العلامة التجارية سقطت من العلبة ، ولهذا فإننى فى الواقع لا أعرف نوعها » .

أية شاهدة ستـكون تلك ، لو أننى احتجت إلى شاهد . ثم لماذا قالت « دانى ؟ »

وقاومت قطعة من ورق القصدير على الرصيف المـكنسه ، وكان على أن أنحنى وأرفعها بإظفرى . إن مساعدى المصرف أولئك الذين يشبهون الفيران ، يتصرفون كالفيران فعلا ساعة أن يغيب القط بيكر . وكانوا هم من أريد . كانت الساعة أقل من التاسعة إلا دقيقة ، حين اندفعوا من المقهى وتسابقوا عبر الشارع .

وصحت بهم : « اجروا ـ اجروا ـ اجروا ! » فابتسموا فى خجل ، بينما كانوا يعالجون فتح أبواب المصرف .

والآن حل الوقت . ينبغى على ألا أفـكر فى الأمر بأكمله ـ مجرد خطوه واحده فى وقتها ، وكل خطوة فى مكانها ، مثلما تدربت . وكورت معدتى القلقة إلى أسفل حيث مكانها . فلأسند المـكنسة أولاً إلى قائمة الباب ، بحيث يمكن رؤيتها وتحركت بسرعة بطيئة مقصودة .

وبركن عينى رأيت سيارة آتية فى الشارع وتوقفت لأدعها تمر . « مستر هولى ! »

واستدرت بنفس الطريقة التى يفعلها رجال العصابات المحاصرون فى السينما . كانت سياره شفرولية خضراء مغبرة تنزلق إلى جوار الرصيف و ، ياإلهى العظيم !

كان رجل الحكومة ذو السروال « الا يفى ليج » يخرج منها . وارتجفت الأرض الحجرية الصلدة أمامى وكأنها انعكاس على صفحة ماء . ورأيته وأنا مشلول - يعبر الرصيف . و بدا كأن الأمر استغرق دهوراً ، ولكن الأمر كان بمثل تلك البساطة . لقد استحال ترتيبى المكتمل الذى خططت له منذ أمد بعيد إلى تراب أمام عينى ، مثلما تتفتت قطعة فنية حين يصفعها الهواء بعد طول دفن . وفكرت فى الاندفاع إلى المرحاض والاستمرار فى تنفيذ الخطة . ولكنها لن تفلح . لم يكن باستطاعتى أن أنقض قانون مورفى - لابد أن الفكر والضوء يسافران تقريبا بنفس السرعة . إنها لصدمة أن يلقى المرء جانباً خطة درست طويلاً ، ومثلت مرات عدة حتى صار إنجازها لايتعدى مجرد تكرارها مرة واحدة ولكنى ألقيت بها جانباً ، وأنهيتها . لم يكن لى خيار . و بسرعة البرق قالت لى فكرة : «حمداً لله أنه لم يأت متأخراً دقيقة واحدة، وإلا كانت تلك هى المصادفة المهلكة التى يكتبون عنها فى القصص البوليسية » .

تم هذا كله حين تحرك الشاب فى تصاب أربع خطوات عبر الرصيف . ولا بد أن شيئاً ما قد بدا له منى .

— « ماذا بك ، يامستر هولى ؟ أنت تبدو مريضاً » .

قلت : « الإسهال» .

— « ذلك أمر لا ينتظر أى رجل . اجر إلى المرحاض ، وسأنتظرك » .

واندفعت إلى المرحاض ، وأغلقت الباب ، وجذبت السلسلة لأجعل الماء يندفع من السيفون . لم أكن قد أضأت النور وجلست هناك فى الظلام . وجعلنى ارتعاد معدتى أصاب بإسهال حقيقى . وكان على فعلا أن أذهب خلال لحظة ، وقد

فعلت ، وغاضت دقات نبضى فى بطء . وأضفت قانوناً إضافياً إلى مجموعة قوانين موزفى . فى حالة وقوع حادثة ، غير خططك ـ فى الحال .

ولقد حدث معى من قبل فى حالة الأزمة أو الخطر العظيم ، أننى أخرج نفسى من الموضوع و بعيداً عنه ، ثم أرقب نفسى مثل أى غريب مهتم بالأمر ، أرقب حركاتى وذهنى ، وأنا محصن ضد الانفعال بما الاحظ . وقد رأيت ، فى أثناء جلوسى فى الظلمة ، الشخص الآخر يطوى خطته المحكمة و يضعها فى صندوق ثم يغلق الغطاء ، ويلقى به ليس بعيداً عن البصر فحسب ، بل و بعيداً عن الفكر . أعنى أنه فى الوقت الذى وقفت فيه فى الظلام ، وجذبت (سوستة) سروالى وأصلحت ثيابى ووضعت يدى على الباب الخشبى الرقيق ، كنت قد عدت إلى شخصية موظف فى محل بقالة مستعد لاستقبال يوم عمل شاق . لم يكن ذلك تحكماً الأمر ، بل كان حقيقة . وعجبت لما يريده الشاب ، ولكن ماصاحب ذلك التعجب ، كان فقط هو شحوب الإدراك الذى ينجم عن خوف حقير من رجال الشرطة .

وقلت : « آسف لأننى تركتك تنتظر ، لا أستطيع أن أتذكر ماذا أكلت ليسبب ذلك » .

قال : « هناك نوع من الفيروس منتشر ، وقد أصيبت به زوجتى فى الأسبوع الماضى » .

— « حسناً ، هذا الفيروس كان يحمل مسدساً ، وكدت لا أملك أمر نفسى . ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ »

و بدا مرتبكاً ، ومعتذراً ، و يكاد يكون خجلاً . وقال : « إن المرء يفعل أشياء غريبة » . وقهرت حافزاً كان يدفعنى لأن أقول — إن هذا يشمل جميع

أنواع الناس — وإنني سعيد لأنني قهرته فقد كانت كلماته التالية : « فى عملى تلتقى بجميع الأصناف » .

وسرت خلف الطاولة ، ورفست صندوق قبعة فرسان أورشليم الجلدى فأغلقته ، ثم استندت بمرفقى على الطاولة .

يا له من أمر غريب جداً . قبل خمس دقائق كنت أرى نفسى من خلال أعين أناس آخرين . وكان على أن أفعل ذلك . فقد كان ما يرونه هاماً . وحينما جاء هذا الرجل عابراً الرصيف ، كان قد صار قدراً ضخماً ، مظلماً ، لا أمل فيه ، عدواً ، وغولاً . ولكن حين قذفت بمشروعى بعيداً وطرحته عنى ، صرت أراه الآن شخصا منفصلاً عنى — شخصاً لم يعد مرتبطاً بى فى خير أوشر . كان — فيما أظن — يقارب سنى ، ولكنه تربى فى المدارس ، أو تربى تربية أخلاقية ، وربما تربيه دينية — ذا وجه نحيل وشعر قص قصيراً بعناية ويقف منتصباً ، وقميص أبيض من صوف خشن النسيج ذى ياقة ثبتت من أسفل بزرين ، وربطة عنق انتقتها له زوجته ، ولا شك أنها ربتت عليها وقومتها حينما كان يغادر المنزل . كانت حلته رمادية غامقة ، وأظافره اعتنى بها فى البيت ، ولكنها عناية جيدة ، وفى يده اليسرى خاتم زواج ذهبى عريض ، وفى عروه سترته قضيب دقيق ، رمز للنشان الذى لم يرتده . كان فمه وعيناه الزرقاوان الداكنتان قد دربت على الحزم ، مما جعل الأمر كله أكثر غرابه الآن ، لأنها لم تكن حازمة . لقد فتحت فى نفسه ثمة ثغره بطريقة ما . فهو ليس نفس الرجل ذا الأسئلة المقتضبة ، التى تشبه قضباناً فولاذية متناسبة حددت المسافات بينها بدقة ، وكل واحد منها أسفل زميله .

وقلت : « لقد كنت هنا قبلاً ، فما هو عملك ؟ »

— « من وزارة العدل » .

— « هل عملك هو العدل ؟ »

وابتسم : « أجل ، أو على الأقل ذلك ما أصبو إليه . ولـكنى لست فى مهمة رسمية ـ بل إننى لست متأكداً حتى من موافقة الوزارة على ما أعمل . ولـكن اليوم هو يوم عطلتى » .

— « وما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك ؟ »

— « أنه أمر معقد بعض الشىء . ولا أدرى تماماً من أين ابدأ . إنه ليس وارداً فى كتب القانون . هولى ، لقد ظللت فى الخدمة اثنى عشر عاماً، ولم يصادفنى من قبل أبداً أى شىء كهذا » .

— « ربما أستطيع مساعدتك لو أخبرتنى ما هو هذا الشىء » .

وابتسم لى : « من الصعب أن أحاول تجميع أجزائه . لقد ظللت أقود سيارتى ثلاث ساعات من نيويورك ، ثم على أن أقودها ثلاث ساعات للعود خلال مواصلات العطلة المزدحمة » .

— « يبدو أن الأمر خطير » .

— « إنه لـكذلك » .

— « أظن أنك ذكرت أن اسمك هو والدر » .

— « ريتشادر والدر » .

— بعد قليل سيتدفق الزبائن، يامستر والدر . ولا أدرى لماذا لم يبدأوا بعد. فهل أنا فى مشكل ؟ »

— « فى عملى يلتقى المرء بجميع الأصناف . القساه والـكذابين ، والمخاتلين، المندمين ، والأغبياء ، والأذكياء . وفى أغلب الحالات يصيبك الحنق منهم .

فتتخذ لك مسلكاً ما تتصرف به معهم . هل تفهمنى ؟ »

— « كلا ، أحسبنى لا أفهم . أسمع ، ياوالدر ، بحق الجحيم ما الذى يزعجك ؟ إنى لست غبياً تماماً . لقد تحدثت مع المستر بيكر فى المصرف . وأنت تسعى فى أثر مستر مارو للو ، رئيسى » .

فقال فى صوت ناعم : « ولقد أمسكت به » .

— « لأى سبب ؟ »

— « دخول البلاد بطريقة غير مشروعة . وليس ذلك من صنعى . فقد حذقوا لى بملف وتتبعت الأمر فيه . وأنا لا أحكم عليه ولا أحاكمه » .

— « هل سيبعد ؟ »

« أجل » .

— « ألا يستطيع الدفاع عن نفسه ؟ ألا أستطيع مساعدته ؟ »

— « كلا . إنه لا يرغب فى ذلك . لقد اعترف بأنه مذنب ، وهو يريد مغادرة البلاد » .

— « ياللعنة التى حلت على ! »

ودخل المحل ستة أو ثمانية زبائن . وصحت به : « لقد حذرتك » ، ثم عاونتهم فى اختيار ما يحتاجون إليه . أو ظنوا أنهم يحتاجون إليه . وحمدت الله لأنى كنت قد طلبت جبلاً من السجق ولفات لحم الهامبورجر .

ونادانى والدر : « بكم تبيع الخلل ؟ »

— « السعر مكتوب على البطاقة » .

فقال : « تسعة وثلاثون سنتاً ، ياسيدتى » . وانصرف إلى الشغل ، بكيل ، ويضع فى أكياس ، ويجمع . ومر من أمامى ليضرب النقود فى آلة عد النقود .

وحين تحرك مبتعداً أخذت كيساً من الرصة ، وفتحت الدرج ، ثم مستعملاً الكيس على أنه لنقل وعاء ، التقطت المسدس العتيق ، وعدت به إلى المرحاض ، ثم أسقطته فى صفيحة الزيت التى كانت فى انتظاره .

وقلت له حين عدت : « إنك بارع فى هذا العمل » .

— « لقد اعتدت أن أعمل فى جرانديونيون بعد المدرسة » .

— « هذا واضح » .

— « الا يوجد معك أحد ليساعدك ؟ »

— « إننى أنوى الإتيان بولدى إلى هنا » .

الزبائن يأتون دائما فى قوافل ، ولا يحدث أبدا أن يأتوا فرادى على فترات متساوية . وموظف البقالة يهيىء نفسه فى الفترة بين مجموعة وأخرى ، ليلقى الفوج التالى . هناك شىء آخر ، حين يقوم رجلان بعمل شىء ماسوياً فإنهما يتشابهان ، وتصبح الفوارق الذهنية بينهما أقل تعقداً . وقد اكتشف الجيش أن الأبيض والأسود لا يقاتل كل منهما الآخر حين يكون أمامهما شىء آخر ليقاتلاه معاً . وقد تبدد الخوف الذى كان يسرى تحت جلدى من رجل البوليس ، عندما كان والدر يزن رطلاً من الطماطم ويجمع قائمة من الأرقام على كيس . ورحلت أول مجموعه من زبائننا .

وقلت : « يحسن بك أن تخبرنى بسرعه عما تريد » .

— « لقد وعدت مارولو انى سآتى إلى هنا . إنه يريد أن يعطيك المحل » .

— « أنت مجنون. أرجو المعذرة ، ياسيدتى ، فقد كنت أخاطب صديقى » .

— « أوه ، أجل . طبعا . حسنا ، كم قطعة سجق تكفينا ، ونحن خمسة أشخاص _ ثلاثة منهم أطفال ؟ »

— « خمسة لكل من الأطفال ، وثلاثة لزوجك ، واثنتين لك . و بذلك تصح عشرين قطعة » .

— « هل تعتقد أنهم سيأكلون الخمسة ؟ »

— « أنهم يعتقدن أنهم سيفعلون . هل لنزهة ؟ »

— « أوه » .

— « إذن خذى خمس قطع إضافية لما سيسقط فى النار » .

— « أين تحتفظ بسدادات الأحواض مقاس صفر ؟ »

— « هناك إلى الخلف حيث توجد المنظفات والنشادر » .

كان الحديث بيننا يتقطع على هـذا النحو ، وكان ذلك متوقعاً . ولو استخلصناه من مقاطعات الزبائن ، فإنه كان كالتالى :

— « أحسبنى أصبت بصدمة . فأنا أودى مهام وظيفتى فحسب ، وهى مع المجرمين معظم الوقت . فإذا ما تكيفت مع معاملة المتحرفين والكذابين والمخادعين ، فإن لقاءك برجل أمين كفيل بأن يحدث لديك صدمة تلقى بك فى الجحيم » .

— « ماذا تقصد بكلمه أمين ؟ إن رئيسى لم يفلت من يديه فرصه إطلاقا أنه قرد فظ » .

— « أعرف أنه كذلك . نحن جعلناه هكذا . لقد قص على الحكاية وأنا أصدقه . قبل أن يأتى إلى هنا ، كان يعرف الكلمات التى على قاعدة تمثال الحرية . كان قد حفظ وثيقة اعلان الاستقلال بلهجتها . كانت وثيقة حقوق الإنسان كلمات من نار بالنسبة له . و بعدئذ لم يستطع دخول البلاد . وهكذا جاء بأى شكل . لقد عاونه رجل لطيف ـ أخذ منه كل ما كان يمتلك ، ثم القاه فى الموج ليخوض للماء

حتى يصل إلى الشاطىء . واستغرق وقتاً قبل أن يتفهم الأسلوب الأمريكى ، ولكنه كان قد تعلم — . « ينبغى على الفتى أن يكسب دولاراً ! ابحثوا عن رقم واحد ، عن المال ! « وتعلم ، فهو ليس غبياً ، واهتم برقم واحد » .

وكان دخول الزبائن تجعل هـذا الحديث متناثراً ، ولذا لم يوصل إلى قمة درامية — كان مجرد سلسلة من الجمل القصيرة .

— « ولذلك لم يتأذ حين وشى به شخص ما » .

— « وشى به ؟ »

— « بالتأكيد . فكل ما يتطابه الأمر مكالمة تليفونية » .

— « ومن فعل ذلك ؟ »

— « من يدرى ؟ إن الوزارة كالآله . تطلب الرقم ثم يسير الأمر فى خطواته كلها ، مثلما يحدث فى الغسالة الاتوماتيكية » .

— « ولماذا لم يبحث له عن مخرج ؟ »

إنه متعب ، إن التعب تسرب إلى عظامه . كما أنه مشمئز . إن لديه بعض نقود ، وهو يريد العودة إلى صقلية » .

— « إننى لا زلت لا أفهم الأمر فيما يتعلق بالحل » .

— إنه يشبهنى . إننى أستطيع معالجة أمر الغشاشين ، فتلك وظيفتى . أما الرجل الأمين فإنه يربكنى فى عملى ، ويقذف بى إلى أعلى السماء . وذلك ماحدث معه . فهناك فتى واحد لم يحاول خداعه ، ولم يسرقه ، ولم يتباك شاكياً ، ولم يغشه . وقد حاول أن يعلم الغبى أن يرعى مصالحه فى أرض الأحرار ، ولكن الأبله لم يستطع أن يتعلم . لقد أخفته فترة طويلة . وحاول أن يتصور هدفك ، فاكتشف أن هدفك كان الأمانة » .

— « افترض أنه كان مخطئاً ؟ »

— « انه لا يعتقد أنه كان مخطئاً . وهو يريد أن يحمل منك نوعاً من التذكار لشيء آمن به يوماً ما . إن وثائق نقل الملكية معى فى السيارة بالخارج وكل ما عليك أن تفعله هو أن تسجلها » .

— « أننى لا أفهم الموضوع » .

— « وأنا لا أدرى إن كنت أفهمه أم لا . أنت تعرف كيف يتكلم — بصوت يشبه الصوت الناجم عن تحمير الفشار . إننى أحاول ترجمة ما حاول أن يشرحه لى . يبدو إن الرجل منا يختط طريقاً معيناً ، ويتخذ اتجاهاً معيناً ، فإذا ما غير ذلك ، فإن شيئاً ما ينفجر ، إنه يكون كآله انتزع أحد تروسها ، ويصيبه المرض إن الوضع يشبه — حسناً ، يشبه محكمة بوليس تقيمها أنت بنفسك ، ويكون عليك أن تدفع قيمة المخالفة . وأنت قيمه مخالفته ، نوع منها ، لكيلا ينطفىء نوره » .

— « ولماذا قدت أنت سيارتك إلى هنا ؟ »

— « لا أدرى بالضبط . كان على أن أفعل — ربما — لكيلا ينطفىء نوره »

— « أوه يا ألهى ! »

وعج المحل بسحابة من صبية يصخبون ، ونساء يلهن المطر . لن تحل بعد بعد ذلك أية لحظة ليس فيها انهماك فى الشغل إلى أن يحل الظهر على الأقل .

ذهب واندر إلى سيارته ، ثم عاد وفرق موجه من زوجات المصيفين المهووسات ايصل إلى الطاولة ، ووضع عليها ظرفا من تلك الظروف المصنوعة من الورق المقوى الاصفر وقد لف بشريط لاصق .

— « على أن أذهب . أمامى أربع ساعات من القيادة فى مثل هذه المواصلات .

وزوجتى حانقة ، لقد قالت بإمكان هذا الأمر أن ينتظر ، ولـــكن الانتظار لم يكن ممكنا » .

— « أيها السيد ، إننى انتظر منذ عشر دقائق لـكى تقضى لى مطالبى » .

— « سأكون معك حالاً ، ياسيدتى » .

— « وقد سألته إذا ما كانت لديه أيه رساله ، فقال : « قل له وداعاً » .

فهل لديك أنت أية رسالة له ؟ »

— « قل له وداعاً » .

ومرة أخرى أطبقت على موجة المعدات التى ساء تنكرها ، وكان هـــذا أفضل بالنسبة لى . واسقطت المظروف فى الدرج الموجود أسفل آلة عد النقود وأسقطت معه _ كآبتى .

الفصل السادس عشر

انقضى اليوم سريعاً ومع ذلك كان لانهائياً . ولم تكن هناك أية صلة بين موعد غلق المحل وموعد فتحه ، فقد كان سحيقاً جداً لدرجة أنني استطعت تذكره بصعوبة . وحينما كنت على وشك إغلاق الأبواب الأمامية ، دخل جوى ، ودون أن أسأله ثقبت علبة جعة وناولتها أياه ، وبعد ئذ فتحت لنفسى واحدة ، وذلك مالم أفعله من قبل قط . وحاولت أن أحدثه عن مارولو وعن المحل ، ووجدتنى لا أستطيع ، ولا حتى أن أقص عليه القصة التى كنت قد قبلتها كبديل للحقيقة .

وقال : « إنك تبدو متعباً » .

— « أحسبنى كذلك . تطلع إلى تلك الأرفف _ أنها عارية . أنهم يشترون أشياء لايريدونها ولايحتاجون إليها» . وأفرغت ماتحتويه آلة عد النقود فى كيس القماش الرمادى ، وأضفت إليه النقود التى أتى بها المستر بيكر ، ووضعت على السطح المظروف الأصفر ثم ربطت الكيس بقطعة من الخيط .

— « ينبغى ألا تترك ذلك هنا » .

— « قد يكون الأمر كذلك . ولكننى أخفيها . أترغب فى علبة أخرى من الجعة ؟ »

— « بالتأكيد » .

— « وأنا أيضاً » .

فقال : « أنك مستمع رائع . لقد بدأت أصدق حكاياتى . »

— « مثل ماذا ؟ »

— « مثل غرائزى ذات الثلاثة أسطح . لقد انتابتنى واحدة هذا الصباح وقد استيقظت بها من النوم . وأظننى حلمت بالأمر . ولكنه كان شعوراً قوياً جداً ، فقد شعرت به فى شعر قفاى وفى كل شىء . كنت أعتقد أن المصرف سيسرق اليوم . عرفت هذا . عرفته وأنا راقد فى فراشى . إننا نبقى أوتاداً صغيرة تحت أجراس الإنذار التى تحت أقدامنا لكيلا نطأها خطأ . وكان أول شىء فعلته هذا الصباح هو أننى نزعت تلك الأوتاد . كنت متأكداً جداً من ذلك الشعور ، ومشدوداً إليه . والآن كيف تفسر ذلك ؟ »

— « ربما يكون شخص ماقد دبر السرقة وقرأت أنت أفكاره ، ثم عدل عن رأيه » .

— « أنك تجعل الأمر سهلا المرء أن يخمن خطأ ، دون أن ينال ذلك من كرامته » .

— « كيف تتصور الأمر إذن ؟ »

— « يعلم الله . أظننى كنت بالنسبة إليك السيد الذى يعرف كل شىء لدرجة أنه صار على أن اصدق ذلك . ولكن المؤكد أن هذا الأمر هزنى » .

— « أتعرف يامورفى أننى متعب بحيث لا أقدر حتى على الكنس » .

— « لا تترك تلك النقود هنا الليلة . خذها إلى البيت » .

— « حسناً ، مادمت تقول ذلك » .

— « لا زلت أحس أن هناك شيئا مريبا » .

فتحت الصندوق الجلدى ووضعت كيس النقود بداخله مع قبعتى ذات الريشه ، ثم أغلقته بالحزام . وقال لى جوى وهو يراقبنى : « إننى ذاهب إلى نيويورك لأستأجر غرفة فى فندق ثم . أشاهد مسقط المياه عبر ميدان التايمز طيلة

يومين جامدين وأنا خالع حذائى » .

— « وماذا ستفعل بموعدك ؟ » .

— « لقد ألغيته » .

— « لقد أخبرتك ـ ربما نقوم نحن برحلة قصيرة »

— « أتمنى ذلك . فأنك فى حاجة إليها . هل أنت مستعد للانصراف ؟ »

— « أمامى شيئان أقوم بهما . فلتذهب أنت ياجوى . واخلع حذاءك . »

كان أول ماعلى القيام به الاتصال بمارى واخبارها أننى مضطر للتأخر قليلا .

— « أجل ، ولكن اسرع ، اسرع ، اسرع . لدى أخبار ، وأخبار ، وأخبار » .

— « ألا تستطيعين أن تخبرينى بها الآن ياحبيبتى ؟ »

— « كلا ، فأننى أريد رؤية تعبير وجهك » .

علقت قناع الميكى ماوس على آلة عد النقود من علاقته المطاط ، بحيث غطى النافذة الصغيرة التى تبين منها الارقام . و بعدئذ ارتديت معطفى وقبعتى وأطفأت الأضواء ، وجلست على الطاولة وساقاى تتأرجحان . كان جذع شجرة موز أسود عارى يخزنى فى أحد جنبى ، بينما تلائمت آله عدة النقود مع كتفى الأيسر وكأننى مستند إلى حافة كتاب . كانت الستائر مرفوعة وضوء نهاية الصيف يجاهد للنفاذ خلال الأسلاك المتشابكة على النافذة ، وكان الجو هادئا جدا ، هدوءاً يشبه حفيف الماء ، وذلك ما كنت أحتاج إليه وتحسست الجيب الذى على جنبى الأيسر ، لأرى ماهو ذلك الجسم الذى تدفعه آلة عد

النقود فى جنبى . إنه الطلسم — وأمسكت به بين يدى وحدقت فيه . كنت أظن بالأمس أننى بحاجه إليه ، فهل نسيت أن أعيده إلى مكانه ، أم أن احتفاظى به لم يكن من قبيل الصدفة ؟ لاأدرى .

وحين تتبعت الرسم الذى عليه بأصابعى ، بث فى قوته كالمعتاد . كان فى الظهيرة قرمزيًا بلون وردة ، أما فى المساء فقد اكتسب لونا أكثر عتمه ، فوردا أرجوانياً وكأن قليلاً من الدماء قد دبت فيه .

لم أكن بحاجة إلى التفكير بل إلى إعادة الترتيب ، تغيير المخطط ، وكأننى كنت موجوداً فى حديقة أنتقل بينها أثناء الليل . كان ينبغى إجراء نوع مامن التغيير لكى يقوم بحمايتى ، إلى أن اتمكن من إعاده البناء من جديد . وقد اعتكفت داخل المحل ، حتى يمكننى أن أدع الأشياء الجديدة تدخل رويداً ، ثم أحصيها وأتعرف إليها فى أثناء قدومها . كانت الأرفف ، وقد هوجمت طوال اليوم ، تبدو فيها فجوات عديدة حيث هاجمت الحشود الجائعة مواقع دفاعها ، وكان منظرها يوحى بفم خلعت منه أسنانه ، أو بلدة مسورة بعد أن أعملت فيها المدفعية نيرانها .

وقلت : « فلنصل من أجل أصدقائنا الراحلين .. من أجل الصف الأحمر الرقيع من علب صلصة الطماطم ، من أجل المخللات المجيدة والمتبلات وعلب الخل الصلعاء الصغيرة . أننا لايسعنا أن نكرس ، لايسعنا أن نقدس — كلا . من الأفضل لنا نحن الأحياء — كلا . ألفيو — أرجو لك الحظ وانتهاء الألم . إنك بالطبع مخطىء ، ولكن قد يكون الخطأ بالنسبة لك مثل (لبخة) . لقد قدمت تضحية ، لأنك كنت ضحية » .

كان الناس الذين يمرون فى الشارع يذبذبنون الضوء داخل المحل . ونقبت فى حطام اليوم بحثاً عن كلمات والدر وتعبير وجهه حين كان يقولها : « إنها محكمة بوليس تقيمها أنت بنفسك . ويكون عليك أن تدفع قيمة المخالفة ، نوع منها ، لكيلا ينطفىء نوره » ذلك ماقاله الرجل كان والدر الذى يعيش فى عالم المنحرفين المطمئن ، قد بهره بصيص نور متألق من الأمانة .

لكيلا ينطفىء نورى . هل قالها ألفيو بتلك الطريقة ؟ إن والدر لايدرى ، ولكن مايعرفه فعلاً ، هو أن ذلك ماقصده مارولو .

وتتبعت الحية التى كانت على الطلسم ثم عدت إلى البداية ، التى كانت هى النهاية . لقد كان ذلك ضوءاً قديماً ، لقد وجد آل مارولو طريقهم منذ ثلاثة آلاف سنة خلال مسالك الذئاب إلى احتفال الخصب والنماء على قمة أحد تلال روما السبعة وهو تل البلاتين ، ليقدموا قربانهم إلى الإله بان الذئبى ، الذى يحمى القطعان من الذئاب . ولم ينطفىء ذلك الضوء حتى الآن . إن مارولو ، القبرصى ، المهاجر القذر ، الملون ، قدم قربانه لنفس الإله من أجل نفس السبب . ورأيته مرة أخرى يرفع رأسه خارج رقبته السمينة المترجرجة وكتفيه المتألمين ، رأيت الرأس النبيل، والعينين البارقتين — ثم رأيت الضوء . وتساءلت ماذا سيكون أجرى ، ومتى أستحقه . لوأننى أخذت طلسمى إلى الميناء القديم وألقيت به فى البحر — فهل يكون ذلك اعتذارا مقبولاً ؟

لم أجذب الستائر . فنحن نتركها مرفوعة فى أثناء العطلات الطويلة . لكى يستطيع رجال الشرطة أن ينظروا داخل المحل . كان المخزن مظلماً . وأغلقت قفل باب الحارة ، وحين كنت فى منتصف الطريق عبر الشارع تذكرت

صندوق القبعة الموجود خلف الطاولة .

ولم أعد لأخذه ، فيثير ذلك نوعا من التساؤل . أخذت الريح تشتد مساء يوم السبت ذاك ، وهى تهب صارخة فى شغف من الجنوب الشرقى كما ينبغى أن تفعل ، لـكى تجلب المطر ليغرق الذين يقضون عطلتهم . وفـكرت فى أن أضع لبناً يوم الثلاثاء للقط الرمادى ، ثم أدعوه ليكون ضيفاً علىّ فى محلى .

الفصل السابع عشر

لاأدرى على وجه اليقين كيف تـكون دخيلة الناس الآخرين — فهم جميعاً يختلفون وهم جميعاً يتشابهون فى نفس الوقت . إننى أستطيع التخمين فحسب . ولـكنى أعرف كيف أتملص وأتلوى لأتجنب حقيقة مؤلمة ، وفى النهاية ، حين لا يـكون أمامى مجال للاختيار ، سأتهرب منها مؤملاً أنها سوف تذهب بعيداً . هل يقول الناس الآخرون بجد متكلف : « سأفـكر فى ذلك غداً حينما أكون مستريحاً » . ثم يجذبون على أنفسهم غطاء من المستقبل الآمل أو الماضى النظيف مثل طفل يقاوم بعنف حتمية ذهابه للفراش ؟

وقادتنى خطواتى المتلـكئة تجاه البيت ، خلال منجم للحقيقة . كان المستقبل مبذوراً ببذور خصبة من أسنان تنين . وكان الوضع الطبيعى أن أهرع إلى مرفأ آمن فى الماضى . ولـكن فى ذلك الدرب ، كانت تنتصب العمة ديبورا متربعة ، كجناح ضخم يضرب فى سرب من الأكاذيب ، وعيناها تتألقان بعلامات الاستفهام . .

لقد تطلعت خلال نافذة محل الجوهرات إلى سوارات الساعات المفرودة وإطارات النظارات أطول مدة يسمح بها الذوق . وكأن المساء الرطب الحافل بالرياح يحتضن عاصفة رعدية .

كانت توجد الـكثيرات من أمثال عمتى العظيمة ديبورا فى فترة مبكرة من القرن الماضى ، كن جزائر للفضول والمعرفة . وبما كان إنقطاعهن عن عالم قريناتهن هو مادفع بضع منهن إلى الـكتب ، أو ربما دفعهن ذلك الانتظار الذى يطول

أحيانا ثلاث سنوات ، وأحيانا إلى الأبد ، انتظار عودة السفن إلى الديار ، كان ذلك هو مادفعهن إلى نوع الكتب الذى يملأ سندرتنا . لقد كانت أعظم العمات العظيمات . كانت عرافة وساحرة فى نفس الوقت ، كانت تقول لى كلمات سحرية لا معنى لها ، كلمات حين أستعيدها ، أجدها قد احتفظت بسحرها ولكن ليس بهرائها .

كانت تقول ولهجتها تحمل القدر : « من بيسواك فاه ويرم ثورث فايجرورد » ثم تقول : « سيوليو جيف هيو بليدز أون بيرجث ابيت آيريست هاير لادتو . » ولابد أنها كانت كلمات عجيبة ، لأنى لازلت أذكرها .

مر إلى جوارى رئيس بلدية نيوبايتون مندفعاً كسرطان البحر ، ورأسه إلى أسفل ، ولم يلق إلى بتحية المساء إلا رداً على تحيتى التى قدمتها إليه قبلاً .

استطعت الإحساس ببيتى ، بيت آل هولى العتيق ، من على مبعدة نصف عمارة . كان فى الليلة الماضية يتأرجح فى نسيج من الكآبة ، ولكنه كان يشع بهجة فى هذا المساء الذى يحفه الرعد . إن البيت ، مثل حجر عين الهر ، يتلون بألوان اليوم . وسمعت مارى المهرجة وقع خطواتى على الممشى ، وخرجت ترفرف من الباب الزجاجى وكأنها شعلة .

— « لن تحزر أبدا ! » قالتها ، ويداها ممدودتان ، وراحتاها إلى الداخل وكأنها تحمل طرداً .

وكان هذا فى ذهنى ، وهكذا أجبت قائلا : « سيوليوجيف هيو بلاندز أون بيرجيث آبيت آيرست هاير لا ديتوى . »

— « حسناً ، ذلك تخمين طيب جداً ، ولكنه ليس صحيحاً » .

— « لقد قدم لنا معجب خفى دينا صوراً » .

— « خطا ، ولكنه فى مثل تلك الروعة . ولن أخبرك قبل أن تغتسل ،

لانه ينبغى عليك أن تكون نظيفاً لكى تسمعه » .

— إن الذى أسمعه هو موسيقى أغنية حب يعزفها قرد . وكان هذا ما أسمعه فعلاً — كانت الموسيقى تصرخ منبعثة من حجرة الجلوس ، حيث غمر آلان روحه مع صوت ثائر ملتهب يقول : « فى نفس اللحظة التى تأهبت فيها ، لكى أطلب منك أن تتمالكى نفسك قالوا إننى لا أعرف مايدور بذهنى إن نظرتك تدغدغنى حينما نمارس الحب ، ثم يقولون إننى لم أستطع معرفة مايدور بذهنى » .

— « أظننى سأحرقه حرقاً ، يازوجتى السماوية » .

— « كلا ، لن تفعل . لن تفعل قبل أن تسمعنى » .

— « ألا يمكنك أن تخبرينى وأنا بقذارتى ؟ » .

— « كلا » .

وذهبت خلال غرفة الجلوس . وأجاب ابنى على تحيتى بتعبير حاد من قطعة من اللادن .

— « آمل أن يكون قلبك الولهان الوحيد قد طار . »

— « هه ؟ »

— « فلتقل هه ، ياسيدى ! آخر مرة سمعت فيها هذه الأغنية ، تناول شخص ما الأسطوانة وقذفها إلى الأرض . »

فقال : « إنها أغنية الموسم ! أغنية الموسم فى البلاد كلها . لقد بيع منها مليون نسخة خلال أسبوعين . »

— « رائع ! إننى سعيد لأنك تمسك بالمستقبل بين يديك ! » واشتركت مع الكورس التالى فى أثناء صعود الدرج . « إن نظرتك تدغدغنى حينما نمارس

الحب ، ثم يقولون إننى لم أستطع معرفة مايدور بذهنى . »

كانت إيلين تطاردنى وفى يدها كتاب ، وضعت أحد أصابعها بين صفحاته إننى أعرف طريقتها . ستسألنى ماتعتقد إنى أظنه سؤالا ممتعاً ، وبعدئذ تدع لسانها ينزلق بما أرادت مارى إخبارى به . إنه نوع من الانتصار بالنسبة لإيلين أن تخبرنى هى أولاً . ولن أقول إنها نمامة ، ولـكنها كذلك . ولوحت بأصبعين متقاطعين .

— « الملك لن يسمع . »

— « ولـكن يا أبى »

— « لقد قلت الملك لن يسمع ، يا آنسة روتهاوس روبارب ، وإننى أعنى أن الملك لن يسمع . » وأغلقت الباب بعنف وأنا أصيح : « إن حمام الرجل هو قلعته . » وسمعت ضحكتها . وأنا لاأثق بالأولاد حين يضحكون من نكاتى . ودعكت وجهى حتى أحمر ، وأسنانى بالفرشاة حتى أدميت لثتى . وحلقت ذقنى ، ثم لبست قميصاً نظيفاً ورباط البابيون الذى تـكرهه ابنتى ، كإعلان للثورة .

كان قلب مارى يخفق من نفاد الصبر حين واجهتها .

— « لن تصدق الأمر » .

— « مسيو ليوجيف بليدز أون بيرجيث . تكلمى » .

— « إن مارجى هى ألطف صديقاتى على الإطلاق » .

— إننى سأستشهد بالتالى ـ « إن الرجل الذى اخترع ساعة الـكوكو مات . هذا خبر قديم ولـكنه طيب ! »

— « إنك لن تحزر أبدا — إنها سترعى الأولاد لـكى نتمكن من القيام برحلتنا . »

— « هل هذه خدعة ؟ »

— « لم أطلب إليها ذلك ، بل هى التى عرضت . »

— « إنهما سيأكلانها حية . »

— « قل إنهما مجنونان بها . إنها تنوى أخذها إلى نيويورك بالقطار يوم الأحد ، ثم يبقون طيلة الليل فى شقة صديقة لها ، وفى يوم الأثنين يشاهدون الراية الجديدة ذات الخمسين نجمة وهى ترتفع فوق (روكفلر سنتر) ، ثم يشاهدون الاستعراض و ــ وكل سىء . »

— « لا أستطيع تصديق هذا . »

— « أليس ذلك هو أفضل شىء ؟ »

— « إنه الأفضل جداً . وسنهرع نحن إلى أحراش مونتوك ، يافأرتى ؟ »

— « لقد اتصلت تليفونياً وحجزت غرفة بالفعل » .

— « هذا هذيان . إننى سأنفجر . أشعر بأننى أمتلىء بالفرحة . »

كنت قد فكرت فى إبلاغها موضوع المحل ، ولكن الكثير جداً من الأخبار يحدث تجمداً . الأحرى أن أنتظر وأخبرها ونحن فى الأحراش .

وجاءت إيلين منزلقة إلى داخل المطبخ . « بابا ، لقد اختفى ذلك الشىء القرمزى من الخزانة . »

— « أنه معى . معى هنا فى جيبى . هاك ، بإمكانك أن تعيديه . »

— « ولكنك قلت لنا ألا نأخذه بعيداً أبداً . »

— « ولا أزال أقول ذلك ، وعقوبة أخذه هى الموت . »

واختطفته بشىء من شراهة ، ثم حملة فى كلتا يديها إلى غرفة الجلوس . كانت عينا مارى مثبتتين على فى غموض وكآبة ، وقالت : « لماذا أخذته ، يا إيثان ؟ »

— « ليجلب الحظ ، ياحبيتى . وقد أفلح . »

الفصل الثامن عشر

أمطرت السماء فى يوم الأحد ، الثالث من يوليه ، مثلما ينبغى لها أن تفعل ، قطرات سمينة أكثر إبلالاً من المعتاد . وشققنا طريقنا وسط ديدان حركة المرور المبللة المنقسمة على نفسها ، ونحن نحس بقليل من العظمة وبأننا عاجزون ضائعون ، مثلما يحدث لطيور تربت فى أقفاص ثم أطلق سراحها ، وعندما أبرزت الحرية أنيابها أصابنا الخوف . كانت مارى تجلس منتصبة ، تفوح منها رائحة القطن الحديث الـكى .

— « هل أنت سعيدة - هل تشعرين بالمرح ؟ »

— « إننى لا أزال أنصت إلى صوت الأولاد وهو يرن فى أذنى » .

— « أعلم ذلك . كانت العمة ديبورا تسمى ذلك ، الوحدة السعيدة .. اشرعى فى الطير ، ياطائرى! فما تلك القلابات الطويلة التى على كتفيك سوى أجنحة ، أيتها السجينة ».

وابتسمت ثم استكانت ملتصقة بى : « هذا طيب ، ولـكنى لاأزال أسمع صوت الأولاد . وإنى لأفكر ماذا يفعلان الآن » ؟

— « كل ما يمكنك أن تخمنيه تقريبا ماعدا التفكير فيما نفعله نحن » .

— « أظن ذلك صحيحاً . فهما لايهتمان حقاً بهذا » .

— « فلنقتد بهما إذن . (حينما رأيت سفينتك تنزلق إقريباً منى ، أنت ياثعبان النيل ، عرفت أن اليوم يومنا . وسيستجدى أوكتافيوس الليلة لقمة عيشه من واحد من رعاة الإغريق) » .

— « إنك لأحمق . إن آلان لاينظر قط إلى مواطىء قدميه ، وقد يخطو مندفعاً وسط المواصلات مخالفاً إشارة مرور » .

— « أعرف ذلك . وكذلك المسكينة الصغيرة إيلين بقدمها الشوهاء . حسناً ، إن لها قلباً طيباً ووجهاً ، وقد يحبها شخص ما فيبتر قدميها » .

— « أوه ! دعنى أشعر بالقلق قليلاً ، فإننى حين أفعل أحس أننى أفضل حالاً » .

— » لم أسمع هذا المعنى يصاغ بكلام أفضل من ذلك . ولكن هل سنقلب معاً جميع الاحتمالات المرعبة ؟ »

— « أنت تعرف ما أقصد » ؟

— « أجل . ولكنك أنت ، ياصاحبة السمو ، التى أتيت بهذا الإحساس إلى الأسرة. إنه يسرى فى خطها النسائى فحسب، فى علقاتها الصغيرة » .

— « لا أحد يحب أطفاله أكثر منك » .

— « ذنبي يعادل ذنب عشرة أشخاص ، لأننى خبيث كظربان » .

— « وأنا أحبك » .

— « والآن هذا هو نوع الانزعاج الذى أستحسنه . أترين ذلك الكثيب ؟ انظرى كيف يصمد نبات الرتم الشوكى ونبات الخلنج ، وكيف يشق الرمل طريقه تحته وكأنه أمواج صغيرة صلبة . إن المطر يضرب الأرض ثم يقفز إلى أعلى مباشرة على شكل ضبابة رقيقة . كنت أعتقد دائماً أن هذا المكان يشبه دارتمور أو إكسمور ، ولم أكن قد رأيتهما أبدا إلا على صفحات الكتب . أتدرين أنه لابد أن يكون المهاجرون الأول من ديفون إلى هنا قد أحسوا أنهم فى وطنهم . أتعتقدين أن هذه البقعة مسكونة ؟ »

— « إذا لم تكن ، فستسكنها أنت » .

— « يجب ألا تقولى تقريظاً إلا إذا اقصدته » .

— « لامجال لهذا الحديث الآن . تطلع إلى الطريق الجانبي . إن لوحته تحمل اسم « موركروفت » . كانت اللوحة تحمل ذلك الاسم فعلا ، وكان الشيء اللطيف فيما يتعلق بذلك الطرف الرحيم المغزلى الشكل من جزيرة لونج إيلاند ، هو أن المطر يغوص فى تربتها ولا يكون هناك ثمة وحل . واخترنا لأنفسنا غرفة كبيت الدمية ، جديدة ومخططة ، وبها فراشان طريان كفطيرة ، ومن النوع الذى يمكن جمله فراشاً واحداً .

— « إننى لا أحب تلك الأسرّة » .

وفى عظمة لزجة ، تناولنا عشاء من (جمبرى) مين المشوى المغمور فى نبيذ أبيض - كميات هائلة من النبيذ الأبيض مما جعل عينى مارى تتألقان ، وأخذت أملأ لها كئوس الكونياك فى إغراء حتى طنت رأسى أنا . وتذكرت هى رقم غرفتنا ، واستطاعت هى أن تجد ثقب المفتاح . لم أكن مخموراً للدرجة التى تمنعنى من أخذ طريقى معها ، ولكنى أعتقد أنه كان باستطاعتها الهرب منى لو أرادت .

وبعدئذ ، وفى شوق إلى الراحة وضعت رأسها فى نعاس على ذراعى الأيمن وابتسمت وهى تصدر أصواتاً متثائبة خافتة .

— « هل هناك مايقلقك ؟ »

— « يالها من فكرة ! أنت تحلمين قبل أن تنامى » .

— « إنك تعمل جاهداً لـكى تسعدنى ، ولـكنى لا أستطيع التوصل إلى مايدور فى أعماقك . هل أنت قلق » ؟

يالها من فترة غريبة تتوفر فيها القدرة على الرؤيا ، تلك الفترة التى يكون فيها المرء على أولى عتبات النوم .

— « أجل ، إنى قلق . هل يطمئنك ذلك؟ لا أريد منك أن تـكررى ذلك ، ولـكن السماء تتهاوى وقد سقطت قطعة منها على ذيلى » .

كانت قد استغرقت فى سبات عذب ، وعلى شفتيها بسمة الإله بان . وسحبت ذراعى من تحتها لخلصته ، ثم وقفت بين الفراشين . كان المطر قد انقضى فيما عدا سحات تتساقط من السقف ، وتلألأ القمر فى تربيعه عاكساً صورته فى بليون من القطرات الصغيرة . « أحلاماً سعيدة ، ياحبيبتى الغالية . لاتدعى السماء تتهاوى فوقنا » .

كان فراشاً بارداً بالغ النعومة ، ولـكنى استطعت رؤية القمر الحاد يشق طريقه خلال السحب الهاربة تجاه البحر . ثم سمعت صرخة طائر الواق التى تشبه صيحة شبح . وشبكت أصابع يدى الاثنتين ـ فلأكن الملك إ كس لبرهة لبرهة.أو بديل الملك إ كس . لم يكن ما سقط على ذيلى يعدو حبة فاصوليا ، لحسب لو أن الفجر جاء يصحبه أى رعد لما سمعته . فحين استيقظت كانت الدنيا كلها خضراء ذهبية ، فيها سواد يبعثه نبات الخلنج ، وشحوب من السرخس وحمرة تشوبها ، صفرة من كثيب الرمال الرطب ، وعلى بعد غير شاسع تألق المحيط الأطلسى مثل الفضة المطروقة . وبجوار منزلنا قامت شجرة سنديان عجوز ملتوية ، أرست بجوار جذرها حشيشة بحر ضخمة كأنها وسادة تتماوج فى خط رمادى يشوبه بياض لؤلؤى . وبين بيوت الدمى التى تـكون المستعمرة الصغيرة

كان يوجد ثمة ممر منحن من الحصى يؤدى إلى المبنى الكبير المغطى بالقرميد الأحمر الذى يمد تلك البيوت جميعاً بالغذاء . وهنا كان يوجد مكتب الإدارة ، و بطاقات البريد ، والهدايا ، وطوابع البريد ، وتوجد كذلك قاعة الطعام بأغطية مناضدها المحلاة بالأزرق ، حيث كنا نحن الدمى نستطيع تناول طعامنا .

كان المدير فى مكتب حساباته ، يراجع قائمة ما . وكنت قد لاحظته حين قيدنا اسمينا ، رجل ذو شعر كالقش ، وذقن قلما تحتاج إلى حلاقة . وكان يبدو من الوهلة الأولى متلصصاً متهتكا ، وهكذا بعث فيه مرحنا الأمل بأن نزهتنا خفية حتى كدت أوقع فى دفتره باسم « جون سميث وزوجته » لأمنحه السرور . كان يتشمم بحثاً عن الخطيئة . وقد بدا فى الحقيقة ، وكأنه يرى بأنفه الطويل الحساس مثلما يفعل الخلد .

وقلت له : « طاب صباحك » .

ورفع أنفه إلى مستواى : « هل نمتما جداً » ؟

— « على مايرام . إنى لأتساءل إذا ما كنت أستطيع أن أحمل صينية عليها طعام الإفطار إلى زوجتى » .

— « إننا نقدمه فى قاعة الطعام فحسب من السابعة والنصف إلى التاسعة والنصف » .

— « ولكن لوحملته أنا بنفسى ... » .

— « إن هذا مخالف للقواعد » .

— « ألا نستطيع أن نخالفها هذه المرة ؟ أنت تعلم وضعنا » . وقد قذفته بهذه الجملة لأن ذلك ما كان يأمل فيه

وكان سروره مكافأة كافية لى . فقد تندت عيناه وارتعد أنفه : « إنها تشعر

بشيء من الخجل ، أليس كذلك ؟ »

— « حسناً ، أنت تعلم كيف يكون الوضع » .

— « لا أدرى ماذا سيقول الطاهى » .

— « أطلب منه ، وأخبره أن هناك دولاراً يقف على أطراف قدميه منتظراً إياه على قمة الجبل الذى يحيط به الضباب » .

كان الطاهى يونانياً ، ووجد أن فكرة الدولار جذابة . وفى موعد الإفطار كنت أحمل صينية ضخمة مغطاة بمنشفة ، وأسير بها فى الممر المغطى بالحصى ، ثم وضعتها فوق مقعد ريفى بينما أخذت أقتطف صحبة من الأزهار البرية الصغيرة ، لكى تضفى جمالاً على أفطار حبيبتى الملكى .

لعلها كانت مستيقظة ، ولكنها فتحت عينيها على أية حال وقالت : « إننى أشم رائحة قهوة أوه ! أوه ! ياله من زوج لطيف — و — وأزهار — كل تلك الأزهار الصغيرة التى لا تفقد عبيرها أبداً . »

تناولنا إفطارنا ، ثم شربنا قهوة ثانية واستندت مارى فى فراشها ، وهى تبدو أكثر شباباً وبراءة من ابنتها . وتكلم كل منا فى احترام عن كيف نمنا جيداً .

لقد حانت لحظتى المناسبة : « أريحى نفسك ، فلدى أنباء محزنة ومفرحة معاً » .

— « طيب ! هل اشتريت المحيط ؟ »

— « إن مارو للو فى مشكل » .

« ماذا ؟ »

— « لقد جاء إلى أمريكا منذ أمد بعيد دون أن يطلب تصريحاً بالدخول » .

— « وهم يطلبون منه الآن مغادرة البلاد » .

— « مطروداً ؟ »

— « أجل . »

— « ولكن ذلك فظيع » .

— « إنه ليس أمراً لطيفاً » .

— « وماذا سنفعل ؟ ماذا ستفعل ؟ »

— « لقد انتهى وقت اللعب . فقد باعني المحل - أو بالأحرى باعك إياه . لأنها نقودك . يجب أن يحيل ممتلكاته إلى مال وهو يحبني ، ولذا فقد منحني إياه — مقابل ثلاثة آلف دولار » .

— « ولكن ذلك فظيع . أتعني — أتعني أنك تمتلك المحل ؟ »

— « أجل » .

— « إنك لم تعد موظفاً . لم تعد موظفاً ! »

وتدحرجت ووجهها إلى أسفل بين الوسائد ، ثم بكت ، في زفرات ضخمة كانت تملأ صدرها كله ، مثلما يحتمل أن يفعل العبد حين يتحطم القيد عن عنقه .

خرجت إلى واجهة الكوخ المنحدرة ، وجلست تحت الشمس حتى استعدت . وحين فرغت وغسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت منامتها ، فتحت الباب ونادت علي . كانت مختلفة عن ذي قبل ، وستبقى دائما مختلفة . وما كان عليها أن تقول ذلك ، فقد قالته ارتفاعة عنقها . واستطاعت أن ترفع رأسها عالياً . لقد عدنا مرة أخرى إلى طبقة السادة .

— « ألا نستطيع أن نفعل أي شيء لمساعدة المستر مارولو ؟ »

— « أخشى ألا نستطيع » .

— « كيف حدث هذا ؟ من الذى اكتشف الأمر ؟ »

— « لا أدرى » .

— « إنه رجل طيب . ما كان ينبغى عليهم أن يفعلوا ذلك به . كيف يتقبل الوضع ؟ »

— « بكبرياء وعزة نفس » .

تمشينا على الشاطىء مثلما اعتدنا أن نفعل ، وجلسنا فوق الرمال ، والتقطنا صدفات صغيرة متألقة ، وأراها كل منا للآخر ، كما ينبغى لنا أن نفعل ، وتحدثنا فى تعجب تقليدى عن الأشياء الطبيعية ، عن البحر ، والهواء ، والضوء ، والشمس التى ترطب الريح من حرارتها ، وكأن الخالق كان يتسمع علينا ليتلقى تهانينا .

وفقدت مارى اهتمامها . وأعتقد أنها أرادت العودة إلى بيتها بوضعها الجديد ، لترى النظرة المختلفة فى عيون النسوة وتغير نغمة التحايا فى شارع هاى . وأظن أنها لم تعد بعد « مارى هولى المسكينة ، التى تعمل كثيراً جداً » . لقد أصبحت مسز إيثن آلان هولى وستظل كذلك أبداً . وكان على أن أحفظ لها تلك المكانة . وقضت اليوم لأنه كان مخططاً ومدفوعاً أجره ، ولكن الصدفات الحقيقية التى كانت تقلبها وتتفحصها إنما كانت أيامها القادمة المتألقة .

تناولنا غذائنا فى قاعة الطعام ذات المربعات الزرقاء ، حيث خيب سلوك مارى وثقتها من مركزها ومكانتها ، أمل مستر مول . كانت أنفه الحساسة قد انخلعت من مفصلها الذى كان يرتعد فى فرح كبير حين يشم رائحة الخطيئة . واكتمل تحطم وهمه حين اضطر للمجىء إلى منضدتنا ليقرر أن هناك مكالمة تليفونية للسيدة هولى .

— « من الذى يعرف أننا هنا ؟ »

— « مارجى ، طبعاً . كان على أن أخبرها من أجل الأولاد . آه ! أتعشم إنه لاينظر الى مواطىء قدميه ، كما تعلم ؟ »

وعادت وهى ترتعد كنجمة . « لن تحرز أبدا . لن تستطيع » .

— « أستطيع أن أحرز إنه خبر طيب » .

— « لقد قالت : هل سمعت الأخبار ؟هل استمعت إلى المذياع ؟ واستطعت أن أعرف من صوتها أنها ليست أخبارا سيئة » .

— « ألا يسعك أن تقوليها ، ثم تعودى بعد ذلك إلى الكيفية التى قالتها لك بها » ؟

— « لايسعنى تصديقها » .

— « ألا يمكنك أن تدعينى أحاول تصديقها » ؟

— « لقد فاز آلان برتبة الشرف » .

— « ماذا ؟ آلان ؟ قصى على » !

— « لقد فاز برتبة الشرف فى مسابقة المقال على البلاد كلها » .

— « كلا » !

— « بل فاز . خمسة فحسب فازوا برتبة الشرف — وساعة جائزة ،وسيظهر فى التليفزيون . هل تستطيع تصديق هذا ؟ أحد المشاهير فى الأسرة » .

— « لاأستطيع التصديق . أتعنين أن كل ذلك الغباء كان مصطنعاً ؟ ياله من ممثل ! إن قلبه المحب الوحيد لم يقذف على الأرض إطلاقا » .

— لا تهزل . بل فكر فحسب فى أن ولدنا واحد من خمسة صبية فى الولايات المتحدة بأ كملها فازوا برتبة الشرف — و بالظهور فى التليفزيون » .

— « وساعة جائزة ! إنى لأعجب هل يستطيع أن يحدد بوساطتها الوقت »

— «إيثان ، إذا كنت ستسخر ، فسيعتقد الناس أنك تغار من ابنك» .

— «إننى مذهول فحسب. كنت أعتقد أن أسلوبه فى النثر يكاد يصل إلى مستوى الجنرال إيزنهاور وليس لآلان شيطان يساعده على الكتابة».

— «إننى أعرفك ، ياإيثان . أنت تتسلى بالحط من قدرهم ، ولكنك أنت الذى تفسدهم . إنه أسلوبك الخفى فحسب . وإنى أريد أن أعرف — هل عاونته فى كتابة مقالته» ؟

— «عاونته ! إنه لم يدعنى حتى أراها» :

— «حسناً — إذن فالأمر على مايرام . لم أكن راغبة فى رؤية الغرور يتملكك لأنك كتبتها له» .

— «إننى لاأستطيع أن أفهم الأمر . إنه يتجه إلى إظهار أننا لانعلم الكثير عن أبنائنا الذين من صلبنا . وكيف تتقبل إيلين الأمر ؟ .»

— «مزهوة طبعاً ، كالطاووس . لقد كانت مارجى فى غاية الانفعال بحيث استطاعت بالكاد أن تتكلم إن الصحف تريد إجراء محادثات معه — والتليفزيون إنه سيظهر فى التليفزيون ألاتدرك أنه ليس لدينا حتى جهاز لنشاهده فيه ؟ ومارجى تقول إننا نستطيع رؤيته فى جهازها . أحد المشاهير فى العائلة ! إيثان ، ينبغى أن يكون لدينا تليفزيون» .

— «سنشترى واحد . سيكون أول ماأفعل صباح الغد ! هو شراء واحد أو لماذا لا تأمرين بإرسال واحد ؟ »

— «أنستطيع ذلك حقا — ياإيثان ، كنت قد نسيت أننا نمتلك المحل ، نسيت تماماً . هل تستطيع أن تتصور هذا ؟ أنه أحد المشاهير» .

— «آمل أن نستطيع الحياة معه» .

— « دعه يستمتع بيومه . ينبغى أن نشرع فى العودة . إنهم آتون فى قطار السابعة والدقيقة الثامنة عشرة . أوكما تعلم ينبغى أن نكون هناك ، كنوع من استقباله » .

— « ونخبز فطيرة »

— « سأفعل ذلك » .

— « ونعلق أوراق الزينة » .

— « إنك لاتشعر بحسد دنىء ، أليس كذلك ؟ »

— « كلا . إننى مأخوذ . أعتقد أن ورق الزينة يكون شيئاً رائعاً ، على أن يشمل البيت كله » .

— « ولكن ليس خارجه . فسيبدو ذلك ـ تباهياً . لقد قالت مارجى لم لانتظاهر بأننا لانعرف ثم نتركه يخبرنا ؟ »

— « أنا لا أوافق . فقد يخجل . وسيبدو له وكأننا لم نحفل للأمر . كلا . بل ينبغى أن يعود إلى البيت ليستقبله التهليل وصيحات النصر ثم كعكة . وإذا كان هناك ثمة محل مفتوح ، فسأشترى له ألعاباً نارية » .

— « إن الأكشاك التى على جانبى الطريق .. »

— « طبعاً . سنتعامل ذلك فى طريق عودتنا إلى البيت ـ إذا كان قد بقى بها ثمة شىء » .

خفضت مارى رأسها لحظة وكأنها تتلو صلاة . « أنت تمتلك المحل ، والآن

أحد المشاهير . من كان يظن أن كل ذلك كان يمكن أن يحدث مرة واحدة ؟ إيثان ، ينبغى أن نشرع فى العودة للبيت . ينبغى أن نـكون هناك حين يأتون. لم تبد بتلك الصورة ؟ » .

— « لقد زحف على الأمر وكأنه موجه ـ ما أقل ما نعرفه عن أى شخص، وهذا يبعث فىّ رعدة كالتى تبعثها اليرقات مصاصة الدماء . وأذكر فى أثناء احتفال عيد الميلاد ، أننى بدلاً من الابتهاج ، شعرت بمرارة كمرارة (المش) » .

— « وما هو المش ؟ »

— « إنه الوقع الذى جاء إلى أذنى حين سمعت العمة ديبورا العظيمة تنطق كلمة Weeshmez »

« وما تلك الـكلمة ؟ »

— « هناك أوزة تسعى على قبرك » .

« أوه ! إذن فالأمر هكذا ! حسناً ، لا تمادى فى ذلك . فإننى أعتقد أن هذا أحسن يوم فى حياتنا كلها . وسيكون — نـكرانا للجميل ألا نعترف بذلك. والآن اطرد بعيداً مرارتك تلك . إنه اسم مضحك (مش) . فلتدفع الحساب . وسأعد حاجياتنا » .

ودفعت الفاتورة من النقود التى طويت على شكل مربع صغير محكم الطى. وسألت المستر مول : « هل بقيت لديك أى ألعاب نارية فى قسم الهدايا ؟ »

— «أظن ذلك . سأرى .. هاهى ذى. كم تريد ؟»

فقلت : « كل ما لديك ، فقد صار ابننا أحد المشاهير » .

— « حقاً ؟ وأى نوع من المشاهير ؟ »

— « يوجد نوع واحد من الشهرة فحسب » .

— « أتقصد فى مثل شهرة ديك كلارك أو شيئا من ذاك القبيل ؟ ».

— « أو شهرة تشيسمان أوديلينجر »

— « إنك تمزح » .

— « وسيظهر فى التليفزيون » .

— « فى أية محطة ؟ متى ؟ »

— « إننى لا أدرى — بعد » .

— « سأترقب ذلك . ما اسمه ؟ »

— « نفس الأسم الذى أحمله . إيثان آلان هولى — إنه يدعى آلان » .

— « حسنا ، لقد شرفنا وجودك أنت والمسز آلان بيننا » .

— « المسز هولى » .

— « طبعاً . أنعشم أن تأتيا مرة أخرى . لقد أقام هنا كثير من المشاهير . إنهم يأتون إلى هذا المكان طلباً — للهدوء » .

جلست مارى منتصبة مزهوة ، ونحن نسير على الطريق الذهبى متجهين إلى البيت وسط حية المواصلات البطيئة المتلألئة .

— « لقد أحضرت صندوقاً كاملاً من الألعاب النارية ، فيه ما يزيد على المائة » .

— « لقد صرت الآن أقرب ما تكون إلى طبيعتك ، ياعزيزى . إننى لأتساءل هل عاد آل بيكر بعد » .

الفصل التاسع عشر

كان مسلك ابنى حسناً ، وقد تملكه هدوء الأعصاب والعطف علينا . فلم ينتقم ، ولم يأمر بإعدام أحد . وتقبل ماحظى به من شرف وما أسبغنا عليه من ثناء ، على أنه حق له ، دون غرور أو تواضع مبالغ فيه . وتقدم إلى مقعده فى حجرة الجلوس ثم أدار مذياعه قبل أن ينطلق أزيز الألعاب النارية المائلة وتستحيل إلى عصى سوداء . كان من الواضح أنه قد غفر لنا ذنوبنا . ولم أر قط صبياً يتقبل العظمة بكياسة أكثر منه .

كانت فى الحقيقة ليلة العجائب . فإذا كان ارتقاء آلان السهل إلى عنان السماء أمراً مدهشاً ، فكم كان رد الفعل لدى إيلين أكثر إثارة للدهشة . فقد أنبأتنى بضع سنوات من الملاحظة الدقيقة الإجبارية للآنسة إيلين ، أن الحسد سيسحقها ويدمرها ، وأنها ستبحث بالفعل عن وسيلة ماتقلل بها من عظمة أخيها . ولكنها خيبت ظنى ، فقد كانت هى المحتفية بأخيها . كانت إيلين هى التى أخبرتنا كيف كانوا يجلسون فى شقة أنيقة تقع فى الشارع السابع والستين بعد قضاء أمسية ساحرة ، وهم يشاهدون ـ عرضاً ـ نشرة الأنباء الأخيرة فى محطة تلفزيون سى . بى . إس ، حين أعلن خبر فوز آلان . وكانت إيلين هى التى أعادت سرد ماقالوه ساعتها ، وكيف كانت حالتهم ، وكيف استولت الدهشة عليهم بحيث كان فى وسعك أن تطرحهم أرضا بدفعة من ريشة . وجلس آلان ساكناً نائياً بأفكاره ، بينما كانت إيلين تحكى كيف سيظهر مع الأربعة الآخرين ، وكيف سيقرأ مقاله بينما يتطلع إليه الملايين وينصتون ، وفى فترات توقفها عن الحديث كانت مارى تصدر صوتاً كنقيق الدجاج لينم

عن سعادتها . تطلعت إلى مارجى يانج هنت ، كانت مستغرقة فى أفكارها مثلما تفعل فى أثناء قراءتها للطالع . وتسلل إلى الغرفة سكون مظلم .

قلت : « لا مفر لنا . فهذه المناسبة تستدعى تقديم الجمة المثلجة لكل من بالمكان » .

— «ستحضرها إيلين.أين إيلين ؟ إنها تنسل داخلة وخارجة كالدخان » .

وقفت مارجى يانج هنت فى عصبية ، وقالت : « هذه حفلة أسرته ، وينبغى أن أذهب » .

— « ولكنك جزء منها ، يامارجى . أين ذهبت إيلين ؟ »

— « لاتضطرينى يامارى إلى التصريح بأنى أشعر بقليل من التعب فى عجزى » .

— « إنك متعبة فعلا ، ياعزيزتى . ولكننى دائما أنسى ذلك . وقد نلنا نحن راحة جيدة ، لن تتصورى أبداً أى قسط من الراحة نلنا — والفضل يرجع إليك » .

— « لقد أحببت أن أفعل ذلك ، ولم أكن لأتأخر عن فعله » .

كانت تريد الانصراف ، بل وبسرعة . فتقبلت شكرنا وشكر آلان ثم هرعت إلى الخارج .

قالت مارى بهدوء : « لم نخبرها بأمر المحل . »

— « دعك من ذلك ، لأنه سيكون سطواً على احتفال « صاحب السعادة » وهذا حقه . أين ذهبت إيلين ؟ »

فقالت مارى : « ذهبت لتنام . ذلك تفكير سديد ، ياعزيزى ، وأنت على صواب . لقد كان يوماً عظيما ، يا آلان . وقد حان وقت ذهابك للفراش» .

وقال آلان فى رقة : « أظننى سأجلس هنا قليلاً » .

— « ولكنك محتاج للراحة » .

— « إننى مستريح » .

ونظرت مارى إلى طالبة المساعدة .

— « هذه هى الفترات التى يختبر فيها جوهر الرجال . بوسعى أن أشبعه ضرباً ، كما أننا نستطيع أن ندعه يمارس انتصاره حتى علينا » .

— « ولكنه فى الحقيقة لا يعدو أن يكون صبياً صغيراً . وهو محتاج للراحة . »

— « إنه محتاج لعديد من الأشياء ، ولكن الراحة ليست واحدة منها » .

— « كل امرىء يعرف أن الأطفال يحتاجون إلى الراحة » .

— « إن الأمور التى يعرفها كل امرىء ، هى فى الغالب أقرب الأمور إلى الخطأ . هل عرفت قط طفلاً مات من العمل الزائد ؟ كلا ـ البالغون فحسب هم الذين يموتون بهذا السبب . أما الأطفال فهم أذكى كثيراً من أن يفعلوا ذلك . وهم يستريحون عندما يحتاجون للراحة » .

— « ولكن الوقت بعد منتصف الليل » .

— « إنه كذلك ياعزيزتى ، وسينام حتى ظهر الغد . أما أنت وأنا فسنكون مستيقظين فى السادسة » .

— « أتعنى أنك ستأوى إلى فراشك وتتركه جالساً هنا » ؟

— « إنه فى حاجة إلى الانتقام منا لأننا أنجبناه » .

— « لا أدرى عن أى شىء تتكلم . أى انتقام » ؟

— « بودى أن أعقد معك معاهدة ، لأن الغضب أخذ يتملكك »

— « وإنى لـكذلك . فقد أخذ الغباء يتملـكك » .

— « سأدفع لك سبعة وأربعين مليونا وثمانمائة وستة وعشرين دولاراً وثمانين سنتا ، إذا لم يتسلل إلى مخدعه خلال نصف ساعة من ذهابنا للفراش » .

حسنا ، خسرت الرهان ، وينبغى على أن أدفع لها . فقد انقضت خمس وثلاثون دقيقة بعد أن تمنينا له ليلة سعيدة ، حين صر السلم تحت أقدام ابننا الشهير .

وقالت مارى : « إنى أكرهك عندما تـكون على صواب » . كانت قد هيأت نفسها لقضاء الليل فى الإصغاء .

— « لم أكن على صواب ، ياعزيزتى . فقد خسرت الرهان بخمس دقائق. وهذا بالضبط ما أذكره »

حينئذ استغرقت فى النوم . ولم تسمع إيلين وهى تتسلل هابطة الدرج ، مثلما سمعتها أنا . كنت أرقب النقط الحمراء وهى تتحرك فى الظلام . ولـكنى لم أتابع هذه المراقبة ، لأنى سمعت (تـكة) المفتاح النحاسى الخافتة وهو يدور فى قفل الدولاب ، فعرفت أن ابنتى تقوم بشحذ عزيمتها .

نشطت نقطى الحمراء . فاندفعت هنا وهناك ثم ولت هاربة حين ركزت عينى عليها. كان القبطان العجوز يتجنبنى. فهو لم يظهر لى بصورة واضحة منذ حسناً منذ عيد القيامة . فليس حاله كحال العمة هاريت — « الـكائنة أعلانا فى السماء » — ولـكن الذى أعرفه فعلا أن القبطان العجوز لا يظهر لى بصورة واضحة حين لا أكون على وفاق مع نفسى . وذلك نوع من اختيار علاقاتى الشخصية مع نفسى .

وفى هذه الليلة أجبرته على الظهور . استلقيت ممدداً متصلب الجسد ، بعيداً

فوق الجانب الذى يخصنى من الفراش . وشددت كل عضلة فى جسمى ، وخاصة عضلات الرقبة والفك ، وضممت قبضتى على معدتى وأجبرته على الظهور ، بعينيه الباردتين الضيقتين ، وشاربه الأبيض الشائك ، وكتفيه المحنيتين إلى الأمام مما يدل على أنه كان يوماً ما رجلا قوى الجسم ، وأنه استعمل تلك القوة . بل إننى جعلته يرتدى قبعته الزرقاء ذات الحافة القصيرة اللامعة وحرف « ه » الذهبى الناتج عن هبيلين ، تلك القبعة التى كان نادراً ما يرتديها . وتمنع العجوز ، ولكنى جعلته يحضر ، وأجلسته على سور الميناء القديم المهدم بالقرب من المكان . أجلسته بحزم فوق كومة من حجارة الرصف ، وثبت يديه المضمومتين على قبضة عصاه المصنوعة من ناب الحوت . كان من الممكن لهذه العصى أن تصرع فيلاً .

— « إنى محتاج لشىء أكرهه . فقد تملكنى الأسى والإدراك — وذلك ولم . إنى أبحث عن كراهية حقيقية تنتزع منى حرارة الألم » .

الذاكرة سمكة مليئة بالبيض المخصب . أبدأ بأثر واحد واضح مفصل ، وهى تقفز للعمل ويكون بوسعها — حالما تبدأ العمل — أن تسير إلى الأمام وإلى الخلف مثل شريط سينمائى .

تحرك القبطان العجوز ، وأشار بعصاه قائلا : « خذ خطاً من الصخرة الثالثة خلف حاجز الأمواج ، ومده مع طرف بورتى بوينت ساعة ارتفاع المد ، وحينئذ ستجدها ، أو ماتبقى منها ، مستقرة على مبعدة نصف كابل بحرى من ذلك الخط » .

— « وما طول نصف كابل بحرى ياسيدى » ؟

— « ماطوله ؟ نصف مائة فرسخ بالطبع . كانت قد ألقت مراسيها وتركت تتأرجح مع المد المنساب . وظلت على تلك الحال سنتين منحوستين ، ونصف

براميل الزيت التى بها فارغة . وكنت على الشاطىء حين شبت فيها النار حوالى منتصف الليل . وعندما احترق الزيت ، أضاءت البلدة وكأننا ساعة الظهيرة ، وكانت ألسنة اللهب تمتد بعيداً مع الزيت الطافى على سطح البحر حتى أو سبرى بوينت . ولم يكن بوسعنا سحبها إلى الشاطىء خشية أن تحرق أحواض السفن . وخلال ساعة احترق جزؤها الذى يعلو سطح الماء . وهناك تحت الماء ، ترقد الآن قاعدتاها الرئيسية والثانوية ـ سليمتين . فقد كانتا مصنوعتين من خشب البلوط البكر المقطوع من جزيرة شلتر ، وكذلك كانت زواياها أيضا » .

— « وكيف بدأ الحريق » ؟

— « لم أعتقد أبداً أنه بدأ . وقد كنت على الشاطىء » .

— « ومن الذى كان يرغب فى حرقها » ؟

— « أصحابها طبعاً » .

— « ولكنك كنت صاحبها » .

— « كنت أملك نصفها . ولم يكن بوسعى حرقها . إنى أحب أن أرى تلك الأخشاب . أحب أن أرى كيف صار حالها الآن » .

« تستطيع الانصراف الآن ، ياسيدى القبطان » .

— « لكن ذلك وازع هزيل ليبعث فيك الكراهية » .

— « إنه أفضل من لاشىء . سأرفع تلك القاعدة ـ حالما أغتنى . سأفعل ذلك من أجلك ـ على خط من الصخرة الثالثة حتى بورتى بوينت ساعة ارتفاع المد ، ثم خمسون فرسخاً بعد ذلك . » لم أكن نائماً . كانت قبضتاى وساعداى متصلبتين ضاغطتين على معدتى ، كى أمنع القبطان العجوز من التلاشى ، ولكن حين تركته يمضى، طوانى النوم .

كان فرعون حين يرى حلماً ، يستدعى مفسرى الأحلام فيخبروه كيف كانت وماستئول إليه الأمور فى المملكة . وكان ذلك صواباً لأنه هو نفسه كان المملكة . أما عندما يرى بعضنا حلماً ، ويذهب به إلى مفسر أحلام فإنه يخبرنا عن سير الأمور فى حدود وطن أنفسنا . وقدرأيت حلماً لم يحتج إلى مفسر أحلام . و إننى – مثل غالبية الناس العصريين — لا أومن بالنبوءة ولا بالسحر ، و بعدئذ أضيع نصف وقتى فى ممارسته .

فى فصل الربيع انتاب آلان شعور بهبوط معنوياته ووحشته ، فأعلن أنه ملحد كى يقتص من الله ووالديه فقلت له ، عليه إذن ألا يصعد جذع شجرة و إلا فلن يكون أمامه سبيل للنزول ، وألا يسير تحت السلالم ويقضى على القطط السوداء بالطعن والقرص وعليه ألا يدعو لتتحقق رغباته عندطلوع البدر الجديد . أكثر الناس خوفا من أحلامهم يقنعون أنفسهم بأنهم لايحلمون على الإطلاق و يمكننى أن أفسر حلمى بسهولة ، ولكن ذلك لايقلل بأى شكل من رهبته .

جاءنى أمر من دانى ، ولا أدرى بأى وسيلة بلغنى . (قال فيه) إنه مسافر بالطائرة و يريد منى القيام بأمور معينة ، أمور يجب أن أقوم بها بنفسى فهو يريد قبعة لمارى ، وينبغى أن تكون من الشمواه البنى الغامق ومبطنة بالصوف . ينبغى أن تكون من جلد مماثل لجلد خفين قديمين موجودين عندى مبطنين بجلد الحمل ، و ينبغى أن تشبه قبعة لعبة البيسبول ولها قرن طويل . كما طلب منى أيضا مقياسا يبين سرعة الريح – على ألا يكون مما يصنع من أكواب معدنية صغيرة دوارة ، بل تصنع باليد من الورق المقوى الرقيق الصلب الذى تصنع منه بطاقات البريد الحكومية ثم تركب على شرائح من الخيرزان . وطلب منى مقابلته قبل أن يقلع بالطائرة . فحملت معى عصا القبطان العجوز المصنوعة من ناب الحوت .

وهى تحفظ حمالة المظلات المصنوعة على شكل قدم فيل والموجودة فى صالة بيتنا .

حين قدمت إلينا قدم الفيل تلك كهدية ، تطلعت إلى الأظافر الضخمة التى بلون العاج . وقلت لولدى : « أول طفل منكما يضع طلاء الأظافر على أظافر تلك القدم سأشبعه ضرباً — مفهوم ؟ » وقد أطاعانى ، فكان علىّ أن أطليها بنفسى — بطلاء أظافر أحمر زاه أخذته من منضدة زينة مارى :

ذهبت لمقابلة دانى فى سيارة مارولمو البونتياك ، وكان المطار هو مكتب بريد نيوبايتون . عندما أوقفت السيارة ، وضعت العصا (المبرومة) على المقعد الخلفى ، فاقترب منى سيارة لنقل الجنود فيها شرطيان تبدو عليهما الخسة ، وقالا « لاتضعها على المقعد الخلفى » .

— « هل هذا مخالف للقانون » !

— « إذن فأنت تريد أن تتفلسف » !

— « كلا . بل كنت أسأل فحسب » .

— « حسناً ، لاتضعها على المقعد » .

كان دانى فى الجزاء الخلفى من مكتب البريد يفرز طروداً . وكان يرتدى القبعة المصنوعة من جلد الحمل ، ويدير مقياس سرعة الريح المصنوع من الورق المقوى . كان وجهه هزيلاً وشفتاه مشققتين جداً ، أما يداه فكانتا منتفختين مثل قربتى ماء ساخن ، وكأنهما قد تعرضتا للسع النحل .

ووقف لمصافحتى ، فغلفت الكتلة المطاطية الدافئة بيدى اليمنى . ووضع شيئاً فى يدى ، شيئاً صغيراً وثقيلاً وبارداً ، فى مثل حجم مفتاح ولكنه ليس بمفتاح بل شكلاً ما ، شيئاً معدنيا شعرت من ملمسه أنه حاد الأطراف ومصقول .

ولاأدرى ماذا كان ، فلم أتطلع إليه وإنما تحسسته فقط . وملت مقترباً منه ، ثم قبلتهمن فمه،فأحسست من شفتى أن شفتيه الجافتين مشققتان تماماً وخشنتان وعندئذ صحوت مرتعداً ومقروراً . كان الفجر قد بزغ ، واستطعت رؤية البحيرة ولكن دون البقرة الواقفة فيها، كنت لاأزال أستطيع الإحساس بالشفتين المشققتين الجافتين. وفى الحال نهضت من فراشى إذ لم أشأ الرقاد فيه لأفكر فى هذا الحلم . لم أصنع قهوة ، بل ذهبت إلى قدم الفيل ورأيت أن تلك الهراوة اللعينة ، المسماة عصا لازالت فى مكانها .

كان الوقت وقت اختلاج الفجر ، والجو حار ورطب ، فلم تكن ريح الصباح بدأت هبوبها بعد . وكان الشارع مادياً فضياً والرصيف زلقاً بسبب الفضلات البشرية . لم يكن مقهى الفورماستر قد فتح أبوابه ، ولكنى على أية حال لم أكن راغباً فى تناول القهوة. اخترقت الحارة وفتحت باب محلى الخلفى — وتطلعت إلى الجزء الأمامى من المحل ، فرأيت صندوق القبعة الجلدى خلف الطاولة . وفتحت علبة قهوة ، ثم صببت القهوة فى صفيحة القمامة. و بعدئذ ثقبت علبة لبن مركز ثقبين ، وأفرغت اللبن فى علبة القهوة ، ووضعت الإسفين تحت الباب الخلفى ليظل مفتوحاً ، ثم وضعت علبة اللبن فى المدخل . كان القط فى الحارة بالفعل ، ولكنه لن يقرب اللبن إلا بعد ذهابى إلى مقدمة المحل . ومن هناك استطعت رؤيته، قط رمادى فى حارة رمادية ، يلعق اللبن وحين رفع رأسه كان اللبن يغطى شاربه . ثم جلس ومسح فمه ولعق باطن قوائمه .

فتحت صندوق القبعة وأخرجت قسائم يوم السبت ، كانت جميعها مدونة فى القائمة وقد ضمت إلى بعضها بمشبك ورق . وأخرجت من مظروف المصرف

البني ثلاثين ورقة من فئة المائة دولار ، وأعدت العشرين ورقة الأخرى إلى مكانها . ستكون هذه الثلاثة آلاف دولار الحد الذى يكفل سلامتى إلى أن تتوازن اقتصاديات المحل . أما الألفان الآخران من نقود مارى فسأردهما إلى حسابها ، وحالما أتمكن من تسيير العمل بشكل مطمئن ، أرد الثلاثة آلاف أيضا . وضعت الثلاثين ورقة فى حافظتى الجديدة ، مما جعلها تنتفخ إلى حد كبير فى جيبى الخلفى . بعد ذلك أحضرت الأكياس وصناديق الورق المقوى من المخزن ، وأخذت أشقها وأمزقها لأفتحها ، ثم بدأت أسد النقص فى الأرفف التى استهلكت ، وأثناء ذلك كنت أكتب على قصاصة من ورق التغليف قائمة بالبضائع التى ينبغى تجديد طلبياتها . كومت العلب والصناديق فى الحارة حتى تأتى سيارة نقل القمامة لأخذها ، وأعدت ملأ علبة القهوة باللبن ولكن القط لم يعد . فهو إما أن يكون قد نال كفايته ، وإما أنه لايستمتع إلا بما يستطيع سرقته فحسب .

لابد أن هناك سنوات تختلف عن سنوات أخرى ، تختلف فى طقسها وأحوالها ، مثلما يمكن أن يختلف يوم عن يوم آخر . فقد كان هذا العام — عام ١٩٦٠ — عام تبدل ، عاماً تتكشف مخاوفه المستورة وتبين ، عاماً يكف فيه الضجر عن السكون ويتحول تدريجياً إلى غضب لم يكن هذا إحساسى وحدى أو إحساس نيو بايتون . فسرعان ماسيحل موعد الترشيحات لرئاسة الجمهورية ، وقد أخذ الضجر الذى يسود الجو فى التحول إلى غضب ، مع مايصحب الغضب من تهييج . كما لم يكن هذا إحساس الدولة فحسب ، فقد كان العالم بأجمعه يتململ متبرماً قلقاً بينما راح الضجر يتحول إلى غضب ، والغضب يحاول أن يجد له متنفساً بإيجاد حدث ، أى حدث طالما انطوى على العنف — كانت أفريقيا ، وكوبا ، وأمريكا الجنوبية ، وأوربا ، وآسيا ،

والشرق الأدنى ، كلها قلقة مثل خيول تنتظر عند حاجز السباق .

وعرفت أن يوم الثلاثاء ، الخامس من يوليو ، سيكون يوماً مليئاً بالأحداث أكثر من الأيام الأخرى . بل إنى عرفت الأشياء التى ستقع قبل وقوعها ، ولكن حيث إنها وقعت فلن أتأكد أبدا مما إذا كنت قد عرفتها فعلاً .

أعتقد أنى عرفت أن المستر بيكر ـ الساعة ذات السبعة عشر حجراً والمضادة للصدمات ، والتى تبعث فى الساعات دقاتها ـ سوف يأتى مجاجلاً إلى بابى الأمامى قبل موعد فتح المصرف بساعة . وقد جاء قبل أن أفتح المحل لممارسة عملى ، فأدخلته ثم أغلقت الأبواب خلفه .

قال : « ياله من أمر مريع ! كنت بمعزل عن الأخبار ، وقد عدت حالما سمعت » .

— « أى أمر مريع ياسيدى ؟ »

— « الفضيحة طبعا ! أولئك الرجال أصدقائى ، بل أصدقائى القدامى . ينبغى أن أفعل شيئا من أجلهم » .

— « إنهم لن يستجوبوا قبل إجراء الانتخابات ـ فهم متهمون فحسب »

— « أعلم ذلك . ألا يمكننا أن نذيع بيانا عن اعتقادنا ببراءتهم ؟ ولو حتى على شكل إعلان ندفع أجره ، إن كان ذلك ضرورياً » .

— « فى أى جريدة ياسيدى ؟ إن صحيفة « باى هاربور ميسنجر » لاتصدر قبل يوم الخميس » .

— « حسناً ، ولكن ينبغى عمل شىء ما » .

ـ « أعلم ذلك » .

كان رداً بالغ الرسمية ، فلا بد أنه كان يعلم أنى أعلم . ولـكن الواقع أنه قابل نظراتى وقد بدا عليه الانزعاج الحقيقى .

— « هذه العصبة المجنونة ستدمر انتخابات البلدة مالم نفعل شيئا . ينبغى أن نقدم مرشحين جدد ، ولاخيار لنا فى الأمر . إنه لشىء مرعب أن يفعل المرء ذلك بأصدقائه القدامى ، ولـكنهم أول من يجب أن يعلم أننا لا نستطيع أن ندع تلك العصبة المتعالمة تتدخل فى الأمر » .

— « لم لاتتحدث إليهم ؟ »

— « إنهم متهوسون مجانين . ولم يتح لهم الوقت ليتدبروا الأمر . هل جىء ماروللو ! »

— « أرسل صديقاً . وقد اشتريت المحل مقابل ثلاثة آلاف دولار » .

— «هذا طيب . لقد عقدت صفقة جيدة ، وهل حصلت على الأوراق ! »

— « أجل ».

— «حسن ، ولو راوغ فأوراق العملة مسجلة »

— « لن يراوغ ، فهو يريد أن يرحل . إنه متعب » .

— « لم يحز ثقتى مطلقاً . فلم أعرف أبدا فيم كان يشتغل » .

— « أكان محتالاً ياسيدى » ؟

— « كان مخـــادعاً ، يلعب على طرفى الحبل ولو أمكنه التصرف فى ممتلـكاته لحصل على مبلغ كبير ، أما بثلاثة آلاف — فذلك نوع من الهبة » .

— « لقد كان يحبنى » .

— « لاريب فى ذلك . من الذى أرسله إليك ، جماعة المافيا » ؟

— « موظف حكومى . وكما ترى كان مارو للو يثق بى » .

قطب المستر بيكر جبينه ، وكان ذلك غير مألوف بالنسبة لشخصيته . وقال « لم لم أفكر فى ذلك أنت هو الرجل . من أسرة طيبة ، وموثوق به ، صاحب عقار ، رجل أعمال ، ويتمتع بالاحترام . لاعدو لك فى البلدة . أنت الرجل ولاشك » .

— « الرجل ؟ »

— « الرجل الذى يشغل منصب مدير البلدية » .

— « لم أكن رجل أعمال إلا منذ يوم السبت فحسب » .

— « أنت تعلم مقصدى . فبوسعنا أن نحيطك بوجوه جديدة محترمة وهذا هو الطريق السليم . »

— « من موظف فى محل بقالة إلى مدير للبلدية ؟ »

— « لم ينظر أحد أبداً إلى فرد من عائلة هولى على أنه موظف فى محل بقالة »

— « ولكنى فعلت أنا وماري » .

— « إنك لست كذلك . ونستطيع أن نذيع الخبر اليوم قبل أن تستعد تلك العصبة المجنونة » .

— « يجب أن أتدبر الأمر من أوله إلى آخره » .

— « لاوقت لذلك » .

— « فيمن فكرت من قبل ؟ »

— « قبل ماذا ؟ »

— « قبل أن يتقوض المجلس . سأحادثك فى هذا الموضوع فيما بعد . لقد كان يوم السبت عظيماً ، كان بوسعى أن أبيع الميزان أيضاً » .

— « تستطيع أن تجعل من هذا المحل شيئاً بديعاً يا إيثان . ونصيحتى إليك أن تدعمه ثم تبيعه . فستصبح أكبر من أن تقف لخدمة الزبائن . ألا توجد أى أخبار عن دانى ؟ »

— « ليس بعد . فلا أخبار حتى الآن » .

— « كان ينبغى ألاتعطيه النقود » .

— « ربما كان ينبغى ألا أفعل . ولكنى اعتقدت أننى أقوم بعمل طيب » .

— « طبعاً . طبعاً » .

— « مستر بيكر ، سيدى ـ ماذا حدث للسفينة بل آدير ؟ »

— « ماذا حدث لها ؟ احترقت بالطبع » .

— « فى الميناء — كيف بدأ الحريق ياسيدى ؟ »

— « ياله من وقت مضحك لتسأل هذا السؤال . إنى أعرف ما سمعته فحسب . وقد كنت صغيراً جدا حتى إننى لا أتذكر . كانت تلك السفن القديمة تتشبع بالزيت ، وأعتقد أن بحاراً ألقى عود ثقاب . كان جدك هو الربان ، وأعتقد أنه كان على الشاطىء ساعتها ، كان قد وصل لتوه » .

— « كانت رحلة سيئة » .

— « ذلك ما سمعته » .

— « هل كانت هناك أية مشقة فى الحصول على التأمين ؟ »

— « حسناً ، إنهم يوالون إرسال المحققين . كلا لم تكن هناك مشقة ،

فقد استغرق الأمر بعض الوقت ولكننا حصلنا على التأمين ، آل هولى وآل بيسكر ».

— « كان جدى يعتقد أن النار أشعلت فيها » .

— « ولم ، بحق السماء ؟ »

— « للحصول على نقود التأمين ، فصناعة صيد الحيتان كانت قد ولت » .

— « لم أسمع أبداً أنه قال ذلك » .

— « لم تسمع أبداً ؟ »

— « إيثان ـ ما الذى ترمى إليه ؟ لماذا تنبش شيئاً وقع منذ عهد بعيد ؟ »

— « إن حرق سفينة أمر مرعب، بل إنه جريمة قتل . وإنى أنوى أن أرفع قاعدتها من الأعماق يوماً ما » .

— « قاعدتها ؟ »

— « إنى أعرف المكان الذى تستقر فيه بالضبط . على مبعدة خمسين فرسخاً من الشاطىء »

— « ولم ينبغى أن تفعل ذلك ؟ »

— « أود أن أرى إذا ما كان خشبها البلوطى لا يزال سليماً. فقد كان من البلوط البكر الموجود فى شلتر ايلاند . ولن تكون السفينة تالفة تماما مادامت قاعدتها سليمة . يجدر بك أن تنصرف إذا كنت ستبارك عملية فتح الخزانة . كما أن على أن أفتح المحل » .

عندئذ بدأ (رقاصه) الحركة ، وانتظمت دقاته وهو يسير إلى المصرف . أعتقد الآن أنى توقعت حضور بيجرز أيضاً ، فقد حتم على الصديق المسكين أن

يقضي جل وقته في مراقبة الأبواب . ولا بد أنه كان ينتظر انصراف مستر بيكر في مكان ما يقع في المجال الذي يسمح له باختلاس النظر .

— « آمل ألا تنقض على وتمسك بخناق » .

— « ولم أفعل ؟ »

— « بوسعى أن أدرك سبب غضبك المفاجيء . أظنني لم أكن دبلوماسياً جداً » .

— « ربما كان ذلك هو السبب » .

— « هل أمعنت الفكر في عرضى ؟ »

— « أجل » .

— « وما رأيك ؟ »

— « أعتقد أن ستة في المائة ستكون أفضل » .

— « لا أعلم إذا ما كنت شركة بي . بي سترضى بذلك » .

— « الأمر متروك لهم » .

— « قد يوافقون على خمسة ونصف » .

— « وقد توافق انت على النصف الآخر » .

— « يا إلهى ، يارجل . وأعتقدت أنك ستكون فتى ريفياً ، فإذابك بارع الذكاء » .

— « فلتقبل العرض أو ترفضه » .

— « حسناً . أى نوع من البضاعة ستكون طلبيتك ؟ »

— « هناك قائمة جزئية بجانب آلة عد النقود » .

فدرس المكتوب على قصاصة ورق اللف ، وقال : « يبدو أنك علقتنى في

خطاف . وها أنذا ، ياأخى أنزف . هل يمكننى استلام الطلبية الكاملة اليوم؟ »

— « ستكون فى الغد طلبية أفضل وأكبر » .

— « أتمنى أنك ستحول حسابك كله إلينا ؟ »

— « إذا تعاملتم معى معاملة حسنة » .

— « أخى ، لا بد أنك تمسك عنق رئيسك بين يديك . هل تستطيع تنفيذ ذلك ».

— « على فحسب أن أدبر الأمور » .

— « حسناً ، ربما استطعت قضاء بعض الوقت مع صديقة الوكيل المتجول. ينبغى أن تكون فى برودة سمكة الرنجة يا أخى . أقول لك إن تلك المرأة شهية » .

— « إنها صديقة زوجتى » .

— « أوه . ياه . أدرك كيف يكون الأمر معك . إنه لخبر سيء كونها وثيقة الصلة ببيتكم . إنك ذكى . وإن كنت لم أعرف ذلك قبلاً ، إلا أننى أعرفه الآن ستة فى المائة . يا إلهى ! إلى الغد صباحاً » .

— « ويحتمل فى ساعة متأخرة من أصيل اليوم إذا أتيح لى الوقت . »

— « فلنجعلها غداً صباحاً » .

جاء العمل يوم السبت على دفعات . أما هذا الثلاثاء فقد تغير إيقاع الحركة فيه تغيراً كلياً . كان الناس يتباطأون ، ويرغبون فى الكلام عن الفضيحة وهم يقولون ، إن ذلك أمر سيء ، مخيف ومقزز ، ولكنهم كانوا يتلذذون بالتحدث عنه . فلم تحدث عندنا فضائح منذ مدة طويلة . ولم يذكر واحد منهم المؤتمر الوطنى الديمقراطى الذى سيعقد فى لوس أنجيليس — ولو مرة واحدة . ونيوبايتون بلدة جمهورية النزعة طبعاً ، ولكنى أظن أن معظم إهتمام أهلها كان منصباً

على ماهو وثيق الاتصال ببلدهم . فنحن نعرف الرجال الذين أخذنا نرقص فوق قبورهم .

دخل مدير البوليس ستونول جاكسون خلال ساعة راحة الظهيرة ، وقد بدا عليه التعب والكدر .

وضعت علبة الزيت على الطاوله واصطدت المسدس القديم بقطعة سلك .

— « هاك الإثبات ، أيها المدير . هلا سمحت بأخذه بعيداً ؟ فهو يثير أعصابى » .

— « حسناً ، هلا مسحت الزيت عنه ؟ أنظر . إنه من ذلك النوع الذى اعتادوا أن يسموه (مسدس بدولارين) — وهو ذو سقاطة علوية ومن ماركة إيفور جونسون . هل جئت بأحد لملاحظة المحل » ؟

— « كلا » :

— « أين مارللو » !

— « إنه خارج البلدة » .

— « أظن أنه ربما تحتم عليك أن تغلق المحل فترة قصيرة » .

— « ماذا هناك ، أيها المدير » :

— « حسناً ، لقد هرب ابن تشارلى بريور من منزله هذا الصباح . ألديك أى مشروب بارد هنا » ؟

— « بالتأكيد . عصير برتقال ، جيلاتى ، عصير ليمون ، كوكا كولا . فماذا تريد » ؟

— «أعطنى زجاجة سفن آب . إن تشارلى رجل ظريف . وابنه توم فى الثامنة من عمره ، ويتصور أن العالم يقف ضده وينوى الهرب ليصبح قرصاناً ـ

ولو كان والده أى شخص آخر لصفعه على قفاه ، ولكن تشارلى لايفعل - ألا تنوى فتح هذه الزجاجة » ؟

— « آسف . هاك هى . لكن ماعلاقتى بتشارلى ؟ إنى أحبه بالطبع » .

— « حسناً ، إن تشارلى لايدبر الأمور كما يدبرها الآخرون . فهو يتصور أن أحسن طريقة لعلاج توم هى مساعدته . وهكذا بعد أن تناولا إفطارهما أعدا حزمة من فراش وطعاماً كثيراً . وأراد توم أن يأخذ معه سيفاياً يابانياً لحماية نفسه ولكنه جرى وراءه فاستقر رأيه على أن يأخذ سونكياً . وشحنة تشارلى فى السيارة وقادها به إلى خارج البلدة ليمنحه بداية طيبة . وأنزله هناك قريباً من مرجة تيلور — إنك تعرفها ، عند بيت آل تيلور القديم . حدث هذا حوالى التاسعة من صباح اليوم . وراقب تشارلى صبية فترة قصيرة ، فكان أول مافعل أن جلس على الأرض وأكل ست شطائر و بيضتين مسلوقتين . و بعد ذلك سار فى طريقه عبر المرجة يحمل حزمته الصغيرة والسونكى . وقاد تشارلى سيارته عائداً إلى بيته .

هاقد حلت اللحظة الحاسمة . لقد عرفتها ، عرفتها . وغالباً ما كان انقضاؤها مبعث راحة .

— « وحوالى الساعة الحادية عشرة خرج الصبى إلى الطريق ولعابه يسيل ، والتقطته سيارة ذهبت به إلى البيت . »

— « اعتقد أن بوسعى أن أخمن . ستونى — هل هو دانى ؟ »

— « أخشى ذلك . فقد وجد هناك بأسفل فى مدخل قبو البيت القديم . ومعه صندوق من الويسكى لم تفرغ منه سوى زجاجتين ، وزجاجة حبوب منومة .

يؤسفني أن أسألك هذا السؤال ، ياإيثان . ولـكنه بقي هناك فترة طويلة وقـد هاجمه حيوان مافي وجهه . ولعلها القطط . فهل تتذكر أي ندوب أو علامات في جسده » ؟

— « لاأريد رؤيته ، أيها المدير » .

— « ومن الذي يريد ؟ ولـكن ماذا بشأن الندوب » ؟

— « أذكر جرحاً نجم عن سلك شائك أعلى ركبة ساقه اليسرى ، و ـ و »

شمرت كمي ـ « وقلبا مثل هذا تماماً موشوم على ذراعه . لقد رسمنا هذا الوشم حين كنا صبيين . جرحناه بشفرة حلاقة ثم دعكنا حبرا فوق الجرح . وما يزال واضحاً جداً ، أترى » ؟

— « حسناً ـ قد يفي ذلك بالغرض . أهناك شيء آخر » ؟

« أجل ـ ندبة كبيرة تحت ذراعه اليسرى ، من أثر قص جزء من الضلع فقد أصيب بالتهاب رئوي بللوري قبل اكتشاف الأدوية الحديثة فأدخلوا أنبوبة في الفتحة لتصريف إفرازات الجرح » .

— « بالطبع إذا كان هناك ضلع مقوص فسيفي ذلك بالغرض . ولن يكون عليّ العودة شخصياً . فليمتط المحقق دابته إلى هناك سيكون عليك أن تقسم على صحة تلك العلامات إذا كانت الجثة جثته » .

— « حسناً ، ولـكن لاتضطرني للنظر إليه ياستوني ، فقد كان ـ أنت تعلم — كان صديقي » .

— « بالتأكيد ، ياإيثان . قل لي ، هل هناك نصيب من الصحة فيما أسمعه عن ترشيحك لمنصب مدير البلدية » ؟

— « هذا خبر جديد عليّ . أيها المدير ـ هل يمكنك البقاء هنا دقيقتين » .

-- « يجب أن أذهب » .

— « دقيقتين فقط ريثما أهرع عبر الشارع لأتناول شراباً » .

— « أوه بالتأكيد . أفهم حالتك بالتأكيد ـ هيا اذهب . فعلى أن أساير مدير البلدية الجديد » .

تناولت شرابى واشتريت زجاجة ربع لتر لأعود بها معى إلى المحل . حين انصرف ستونى ، كتبت على قطعة من الورق المقوى « عائد فى الساعة الثانية » ثم أغلقت الأبواب وأسدلت الستائر .

جلست على صندوق القبعة الجلدى ، خلف الطاولة فى محلى ، جلست فى ظلمة محلى المعتمة الخضراء .

الفصل العشرون

فى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق خرجت من الباب الخلفى واستدرت حول الناصية متجهاً إلى واجهة المصرف . كان مورفى بداخل قفصه البرونزى فسحب منى حزمة الأوراق المالية والشيكات ، والمظروف البنى وأوراق الإيداع ثم فتح دفاتر المصرف الصغيرة وجعل أصابعه على شكل رقم ٨ وكتب أرقاماً صغيرة ذات زوايا بقلم فولاذى كان يحدث صريراً على الورق . وعندما دفع الدفاتر إلىّ ، رفع باصريه بعينين غامضتين حذرتين .

— « لن أتكلم عن الحادث ياإيثان ، فإنى أعرف أنه كان صديقك » .

— « شكراً » .

— « إذا خرجت بسرعة فقد تتفادى لقاء المدير » .

ولكنى لم أتفاد اللقاء . كل ما أعلمه هو أنه يحتمل أن يكون مورفى قد ضغط على جرس متصل به . فقد انفتح باب المكتب المصنوع من الزجاج المغبش وبدا منه مستر بيكر أنيقا نحيفاً أشيب الشعر ، وقال فى هدوء : « هل تستطيع أن تفرغ لى لحظة ياإيثان ؟ »

لاجدوى من التأجيل . سرت ودخلت عرينه الجليدى فأغلق الباب برقة فائقة حتى أنى لم أسمع صوت قفل الباب . كان يعلو مكتبه لوح من الزجاج ، وضعت تحته قوائم فيها أرقام مكتوبة على الآلة الكاتبة . وقد قام إلى جوار كرسيه العالى كرسيان متوازيان للعملاء ، وكأنهما عجلين صغيرين رضيعين . كانا مريحين ولكنهما أكثر انخفاضاً من الكرسى الذى إلى مكتبه . وحين

جلست كان على أن أرفع ناظرى لأرى المستر بيكر وقد جعلنى هذا الوضع فى موقف الابتهال .

— « شىء محزن » .

— « نعم » .

— « لا أعتقد أن اللوم كله ينبغى أن يلقى عليك . كان من المحتمل أن يقع الحادث على أية حال » .

— « محتمل » .

— « وإنى واثق من اعتقادك بأنك كنت تفعل الشىء الصحيح » .

— « ظننت أنه لازالت لديه فرصة » .

— « طبعاً » .

كانت الكراهية تصعد إلى حلقى بمذاق مر ، أكثر إثارة للغثيان منه للغضب .

— « بغض النظر عن المأساة الإنسانية والفقدان ، فإن هذا الحادث يثير صعوبة . هل تعلم ما إذا كان له أقارب ؟ »

— « لا أظن ذلك » .

— « كل من يملك مالاً له أقارب » .

— « ولكنه لم يملك مالاً » .

— « كان يملك مرجة تيلور . أرض لاديون عليها ولا رهونات » .

— « صحيح ؟ حسناً ، لقد كان يملك مرجة وفتحة قبو » : —

— « إيثان ، لقد قلت لك إننا وضعنا تصميم مطار لخدمة المنطقة كلها . والمرجة مكان منبسط » .

فإذا لم نتمكن من الاستفادة بها ، فستتكلف الملايين لنشق مدارج للطائرات وسط التلال . والآن ، وحتى لو لم يكن له ورثة ، فسيستدعى الأمر عرض الموضوع على المحاكم . وهذا يستغرق شهوراً » .

— « أدرك هذا » .

وتفجر غضبه : « إنى لأتساءل إذا ما كنت تدرك هذا فعلاً . فبمقاصدك النبيلة قذفت بالمشروع إلى عنان السماء . إنى أعتقد أحياناً أن فاعل الخير هو أخطر شيء فى العالم » .

— « ربما كنت على صواب . يجب أن أعود إلى المحل » .

— « لقد صار محلك » .

— « إنه كذلك . أليس كذلك ؟ لا أستطيع تعود ذلك . فأنا أنسى » .

— « أجل إنك تنسى . فالنقود التى أعطيتها له كانت نقود مارى ، ولن تراها أبداً الآن . وأنت الذى أضعتها » .

— « كان دانى معجباً بزوجتى مارى ، وكان يعلم أن النقود نقودها » .

— « ياللخير العظيم الذى سيسببه هذا لها » .

— « لقد ظننت أنه كان يمزح ، حين أعطانى تلك » . وأخرجت قطعتى الورق المسطرتين من جيبى الداخلى حيث وضعتهما ، وأنا أعلم أنه سيكون على أن أخرجهما بهذه الطريقة . وفردهما المستر بيكر فوق مكتبه المغطى بالزجاج وأثناء قراءتهما اختلجت عضلة بجوار أذنه اليمنى حتى جعلت أذنه تنتفض . ومرت عيناه عليهما ثانية ، وكانتا تبحثان فى هذه المرة عن ثغرة فى النص . عندما نظر إلى كان الخوف قد تسرب إليه ، فقد رأى فى شخصاً لم يكن

يدرك بوجوده . وقد استغرق تلاؤمه مع الشخص الغريب لحظة ، ولـكنه كان بارعاً فقد تلاءم معه .

— « ما الثمن الذى تطلبه » ؟

— « واحد وخمسون فى المائة » .

— « من أى شىء » .

— « من أرباح الهيئة أو الشركة أو أى شىء يكون » .

— « هذا شىء يدعو للسخرية » .

— « إنكم تريدون مطاراً ، وأنا أمتلك المطـــار الوحيد الممكن الحصول عليه » .

مسح نظارته فى عناية بقطعة من ورق الـكلينيكس : ثم لبسها . ولـكنه لم ينظر إلى ، بل أدار عينيه فى دائرة حولى وتركنى خارج مجال رؤيته . وأخيراً سألنى :

— « هل أدركت مافعلته ياايثان » ؟

— « أجل » .

— « وهل تشعر بالراحة لمـا فعلت ؟ »

— « أظننى أشعر نفس شعور الرجل الذى حمل إليه زجاجة ويسكى ، وحاول أن يجعله يوقع ورقة ما » .

— « هل أخبرك بذلك ؟ »

— « أجل » .

— « كان كذاباً » .

— لقد قال لى إنه كذاب ، وأنذرنى بأنه كذاب . وربما كانت هناك خدعة ما فى هذه الأوراق » .

وسحبت من أمامه بلطف قصاصتى الورق المبقعتين المكتوبتين بالرصاص وطويتهما .

— « أجل إن فى الأمر خدعة يا إيثان . فهاتان الوثيقتان لاغبار عليهما ، فهما مؤرختان مشهود بصحتهما ، وواضحتان . لعله كان يكرهك ، ولعل خدعته كانت تكمن فى تحطيم رجل » .

— « مستر بيكر ، لم يقم أحد من عائلتى قط بحرق سفينة » .

— « سوف نتكلم يا إيثان ، وسوف نقوم بالأعمال ، ونربح الأموال . ستقوم بلد صغيرة على التلال حول المرجة . وأظن أنك يجب أن تصبح الآن مدير البلدية » .

— « لا أستطيع ياسيدى . فسينشأ عن ذلك تضارب فى المصالح . وذلك ما يتكشف الآن بالذات لنفر من الرجال بلغ بهم الحزن مداه » .

فتنهد — تنهيدة حذرة وكأنه خشى أن يوقظ شيئاً مافى حلقه .

وقمت واقفاً وأرحت يدى على انحناءة ظهر كرسى الابتهال المبطن بالجلد ، وقلت :

« ستشعر بتحسن ياسيدى عندما تعتاد حقيقة أنى لست أبلهاً فكهاً » .

— « لماذا لم تستطع أن تجعلنى محل ثقتك ؟ »

— « إن المشاركة فى جريمة أمر خطير » .

— « إذن أنت تشعر أنك اقترفت جريمة » .

— « كلا . فالجريمة شيء يرتكبه شخص آخر . يجب أن أفتح المحل حتى ولو كان محلى الخاص » .

كانت يدى على مقبض الباب حين سألنى فى هدوء : « من الذى وشى بارولدو ؟ »

— « أعتقد أنك أنت الذى فعلتها يا سيدى » . وقفز واقفاً على قدميه ولكنى أغلقت الباب خلفى وعدت إلى محلى . .

الفصل الحادى والعشرون

لايستطيع أحدفى العالم أن يرتفع إلى مستوى حفل أو احتفال مثل زوجتى ماري. وليس ماتضفيه على الآخرين هومايجعلها تتألق كجوهرة ، بل ماتتنفاه منهم. فتلتمع عيناها وتبرز ابتسامة فمها ، وتبعث ضحكتها السريعة القوة فى فكاهة ضعيفة . إن وجود مارى فى مدخل أى حفل يجعل كل شخص يشعر بأنه أكثر جاذبية وحذقاً عما كان . فيصبح كذلك بالفعل . وفيما عدا هذا لاتضفى مارى أو تحتاج إلى إضفاء شيء على الآخرين .

حين عدت إلى المنزل كان بيت آل هولى بأكمله يشع بالاحتفال ، كانت أعلام البلاستك ذات الألوان الزاهية منظومة فى حبال تشكل سرادقات صغيرة تمتد من الضوء الذى يتوسط المكان حتى إطار الصورة ، فى حين تدلت من إفريز السلم صفوف من الرايات الملونة .

وصاحت مارى : « لن تصدق ذلك . لقد أحضرت إيلين هذه الرايات من محطة إسو لخدمة السيارات . أعارها إياها جورج ساندو » .

— « لأى سبب يجرى ذلك ؟ »

— « لجميع الأسباب . إنه لأمر رائع » .

لم أدر ماإذا كانت لم تسمع بخبر دانى تيلور أو أنها سمعته وتجاهلته . وأنا لم أدعه بالتأكيد لحضور الوليمة ولكنه كان يتسكع بالخارج . وعلى أن أذهب لملاقاته فيما بعد ، ولكنى لم أدعه للدخول .

وقالت مارى : « إنك لتحسب أن إيلين هى التى فازت بالشرف . بل

أكثر فخراً مما لو كانت هى التى صارت شخصية شهيرة . انظر إلى الكعكة التى خبزتها . كانت كعكة مرتفعة بيضاء ، وقد كتبت على سطحها كلمة (بطل) بأحرف حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء . « سنتناول دجاجاً محمراً ، وصلصة ، وكبداً بالصلصة ، وبطاطس مهروسة ، برغم أننا فى فصل الصيف » .

— « طيب ، ياعزيزتى ، طيب . أين الصغير المشهور » .

— « حسناً ، لقد بدله الأمر أيضا . إنه يأخذ حماماً ويغير ثيابه للعشاء» .

— « إنه يوم يحمل نذير شؤم أيتها الساحرة . فستجدين أن بغلة قد أنجبت فرساً فى مكان ما ، وأن مذنباً جديداً قد هوى إلى السماء . يأخذ حماماً قبل العشاء ، تخيلى ! »

— « ظننت أنك ربما تحب تبديل ثيابك أيضا . فلدى زجاجة نبيذ ، وقد فكرت فى أن أحداً قد يلقى كلمة أو نشرب نخباً أو شيئاً من هذا القبيل ، حتى ولو كان الاحتفال مقصوراً على الأسرة » . لقد أفاضت على البيت جو الحفلة فى اعتدال . ووجدت نفسى مندفعا أرتقى الدرج لأستحم وأصبح جزءاً من الحفل .

حين مررت بغرفة آلان ، قرعت الباب ، وسمعت من يزوم فدخلت .

كان يقف أمام مرآته ، ممسكاً مرآة بيد ليتمكن من رؤية صورة وجهه الجانبية . وكان قد رسم شارباً أسود رقيقاً بمادة سوداء لعلها كحل مارى ، كما زاد من سواد حاجبيه ورفع طرفاهما الخارجيين إلى أعلى فصارا كحاجبى الشيطان . وحين دخلت كان يبتسم فى المرآة ابتسامة العارف بأمور الدنيا ، ابتسامة تهكمية ساخرة . كما كان يلبس رباط عنق (البابيون) الأزرق المنقط . ولم يبد عليه الارتباك لضبطه بهذا المنظر . وقال بعد أن وضع المرآة ذات اليد : « إنى أقوم

ببروفة لتأدية دور » .

— « ولدى ، لا أعتقد أننى أخبرتك خلال كل ذلك الانفعال إلى أى مدى، أنا فخور بك » .

— « إنها ـ حسناً ، إنها ليست سوى البداية » .

— « و بصراحة ، لم أعتقد أنك تجيد الكتابة ولو حتى بمستوى الرئيس . وإنى مندهش بقدر ما أنا مسرور . متى تنوى قراءة مقالك على العالم ؟ »

— « يوم الأحد ، فى الرابعة والنصف وسيذاع على كافة المحطات المحلية . يجب أن أذهب إلى نيو يورك ، وستقلنى طائرة خاصة » .

— « هل راجعت دورك جيدا ؟ »

— « أوه ، سأؤديه على مايرام . إنها ليست سوى البداية » .

— « حسناً ، إنها أقرب الى قفزة ، أن تكون واحدا من خمسة فى البلاد كلها » .

فقال : «وسأظهر فى جميع المحطات المحلية» . ثم أخذ يزيل الشارب بقطعة قطن ، ولدهشتى رأيت أن لديه (علبة تواليت) تشمل مادة تظليل العينين ، ومعجون الوجه الدهنى ، (الكولد كريم) .

— «لقد حدث كل شىء لنا جميعا دفعة واحدة . أتعلم أنى اشتريت المحل؟»

— « أجل . سمعت » .

— « حسنا، بعد أن ننزل الأعلام وأوراق الزينة، سأحتاج إلى معونتك» .

— « ماذا تعنى ؟ »

— « لقد قلت لك من قبل عن حاجتى لمعونتك فى المحل » .

— «لا أستطيع القيام بهذا » .. قالها ، ثم تفحص أسنانه فى المرآة ذات اليد

— « لاتستطيع القيام بماذا ؟ »

— « أمامى برنامجان فى التليفزيون سأحضرهما كضيف ، و بعدئذ سأشترك فى برنمجى « ماذا انتويت لمستقبلى؟» و « ضيف غامض » . و بعدئذ ستبدأ مسابقة جديدة اسمها « عوامل انحراف المرهقين » . بل إننى قد أرأس الاحتفال فى تلك المسابقة . بهذا ترى أنه لن يكون لدى وقت » . ورش على شعره مادة لزجة من علبة صفيح ترش بالضغط .

— « وهكذا تحدد مستقبلك كله ، أليس كذلك ؟ »

— « لقد قلت لك ، إن هذا ليس سوى البداية » .

— « لن أفك اسر كلاب الحراسة هذه الليلة . وسنناقش هذا الموضوع فيما بعد » .

— « هناك رجل من اذاعة ان . بى سى . كان يحاول الاتصال بك تليفونياً ربما كان الأمر متعلقا بكتابة عقد معك حيث أنى لم أبلغ السن القانونى بعد » .

— « ألا تفكر فى المدرسة ، يابنى ؟ »

— « وما حاجتى للمدرسة إذا وقعت عقداً ؟»

خرجت مسرعا وأغلقت الباب . وفى الحمام تركت الماء البارد يجرى ويثلج بشرتى وأتحت للبرودة أن تنفذ بعمق الى داخل جسدى كى أسيطر على غضبى المحتدم .

وحين خرجت من الحمام نظيفاً تفوح منى رائحة عطر مارى ، كنت قد استعدت سيطرتى على نفسى . وفى اللحظات القليلة التى سبقت تناول العشاء ، جلست إيلين على ذراع كرسى ثم تدحرجت جالسة على حجرى وأحاطتنى بذراعيها .

قالت : « إننى أحبك . أليس الأمر مثيراً ؟ أو ليس الآن رائعاً ؟ يبدو كأنه خلق لهذا » . وتلك هى الفتاة التى كنت أظنها أنانية وعلى شىء من الوضاعة.

قبل أن نقطع الـكعكة شربت نخب البطل الصغير وتمنيت له حظاً سعيداً ، وأنهيت هذا بقولى : « لقد أحالت شمس (يورك) الساطعة شتاء سخطنا إلى صيف رائع » .

قالت إيلين : « هذا من شعر شيكسبير » .

— « أجل أيتها الثقيلة ، ولـكن من أية مسرحية ، ومن الذى قالها ، وفى أية مناسبة ؟ »

وقال آلان : « لا أدرى . فهذا سؤال يلقى على الأذكياء » .

ساعدت فى حمل الأطباق إلى المطبخ ، وكانت مارى ما تزال على تألقها . فقالت : « لا تغضب إنه سيجد طريقه ، وسيكون على ما يرام . أرجوك أن تـكون حليماً معه » .

— « سأكون كذلك يا سمانتى المقدسة » .

— « هناك رجل من نيو يورك كان يحاول مقابلتك . وأظنه كان يريدك لأمر يتعلق بآلان . أليس من المثير أن يرسلوا طائرة لتقله ؟ إنى لا أستطيع التعود على فـكرة ملـكيتك للمحل . كما أنى أعلم بالأمر — فالخبر قد ذاع فى البلدة كلها بأنك ستصبح مدير البلدية » .

— « لن أصبح كذلك » .

— « حسناً ، ولـكنى سمعت الخبر عشرات المرات » .

— « لدى صفقة عمل تحول دون ذلك . إنى مضطر للخروج بعض الوقت يا عزيزتى ، فلدى اجتماع » .

— « لعلى سأتمنى أن تعود موظفاً مرة أخرى . فحينذاك كنت تقضى لياليك فى البيت . ماذا أقول للرجل إذا عاود الاتصال بك ؟ »

— « بوسعه الانتظار » .

— « لم يشأ الانتظار أول مرة . هل ستتأخر ؟ »

— « لا أدرى ، فهذا متعلق بكيفية سير الأمور » .

— « ألم يكن أمراً محزناً ما حدث لدانى تيلور ؟ خـذ معطفاً واقياً من المطر » .

— « إنه بالتأكيد أمر محزن » .

حين وصلت القاعة ارتديت قبعتى ، وبدافع ما التقطت من قدم الفيل عصا القبطان المجوز المصنوعة من ناب الحوت . وتجسدت إيلين إلى جوارى .

— « هل يمكننى الذهاب معك؟ »

— « ليس الليلة » .

— « إنى أحبك » .

حدقت عميقاً فى إبنتى لحظة ، ثم قلت : « وأنا أحبك أيضاً . سآتيك بجواهر ـ هل تفضلين أى نوع منها ؟ »

فضحكت وقالت : « أتنوى حمل عصا ؟ »

— « للدفاع عن النفس » . وامتشقت العصا العاجية اللولبية وكأنها حسام .

— « أتنوى البقاء بالخارج مدة طويلة ؟ »

— « لا » .

— « لم تأخذ العصا إذن ؟ »

— « من باب الزينة الخالصة ، والمباهاة ، والتهديد ، والتخويف ، ولإشباع

رغبة مندثرة فى حمل السلاح » .

— « سأبقى مستيقظة فى انتظارك . أيمكننى أن أمسك الشىء الوردى ؟ »

— « كلا ، لا تفعلى ، يا زهرة الدمن الصغيرة ، الشىء الوردى ؟ أتقصدين الطلسم ؟ طبعاً يمكنك أن تمسكيه » .

— « ما هو الطلسم ؟ »

— « ابحثى عن معناها فى القاموس . أتعرفين كيف تتهجينها ؟ »

— « ط ـ ل ـ س ا ـ م » .

— « كلا ، ط ـ ل ـ س ـ م » .

— « لماذا لا تخبرنى أنت بمعناها ؟ »

— « ستعرفينه بصورة أفضل لو بحثت عنه فى القاموس » .

فعقدت ذراعيها حولى واعتصرتنى ، ثم تركتنى بنفس السرعة التى عوتنى بها .

أطبق الليل حوالى كثيفاً رطباً ، وكانت درجة الرطوبة الهواء فى مثل كثافة مرق الدجاج . أما أضواء الشارع المختفية بين أوراق الشجر السمينة فى شارع إلم ، فقد نثرت حواليها هالات رطبة مشمة من البخار .

إن رجلا يشغل وظيفة ، يرى القليل جداً من الحياة العادية التى تجرى فى أثناء النهار . فلا عجب إذا تحتم عليه أن يستقى أخباره ووجهة نظره من زوجته . فهى تعلم ماذا حدث ، ومن الذى قال شيئاً عما حدث ، إلا أن هذا يروى مرشحاً خلال وجهة النظر الأنثوية ، وهكذا يرى غالبية العاملين من الرجال الحياة العادية التى تجرى فى أثناء النهار من خلال عيون النساء . ولكن عندما يحل الليل ويغلق محله أو تنتهى وظيفته ، يستيقظ عالم الرجل ـ لوقت محدود .

كان ملمس العصا اللولبية المصنوعة من عاج ناب الحوت مريحاً فى يدى ، فقد صقلت ملامستها لراحة القبطان العجوز مقبضها الفضى الثقيل .

منذ عهد بعيد ، حين كنت أحيا فى دنيا النهار ، وحين كانت الدنيا مقبلة على إقبالاً كبيراً ، كنت أذهب إلى بقعة تغطيها الأعشاب ـ ثم أستلقى هناك ووجهى إلى الأرض ملاصقاً للجذور الخضراء ، وأصير واحداً من النمل والبق البنات ، فلم أعد بعد تمثالاً ضخماً بالنسبة إليها . وفى غابة العشب الوحشية تلك ، وجدت السلوك التى كانت بالنسبة لى تعنى السلام .

أما الآن و بعد أن حل الليل ، فقد أردت الذهاب الى الميناء القديم والمكان، حيث يوجد عالم محتوم من دورات الحياة والزمان والمد ، يستطيع أن يهدىء من تمزق نفسى .

سرت مسرعاً إلى شارع هاى ، وعند ما مررت بالفورماستر لم ألق سوى نظرة واحدة عبرالشارع إلى محلى ذى الستائر الخضراء . وأمام محطة إطفاء الحريق جلس ويلى السمين فى سيارة البوليس ، وقد احمر وجهه وسال عرقه كالخنزير .

— « أعدت إلى تجوالك الليلى يا ايثان » ؟ .

— « أجل » .

— « انه لأمر محزن جداً ما حدث لدانى تيلور . كان فتى لطيفاً » .

— « جداً » . قلتها وأسرعت فى طريقى .

مرت بى بضع سيارات فأثارت نسمة هواء ، ولكن لم يكن هناك أى مشاة . فلم يخاطر أحد بالتعرض للعرق الناجم عن السير .

وعند النصب التذكارى استدرت فى طريقى وسرت متجها الى الميناء القديم فرأيت الأضواء المنبعثة من مراسى بضعة يخوت ، وقوارب صيد بعيدة عن الشاطىء .

وعندئذ رأيت صورة شخص يستدير خارجاً من شارع بورلوك ويأتى فى اتجاهى، وعرفت من مشيته ووقفته أنه مارجى يانج هنت .

وقفت فى مواجهتى ، ولم تدع لى فرصة للمرور . بوسع بعض النسوة أن يظهرن باردات فى ليلة حارة . وربما كان مبعث ذلك النسمات المنبعثة من حركة (جونلتها) القطنية .

قالت : « أظنك تبحث عنى » . وأصلحت وضع خصلة شعر لم تكن قد خرجت عن مكانها .

— « لم تقولين ذلك ؟ »

فاستدارت وأمسكت بذراعى، واستحثتنى على الاستمرار فى السير بضغط أصابعها ، وقالت : « ذلك هو النوع الذى أحصل عليه . كنت فى الفورماستر ، ورأيتك ماراً وظننت أنك ربما كنت تبحث عنى ، فدرت بسرعة حول البناية واعترضت طريقك » .

— « وكيف عرفت إلى أى الطرق سأستدير ؟ »

— « لا أدرى ، ولكنى عرفت . أصغ إلى طنين زيزان[1] الحصاد — إنه يعنى مزيداً من حرارة الطقس وعدم هبوب رياح . لا تقلق يا إيثان ، فسنخرج من نطاق الضوء خلال لحظة وتستطيع أن تأتى إلى بيتى لو أردت . سأقدم لك شراباً — كأسا طويلة باردة من الشراب .

وتركت أصابعها ترشدنى إلى الطريق خلال ظلال حديقة من أشجار التمرحنة الضخمة وقد أنار الظلام نوع من الأزهار الصفراء التى تنمو قريباً من الأرض .

(١) زيزان الحصاد : أحدى حشرات النباتات وتتميز باجنحة شفافة تحدث طنيناً مستمراً .

— « هذا هو بيتى ـ جاراج تعلوه قبة للمتعة » .

— « ما الذى يجعلك تظنين أننى كنت أبحث عنك ؟ »

— « لقد كنت تبحث عنى أو عن واحدة مثلى . إيثان ، هل رأيت قط مصارعة ثيران ؟ »

— « رأيتها مرة واحدة فى آرل بعد الحرب » .

— « لقد اعتاد زوجى الثانى أن يأخذنى إليها ، فقد كان يحبها . أعتقد أن مصارعة الثيران تستهوى رجالاً ليسوا غاية فى الشجاعة ويتمنون أن يصبحوا كذلك . وإذا كنت قد حضرت إحداها فستدرك ما أرى إليه . هل تتذكر الثور حين يحاول ـ بعد كل تلك المحاورات بالوشاح الأحمر ـ أن يقتل شيئاً ليس له وجود ؟ »

— « نعم » .

— « هل تتذكر كيف تأخذه الحيرة والقلق ، فلا يفعل سوى الوقوف والبحث عن جواب ؟ حسناً ، عليهم حينذاك أن يقدموا له حصاناً وإلا انفطر قلبه . إذ يتحتم عليه أن يغرس قرنيه فى شىء صلب وإلا ماتت روحه . حسناً ، إننى ذاك الحصان . وذلك هو النوع الذى أحصل عليه من الرجال : رجال مضطربون مرتبكون يبحثون ـ فى شخصى ـ عن نصر صغير لهم . وبعد ذلك يستطيعون العودة إلى وشاحهم الأحمر وسيوفهم » .

— « مارجى ! »

— « انتظر لحظة ، فإننى أحاول العثور على مفتاحى أتشم رائحة الياسمين البرى ! »

— « ولكنى قد أحرزت نصرى لتوى » .

— « صحيح ؟ وهل علقت وشاحك ـ ووطأته بقدميك ؟ »

— « كيف تعرفين ؟ »

— « أعرف ذلك عندما يوجد رجل يبحث عنى ، أو عن مارجى أخرى، راقب درجات السلم، فإنها ضيقة . لاتدع رأسك يصطدم بأعلى . والآن ، هاهو ذات مفتاح النور ـ أترى ؟ إنها قبة للمتعة، أضواؤها خافتة، وتفوح منها رائحة المسك ـ وتجذبك إلى أعماق بحر لا تشرق عليه شمس ! »

— « أعتقد أنك فعلا ساحرة » .

— « أنت تعلم جيداً أنى كذلك . ساحرة فقيرة جديرة بالرثاء فى بلدة صغيرة . اجلس هناك بالقرب من النافذة . سأدير المروحة ، وسأقوم بما يطلقون عليه « الدخول فى ملابس مريحة » وسأحضر لك بعد ذلك كأساً طويلة باردة من (مدمر الجماجم) » .

— « أين سمعت تلك الكلمة ؟ »

— « أنت تعرف أين سمعتها » .

— « هل عرفته جيداً ؟ »

— « عرفت جزءا منه . الجزء الذى تستطيع المرأة أن تعرفه عن رجل . وأحيانا يكون ذلك هو أفضل الأجزاء ، ولكن ليس دائماً . وقد كان الأمر كذلك مع دانى ، وقد وثق بى » .

كانت الغرفة أشبه بألبوم ذكريات غرف أخرى ، فيه نتف وقطع من حياة أناس الآخرين وكأنها تذييلات فى كتاب . وأحدثت المروحة القريبة من النافذة هدير أ خافتاً هامساً .

وسرعان ماعادت مارجى فى رداء طويل واسع فضفاض أزرق ، حاملة معها سحابة من عطر . وحين تنسمته قالت : « لاتنزعج . إنها (كولونيا) لم تشمها مارى علىّ أبداً . هاك شرابك ـ من الجن ومادة مقوية . لقد دهنت الكأس بمادة مقوية . إنه جن ، مجرد جن . وإذا ماخشخشت الثلج الذى فيه ، فستظن أنه شراب بارد » .

شربته دفعة واحدة وكأنه جعة ، وشعرت بحرارة الشراب القوية تمتد إلى كتفى ثم تنحدر إلى ذراعى لدرجة جعلت بشرتى تتألق .

قالت : « أظنك كنت تحتاج إلى ذلك الشراب » .

— « أظن ذلك » .

— « سأجعل منك ثوراً شجاعاً ـ سأقاومك مقاومة تكفى لجعلك تعتقد أنك أحرزت نصراً . فذلك ما يحتاج إليه الثور » .

حدقت فى يدى ، كانتا مليئتين بالخدوش المتقاطعة والجروح الصغيرة من جراء فتح الصناديق ، ولم تكن أظافرى نظيفة تماماً .

وتناولت العصا العاجية من على الأريكة حيث كنت قدأسقطتها ، وقالت : « آمل ألا تحتاج عاطفتك الواهنة إلى هذه العصا » .

— « هل أنت عدوتى ؟ »

— « أنا رفيقة اللعب فى نيو بايتون ، أأكون عدوتك ؟ »

وصمتت طويلاً حتى استطعت أن أشعر بقلقها المتزايد . وقالت : « أمامك متسع من الوقت. أمامك حياتك كلها لتجيب على سؤالى . سأحضر لك شراباً » .

تناولت منها الكأس الملآنة ، وكان جفاف شفتى وفمى بالغاً حتى اضطررت

لارتشاف بعض الشراب قبل أن أستطيع الـكلام ، وحين فعلت خرج صوتى محشرجاً » .

— « ماذا تريدين ؟ »

— « لعل رأيى قد استقر على الحب » .

— « حب رجل يحب زوجته ؟ »

— « تقصد مارى ؟ أنت حتى لا تعرفها » .

— « أعرف أنها رقيقة وحلوة وعاجزة نوعاً ما » .

— « عاجزة ؟ إنها فى قوة حذاء برقبة . وستحيا طويلاً بعد أن تـكون آلة جسمك قد تحطمت . إنها أشبه بطائر النورس الذى يستغل الريح لتبقيه عالياً ثم لا يحرك جناحاً على الإطلاق » .

— « ليس هذا صحيحاً » .

— « وإذا ماوقعت مشكلة كبرى فإنها تنسل منها بينما تحرق أنت فيها » .

— « ماذا تريدين ؟ »

— « ألا تنوى اجتياز الحدود ؟ ألا تريد تدمير كراهيتك بالحصول على جسد مارى العجوز الطيبة » ؟

وضعت كأسى نصف الممتلئة على منضدة جانبية ، فرفعتها بسرعة الحية ووضعت تحتها منفضة سجائر ، ثم جففت بيدها الدائرة الرطبة التى على المنضدة .

— « مارجى — أريد أن أعرف شيئاً عنك » .

— « كفى خداعاً . أنت تريد معرفة رأيى فى العرض الذى أديته » .

— « لا أستطيع تصور ماتريدين مالم أعرف من أنت » .

— « أعتقد أن الرجل يعنى مايقول — إليك الجولة السياحية التى تـكلف

دولاراً . جولة يجوس فيها خلال مارجي بانج هنت وأنت تحمل بندقية وآلة تصوير . كنت فتاة صغيرة طيبة ، فتاة صغيرة ذكية وراقصة لعينة متوسطة وقابلت مايدعونه رجلاً أكبر مني سناً وتزوجته . لم يكن يحبني — بل كان مدلهاً بحبي . وهكذا جاء ذلك الرجل على طبق فضي إلى الفتاة الذكية الصغيرة . ولم أكن أحب الرقص كثيراً ، بل من المؤكد أنني كنت أكره العمل كراهيتي للجحيم . وعندما تخلصت منه بلغ به الارتباك مداه حتى إنه لم يضع في قرار النفقة شرطاً يلغيها إذا تزوجت ثانية . فتزوجت رجلاً آخر وعشنا حياة دنيوية صاخبة قضت عليه . وطيلة عشرين عاماً لا زال هذا الإذن المصرفي يصلني مع بداية كل شهر . وطيلة عشرين عاما لم أقم بأي عمل ولو طفيف ، فيما عدا التقاط بضعة هدايا من المعجبين . لا تبدو تلك المدة وكأنها عشرون عاماً ، ولكنها كذلك فعلاً . وها أنا ذي لم أعد بعد فتاة طيبة صغيرة »

ذهبت إلى مطبخها الصغير وأتت بثلاثة مكعبات ثلج في يدها ، ألقتها في كأسها ثم صبت الجن فوقها . واجتذبت المروحة المدمدمة رائحة نباتات البحر الطافية التي كشفها انحسار المد عنها . وقالت بصوت ناعم : « إيثان ، ستربح الكثير من المال » .

— « هل عرفت نبأ الصفقة » ؟

— « إن بعضاً من أنبل نبلاء الرومان ليسوا إلا زواحف » .

— « استمري » .

فأشارت بيدها إشارة كاسحة طار معها كأسها ، وقفزت مكعبات الثلج مرتدة عن الحائط وكأنها زهر نرد .

قالت : « لقد أصيب فتاي العاشق بنوبة في الأسبوع الماضي . وحينه

ينتهى أجله سيتوقف إرسال الأذون المصرفية . إننى عجوز كسولة وخائفة ، وقد اتخذتك سنداً إلى ولكنى لا أثق بك . فقد يخرج على القاعدة ، وتستحيل أميناً . إنى أقولها لك ، أنا خائفة » .

قمت واقفاً فوجدت ساقى ثقيلتين ، لم تكونا مترنحتين — بل ثقيلتين ونائيتين فحسب .

— « ماذا لديك لتستغليه » ؟

— « كان ماروللو صديقى أيضا » .

— « أفهم » .

— « الا تريد نى ..... »

- « أنا لا أكرهك » .

- « سنحاول وضع ترتيب ما . إنى أكره المستر بيكر ، وقد تستطيعين نتف ريشه » .

— « يالها من لهجة . أنت لا تفكر بعقلية الشراب » .

— « إن الشراب بالنسبة لى يعنى فترات سعيدة » .

— « هل يعلم بيكر بما فعلت لدانى » ؟

- « أجل» .

— « وكيف تقبل الأمر » ؟

— « تقبلاً حسناً . ولكنى لا أميل إلى الوثوق به » .

— « كان ينبغى على ألفيو أن يثق بك » .

— « ماذا تعنين بذلك »

— « أعنى ما أخمنه فقط . ولكنى مستعدة للرهان على تخمينى . لا تنزعج فلن أخبره ، فارولو صديقى »

— « أعتقد أنى أفهمك ، أنت تثيرين الحقد لكى تستطيعى استعمال سيفك . ولكن سيفك من مطاط يامارجى » .

— « أتحسبنى لاأعرف ذلك ياإيثان ؟ ولكنى أحصل على مالى بمعجزة » .

— « هل تريدين الإفضاء لى » ؟

— « ربما لا يكون هناك بأس من ذلك . إننى أراهن على أنك حين تستدير حول البناية ستركلك عشرة أجيال من آل هولى ، وحين ينصرفون سيكون لديك حبلك الرطب والملح لتدهن جروحك » .

— « إذا كان الأمر كذلك — فإلى أين يفضى بك هذا » ؟

— « ستحتاج إلى صديق تتحدث إليه ، وأنا الشخص الوحيد فى العالم الذى يسد هذا الفراغ . فالسر شىء مرعب موحش يا إيثان . ولن يكلفك هذا كثيراً ، ربما نسبة مئوية صغيرة فحسب » .

— « أعتقد أنى سأنصرف الآن »

— « أشرب كأسك » .

— « لا أريدها » .

— « لا تدع رأسك تصطدم بأعلى فى أثناء نزولك الدرج يا إيثان » .

كنت فى منتصف السلم حين تبعتنى وقالت : « هل قصدت أن تترك عصاك ؟ » .

— « إلهى . كلا » .

— « ها هى . ظننت أنها قد تكون نوعاً من ـ التضحية » .

كانت الدنيا تمطر ، وهـذا يجعل رائحة الياسمين البرى حلوة فى الليل

وكانت ساقاى تترنحان لدرجة أننى احتجت فعلاً للعصا المصنوعة من ناب الحوت .

كانت مع ويلى السمين لفة من المناديل الورق موضوعة على المقعد بجواره ح بها العرق عن رأسه .

— « سأثير دهشتك لأنى أعرف من هى » .

— « ستكسب » .

— « قل لى يا إيثان ، هنا لك شخص كان يبحث عنك ـ شخص فى سيارة كريزلر ضخمة يقودها سائق » .

— « ما ذا يريد ؟ » .

— « لا أدرى . أراد أن يعرف ما إذا كنت قد رأيتك ، ولكنى لم أبح ببنت شفة » .

— « سأقدم لك هدية فى عيد الميلاد ، يا ويلى » .

— « قل لى يا إيثان ، ما ذا جرى لقدميك ؟ » .

— « كنت ألعب البوكر ، فدب الخدر إليهما » .

— « أجل . ذلك يحدث . هل أقول للفتى إذا رأيته إنك ذهبت للبيت ؟ » .

— « قل له أن يأتى إلى المحل غداً »

— « يركب سيارة كريزلر إمبريال ، يركب سيارة فى طول عربة قطار » .

كان الفتى جوى يقف على الرصيف أمام الفورماستر ، ويبدو متراخياً مبللاً

— « ظننت أنك ذهبت إلى نيويورك لتشرب زجاجة باردة » .

— « الطقس شديد الحرارة ، ولم أستطع التحمس للرحلة ، ادخل وتناول شراباً يا إيثان . إننى أشعر بانقباض » .

— « الحرارة شديدة لا يناسبها الشراب يا مورفى » .

— « حتى ولا زجاجة جعة ؟ » .

— « الجعة تزيد من حرارتى » .

— « تلك قصة حياتى ، حين أكتئب — لا أجد مكاناً أذهب إليه أو أحداً أتحدث معه » .

— « يجب أن تتزوج » .

— « لن تكون الزوجة هى الشخص الذى تتكلم معه بما تشاء » .

— « لعلك على صواب » .

— « إننى مصيب تماماً ، فما من أحد يكون وحيداً مثل رجل متزوج » .

— « وكيف تعرف ذلك ؟ » .

— « إننى أراهم . بل إنى أتطلع إلى واحد منهم الآن . أعتقد أننى أشترى صندوقاً من الجعة الباردة وأرى إذا ما كانت مارجى يانج هنت ستستقبلنى . انها لا تحدد أوقات العمل » .

— « لا أظنها فى البلدة يا مورفى ، فقد أخبرت زوجتى — أو على الأقل هذا ما أعتقده — أنها ستذهب الى « مين » حتى تنقضى موجة الحر » .

— « عليها اللعنة ، حسناً — إن فقدانها ربح لصاحب الشرب ، فسوف أقص عليه الأحداث المحزنة التى وقعت فى حياة أنفقت هباء ، ولن يصغى إلى بالتالى ، الى اللقاء يا إيثان ، سر فى رعاية الله . هذا ما يقولونه فى المكسيك » .

دقت العصا المصنوعة من ناب الحوت الرصيف واضحة علامات ترقيم لتساؤلى عما حدا بى الى قول ذلك لجوى . فهى لن تتكلم ، لأن ذلك سيفسد لعبتها ، ويجب أن تبقى مسمار الأمان فى قنبلتها اليدوية ، لا أدرى ما الذى حدا بى الى قول ذلك .

حين استدرت من شارع هاى إلى شارع إلم ، استطعت رؤية السيارة السكريزلر واقفه عند الحجر المجاور لبيت آل هولى العتيق ، ولكنها كانت أقرب إلى عربة نقل الموتى منها إلى عربة قطار . كانت سوداء دون تألق بسبب نقط المطر ورذاذ الوحل السميك الذى تناثر عليها فى الطرق الرئيسية ، وكانت مصابيح إشارة التوقف التى فيها من زجاج أغبش .

ولا بد أن الوقت كان متأخراً جداً . فلم تنبعث أى أضواء متألقة من المنازل النائمة فى شارع إلم . كنت مبللاً ولا بد أننى خطوت داخل بركة من ماء المطر ، فقد كان حذائى يحدث صوتاً من اعتصاره الماء فى أثناء سيرى .

ورأيت خلال الزجاج الأمامى الغائم رجلا يرتدى قبعة سائق . فوقفت إلى جوار السيارة المهولة ودققت على الزجاج بقبضتى ، فانزلق الزجاج إلى أسفل محدثاً أزيزاً كهربياً . وأحسست بالطقس الغير عادى الناتج عن التكييف يهب على وجهى .

— « أنا إيثان هولى . هل تبحث عنى ؟ » ورأيت أسناناً خلال الجو المعتم — أسنانا تتألق وقد انعكس عليها نور شارعنا .

ـ ندفع الباب مفتوحا من تلقاء نفسه ، وخطا إلى الخارج رجل نحيل أنيق الملبس ، وقال : « أنا دنسكومب من نوع التليفزيون بشركة بروك وشو بن .

يجب أن أتحدث معك » . وتطلع ناحية السائق وقال : « ولـكن ليس هنا هل نستطيع الدخول؟ » .

— « أعتقد ذلك ، وأظن أن الجميع نيام . فإذا تـكلمت تـكلم بصوت خافت » .

وتبعنى سائراً فوق الممشى المبلط المقام فوق المرجة المشبعة بالماء ، كان نور الساهرة مضاء فى القاعة ، فى أثناء دخولنا وضعت العصا المصنوعة من ناب الحوت فى قدم الفيل .

وأضأت مصباح القراءة الذى يعلو مقعدى الضخم ذا القاعدة المحشوة بالزمبركات .

كان البيت ساكناً ، ولـكنه بدا لى نوعاً غير عادى من السكون ـ سكون يثير الأعصاب ، فألقيت نظرة سريعة من بئر السلم على أبواب غرف النوم بالطابق العلوى .

ـ «لابد أن الأمرهام بحيث جعلك تأتى فى مثل هذه الساعة المتأخرة »

ـ « إنه كذلك » .

استطعت رؤيته الآن . كانت أسنانه هى سفراؤه فى الحديث ، ولم تعاونها فى ذلك عيناه المتعبتان الحذرتان . قال : « نريد أن نبقى هذا الأمر سراً . فقد كانت هذه سنة سيئة كما لابد أنك تعلم . فقد انهار الأساس بفضائح برامج الألغاز و بعدئذ سرت الإشاعات حول برامج المسابقات ووصل الأمر إلى لجان الـكونجرس . وعلينا أن نراقب كل شىء ، فالفترة خطيرة » .

— « أود لو تحدثنى عما تريد » .

— « هل قرأت مقال ابنك الذى بعنوان (أحب أمريكا) ؟ »

— « كلا ، لم أقرأه . فقد أراد مفاجأتى به » .

— « وقد فاجأك فعلاً . لاأدرى لم لم نكتشف الأمر ، ولكن هذا ماحدث » . ومدلى يده بملف أزرق مقفول . « اقرأ ماتحته خط فيه » غطست فى مقعدى وفتحت الملف . كانت الكتابة إما مطبوعة أومكتوبة بإحدى تلك الآلات الكاتبة الحديثة التى تشبه حروفها حروف المطابع ، ولكن شوهتها خطوط بقلم أسود خشن على كلا الهامشين .

« أحب أمريكا »

بقلم

إيثان آلان هولى الثانى

« ماهو الإنسان الفرد ؟ إنه ذرة تكاد لاتبين دون استعمال منظار مكبر إنه مجرد بقعة موجودة على سطح الكون . إنه لايبلغ ثانية زمن إذا قورن بالأبدية التى لاحصر لها ولابداية ولانهاية . إنه نقطة فى الخضم الهائل الذى يتبخر ثم تذروه الرياح . إنه ذرة رمل سرعان ماتتحد بالغبار الذى خرجت منه . فهل يعترض مخلوق بهذه الضآلة والحقارة والزوال والفناء طريق الزحف السائر لأمة عظيمة يتحتم عليها أن تواصل الحياة دهوراً ودهوراً مقبلة ، وهل يعترض ذلك المخلوق طريق السلسلة الطويلة من الذرية المتدفقةمن أصلابنالتحتمل البقاء طالما بقى العالم موجوداً ؟ فلنتطلع إلى بلادنا ونسمو بأنفسنا إلى مصاف للمواطنين المخلص النزهاء ، ثم ننقذ بلادنا من كل خطر محيق . فما قيمتنا — بل ماقيمة أى انسان — إذا لم يكن مستعداً وراغباً فى التضحية بنفسه من أجل بلاده » ؟

وقلبت الصفحات فرأيت العلامات السوداء فى كل مكان .

— « هل تعرف هذا الكلام » .

— « كلا ، ولكنه يبدو مألوفاً — ولعله يبدو مأخوذاً من شىء ماقيل فى

القرن الماضى » .

— « إنه كذلك : نص من خطاب هنرى كلاى الذى ألقاه عام ١٨٥ .

— « والباقى ؟ هل كله من خطب كلاى » .

— « كلا — بل شذرات وفقرات ، بعضها لدانيال ويبستر ، وبعض لجيفرسون ، والبعض منها — وليعنى الله — فقرة من خطاب لينكولن رئيساً للمرة الثانية . ولاأدرى كيف فاتتنى تلك بالذات . أعتقد لأنه كان أمامى ألوف من المقالات . شكراً للمسيح لأننا ضبطناها فى الوقت المناسب — بعد كل المشاكل الناجمة عن برامج الألغاز وفان دورين وما إلى ذلك » .

— « ولكنه لايبدو شبيهاً بأسلوب صبى فى الكتابة » .

— « لاأعلم كيف حدث ذلك . وقد كان من المحتمل أن تخدعنا المقالة لو لم نتلق بطاقة البريد » .

— « بطاقة البريد » ؟

— « بطاقة بريد مصورة ، عليها بناية الأمبايرستيت » .

— « ومن الذى أرسلها » ؟

— « مجهول » .

— « ومن أين أرسلت » ؟

— « من نيويورك » .

— دعنى أراها » .

— « لقد تحفظنا عليها لإبرازها فى حالة قيام أى مشكل إنك لاترغب فى إثارة مشاكل ، أليس كذلك » ؟

— « وما الذى تريده » ؟

— « أريد منك أن تنسى الموضوع كله . وسنقسط الأمر كله من حسابنا ونساه ـ هذا إذا نسيته أنت » .

— « إنه أمر ليس نسيانه سهلاً » .

— « ياللجحيم ، إنى أقصد أن تبقى فمك مطبقاً ـ ولا تسبب لنا أى مشاكل. لقد كانت سنة سيئة . وفى انتخابات كهذه قد يكشف أى إنسان النقاب عن أى شيء » .

أقفل الملف الأزرق الثمين وناولته اياه قائلاً : « لن أسبب لك أى مشاكل » . و بدت أسنانه وكأنها لآلىء منتقاه ، وقال : « كنت أعرف ذلك . وقد قلته لهم . فقـــد استعلمت عنك . إن سجلك ناصع — وتنحدر من عائلة طيبة »

— « هل لك أن تنصرف الآن » ؟

— « لابد أن تعلم أننى أفهم شعورك » .

— « شكراً . وأنا أيضاً أفهم شعورك . إن ماتريد اسدال الغطاء عليه شيء غير موجود » .

— « لاأريد أن أنصرف وأتركك غاضباً إن اختصاصى هو قسم العلاقات العامة . ونستطيع أن ندبر لابنك شيئاً ، مثل منحة دراسية أو ماشابه — شيئاً محترماً » .

— « هل أضربت الخطيئة طلباً لرفع الأجور ؟ كلا ، عليك فقط أن تنصرف الآن — أرجوك » .

— « سندبر شيئاً ما » .

— « إنى متأكد إنكم ستفعلون » .

وتركته يخرج ثم جلست ثانية وأطفأت النور وأخذت أصغى إلى جو بيتى كان يدق وكأنه قلب ، ولعل هذا كان وجيب قلبى فى بيت قديم ينبعث فيه حفيف . وفكرت فى الذهاب إلى الدولاب وتناول الطلسم بيدى — وقد وقفت للإتيان به .

سمعت صوت مضغ وصهيل كالذى ينبعث من مهر خائف ، ثم وقع خطوات سريعة فى القاعة أعقبها سكون . أحدث حذائى صوتاً وأنا أصعد الدرج ، ودخلت غرفة إيلين ثم أضأت النور . كانت مكومة تحت ملاءة ، وقد وضعت رأسها تحت وسادتها . وعندما حاولت رفع الوسادة تعلقت بها وكان على أن أجذبها بعنف . كانت خط من الدم يسيل من ركن فمها .

— « لقد انزلقت فى الحمام » .

— « فاهم . وهل إصابتك خطيرة ؟ »

— « لا أظن ذلك » .

— « أى بكلمات أخرى ، ليس هذا من شأنك » .

— « لا أريد أن يأخذوه إلى السجن » .

كان آلان جالساً على حافة سريره ، عارياً إلا من سروال مما يلبس لركوب الخيل . وقد جمدتنى عيناه — أفكر فى فأر محصور فى زاوية ، وقد استعد أخيراً لمقاومة يد المكنسة .

— « المتسللة النتنة ! »

— « هل سمعت كل شىء ؟ »

— « سمعت ما فعلته تلك المتسللة النتنة » .

— « وهل سمعت ما فعلته أنت ؟ »

وهنا هاجم الفأر المحصور . فقال : « وما أهمية ذلك ؟ الـكل يفعلونها . إنهم يفعلونها بنفس البساطة التى يلفون بها فطيرة » .

— « هل تؤمن بذلك ؟ »

— « ألا تقرأ الصحف ؟ الـكل يفعلونها من أصغر واحد إلى أكبر واحد — عليك فحسب أن تقرأ الصحف . أقرأ الصحف فحسب ، لتشعر بأنك قديس . وأراهن أنك اختلست شيئاً فى زمانك ، لأن الجميع يفعلون ذلك . ولن أتلقى الخبطات نيابة عن الجميع . أنا لا أهتم بشىء سوى تلك المتسللة النتنة » .

ماري تستيقظ عادة ببطء ، الا أنها كانت مستيقظة . ولعلها لم تـكن قد نامت . كانت تجلس على حافة السرير فى غرفة إيلين . كان ضوء الشارع يجعل صورتها واضحة بدرجة كافية ، وظلال أوراق الشجر تتحرك على وجهها . كانت صخرة ، صخرة جرانيت ضخمة راسخة وسط تلاطم أمواج المد . كان صحيحاً أنها فى قوة حذاء برقبة ، لاتهتز ولا تستسلم ومطمئنة . .

— « هل ستذهب الى فراشك يا إيثان ؟ »

اذن فقد كانت تتسمع هى أيضاً .

— « ليس الآن ياعزيزتى الغالية » .

— « هل ستخرج ثانية ؟ »

— « أجل — لأتمشى » .

— « إنك فى حاجة إلى النوم ، ولازالت الدنيا تمطر . هل أنت مضطر للخروج ؟ »

— « نعم . هناك مكان ينبغى أن أذهب اليه » .

— « خذ معطفك الواقى من المطر ، فقد نسيته فى المرة السابقة » .

— « حاضر ياعزيزتى » .

لم أقبلها عندئذ . فلم أتمكن من ذلك مع وجود الجسم المكور المغطى الى جوارها . ولكنى لمست كتفها ثم لمست وجهها وكانت قوية كحذاء برقبة .

ذهبت إلى الحمام لحظة لآتى بعلبة من شفرات الحلاقة .

كنت فى القاعة أمد يدى داخل الدولاب بحثاً عن معطف واق من المطر كما أرادت مارى ، حين سمعت هرجاً وتعثراً واندفاعاً ثم ألقت إيلين بنفسها على وهى تزوم وتخن . ودفنت أنفها الدامى فى صدرى ، ثم أحاطتنى بذراعيها فثبتت مرفقى إلى أسفل ؛ كان جسدها الصغير كله ينتفض .

وأمسكت بناصيتها وجذبت رأسها إلى أعلى تحت ضــوء الساهرة التى فى القاعة .

— « خذنى معك » .

— « لا يمكننى ذلك أيتها الحمقاء . ولكنك لوجئت معى إلى المطبخ ، فسأغسل لك وجهك » .

— « خذنى معك . إنك لاتنوى العودة » .

— « ماذا تقصدين ؟ انى عائد طبعاً . وأنا أعود دائماً . أذهبى الى فراشك واستريحى . وعندئذ ستشعرين بتحسن » .

— « ألن تأخذنى معك » ؟

— « لن يسمحوا لك بالدخول الى المكان الذى سأذهب إليه . فهل تريدين الوقوف بالخارج فى منامتك » ؟

— « لايمكنك الذهاب » .

وتشبثت بى مرة أخرى ، وأخذت يداها تتحسسان وتربتان على ذراعى وجنبى ، ثم دفعت قبضتيها المضمومتين فى جيبى الجانبين لدرجة أنى خفت أن تعثر على شفرات الحلاقة . لقد كانت دوماً فتاة تحب الملامسة ، وتحب التربيت . كانت فتاة مدهشة . وفجأة تركتنى ، ووقفت الى الخلف رافعة الرأس ثابتة العينين بلادموع . فقبلت خدها الصغير القذر وشعرت بالدم المتجمد على فمى . وعندئذ استدرت فى اتجاه الباب .

— « ألا تريد عصاك » ؟

— « كلا ياايلين . ليس الليلة . إذهبى إلى فراشك ياعزيزتى . أذهبى الى فراشك » . وجريت مسرعاً . وأعتقد أننى جريت لأهرب منها ومن مارى . فقد استطعت أن أسمع وقع خطوات مارى المرضوضة وهى تنزل الدرج .

الفصل الثاني والعشرون

كان المد فى ارتفاع ، تحت مياه الخليج الدافئة وسلقت داخل المركب وتحركت موجة أرضية بطيئة داخلة وخارجة من المدخل ، فتسربت خلال سروالى ، وانتفخت على عجزى طية الأوراق المالية السمينة فى جيبى الخلفى ثم مالبثت أن رقدت تحت ثقلى الذى أخذ يتشبع بالماء . كان البحر فى الصيف مزدحماً بسمك قنديل البحر الصغير الذى بحجم حبة التوت ، وقد تدلت أطرافه الجلاقية وخلاياه اللاسعة . وعندما دفعه الموج فارتطم بساقى و بطنى شعرت بتلك الأطراف تلسعنى وكأنها نيران صغيرة حارقة وظلت الموجة البطيئة تسرى داخلة الى المكان وخارجة منه ، وصار المطر الآن مجرد ضبابة رقيقة جمعت كل النجوم ومصابيح البلدة ثم نثرتها بالتساوى - فأعطت لمعاناً داكناً بلون الزنك واستطعت رؤية الصخرة الناتئة ، ولكنها عند النظر إليها من المكان ، لم تكن على خط مستقيم مع النقطة التى تستقر تحتها قاعدة البيل آدير القارنة ، وتحركت موجة أخرى فرفعت ساقى وجعلتنى أحس أنهما طليقتان ومنفصلتان عنى ، ومن مكان غير محدد اندفعت ريح قوية قادت أمامها الضبابة وكأنها قطيع أغنام وحينئذ تمكنت من رؤية نجم - تأخر إشراقه ، بل تأخر جداً على حافة الأفق ، وتناهى إلى سمعى صوت هدير مركب ذى شراع ، وهذا مابينه لى صوت آلته البطىء الخافت ، ورأيت ضوء صارية يرتفع فوق حاجز الأمواج المهتز المنهار ، إلا أن ضوءيه الأحمر والأخضر كانا منخفضين عن مستوى نظرى

والتهبت بشرتى من طعنات قنديل البحر، وسمعت صوت إلقاء مرسى مركب ، ثم انطفأ ضوء الصارى .

لازال نور ماروللو يضيء ، وكذلك نور القبطان العجوز ونور العمة ديبورا . ليس صحيحا مايقال من أن هناك مجموعة من الأنوار ، تمثل شعلة كبيرة للعالم كله ، بل إن كل إنسان يحمل نوره الخاص ، نوره المتوحد .

وانبعث صليل حين اصطدم سرب من السمك المفترس الصغير بالشاطىء ، نورى ينطفىء ، وليس هناك ماهو أكثر سواداً من ذبالة .

وقلت فى دخيلتى : « أريد الذهاب إلى البيت — لا . ليس إلى البيت ، بل إلى الجانب الآخر من البيت حيث تمنع الأنوار .

إن الظلام يبدو أكثر سواداً عندما ينطفىء نوره منه عما لو لم يسطع فيه نور على الإطلاق ، والعالم ملىء بالخرائب المظلمة ، والطريق الأفضل — الذى لابد أن يكون آل ماروللو قد عرفوه أيام روما القديمة — هو أنه يحل وقت لانسحاب لائق ومشرف ، انسحاب لا مأسوى ولا يوقع عقاباً بالنفس ولا بالأسرة — مجرد وداع فى حمام دافىء وشريان مفتوح ، وبديله بحر دافىء وشفرة حلاقة .

أحدثت الموجة الأرضية التى يدفعها المد المتزايد حفيفاً وهى تدخل المكان ورفعت ساق ورد فى وأطاحتهما جانباً ، ثم حملت معها فى خروجها معطفى المبتل المطوى .

تدحرجت على أحد ردفى ومددت يدى فى جيبى الجانبى بحثا عن شفرات الحلاقة ، ولمست العلبة . وحينئذ ، ولدهشتى تذكرت اليدين اللاطفتين المرتجفتين ليدى حاملة النور . وقاومت العلبة الخروج من جيبى المبتل لحظة . وحين

صارت فى يدى ، جمعت كل نتفة من نور كانت هناك ، ثم بدت حمراء — حمراء داكنة .

ودفعتنى موجة متلاطمة إلى آخر المكان . وتزايدت سرعة أمواج البحر وكان على أن أصارع الماء كى أنفذ إلى الخارج ، فقد كان لابد من الخروج .

تدحرجت وزحفت ونثرت الرذاذ حولى وأنا غاطس فى الموج إلى صدرى ودفعتنى الأمواج المتسارعة إلى سور البحر القديم .

حتم على أن أخرج — حتم على أن أعيد الطلسم إلى مالكه الجديد . وإلا فربما انطفأ نور آخر .

مطبعة المعرفة

عمارة التأمين [illegible]

ت ٣٣٩٩٠

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٥٩
١٩٦٣

طبع الغلاف بمطابع البلاغ